رواية

برنار فيربير

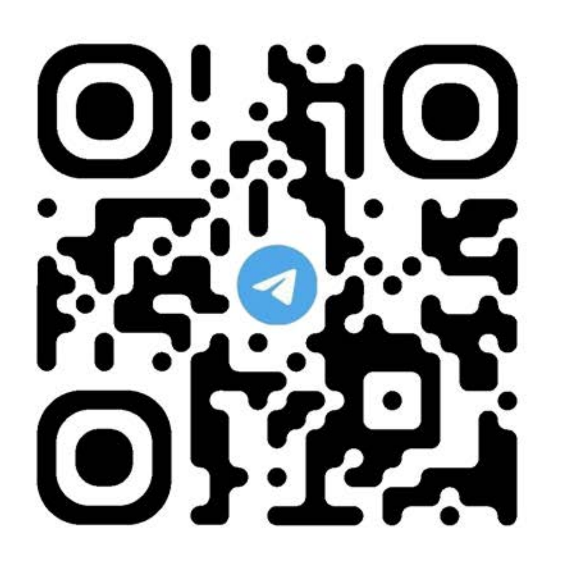
ثلاثية القطط ٣

كوكب القطط



ترجمة: حسين عمر

مكتبة



كَوْكَبُ القِطَطِ



اسم المؤلف: برنار فيربير

عنوان الكتاب: كَوْكَبُ القِطَطِ

ترجمة: حسين عمر

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2023

Author: **Bernard Werber**

Title: **LA PLANÈTE DES CHATS**

Translated by: **Hussein Omar**

P.C.: **Al–Mada**

First Edition: **2023**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

☎ + 964 (0) 770 2799 999 ☎ + 964 (0) 780 808 0800

☎ + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

☎ + 961 175 2617 ☎ + 961 706 15017

☎ + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

☎ + 963 11 232 2276 ☎ + 963 11 232 2275

☎ + 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

برنار فيربير

كَوْكَبُ القِطَطِ

ترجمة : حسين عمر



إلى أمّي، سيلين.

إلى كلّ الذين يعيشون قصّة حبّ كبيرة

مع قططهم، التي ليس بوسع أيّ شخصٍ آخر أن يفهمها.

«تصبحون سعداء حالما تُدركون هذه الحقيقة البسيطة:
كلّ ما في الكون ليس له سِوى مشروع وحيد: إرضاؤكم».

القطّة باستيت

«طالما ليس لدى القطط مؤرّخون، لن تكون السرديات
التي تتناول السنّوريات إلا لتمجيد البشر الذين
يزعمون أنّهم أسيادها».

القطّ فيثاغورس

«البشر الذين يعيشون مع قططٍ يرون أنّ متوسّط أعمارهم
يزيد بنسبة 10%.
القطط التي تعيش مع البشر ترى أنّ متوسّط حفاظها على
سلامة حياتها الجنسية ينخفض بنسبة 90%».

القطّة أسميرالدا

الفصل الأوّل

العالم الجديد



1. الوجهة النهائية

تبًّا، هذا مستحيل، لم ننجز كلّ هذا العمل لنحصل على هذه النتيجة!

صعقني ما رأيتُ.

سرت رعشة امتدّت من طرف ذيلي حتى قمّة رأسي.

توسّعت حدقتا عينيّ.

انتصبت أذناي.

وقف وبر جسمي.

انضغط فكّاي بعضهما على بعض بشدّة إلى درجة أن ضروسي صرّت صريرًا.

أنتم تعرفونني: أنا لستُ من النوع الذي يستسلم للتأثّر بشيءٍ أيًّا كان أو بشخصٍ أيًّا كان، ولكن عليّ أن أقرّ هنا بأنّ ما رأيتُ هالني بشدّة.

ارتعدت أطراف شعيرات شواربي.

لم أستطع الامتناع عن مدّ وسحب مخالبي بتوتّرٍ وعصبية.

ركبنا السفينة الشراعية الكبيرة *الأمل الأخير*، وعبرنا المحيط الأطلسي في خمسة وثلاثين يومًا عصيبًا، وظهرت أمامنا المدينة البشرية الكبيرة التي تُسمى «نيويورك».

بيد أنّ الحُلم الأمريكي انهار مثل جبلٍ عالٍ جدًّا من أطعمة القطط في طبقٍ ضيّقٍ جدًّا.

كنّا نعتقد أننا سنجد ملاذًا خاليًا من الجرذان، وفي النهاية وجدنا أنّ هذه القوارض اللعينة تغزو المكان بعددٍ أكبر مما كانت عليه في باريس. على مدّ البصر، رأينا أنّ عدد الجرذان هنا أكثر بمئة ضعف من عدد الجرذان في المكان الذي غادرناه.

يا له من منظر رهيبٍ!

جرذانٌ تنتشر في كلّ مكان، جرذانٌ بشعة ومقرفة بوبرٍ بنّي.

حتى من هذه المسافة البعيدة، سمعنا أصوات صفيرها.

ثمّ، شممنا روائحها.

كانت روائح بول هذه القوارض تنبعثُ من مانهاتن كلّها.

صُدمنا جميعًا وذُهلنا.

وكلمة «نحن» تعني هنا أنا، باستيت، ومن ثمّ «رفاقي»، أي الذين رافقوني خلال رحلة عبور الأطلسي، أي (وهنا أذكرهم بحسب ترتيب أهميتهم بالنسبة إليّ):

- شريكي في الحياة الجنسية، القطّ السيامي فيثاغورس. لقد علّمني المعرفة البشرية، ولكنّه جبانٌ للغاية ويُخفي جبنه هذا تحت ستار كلمة «مسالم»؛
- ابني أنجيلو، وهو صغيرٌ عصبيّ ومغرور وقاسٍ بذهنيةٍ اتّكالية؛
- أسميرالدا، القطّة السوداء ذات العينين الصفراوين، منافستي، التي أكرهها وأحقدُ عليها، وأنا متأكّدة من أنّها قد نامت مع فيثاغورس؛
- بالنسبة إلى البشر: ناتالي، خادمتي البشرية، وهي متفانية، ولكنّها استغرقت وقتًا طويلًا قبل أن تخضع لطاعتي، وذَكَرها البروفيسور رومان ويلز. هو من أجرى لي عملية تركيب العين الثالثة في جبيني وأتاح لي بذلك الوصول إلى موسوعته. أنا أحبّه كثيرًا. إنّه ذكيّ جدًّا، على الأقلّ بالنسبة إلى كائنٍ بشري.

يُضاف إلى هؤلاء ممثلو الشعوب الأدنى. الببغاء شامبليون، الطائر

المغرور والثرثار ولكن الذي يجيد التحدّث بلغات عديدة، ويفيدنا كمترجم عالمي. إنّه لعلى فائدة عظيمة: من خلاله أستطيع التحدّث مع الأنواع الأخرى. ثمّ يأتي بعده كلب البوردر كولي نابليون، الذي بحكم ماضيه ككلب راعٍ أصبح دليلًا بارعًا للقطيع – كلبٌ مهذّبٌ مثل قطٍّ ومطلق الولاء؛ والخِنْزير بادينتر، الذي كان محامي الدفاع عنّي، والذي تبيّن أنّه ربّما الأكثر حذقًا بيننا، ولكنّه لا يزال لا يعلم ذلك. ونويتُ أن أساعده على أن يكتشف ذلك بنفسه. كنتُ على قناعة بأنّ هذا الخِنْزير عبقري وبأنّه في المستقبل، وبفضلي أنا، سوف يتفوّق على نفسه.

ومن ثمّ يأتي المجهولون. منْ أُطلق عليهم لقب: «خدم خدمي».

إجمالًا، كنّا 274 مسافرًا على متن سفينة الأمل الأخير؛ 144 قطًّا وقطّة، و12 بشريًا، و65 خنزيرًا، و52 كلبًا، وببغاءً واحدًا.

نظر الجميع إليّ، وهم ينتظرون ردّ فعلي.

– دعونا نقترب أكثر لكي نرى على نحوٍ أفضل.

أعلنتُ عن مقترحي بنبرة حاسمة لأعطي الانطباع بأنّ هذه الجرذان الأمريكية لا تُخيفني أنا، وأنني أعددتُ مسبقًا خطّة في ذهني.

كانت أمّي تقول: «القادة ليسوا الأكثر قوّة بل الذين يعطون الانطباع بأنّهم أقلّ المتفاجئين بالأحداث الطارئة».

في الواقع، لاحظتُ أنّ ثقتي ورباطة جأشي الطبيعية قد أشاعتا الطمأنينة في قلوب الجميع.

فتقدّمنا، أنا وجماعتي، أكثر نحو الشاطئ الأمريكي.

عليّ أن أُشير هنا إلى أنّ سفينة *الأمل* الأخير كانت عبارة عن سفينة شراعية قديمة مصنوعة من الخشب.

توجّهتْ، بأشرعتها المرفوعة كاملةً، ومدفوعةً بالرياح، نحو الشاطئ، وشممتُ على نحوٍ أفضل الروائح المنبعثة من اليابسة.

تبيّن لي أنّ الوضع أسوأ بكثير ممّا قدّرته للوهلة الأولى. وجدتُ أنّ الجرذان تنتشر في كلّ مكان دون استثناء.

ولكسب الوقت، توجّهتُ ببضع كلماتٍ إلى المحيطين بي:

– من الطبيعي أن تكون موجودة هنا أيضًا، وكان علينا أن نتوقّع ذلك.

أضفتُ بأقصى ما يمكن من الاسترخاء والرقّة في الصوت:

– ولكن لا تقلقوا، لديّ خطّة.

فعلت هذه الجملة فعلها في تخفيف التوتّرات.

قالت أسميرالدا في الحال، بنبرة تهكّمية:

– كلّنا آذانٌ صاغية، أخبرينا بما لديكِ.

هذه القطّة السوداء، لم أعد أتحمّلها ويزداد ضيقي بها يومًا بعد آخر. كنتُ أشعرُ بأنّها متمرّدة. حينما أراها، لا أستطيع أن أُخرِجَ من ذهني فكرة أنّها قد أغرت، كأمٍّ بديلة، ابني أنجيلو، وكفاسقة حقيقية، رفيقي فيثاغورس. ولا بدّ أنّها تُريد الآن أن تسرق منّي الأضواء. بل لن أتفاجأ إذا ما ذهبت إلى حدّ الطعن في شرعية سلطتي.

– أوقفوا السفينة. أريد أن أرى على نحوٍ أفضل ما يجري هناك.

أنزِلَت الأشرعة، وأُلقيت المِرساة، وأصدرت بكرة اللفّ قعقعةً صاخبة وهي تفرد السلسلة المعدنية الطويلة الملفوفة عليها.

تجمّعنا في أقصى طرف مقدّمة *الأمل الأخير*.

ومن هذا المكان، رأينا بوضوحٍ أكبر الساحل.

قطعنا الشكّ باليقين، ورأينا أنّ الجرذان منتشرة بالفعل في كلّ مكان. المئات، الألوف، عشرات الآلاف من الجرذان التي تزحف وتشكّل سجّادة من الوبر البنّي الذي تعبره الأمواج كما لو أنّه فراءٌ حيّ. كانت صيحاتها الحادّة تشكّل ضجيجًا مزعجًا، مثل زعيق سربٍ من الزرازير.

قالت أسميرالدا، متنهدةً:

– نيويورك مُحتلّة.

مرّة أخرى، تفوّهت القطّة السوداء بجملة غير مفيدة: هذا بالضبط ما قلته وهو أيضًا ما يمكن لأيّ أحد أن يتحقّق منه بالنظر. استخدمنا المنظار المقرّب.

فكرتُ بأقصى سرعة.

ما العمل؟

أنهرب؟

أنقاتل؟

شعرتُ بأنّ رفاقي في الرحلة أكثر قلقًا منّي.

طرحتُ اقتراحي:

– أدعوكم إلى اجتماعٍ عامّ في قمرة القبطان.

كلّما زادت المشكلة صعوبةً، اعتمدتُ لهجةً أكثر حزمًا.

بعد مضي بضع دقائق، اجتمعت رعيّتي بالكامل في القاعة الفسيحة المبنية من الخشب المصقول.

ضمّ الاجتماع قططًا وبشرًا وخنازير وكلابًا وببغاء الكوكاتو.

انتظرتُ إلى أن ساد الصمت.

سألتني أسميرالدا بمسحةٍ من نفاد الصبر في صوتها:

– إذًا، ما هي خطّتكِ؟

أجبتُ:

– قبل كلّ شيء، أرغب في سماع اقتراحاتكم. لأنّكم أنتم أيضًا لديكم من كلّ بدٍّ أفكارٌ بنّاءة.

ولم أضف، في الحال، بأنني أُريد بذلك كسب بعض الوقت، لكوني لا أمتلك أيّ فكرة جاهزة.

قالت أسميرالدا:

– بالنسبة إليّ، أنا أقترحُ العودة إلى فرنسا. يؤسفني أن أُعلمكِ بذلك، بيد أنّه من الواضح أنّ عدد الجرذان في أمريكا أكبر بكثير من عددها في أوروبا. لقد اعتقدنا أننا سنكتشف مدينة وجدت مبيدًا فاعلًا للجرذان، ولكن، بكلّ وضوح، إمّا أنّ البشر الأمريكيين قد كذبوا علينا أو أنّ المبيد لم يعد فاعلًا. لم يبق لنا سِوى أن نعبر الأطلسي بالاتجاه المعاكس لنعود إلى ديارنا.

أنعشتُ ذاكرتها:

– في فرنسا، هناك حشد الجرذان الهائل بقيادة المَلِك تيمورلنك المرعب.

أصرّت على موقفها بوقاحة:

– لقد سبق أن انتصرنا عليه، وسوف نتمكّن من الانتصار عليه مرّة أخرى. إنّه عدوٌّ معروف. يبدو لي أنّ هذا الحلّ أكثر واقعيةً من مواجهة هذه الكتلة اللامتناهية من الجرذان الأمريكية التي لا نعرفها.

أتسخرُ منّي؟

مؤتُ:

– هل تريدين أن نتحدّى تيمورلنك مرّة أخرى؟

ردّت بنبرةٍ احتجاجية:

– هذا خيارٌ أقلّ سوءًا.

– تذكّري يا أسميرالدا أننا انتصرنا عليه بصعوبة بالغة، ولستُ متأكّدة من أننا سننجح هذه المرّة في قهره. ماذا لديكم من اقتراحات أخرى أكثر واقعيةً؟

رفع أنجيلو قائمته.

– فلنهاجمها. إنّها ليست «سِوى» جرذانٍ. دعونا ننقضّ عليها ونقتلها جميعًا. وبهذه الطريقة، ننهي الموضوع.

نظرتُ إلى ابني بأسفٍ ولم أكلّف نفسي حتى عناء الردّ عليه.

يا لها من نظرة ضيّقة وبدائية.

يعتقد أنّ السلطة تُكسَبُ بالعنف.

حسنًا، سيكون عليّ التفكير بتربيته. لم يفت الأوان بعد.

تنهّدتُ وسألتُ:

– هل من فكرةٍ أخرى؟

تقدّم فيثاغورس:

– أقترحُ أن نبقى في السفينة ونعدّها بمنزلة جزيرة نلوذ بها.

– وكيف سنتغذّى؟

– من الصيد. مثلما فعلنا خلال هذه الأيام الأخيرة.

قلت:

– لقد أكلتُ الكثير من السمك.

وافق آخرون.

ختمتُ بالقول:

– كما أنّه لا يمكننا البقاء إلى ما لا نهاية في هذه السفينة.

رفعت ناتالي يدها الجميلة جدًّا ذات الأصابع الخمس وبدأت بالحديث. حينما تحدّثت، استطعتُ فهمها بفضل وسيلة التواصل الجديدة المزروعة في جبيني.

إنّه جهازٌ معقّد وضعَه البروفيسور رومان ويلز ويسمح لي، بفضل كرة صغيرة وبسيطة سوداء شبيهة بشامةٍ كبيرة مركّبة على عيني الثالثة، بأن أتّصل عبر البلوتوث مع ميكروفون خادمتي الأذني. وهو جهازٌ صغير موضوعٌ في شريحة بسيطة يحوّل الكلمات البشرية إلى مواءٍ مفهومٍ بالنسبة إليّ، وبالمقابل، يُترجم موائي إلى جُمَل بلغة البشر.

قالت:

– أقترح أن نغادر إلى أرضٍ أمريكية أخرى، أكثر ملاءمة لنزولٍ آمن. ومن ثمّ، نواصل سيرنا إلى أن نجد مكانًا آمنًا. قد نعثر على مكانٍ مناسبٍ في جبال روكي أو في صحراء موهافي أو خلجان الجنوب المليئة بالتماسيح. ذهبتُ إلى هناك حينما كنتُ شابّة. لم يرغب أيّ حشدٍ للجرذان في الاستقرار في ذلك المكان أو ربّما لم يستطع فعل ذلك.

ذكّرتها بالخطر الماثل هناك:

– يمكنها أن تهاجمنا عندما تكتشف مكان وجودنا. ولا شكّ أنّها في النهاية سوف تعرف مكاننا.

اقترح البروفيسور رومان ويلز:

– وماذا لو بحثنا عن جزيرة قريبة من الساحل؟ ربّما يكون عدد الجرذان فيها أقلّ مما هو عليه في البرّ. سيكون من الأسهل علينا في هذه الحالة إبعاد خطرها عنّا.

بدا رفاقي الآخرون متردّدين ومرتابين. وأعتقد أنّ سبب ذلك يعود إلى كوننا قد أكلنا، جميعًا، الكثير من السمك خلال رحلتنا الطويلة عبر الأطلسي.

تدخّل ببغاء الكوكاتو:

– ربّما يكون بوسعنا أن نتفاوض معها. ربّما يمكننا، بشيءٍ من الدبلوماسية، إقناع السكان الأصليين بفوائد استقبالنا.

ومدّ عرفه الأبيض ليبدو مقنعًا.

قلتُ:

– عدا هذا التفصيل الصغير ألا وهو أنّ لدى الجرذان عادة مزعجة، على الأرجح ناجمة عن تأسلٍ رجعي[1]، وهي قتل كلّ منْ لا يشبه جرذًا. لا أودّ أن أعارضك من أجل المعارضة فحسب، يا شامبليون، ولكن منذ ولادتي لم أصادف قط جرذًا يُظهِر عطفًا حيال الغرباء عن جنسه. إنّها قاسية جدًّا حتى بينها، فهي تقتل العَجَزة والمرضى والضعفاء بل أحيانًا صغارها إذا ما رأتها هزيلة جدًّا.

ألحّ الببغاء:

– أنتِ لا تعرفين جرذًا فرنسيًا عطوفًا، ولكن الجرذان الأمريكية قد تكون أكثر «لطفًا».

جرذان لطيفة؟ يا لتناقض هاتين الكلمتين.

– سيُدهشني ذلك إن حصل.

أضاف شامبليون:

– لنبتعد عن الأحكام المتسرّعة. في النهاية، الجرذان الأمريكية، على عكس الفرنسية، ليس لديها أيّ موقف محدّد ضدّنا. كان تيمورلنك يُلاحقنا لأنّه أراد أن يسرق منك الناقل التسلسلي العامّ (يو إس بي)، الذي يحتوي على موسُوعة العلم النسبيّ والمطلق الشاملة، الذي تحملينه حول رقبتكِ، ولكن أيضًا لأنّه كان يريد الانتقام لهزيمتَي جزيرة البجع وروان. أمّا الجرذان الأمريكية فهي لا تعرفنا حتى مجرّد معرفة.

1- التأسل هو الرجعية التطورية، مثل ظهور صفات على متعضية مرة أخرى بعد أن انحسرت منذ أجيال. المترجم

أفرجتُ عن تنهيدة إحباطٍ أخرى أمام افتقار رفاقي في الرحلة إلى أفكار مثمرة. استمرت المناقشات. طرح كلٌّ رؤيته أو أيّد مقترحًا مقدّمًا من آخر.

اصطفّت القطّة أسميرالدا في النهاية إلى جانب مقترح ناتالي. ومع ذلك أوضحت أنّها لا تحبّ البرد ولذلك تفضّل الصحراء على الجبال.

أمّا فيثاغورس، مثله مثل رومان، فكان من أنصار الفرار إلى جزيرة نقوم بتحصينها مثلما فعلنا في جزيرة المدينة.

ذكّرتنا أسميرالدا بأنّ الجزر أشبه بسجونٍ قد نجد أنفسنا محاصرين فيها.

رغب الخِنْزير بادينتر والكلب نابليون بدورهما في أن نعود إلى فرنسا. أعتقد أنّهما أرادا العودة إلى شعبيهما.

ثمّ راح كلٌّ يعارض الآخر فقط من أجل متعة المعارضة.

مرّة أخرى، تبيّن لي أنّ كلّ هذه المناقشات عقيمة.

سألت أسميرالدا:

– وأنتِ يا باستيت، ما رأيكِ؟ لم تقولي شيئًا منذ بداية المناقشات. لقد حدّثتِنا عن خطّة. ما هي خطّتكِ الشهيرة؟

تمهّلتُ في الردّ، وانتظرتُ أن يسكت الجميع.

– حسنًا...

حدّق الجميع فيّ بفضول.

– اسمعوا، لقد سئمت، إذ أشعر بأنّكم متشكّكون. أشعر بأنّكم لا تثقون بي. وهذه الثقة ضرورية لكي أتمكّن من مواصلة الدرب، لأنّه بهذه الطريقة لن أكشف لكم عمّا يجول في خاطري.

وبهذه الطريقة تملّصتُ من الموقف الحرج الذي وجدتُ نفسي فيه. في بعض الأوقات، أتفاجأُ أنا نفسي بمدى خبثي.

قال فيثاغورس:

– حسنًا، في البداية، سامحينا على إلقاء الشكّ على مواهبكِ. ها نحن نصغي إليكِ.

– لقد فات الأوان.

– من فضلك، باستيت.

سخرت أسميرالدا بنبرة حاسمة:

- على أيّ حال، لا خطّة لديها.

رددتُ عليها:

- بل بالطبع لديّ خطّة.

- كلا ليست لديكِ خطّة.

- بلى.

تبًّا، من المؤسف أن أضطرّ لخوض مواجهة طفولية كهذه في هذه اللحظات الحاسمة!

ولكنني انخرطتُ في اللعبة لأنني كنتُ أعلم أنّ من شأن هذا خلق فرصة لإلهاء الآخرين عن الموضوع الرئيسي. ولا بدّ أن يتحرّروا من الخوف بأيّ ثمن لكي يكتسبوا طاقة مختلفة.

- كلا.

- بلى.

تدخّل فيثاغورس رغبةً في تطوير الحوار، وقال:

- حسنًا، تفضّلي، فنحن نُصغي إليكِ.

توجّهت الأنظار جميعها نحوي، ولم يعد بوسعي التهرّب من المواجهة. قلتُ:

- خطّتي هي: التواصل.

- اشرحي لنا.

- حسنًا، سوف نسير مع الساحل، وسوف نعثر على منطقة لا جرذان فيها، ومن ثمّ نرسو بسفينتنا. ونتواصل بمختلف أنواعنا مع السكان المحليين لبناء جيشٍ كبيرٍ بالتحالف مع القطط والكلاب والخنازير...

أكمل شامبليون:

-... وببغاوات الكوكاتو.

- نعم، وببغاوات الكوكاتو، إن وجدت هنا، فأنت محقٌّ في ذلك. ثمّ إنّك ستعمل مترجمًا لنا للتواصل مع جميع الحيوانات المحلية.

ماءت القطّة السوداء ذات العينين الصفراوين:

– تابعي يا باستيت، اعرضي علينا «خطّتكِ الخارقة».

– إذًا، سنعدّ جيشًا ضخمًا، وهنا، سنستفيد من كون نيويورك جزيرة لكي نحاصرها، مثلما حاصَرَنا تيمورلنك في جزيرة المدينة في باريس. وحينما تبدأ الجرذان تجوع، سوف تستسلم. وسوف نقتلها جميعًا بسهولة لأنّها سوف تكون منهكة وضعيفة.

فرضت نبرتي المطمئنة نفسها عليهم.

المهمّ في الأمر هو أن نشعر بأنّ هناك حلًّا. حتى وإن لم يكن الحلّ المناسب.

لعقتُ جسمي لكي أُظهر استرخائي وهدوئي في مواجهة المحن والشدائد.

لو لم أكن أنا صاحبة هذه الفكرة، لاقتنعتُ بالفعل، لمجرّد الاستماع إلى هذا الاقتراح، بقدرتنا على النجاة من هذا المأزق.

المهمّ أننا غادرنا منطقة الإحباط وبدأتُ أشعر بأنّ جماعتنا أصبحت متوافقة بشأن اقتراحاتي ومستعدة للتجاوب معها.

– منْ أنتِ حتى تزعمي قيادتنا، يا باستيت؟

جاء السؤال من أسميرالدا.

– عفوًا؟ هل حدّثِتِني؟

– نعم. أنا أجدكِ مغرورة. يمكن للمرء أن يتبجّح بالادعاءات حينما ينجح، ولكن الآن، أيّتها المسكينة باستيت، وأنا آسفة لأن أقول هذا، أنتِ تموئين كثيرًا ولكن إذا أردنا أن نكون موضوعيين، لم تطرحي خطّة بنّاءة ذات أهمية. وإذا ما عدنا بالذاكرة إلى الوراء، سنرى بوضوح أننا وصلنا إلى هذا الوضع الخطِر بسبب خياراتكِ التي تبيّن خطأها على وجه التحديد.

– قبل كلّ شيء، لم أرتكب أخطاءً، بل حقّقتُ نجاحات «نسبية». والأمر هنا ليس سواء. ثمّ، وفي سبيل إنقاذ الوضع، لا ينبغي البحث عن مسؤولين عنه، بل عن حلولٍ له.

– هل هذا يعني أنّكِ تعترفين أنّك تدّعين أنّكِ زعيمتنا، ولكن في الحقيقة لستِ إلّا قطّة كغيرها من القطط؟

أرهقت أعصابي، فاقتربتُ منها وحدّقتُ في عينيها. حدّقت فيّ بنفس الطريقة ولم تخفض عينيها.

يا لها من وقاحة!

رفعتُ ذيلي وأذنيّ. فعلتِ الشيء نفسه لتُظهِرَ أنني لا أُخيفها. نفشتُ وبري لأشير إلى أنّه إذا ما واصلت التحدّي ستتلقّى ضربةً من كفّي على وجهها. ولكنّها فعلتْ مثل ما فعلتُ.

ومن ثمّ نفخنا بصخبٍ، نحن الاثنتين، من بين أسناننا.

هذه المرّة، لا أرى كيف سأتمكّن من تجنّب المشاجرة.

وفي تمام اللحظة التي تهيّأتُ فيها للقفز لكي أضربها بمخالبي سُمِعَ صوت صفارة إنذار سطح السفينة.

توقّفتُ في الحال وأدرتُ أذني صوب مصدر الصوت.

صاح كائنٌ بشريّ بجملةٍ تُرجِمَت في جهازي المُرسِل – المُستقبِل.

– الجرذان تُهاجم من الخلف! لقد صعدت العشراتُ منها من خلال التسلّق عبر سلسلة المِرساة!

أسرعتُ إلى سقف قمرة القيادة. ومن هناك، رأيتُ في الواقع عددًا كبيرًا من الجرذان تغزو الجسر الخلفي للسفينة، في حين تسبحُ جرذانٌ أخرى، يُقدّر عددها بالمئات، للانضمام إلى سابقاتها.

فاستنتجتُ في الحال أنّ:

1) الجرذان الأمريكية هي أيضًا قد اكتشفت وصولنا؛

2) لم يُرهبها حضورنا؛

3) تُجيد السباحة في مياه البحر لمسافات طويلة؛

4) وهي قويّة البنية بحيث تستطيع السباحة حتى عكس التيّار ورغم الأمواج الخفيفة الممتدّة نحو الساحل.

إذًا، لقد جرى الاتصال مع السكان المحليين بأسرع ممّا كان متوقعًا.

ظللتُ أحاول ألا أبدو متفاجئة، ولكن مع ذلك، دعونا نعترف بكلّ صراحة: كنتُ خائفة جدًّا.

2. استعدّوا للمفاجأة

في مدخل الساحات الرومانية، كانت هذه العبارة منقوشة: «STUPETE GENTES». ويمكن ترجمة هذه العبارة بـ: «استعدوا للمفاجأة».

وكان الغرض منها التذكير بالقاعدة الأساسية لكلِّ تسلية مناسبة.

موسُوعة العلم النسبيّ والمطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

للبروفيسور إدمون ويلز.

3. الاشتباكات

كانت أمِّي تقول إنّ «أفضل وسيلة لعدم خسارة معركة هي عدم المشاركة فيها».

ولذلك لم أخض المعركة.

لن أدعَ أحدًا يقول عنّي جبانة. فكّرتُ فقط في المصلحة العامّة، والمصلحة العامّة تكمن على وجه التحديد في ألّا أعرّض نفسي، أنا باستيت، لأيّ خطرٍ عبثي.

هل لكم أن تتصوّروا ما الذي سيحدث لو متُّ أو فقدنا موسُوعة العلم النسبيّ والمطلق الشاملة التي أحملها حول رقبتي؟ اعترفوا بأنّ ذلك سيعني نهاية كلّ شيء.

حجّة أخيرة: بدا لي أنّ القتال ضدّ الجرذان على متن سفينة ليس بطولة في شيء. فما وجه الجدارة في الفوز في معركة رابحة مسبقًا ضدّ جرذانٍ منهكة عبرت مياه البحر؟

كلا، لن أنحدر إلى هذا المستوى.

على أيّ حال، لا يقع على عاتقنا نحن القادة أن نضيّع وقتنا في مواجهة فرقة المشاة.

بيد أنني، وإن لم أشارك في المعركة، أردتُ أن أشاهدها. ارتقيتُ أعلى قمّة الصاري المركزي لمتابعة الأحداث الجارية على سطح السفينة.

من ذلك المرصد العالي، رأيتُ بوضوح مجموعةً من الجرذان البنيّة المبلّلة تغزو السفينة الشراعية وتهاجمنا.

كانت قواتنا المشتركة من البشر والقطط ناشفة ونشيطة.

قاد نابليون الكلاب.

وقاد بادينتر الخنازير.

وقادت أسميرالدا القطط.

وكان ابني بالطبع في الخطّ الأمامي من المواجهة، وهو الذي يعدّ القتلَ نشاطًا ترفيهيًا.

لم يَقُدْ شامبليون أحدًا لأنّه لم تكن هناك طيورٌ أخرى في المكان عدا بعض النوارس سوداء الرأس التي لم تُبدِ رغبةً في المشاركة في المعركة، ولكنّها مع ذلك اقتربت من ساحة القتال بدافع الفضول. نعق شامبليون:

– أيّها السيّدات والسادة، اِهْدَأوا من فضلكم، فأنا متأكّدٌ من أنّ هذا سوء تفاهمٍ وأننا نستطيع إيجاد تسويةٍ.

شكّل الخنازير والكلاب وحتى القطط والبشر دفاعًا متماسكًا ومتينًا.

وقعت المعركة المباشرة وتواجهت القواطع مع الأنياب، واشتبكت المخالب مع المخالب. استخدم البشرُ العصي والسكاكين ثمّ قبضاتهم.

اكتشفتُ أنّ العدوّ أكثر صلابةً مما اعتقدت.

بدا لي أنّ هذه الجرذان الأمريكية لا تخاف شيئًا.

دفعتْ ثمن تهوّرها غاليًا. على سطح السفينة، جرت معركة حامية الوطيس.

من مكاني العالي، شجّعتُ جنودي وصرختُ فيهم:

– اصمدوا جيّدًا! لا تتهاونوا في شيء!

لم يتطلّب ذلك مني الجهد الكثير وكفاني أن أشحذ همّة قوّاتنا وأحفّزها على القتال. وربّما بفضل هذا الخطاب التحفيزي تمكّنّا من احتواء هجومها. أقصد الجرذان التي شاركت في الاقتحام الأوّل، لأنّ جرذانًا أخرى وصلت

كتعزيزات إلى ميدان المعركة.

صرختُ بأعلى صوتي:

- اقتلوها جميعًا!

لعب التفوّق العددي لمصلحتها. تُرى كم كان عدد الجرذان التي سبحت لكي تصل إلينا؟ في البداية، بدا لي أنّ عددها لا يزيد على قرابة مئة جرذٍ، ولكن سرعان ما رأيتُ مجموعات كاملة تندفع نحونا بوتيرة منتظمة.

كيف يمكننا منع استمرار تدفقها؟

كانت أمّي تقول: «لا ينبغي الخلط بين الفعل وردّ الفعل. الأغبياء يهجمون دون تفكيرٍ عند أوّل استفزازٍ، أمّا الأذكياء فيتمهّلون قليلًا لتحليل الخطر ويجدون ردًّا مناسبًا».

ما هي المشكلة الحقيقية؟

ما كدتُ أطرح السؤال على نفسي حتى جاءني الجواب.

تبًّا، كيف أني لم أفكّر في هذا الأمر مبكّرًا؟

من مكاني العالي، أصدرتُ الأمر الضروري.

- ارفعوا المِرساة!

غير أنّ أحدًا لم يُصغِ إليّ وواصلت الجرذان هجومها، بل نجح بعضها في إصابتنا بجراحٍ.

فما إن يُقتَل بعضها حتى تحلّ محلّها جرذانٌ أخرى تصل سباحةً وبعزيمة لا تلين دون أن تعير اهتمامًا بأبناء جنسها المقتولين، وهي تدوس عليها قبل أن تُقتَل هي الأخرى.

سوف تنجح في النهاية في إنهاكنا...

وهذا ما حدث بالفعل. لم تحظَ قواتنا المدافعة بالوقت الكافي لقتلها بالأعداد الهائلة التي هجمت علينا. وقد غزت الجرذان كامل سطح سفينة ***الأمل الأخير***.

مؤتُ مرّة أخرى غاضبةً:

- تبًّا لكم، ارفعوا المِرساة!

ومع ذلك بدا أنّ لا أحد يريد أن يطيع أوامري.

كانت الجرذان المهاجمة مبتلّة ومتعبة، لكن عددها كان كبيرًا جدًّا بحيثُ غمرتنا بهجومها. شرعت بعض الجرذان الموجودة في أسفل الصاري الكبير بتسلّقه والتوجّه نحوي.

اللعنة، هذه المرّة، لم يعد بوسعي تبرير موقفي، ولا بدّ أن أتلوّث في هذه المعركة.

وقفتُ على المرصد العالي وانتظرتها. وكلّما وصلت إليّ سدّدت إليها ضرباتٍ بقدمي أسقطتها أرضًا. تمكّن أحدها أن يُباغتني من الخلف وعضّني.

آي!

استدرت وأطبقتُ عليه بشدّة فكّي. حفّزني مذاق الدم وقاتلتُ في قمّة موقعي العالي براحةٍ كبيرة بحيث كانت تصل إلى القمّة وهي خائرة القوى.

ولكن ظهر ثلاثة مهاجمين في آنٍ واحدٍ على جانبي الأيمن واضطررتُ لأن أتراجع إلى متراس المرصد. تفاجأتُ وفقدتُ توازني، فسقطتُ من أعلى صاري السفينة.

ترنّحت، وباعدتُ بين قوائمي على أمل أن أخفّف هبوطي، ولكن هيهات، لم يُبطئ شيءٌ سقوطي إلى الأسفل.

أقبل المحيط نحوي بسرعة فائقة.

لحسن الحظّ، خُفِّفَ سقوطي باصطدامي بجرذٍ ضخمٍ كان يسبح وقد تحطّم عموده الفقري تحتي مصدرًا صريرًا حادًّا.

لحسن حظّي، حضر هذا الجرذ!

هأنذي أخوض المياه، وسط المئات من الجرذان التي واصلت تقدّمها نحو السفينة والسلسلة التي ستسمح لها بغزوها.

كانت المياه باردة.

وأنا، مثلما تعرفونني، أكره الماء، ولا أحبّ أن أرى وبري مبلّلًا ولا أحبّ السباحة. فما بالكم أن يكون ذلك وسط الجرذان.

تشبّث أحدها بي وجرّني نحو الأسفل. ابتلعتُ قليلًا من ذلك السائل الفظيع الذي سقطتُ وسطه والذي شعرتُ بأنّ ماءَه شديد الملوحة، على العكس من مياه النهر الذي غصتُ فيه للمرّة الأولى. تخبّطتُ وأحدث ذلك

تناثر الكثير من الرذاذ. وقد حالفني الحظّ في أنّ الجرذان كانت أقلّ قدرة على خوض المعركة في المياه بنفس الفاعليّة التي تخوضها على الأرض اليابسة.

وإذ رفضتُ الاستسلام للهزيمة بسهولة، رفستُ بقوائمي بقوّة في حين كانت أنيابها قد انغرزت في كتفي وظهري.

تلوّنت المياه من حولي بلونٍ ورديٍّ غامق من جرّاء دماء الجرذان التي قتلتُها ولكن أيضًا بسبب الدم الذي سال من جروحي.

بكلّ صراحة، لا أتمنى أن أراكم في الموقف الذي وجدتُ نفسي فيه، وأنا أغوص في المياه الباردة والمالحة، محاطةً بالمئات من الجرذان الشرسة التي تجيد السباحة على نحوٍ أفضل منكم.

ولكي أبثّ الخوف في قلوبها، مؤتُ بقوّة دون أن أحصل على نتيجة حاسمة لذلك. فالمواء، كما تعلمون جيّدًا، هو مسألة نبرة الصوت: فإذا ما ماء أحدنا من دون اقتناع، ينكشف ذلك في الحال. والصرخة التي تُظهِرُ بعض الهشاشة لا تُثير الرعب بل على العكس تمامًا، يكون لها تأثيرٌ عكسي.

دون أن أكون انهزاميةً، لم أرَ كيف يمكنني النجاة من هذه المواجهة، وإذ أدركتُ أنني سأموتُ لا محالةَ، قرّرتُ أن أجعل الجرذان تدفع ثمنًا غاليًا لقاء قضائها عليّ. عضّ جرذٌ قائمتي وآلمني أشدّ إيلامٍ. وغرز آخر أنيابه في ذيلي، في حين خدش ثالثٌ ظهري. صَعُبَ عليّ أن أحمي نفسي لأنّ عددها كان كبيرًا جدًّا. أمسك بي جرذٌ آخر بقائمته ذات الأصابع المفصلية الأربع وأبقى رأسي تحت سطح الماء.

فتحتُ عينيّ تحت الماء المالح المحمرّ بالدم حيث تتحرّك من حولي عشرات القوائم الوردية بمخالبها الحادّة.

شعرتُ بحرقةٍ شديدة في جروحي.

كانت لحظة سأصفها... كيف يمكن لي التعبير عن ذلك...؟ غير مريحة؟ مقلقة؟ كلا. ربّما يكون أفضل توصيفٍ هو: عزلة تامّة.

لا أدري ما الذي كنتم ستفعلونه لو كنتم في مكاني، أمّا أنا فأردتُ أن أصرخ، ولكن كيف يمكن الصراخ تحت الماء؟ لقد حُرِمتُ حتى من

فرصة الارتياح الصغيرة هذه. شعرتُ بالاختناق وأنا أتلقّى ضربات مخالب الجرذان دون انقطاع.

تُرى هل سيتوقّف كلّ شيء هنا، الآن، بهذه الطريقة، في مياه البحر، وسط الجرذان الأمريكية؟

أنا التي كنتُ أعدُّ نفسي مَلِكة، اعتقدتُ أنّه حتى جثّتي لن تحظى بأيّ مراسم للدفن، وأنّ الأسماك ستلتهمني بينما ستقذف الأمواج بالبقايا القليلة من عظامي إلى شاطئ بلدٍ لا أعرفه.

والأسوأ من ذلك، كان هناك احتمالٌ راجح أن تلتهمني هذه الجرذان المحيطة بي نفسها.

فتحتُ عينيّ بأوسع ما استطعت لأرى جيّدًا ما يحدث خلال اللحظات التي على الأرجح ستكون الأخيرة لحياتي.

وفي هذه اللحظة بالذات حدث أمرٌ غير متوقّع. سقط طيفٌ غامق اللون أمامي ورفع موجةً بعثرت الجرذان التي كانت تحاصرني.

هذه الكتلة كانت قطّة سوداء أعرفها.

ما الذي تفعله هذه هنا؟

يا إلهي، لا بدّ أنّ أسميرالدا قد سقطت هي الأخرى.

وكسبّاحة ماهرة، لم تلق أيّ صعوبة في إبعاد الجرذان التي عاودت الكرّة. واستطعتُ أخيرًا أن أتنفّس نفحة هواء على سطح المياه.

كانت لا تزال من حولنا بعض الجرذان السابحة، ولكنّها أُصيبَت جميعًا بالهلع من الظهور المفاجئ لهذه القطّة.

فأشارت إليّ بطرف أذنها بأن ألحق بها.

توجّهنا نحو حافة السفينة حيثُ وجدتُ سطلًا بلاستيكيًا يطوف على سطح المياه.

رفعتُ بصري ورأيتُ حبلًا تُمسِكُ به ناتالي وهي تنحني فوق سياج السفينة.

يا لها من كائنة بشرية شجاعة. بهذه الطريقة، يمكننا في بعض الأحيان الاعتماد على خدمنا لكي نخرج من مأزقٍ.

قفزتُ في الحال إلى داخل هذا الملجأ وانتظرتُ أن يُرفَع السطل، ولكن خادمتي لم تسحب الحبل سريعًا واقتربت بعض الجرذان مرّة أخرى منّي، فمؤتُ بقوّة:

- بسرعة! ارفعيني!

تريّثتْ، ولم أفهم سبب انتظارها.

هل يمكن أنّ جهاز الترجمة في عيني الثالثة قد تلف أثناء سقوطي ومعاركي المائية؟

- بسرعة! ارفعيني! هذا أمرٌ يا ناتالي!

وأنا في الأسفل، لاحظتُ أنّ انتباهها لا يتركّز عليّ. تابعتُ اتجاه نظرها وأدركتُ السبب.

إنّها تُريد منح الفرصة لأسميرالدا لكي تصعد هي الأخرى إلى السطل.

بصراحة، اعتقدتُ أنّه من المؤسف أن تعرّضني ناتالي إلى هذا الكمّ الكبير من المخاطر في سبيل هذه القطّة، ولكن لا بأس، فالبشر عاطفيون للغاية.

قلادتي التي تحمل موسوعة العلم النسبيّ والمطلق الشاملة (م. ع. ن. م. ش)*!!!*

لا بدّ أنّها قد سقطت من رقبتي في الماء ولم أنتبه إلى ذلك حتى. لم أجرؤ على أن أتخيّل ما قد يحدث إذا ما فقدتُ هذا الكنز.

سأكون السبب في ضياع المعرفة التي قضى البشر آلاف السنين في سبيل مراكمتها.

لحسن الحظّ، كان الناقل التسلسلي العامّ (يو إس بي) في مغلّفٍ محكمٍ عازلٍ ومضادٍ للصدمات. لم تفسده المياه المالحة.

شكرًا لك يا رومان، لأنّك حسبت حساب كلّ شيء.

ها قد رُفعنا أخيرًا، نحن الاثنتين. حصل ذلك في الوقت المناسب.

كان القطّ السيامي ذو العينين الزرقاوين في استقبالنا على متن السفينة.

سألني، قلقًا:

- هل أنتِ بخير، يا باستيت؟ هل أنتِ جريحة؟

بصقتُ آثار الماء المالح لكي أتخلّص من ذلك المذاق المزعج.

وانتفضتُ لكي أتخلّص من المياه والدماء العالقة بفرائي، ثمّ تفقّدتُ جراحي.

وإذ استمرّت الجرذان الأمريكية في التدفّق، تواصلت المعارك على متن سفينة *الأمل الأخير*. انتشرت المئات من القوارض في كلّ أنحاء السفينة.

لم يكن الوقت مناسبًا لخوض الأحاديث، فانقضضتُ على جموع الجرذان.

ولكن تبيّن لي أنّ قتالها أصعب ممّا كنتُ أعتقد. فهي أكثر قوّةً وثقلًا وشراسةً في القتال من الجرذان الفرنسية.

كان رفاقي من حولي يعانون هم أيضًا من وضعٍ صعب.

سرعان ما غطّت الجرذان كلّ القطط والبشر والخنازير والكلاب.

في لحظة ما، لمحتُ بادينتر، الخِنْزير الذي دافع عنّا في دعوى البشر. رأيتُه يئنّ تحت وطأة كدسٍ من المهاجمين، ولكنني كنتُ بعيدة جدًّا عنه ومشغولةً للغاية بحيث لم أستطع أن أهبّ لنجدته. رأيته يُصارع وهو يشخر ومن ثمّ يصرخ بصوتٍ كالصرير. ثم انهزم أخيرًا أمام العدد الكبير، فانهار، وخفض رأسه، وكفّ عن الحركة ومات.

وداعًا، يا بادينتر، لقد أحببتكَ كثيرًا، كنتَ خنزيرًا رائعًا.

تهاوى رفاقي في رحلة عبور الأطلسي واحدًا تلوى الآخر.

ربّما استهنتُ بالخطر ولم أقدّره حقّ قدره.

وحده شامبليون، الذي ظلّ فوق حشود المتقاتلين، بقي في منأى عن أيّ هجومٍ واكتفى بإطلاق صيحات نسرٍ على أمل بثّ الرعب في صفوف أعدائنا.

ولكنّ الجرذان لم تهتمّ بذلك.

السفر بعيدًا جدًّا للوصول إلى هذه النتيجة...

انتابني شعورٌ بأنّ المغامرة الأمريكية قد بدأت للتوّ.

لم يكن البشر أفضل حالًا من القطط والكلاب والخنازير. رأيتُ العديد منهم يتهاوون.

لحسن الحظ أمسك رومان وناتالي بأطراف قطعٍ من الخشب أوقدوا النار فيها وتمكّنا بفضلها من إبعاد الجرذان لمسافةٍ.

مؤتُ مرّة أخرى:

- المِرساة! يجب رفع المِرساة!

سمعني رومان وناتالي أخيرًا وأسرعا نحو بكرة اللفّ.

واصلت خادمتي التلويح بشعلتها لإبعاد الجرذان في حين حاول رومان تدوير بكرة لفّ سلسلة المِرساة. لكن شيئًا ما أعاق ذلك.

لا بد من مساعدتهما. من دون تدخّلي، لن يتمكّنا من القيام بالمهمّة أبدًا.

أعطيتُ أمرًا عامًّا:

- على الجميع التوجّه إلى بكرة اللفّ!

أسرعنا، فيثاغورس وأنجيلو وأسميرالدا وأنا، لكي نحميهما بأفضل ما في وسعنا.

وقفتُ عند قدمي خادمتي التي ظلّت تلوّح بشعلتها دون انقطاع.

وأخيرًا أدرك رومان ما الذي يعيق حركة البكرة: بعض الجرذان التي دخلت في فجوة البكرة سُحِقَت وأعاقت جثثها حركة الأسطوانة.

استخدم الكائن البشري سكّينًا لتنظيف الأسطوانة. ثمّ، وبعد إزالة العديد من القطع الحمراء، أدار مقبض البكرة التي بدأت بالدوران. والتفّت السلسلة حول محور البكرة.

استغلّ جرذٌ لحظة انشغالي هذه وانقضّ على كتفي. وعضّ آخرٌ بطني.

وسرعان ما اجتمعت ثلاثة جرذانٍ عليّ من جديد.

وفي هذه اللحظة بالذات، ظهر نابليون. لا بدّ أنّ البوردر كولي قد لمحني من بعيد، فهبّ لنجدتي.

يا له من كلبٍ شجاعٍ.

انتزع الجرذان العالقة بي وقتلها. ولكن ما إن تحرّرتُ أنا من حصارها حتى أصبح هو في خطرٍ.

قفز جرذٌ على أعلى قائمته وجرحه جرحًا عميقًا إلى درجة جعله ينبح ألمًا. لسوء حظّه، جذبت هذه الصرخة الحادّة قوارض أخرى غمرته في حركة واحدة مثلما فعلت مثيلاتها مع بادينتر.

أردتُ مساعدته ولكن فات الأوان. فقد تجمّعت عليه قوارض كثيرة وكان هناك خطر أن أعلق بينها.

وداعًا يا نابليون.

رُفِعَت المِرساة أخيرًا، ولم يعد بوسع القوارض الصعود إلى السفينة. اشتدّت الرياح وتحوّلت الأمواج الخفيفة تدريجيًا إلى أمواج عاتية.

ولأنّ الأمواج اندفعت متّجهةً نحو الشاطئ، بات من الصعب على أعدائنا أن تتغلّب عليها وتسبح عكس التيار لكي تلحق بنا.

أمّا القوارض التي ظلّت على متن السفينة فقد قاتلت بكلّ ما أوتيت من قوّة.

لم أرَ قط جرذانًا على هذه الدرجة من العدوانية والشراسة.

تقلّص عددها.

وحققنا الأفضلية على آخر المقاتلين المنهكين. جعلناهم عاجزين عن إلحاق الأذى بنا، ثمّ قتلناهم.

هدأ كلّ شيء وساد الصمت. لم نعد نسمع سِوى صوت هيجان الأمواج.

صرخ شامبليون بلغة القطط وبلغة البشر:

- **لقد انتصرنا!**

بالتأكيد، ولكن بثمنٍ باهظٍ.

وجدنا حولنا المئات من الجثث. جثث الجرذان الأمريكية، ولكن أيضًا جثث بشرٍ وكلابٍ وخنازير.

بعد إجراء جردٍ وحسابٍ كاملين، لم يخرج من المعركة سليمًا سوانا، أنا وناتالي ورومان وفيثاغورس وأنجيلو وشامبليون وأسميرالدا.

كنّا مئتين وأربعة وسبعين فردًا، ولم يتبقّ منّا الآن سِوى.. سبعة أفراد.

كانت خسارتنا لكلّ شيء بهذه الدرجة من السرعة والبساطة وعلى نحوٍ مباغتٍ مفاجِئة لي بعض الشيء.

رأيتُ جسد نابليون الراقد على الأرضية مغطّى بجراحٍ عميقة، في حين لم يكن في جسد بادينتر سِوى جرحٍ واحدٍ تبرز منه قطعٌ ممزّقة من اللحم الوردي اللون.

لم أستطع أن أشيح أبصاري عن كلّ هذه القطط وهؤلاء البشر وهذه الكلاب وهذه الخنازير الذين رافقونا خلال الرحلة، والذين بدأتُ أعرفهم، والذين بدا لي أنّهم سيكونون روّاد عالم ما وراء المحيط والذين أصبحوا الآن... قطعًا من اللحم التي تجذب الذباب.

كانت أمّي تقول: «لا تتعلّقي بأيّ شيء ولا بأيّ شخص، لأنّ الناس من حولك سيرحلون جميعًا في النهاية».

ردّد شامبليون كما لو أنّه أراد أن يُقنعنا بأنّ هذه الكارثة لها جوانب إيجابية:

- لقد انتصرنا!

أمّا أنا، فقد انتابني شعورٌ مختلف.

شعورٌ يتجاوز الخوف.

كيف يمكن التعبير عن ذلك؟

شعورُ من يبدأ يعاني ألمًا شديدًا في بطنه، مع وجود فرصٍ ضئيلة بأن يتحسّن حاله فيما بعد.

كانت أمّي تقول: «حينما تكونين في قاع الحفرة، لا يمكنكِ إلا أن تصعدي». ولكن في الحالة التي كنتُ عليها، مع أنني شعرتُ بأنني في أسفل الحفرة، فإنّه بدا لي أنني سأغوص أكثر في قاعها.

كلا، لم أشعر قطّ بأننا انتصرنا، حتى أكرّر عبارة شامبليون.

أو ربّما، طالما أننا لم نمت، فهذا شكلٌ من أشكال الانتصار.

مع تراجعنا، عليّ أن أعترف بأنّ رسوّنا في القارة الأمريكية كان... فاشلًا تمامًا.

حاول رومان وناتالي أن يأتيا لمساعدة البشر الذين ربّما لا يزالون أحياء، ولكن ذلك لم يسفر عن أيّ نتيجة تُذكَر. لم يكن هناك جرحى، بل موتى أو محتضرون فقط.

أعطيتُ في النهاية أوامري:
- فلنبتعد عن الساحل.
استلمت ناتالي دفّة القيادة في السفينة، ورفع رومان أشرعتها.
لعقتُ نفسي لتعقيم جراحي التي كانت لحسن الحظّ جميعها سطحية لأنّ فرائي السميك حماني.
بعد انقضاء قسط من الوقت، لاحظتُ أنّ رومان يؤدي مهامه بصعوبة.
صرّح، قائلًا:
- ثمّة شيءٌ ما لا يسير على ما يُرام.
نزل إلى عنبر السفينة. وحينما صعد، أخبرنا:
- لقد تمكّنت الجرذان من قرض الحزام الناقل الذي يربط بين دفّة القيادة وجهاز التوجيه.
وقد أدركتُ من خلال الحديث ما يقصده. إنّه جهاز التحكّم بتوجيه السفينة.
سألته:
- هل يمكننا إصلاحه؟
- سوف يستغرق ذلك يومًا كاملًا على الأقلّ.
سألت أسميرالدا:
- وماذا لو عادت الجرذان؟
أجبتُ على الفور:
- حسنًا، سوف نصدّها مثلما فعلنا في المرّة الماضية. يكفي ألا نستخدم المِرساة، ولا يهمّ إن انجرفنا.
سأل أنجيلو:
- وماذا نفعل بشأن الجثث؟ هل يمكننا تناول الجرذان؟ ستحلّ محل الأسماك...
في هذه الأثناء، ألقى الكائنان البشريان الناجيان الجثث الأخرى للجرذان على جانب السفينة، وجمعا جثث رفاقنا فوق سطح قمرة القيادة. اجتاحني شعورٌ غريبٌ عندما رأيتُ رفاقي ساكنين بلا حراك.

وداعًا، يا أصدقائي.

شعرتُ بشعورٍ خاصّ تجاه الكلب نابليون.

لاحظ فيثاغورس اضطرابي وتأثّري. فسألني:

– هل أنتِ حزينة؟

تنهّدتُ وعرضتُ على نحوٍ موجزٍ عمق تفكيري، فقلتُ:

– لقد مات لأنّه حاول إنقاذ حياتي. أشعرُ أحيانًا بأنّ الذين يُحبّونني تُساءُ مكافأتهم.

ردّ فيثاغورس:

– يمكنكِ أيضًا أن تشكري أسميرالدا. هي الأخرى أنقذت حياتكِ وهي لا تزال على قيد الحياة.

راقبتُ القطّة السوداء ذات العينين الصفراوين المنهمكة في إلقاء الجثث في البحر.

– وهذا ما فاجأني!

– ما إن رأتكِ تسقطين في المرفأ، لم تتردّد وغطست ملقية بنفسها من أسوار السفينة لكي تهبّ لنجدتكِ.

– حقًّا؟ اعتقدتُ أنّ ذلك حدث بمحض المصادفة، وأنّها سقطت في نفس اللحظة.

قلتُ ذلك لكي أتجنّب التعبير عن أيّ امتنانٍ لهذه القطّة التي باتت تغيظني على نحوٍ متزايد.

أقبلت أسميرالدا نحونا.

تبًّا، رغم المسافة، لا بدّ أنّها قد سمعت حديثنا.

ماءت:

– إنّه لأمرٌ طبيعي أن أُقدِم على مساعدتكِ، يا باستيت، فقد كنتِ في خطرٍ جسيم. ثمّ إنني متأكّدة من أنّكِ كنتِ ستفعلين نفس الشيء لو كنتِ في مكاني.

أمّا أنا، فلستُ متأكّدة تمامًا من ذلك، ولكنني لا أرغب في مناقشة هذه النقطة.

أدرك فيثاغورس أنّ حوارنا قد يشهد تصعيدًا، فقال بلهجة قاطعة:

- هل تعتقدين حقًّا أنّ هذه هي اللحظة المناسبة لتطرحي على نفسكِ هذا السؤال؟

ألقى ناتالي ورومان بالجثث من فوق سور السفينة. بدآ بإلقاء الجرذان، ثمّ القطط والكلاب والخنازير، وأخيرًا البشر.

أمّا فيما يخصّني، فلم أشارك في هذا النشاط التنظيفي غير اللائق بمكانتي، واكتفيتُ بالتهام رأس جرذ لكي أتزوّد بالطاقة الضرورية لتفكيري. كما كانت أمّي تقول: «إنّ أفضل طريقة لفهم العدو هي التهام دماغه».

حينما أنهى الكائنان البشريان مشروعهما التنظيفي، وبات بإمكاننا أن نتحرّك من جديد على السفينة، اقترحت ناتالي إجراء مراسم جنازة بسيطة. وضعت في قاربٍ صغيرٍ جثث القتلى الذين كنّا نعرفهم أكثر من بين كلّ الأجناس. ما يقارب عشرة من البشر، بالإضافة إلى باديتر ونابليون واثنين أو ثلاثة قططٍ شعرنا بأنّها كانت أكثر قربًا منّا.

وبينما نحن نضع القارب على رافعات الإنزال، ألقت خادمتي كلمة عزاء قصيرة:

- لقد كانوا جميعًا رائعين. لقد ماتوا اليوم لكي نستطيع، نحن السبعة الأحياء، أن نعيش.

أكملتُ في ذهني:

آملُ ألا يكونوا قد ماتوا هباءً وأن نجد أخيرًا السعادة التي كانوا يسعون إليها.

ثمّ، بعد ذكر أسماء الموتى، شغّل رومان ويلز موسيقى. ودوّت في مكبّرات الصوت في سفينة الأمل الأخير أنغام ترتيلة موتسارت.

فأفرغت ناتالي صفيحة من البنزين على الجثث، نزل القارب حتى مستوى سطح مياه البحر. انتظرت ناتالي إلى أن ابتعدت مركبة الجنازة لمسافة كافية، وأطلقت من مسدّس شعلةٍ لهبًا أحمر اللون على القارب الصغير. فاشتعلت فيه النيران في الحال. وعرفتُ أنّ هذا فعلٌ يُسمّيه البشر «الحرق». أعتقدُ أنّهم الحيوانات الوحيدة التي تتلف جثث بني جنسها بدل

أن تأكلها أو تدع الديدان تلتهمها بغية وضعها في دورة النظام البيئي. بدا لي أنّ ذلك شيءٌ من الفوضى ولكنني لم أجرؤ على قول أيّ شيء.

ربّما بسبب تغيّري تحت تأثير البشر والموسيقى الحزينة لترتيلة موتسارت، انتابني شعورٌ خفيف، هو مزيجٌ من الفرح لكوني لم أمت والحسرة على فقدان هؤلاء الأفراد بالتحديد الذين لن يعود بوسعهم تسليتي.

لم أستطع أن أصدّق أننا فقدنا الكثير من رفاقنا منذ اليوم الأوّل.

حسبتُ في ذهني الخسائر: 140 قطًّا وقطّة، وعشرة كائنات بشرية، وخمسة وستون خنزيرًا، وخمسة وعشرون كلبًا... ماتوا جميعًا في معركةٍ واحدة استغرقت بضع عشراتٍ من الدقائق...

إنّها بدايةٌ سيّئة.

استبدّ القلقُ بي.

بينما كان الليل يشارف على الهبوط ببطء، رأيتُ الزورق المليء بالجثث وهو يشكّل كرة كبيرة من ألسنة اللهب الصفراء، وقلتُ في نفسي إنّهم يغادرون على شكلِ دخانٍ مثل أحلامنا بأرضٍ مقدّسةٍ سوف يمكننا أخيرًا أن ننعم عليها بالهدوء.

في المحصّلة، يبقى الأقسى للأحياء المتبقّين.

موسيقى موتسارت، والقارب المشتعل بالنيران، والليل المطرّز بالنجوم، وذكرى الموتى، وضعني كلّ هذا في حالةٍ غريبة. عادت إلى أذهاني كلّ الأحداث الماضية التي قادتني إلى هذه اللحظة بالذات. في الوقت نفسه، شعرتُ بأنّ رأسي سينفجر.

4. هل الرأس ضروري؟

هل يمكن لحيوانٍ أن يعيش بدون رأس؟

هذا ما بدا أنّ المغامرة الاستثنائية للديك مايك قد أثبتته.

في عام 1944، ذبحه صاحبه لويد أولسن، وهو مزارعٌ في كولورادو، بالفأس لكي يقدّمه وليمة على العشاء ذات يومٍ دعا فيه حماته.

لكنّ الحيوان المقطوع الرأس نهض وبدأ يسير كأنّ شيئًا لم يكن. والأكثر دهشة من ذلك هو أنّ الطائر كان يحرّك رقبته كما لو أنّه يريد أن ينقر أو ينظّف ريشه. وإذ فوجئ المزارع بما حدث، قرّر أن يُبقي الديك حيًّا. وقام بإطعامه بواسطة قطّارة كان يملأها تارةً بالماء وأخرى بالذرة المطحونة. وحينما تنسدُّ القصبة الهوائية بالطعام، يقوم بتسليكها باستخدام إبرة محقنٍ. وإذ لم يشأ أحدٌ أن يصدّق الحكاية وبات الجميع يسخرون من لويد أولسن، أخذ المزارع الديك مايك إلى جامعة يوتا حيث تمكّن العلماء من إثبات صحّة الظاهرة. أثارت الحكاية ضجّة كبيرة، ونُشِرَت في تقريرٍ في صحيفة التايمز، وشرع مايك ومالكه في القيام بجولةٍ عبر العالم. وكان الناس يدفعون خمسة وعشرين سنتًا لكي يشاهدوا الديك المقطوع الرأس الذي لا يزال حيًّا.

في أَوْج شعبيته، كان مايك يدرّ من الأموال أكثر من كلّ بقية مزرعة أولسن.

إلا أنّه، في الثالث عشر من مارس/ أذار 1947، وبينما كان يقيم في نزلٍ في مدينة فينيكس، اختنق مايك خلال تناول وجبته، في حين كان أولسن قد نسي أن يأخذ معه محقن التجريف.

مات الديك. وذلك بعد أن عاش مدّة ثمانية عشر شهرًا بدون رأس. حاول أولسن أن يُكرّر الأعجوبة، ولكن على الرغم من التضحية بالعديد من الدجاج اضطرّ لأن يُدرك أنّه ليس هناك سِوى مايك واحدٍ.

موسُوعة العلم النسبيّ والمطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

5. الحداد

مات الآخرون وبقيتُ أنا على قيد الحياة.

التفتُّ نحو نافذة قمرة القيادة ونظرتُ إلى صورتي في المرآة العاكسة.

رأيتُ نفسي، أنا القطّة الرائعة ذات العينين الخضراوين والوبر الطويل الأسود والأبيض وعلى خطمي رسمةٌ على شكل قلب.

هذه أنا.

جلالة المَلِكة باستيت.

ماذا أفعل هنا؟

لماذا حدث لي كلّ هذا؟

قبل أن أُكمِل حديثي، إذا كنتم لا تزالون تتذكّرون ما رويته لكم عمّا حدث لي سابقًا، يمكنكم القفز على هذا الفصل من الحكاية.

بالنسبة إلى الآخرين، هذا تذكيرٌ بما قادنا إلى هذه الحال، هنا والآن.

في البداية، كنتُ قطّة مسالمة أعيشُ في منزلٍ وأرى الأيام تمضي متشابهة مع نفس إناء الطعام المليء بأطعمة لها دائمًا نفس المذاق ومع نفس أوقات القيلولة الطويلة في انتظار عودة خادمتي ناتالي.

وكان الهدف الأوّل الذي حدّدته لنفسي في تلك الفترة هو محاولة التواصل مع الكائنات الحيّة الأخرى المحيطة بي، سواء كانوا بشرًا أو سمكًا أحمرَ أو فئرانًا أو حمامات.

في ذلك الوقت، كنتُ أعتقدُ أنّ جميع الكائنات يمكنها أن تتواصل لمجرّد الاتصال بين أذهانها، ولكنّ النتائج الملموسة التي توصّلتُ إليها كانت محدودة جدًّا.

لذا تخلّيتُ عن هذا المشروع النبيل، وكي لا أشعر بالملل، كنتُ أراقب الشارع من الشرفةِ.

ما الذي كنتُ أراه بشكلٍ عامّ؟

بشرٌ يسيرون على أطرافهم الخلفية. سياراتٌ تتوقّف. حمامٌ يهدل. كلابٌ تترك برازها على الرصيف. ذبابٌ يزعجني.

لا شيء ممتع حقًّا.

يهطل المطر أحيانًا، ويتساقط الثلج أحيانًا، وتعصف الرياح بأوراق الشجر في أحيانٍ أخرى.

في المساء، حينما يخيّم الظلام، كانت خادمتي ناتالي تعود إلى البيت، وتداعبني وتسكب لي أطعمتي الخاصّة في إنائي وتصبّ الماء في كوبي، فكنتُ أتناول الطعام وأشرب الماء، وأغتسل ثمّ أستريح لكي أستأنف في اليوم التالي نفس الإيقاع الرتيب.

بالنسبة إليّ، لم يكن المستقبل سِوى تكرارٍ لهذه الأنشطة التي لا طعم لها.

ثمّ حدث ذات يوم شيءٌ غير متوقّع.

رأيتُ رجلًا ملتحيًا يرتدي ثيابًا سوداء يُطلق النار من بندقيةٍ على أطفال دارٍ مجاورة وهو يردّد نفس الجملة.

بدا أنّه يستمتعُ بقتلهم.

بدا لي ذلك «أمرًا لا يُصدّق». بدأتُ أطرح على نفسي أسئلةً بشأن البشر.

من هم هؤلاء البهائم؟

ثمّ رأيتُ قطًّا سياميًا يسكن في المنزل المجاور. تحدّثتُ معه. كان اسمه فيثاغورس. أراني **عينه الثالثة**، وهي عبارة عن ناقل تسلسلي عامّ (يو اس بي) في جبينه يسمح له بالاتصال مع الحواسيب ومن ثمّ تصفّح الإنترنت، فقط في ذهنه، والاستفادة من معارف البشر.

شرح لي أنّ الرجل الملتحي ذا الثياب السوداء هو متطرّفٌ ديني قتل الأطفال الذين لا يعرفهم حتى في مدرسةٍ لأنّه يعتقد أنّ من شأن هذا أن يُرضي إلهه المتخيّل.

بدا لي المفهوم بأسره غريبًا.

وبعد ذلك، سار كلّ شيء بسرعة عند البشر. اندلعت حربٌ أهلية وضعت نهايةً للنظام الاجتماعي الهشّ الذي كان ينظّم حياتهم. تعاظم عدد المتطرّفين الدينيين وازدادوا عنفًا وشراسةً. انهار التنظيم البشري برمّته. لم تعد القُمامة تُلمُّ من الشوارع وتراكمت في جبالٍ مليئة بالصراصير والديدان. وأصبحت الغربان بعدد الحمام.

استطاعت الألوف من الجرذان التي تعيش في الأقبية والمجاري وأنفاق الميترو أن تصعد إلى السطح لكي تقتات. لم تعد تخاف البشرَ، ولا القطط أيضًا. لقد تكاثرت وانتهت إلى نقل موجةٍ جديدة من الطاعون. لم يستطع

البشر، الذين افتقروا إلى التنظيم، مواجهتها لأنّ المتطرّفين الدينيين كانوا قد قتلوا عددًا هائلًا من العلماء العلمانيين، وهم الأشخاص الوحيدون الذين كان بوسعهم اكتشاف لقاحٍ مضادٍ للطاعون.

الحضارة التي أمضوا سنوات في بنائها انهارت تمامًا.

أدركتُ هشاشة الحضارات.

أدركنا، أنا وفيثاغورس، سريعًا أنّه ما لم نفعل شيئًا، هناك خشية من أن يقع ما هو أسوأ: سوف تحلّ الجرذان بالفعل محلّ البشر لتفرض سيادتها على العالم.

وهذا بالتأكيد لن يكون في مصلحة القطط.

ولذلك كان لا بدّ من أن نتصرّف.

من جهتي، أعتقد أنّ كلّ كائن يستطيع أن يغيّر تاريخ العالم طالما أنّه يعتقد أنّه قادر على فعل ذلك.

حتى أنتم، نعم، أنتم الذين تقرؤون حكايتي الآن، ربّما تستطيعون أن تغيّروا تاريخ العالم إذا ما تجشّمتم مشقّة ذلك.

لا تكونوا كسالى.

لا تكونوا خائفين.

تجرّأوا على التفكير بأنفسكم بعيدًا عن أيّ تأثير. حتى عن تأثيري أنا.

كلا، أنا لا أمزح، مهما اعتقدتم أنّكم ضعفاء وبلا تأثير، لديكم مؤهّلات ومزايا لا تحتاج إلّا إلى اكتشافها، أنا متأكّدة من ذلك.

على أيّ حال، بالنسبة إليّ، أنا كنتُ ولا أزال مقتنعة بذلك: أستطيع تغيير تاريخ العالم.

ولكن الاختلاف بيني وبينكم هو أنّكم لا تمتلكون الجرأة لأنّكم تفتقرون إلى الشجاعة، في حين أنّني ربّما لستُ واعية بما فيه الكفاية ولذلك أنخرطُ في هذه المغامرة المجنونة.

فبعد هدفي الأوّل في التواصل مع الأنواع الأخرى، ظهر هدفي الثاني: منع الجرذان من غزو العالم.

وقد أقنعتُ فيثاغورس بضرورة التحرّك العاجل.

أصبحنا حلفاء مع قططٍ أخرى وبشرٍ آخرين، ولكن أيضًا مع بعض الكلاب والخنازير وببّغاءٍ من فصيلة الكوكاتو. وبذلك استطعنا أن نتقدّم متسلّحين بالإرادة المشتركة في إنقاذ العالم.

ولكن الجرذان، في مواجهتنا، كانت كثيرة العدد.

قاتلناها في معارك ملحمية.

وفقدنا الكثير من رفاقنا في هذه المعارك.

واضطررنا للهروب.

ومع ذلك، أتاحت لي مغامراتي التمتّع ببعض المزايا. زوّدني رومان ويلز بعينٍ ثالثة، وهي عبارة عن ناقل تسلسلي عامّ في وسط جبيني، أستطيعُ بفضله، تمامًا مثل فيثاغورس، التواصل مع البشر والاتّصال بالحواسيب.

استلمتُ قيادة المقاومة.

خلال واحدة من مغامراتنا، حصلتُ على موسُوعة العلم النسبيّ والمطلق الشاملة (م. ع. ن. م. ش) المخزّنة في ناقلٍ تسلسليٍّ عام يحتوي على كلّ معرفة البشر. وعندئذٍ، تمكّنتُ من الوصول إلى معرفةٍ أوسع حول العالم.

لكنّ مَلِك الجرذان، تيمورلنك الرهيب، الذي كان عبارة عن جرذ مختبراتٍ والذي بدوره كان قد حصل ذات يومٍ على عينٍ ثالثة، علم أنني أحتفظُ بهذا الكنز الثمين.

لم يكفّ عن مطاردتنا وهو ما أرغمنا على الفرار مرارًا وتكرارًا. بدا لي أنّ المحيط هو أفضل ملاذٍ لنا، وعلى متن هذه السفينة الشراعية الكبيرة، التي أسميناها **الأمل الأخير**، انطلقنا نحو أمريكا التي علمنا أنّ سكّانها يمتلكون عقّارًا يقضي على الجرذان قضاءً مبرمًا. ومن ثمّ، ها قد أصبحنا الآن هنا، وفي هذا الموقف الحرج إذ تبيّن لنا أنّ هذه المعلومة خاطئة أو قديمة والأمر سواء. وقد دفعنا الثمن غاليًا حتى علمنا ذلك. غير أنّ خيبة الأمل هذه لا تغيّر أهدافي.

أريد أن يأتي يومٌ يقدّسني فيه الجميع كمَلِكةٍ لهم أو ربّما كالتي كانت تحمل اسمي في الزمن الماضي: الإلهة المصرية باستيت.

أشعرُ أنني قادرة على أن أُقيم السلام بين كلّ الأجناس الحيوانية، التي سوف تنسجم بعضها مع بعض في عبادتي.

حسنًا، قد يبدو هذا الطموح مبالغًا فيه، ولكن مثلما كانت أمّي تقول: «من الأفضل للمرء أن يحدّد لنفسه أهدافًا رفيعةً كهذه، حتى وإن لم ينجز سِوى نصفها، فهذا لن يكون سيئًا بالتأكيد».

6. أسطورتنا الشخصية

كلُّ نفسٍ حبيسة أسطورتها الخاصّة. يرويها كلّ فردٍ على نفسه باستمرار وينتهي بالاقتناع بأنّ هذه هي الحقيقة الوحيدة في حين أنّها، في النهاية، ليست سِوى رؤية شخصية وهي بالضرورة محرّفة قليلًا عن الواقع.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

7. بصيصٌ من الضوء وسط الظلام الدامس

غطّت غيومٌ داكنة تدريجيًّا القمر المكتمل.

لم أستطع الإقلاع عن النظر إلى المشهد الساحر للحريق الذي التهم الجثث على القارب الصغير وأضاء الليل.

دفعت الريح البحرية الدخان المتصاعد نحونا وشوّشتني رائحة الجثث المحترقة.

أنا أستنشق شيئًا من أصدقائي.

رأيتُ وجوه رفاقي عبر ضبابٍ متلاشٍ أنارتها ألسنة اللهب: ابني أنجيلو ذو الفراء البرتقالي والعينين الخضراوين؛ وأسميرالدا ذات الفراء الأسود، والعينين الصفراوين؛ ثمّ فيثاغورس، القطّ السيامي ذو الفراء الفضّي والعينين الشديدتي الزرقة.

جميلٌ، *ذكَري هذا.*

سمعتُ ضجيجًا خلف هبوب الرياح وهسهسة النار.

بكتْ ناتالي، فقد كانت لا تزال تحت تأثير الصدمة. سالت دموعٌ على خدّيها. لعقتها لأنني أعشق مذاق الدموع، ثمّ تراجعتُ وراقبتُ. أعتقد أنني سبق أن وصفتُ لكم، ولكن بعضكم ربّما نسي مظهرها، ولذلك سوف أحدّثكم عن خادمتي.

ناتالي كائنة بشريّة رائعة تعلّمتُ أن أقدّرها منذ بدء مغامراتنا الأخيرة.

من حيث الظاهر، هي نموذجٌ شائعٌ جدًّا للأنثى البشرية، سمراء، ذات شعرٍ أسود غزير، وبشرتها بيضاء. تنتعل أحذية رياضية، وترتدي سروال جينز وقميصًا قطنيًا أبيض. لها نهدان صغيران. تربط شعرها برباطٍ مطّاطي أحمر. نحيلة ورائحة جلدها وعرقها مميّزة جدًّا، وهي تشبه في بعض الأحيان فأرةً مذعورة (في هذه اللحظة بالتحديد، كانت أشبه بفأرةٍ في حالة رعبٍ تامّ).

– هيّا، يا ناتالي، يجب ألّا ندع الإحباط يستولي علينا. لا نزال أحياء، وهذا هو الأهمّ. طالما لا نزال نمتلك الحياة، يبقى كلّ شيء ممكنًا.

مسحت دمعةً وحاولت أن تبتسم.

– ناتالي، ألا تريدين أن تكوني مفيدة؟

لم تفهم إلى ماذا ألمّح.

– هلا تفضّلتِ وقمتِ بمداعبة أسفل رقبتي بإصبعكِ المقوّسة من الأسفل إلى الأعلى؟

استجابت لرغبتي. ولحسن الحظّ، كانت لديها أظافر طويلة بما يكفي لأن تعبث جيّدًا بفرائي دون أن تهيّج جراحي. خرخرتُ تشجيعًا لها. وأعدتُ التفكير فيما أعرفه عن خادمتي: كانت حياتها دائمًا متواضعة.

كانت قد اقترنت برجلٍ، هو توماس، الذي قتل صغاري (بذريعة أنّه وناتالي لم ينجحا في التخلّص منها من خلال إعلانات صغيرة وضعاها عند الخبّاز وتعرض قططًا صغيرة ليأخذها الناس!). مات جميع صغاري عدا أنجيلو. لأنّه كان أصهب اللون وقد وجدا أنّ هذا اللون للوبر يتماشى مع لون الأريكة. ثمّ فهمتْ ناتالي نفسها. لقد أدركت من خلال التواصل معي أهمية أن تأخذ مصيرها بيدها، وأن تصبح شجاعةً، ومقاتلة، وذات شخصية

مستقلّة. بفضلي أنا، التقت رومان ويلز، هذا العالم الشابّ المغرَم بالحفاظ على كلّ معارف الحضارة البشرية.

شعرُ رومان ويلز داكن، وهو يضع نظارات ضخمة، وتفوح منه رائحة الخشب. وحينما يشعر بالخوف، تفوح منه رائحة الفطر.

اضطررتُ لأن آمرها:

- إلى الأعلى قليلًا. إلى اليمين قليلًا. إلى الأسفل قليلًا. نعم، هنا. مرّة أخرى. حكّي أقوى قليلًا، من فضلكِ. يمكنكِ أن تحكّي بأظافركِ. نعم، أقوى قليلًا.

أعتقد أنّ هدف حياة ناتالي ليس واضحًا. لدى الإصغاء إليها، سوف تجدونها تكتفي بحكاية حبّ مع ذَكَرٍ وأنّ هذه العلاقة تُشبعُ رغباتها. خلال رحلتنا، درستُ تاريخ السلطة عند البشر ولكن أيضًا تاريخ مشاعرهم. إنّ مفهوم «**الحبّ**» هذا عند البشر مفهومٌ غريب.

الأكثر إثارةً للدهشة هو أنّ ناتالي استطاعت في النهاية أن تُقنعني بأنّ الحبّ مع مشاعر غريبة، على طريقة البشر، يستحقّ التجربة. وكان من نتيجة ذلك أن أصبحتُ أنا أيضًا غيورة بعض الشيء ومحبّة لنزعة التملّك مع ذكري الأساسي، فيثاغورس. وأنا أضمن لكم أنّ هذا السلوك لا يُسهِم أبدًا في انسجام علاقتنا.

- إلى الأسفل قليلًا، يا خادمتي.

حكّت ناتالي بقوّة أكبر.

قالت:

- أنا خائفة.

كذبتُ:

- أمّا أنا، فلستُ خائفة.

- لا أرى كيف يمكننا الخروج من هذا المأزق والنجاة بجلدنا.

تنهّدتُ ثمّ قلت:

- كلّ المشكلات سوف تُحلّ في النهاية. أنا... ماذا تقولون أنتم البشر؟... «قَدَرية».

حاولتُ أكثر من أيّ وقتٍ مضى أن أُلهيها وأصرف انتباهها عمّا كنّا فيه.

– برأيكِ، يا ناتالي، ما الذي بوسعي أن أفعل أكثر من هذا لكي «أُجيد القدرات البشرية إجادة أفضل»، بعد التحدّيات الثلاثة التي خضتُها لكي أتطوّر والتي كانت 1) الحبّ، 2) الفكاهة، 3) الفنّ؟

أجابتني بعد هنيهةٍ من التفكير:

– القراءة. عليكِ أن تخلقي لنفسكِ ثقافة مستمدّة من الكتب لأنّها الوحيدة التي تتّسم بالرسوخ. ثمّ، عليكِ بالكتابة. يجب أن توثّقي فكركِ في كتابٍ. الكتاب يسمح للفكر بالانتشار بلا حدود. وحده الكتاب يستطيع أن يخلّد الفكر.

يصبح فكري خالدًا؟

وبالفعل بعد أن أوشكتُ على الموت، ازدادت قناعتي بضرورة أن أترك أثرًا خلفي.

– أريدُ أن تدوّني سيرتي الذاتية. سوف أمليها عليكِ. أريدُ لفكري أن ينجو من تلف غلافي الجسدي.

– أنا آسفة يا باستيت، فقد سبق أن تحدّثنا في هذا الأمر. لن أفعل ذلك.

– ولماذا، يا خادمتي؟

– هل تريدين أن تكوني قطّة استثنائية؟ هل تطمحين لأن تكوني مَلِكة؟ تعلّمي الكتابة إذًا، يا باستيت! لا تستوي الكتابة والإملاء. عليكِ أن تكتبي سيرتكِ بنفسكِ، وحدكِ، لكي تكوني متأكّدة من أنّكِ تعبّرين بدقّة عن فكركِ.

– على حدّ علمي، قام يوليوس قيصر بإملاء أحداث الحروب الغالية على كتبَته.

تأثّرت بهذا المثال المحدّد، ثمّ تذكّرت ساعات طويلة أمضيتُها في مراجعة الموسوعة المعلّقة حول رقبتي.

– أقترحُ عليكِ اقتراحًا أفضل: شيءٌ يؤسّس شرعيتَكِ. «نشأة الكون».

– ما هذا؟

– نصٌّ تأسيسي يشرح سبب وجود العالم ولماذا هو على ما هو عليه.

سوف يصبح المرجَع الذي يفسّر كلّ ما يُطرَح من أسئلة حول أصول وأسباب تكوّن العالم، ولكن من منظورِكِ أنتِ.

- هل تعتقدين أنّ هذا سيكون أفضل من مذكّراتي الشخصية؟

- سيكون هذا بطريقةٍ ما الكتاب المقدّس للقطط.

جعلني هذا الاحتمال أطرق في التفكير. واصلت ناتالي حديثها:

- في متن هذا الكتاب، سوف تشرحين الماضي السحيق المنسي. على أيّ حال، سوف تخترعين أسطورة القطط. وسوف تتنبّئين بالمستقبل البعيد. ومنذ تلك اللحظة، لن تعودي فقط باستيت التي تطمحين إليها، أي مَلِكة، بل سوف تكونين أرفع مكانة من ذلك بكثير. سوف تصبحين نبيّةً. سوف تشرحين بالتفصيل كيف أصبحتِ ما أنتِ عليه، على غرار إبراهيم وموسى ويسوع المسيح...

هل قالت، نبيّة؟ بدا لي هذا الاقتراح مثيرًا للاهتمام. أحيانًا لدى خادمتي البشرية، حتى وإن كانت «مجرّد» كائنة بشرية، أفكارٌ ذكيّة للغاية إلى درجة أننا نعتقدُ أنّها صادرة عن عقلٍ قططي.

- هل أنتِ متأكّدة من أن أكون نبيّة أفضل من أن أكون مَلِكة؟

- أن تكوني مَلِكة يعني أن تحكمي فقط. تقود المَلِكة حروبًا وتُعطي أوامرَ. وهذا لا يكون إلّا لمدى قصيرٍ. أمّا النبيّة فتواصل نشر أفكارها بعد موتها. إنّها تؤثّرُ في الملوك والمَلِكات الذين يأتون من بعدها، وذلك فقط بقوّة أفكارها.

واصلت حديثها:

- أن تكوني نبيّة يعني أن تُعطي معنى للماضي، واستنتاج المستقبل انطلاقًا منه. أن تكوني نبيّة يعني أن تمتلكي رؤية شخصية خلّاقة للمستقبل. وهذا ما أعتقدُ أنّكِ قادرة على فعله، يا باستيت.

لم يكن قد سبق أن جاملني أحدهم مجاملةً أثّرت فيّ إلى هذه الدرجة. بعد هذا الحديث الذي تبادلناه، شعرتُ بنفحة واسعة من الحنان حيال خادمتي. ربّما عليّ أن أحبّها أكثر. ربّما لم تكن خادمتي فحسب، بل أيضًا

شريكة حياتي بطريقة ما، ويمكن معاملتها على قدم المساواة نظرًا للنصائح السديدة التي تنصحني بها.

أضافت:

– لحسن الحظّ أنقذتكِ أسميرالدا. هل شكرتِها على ذلك؟

مرّة أخرى؟ لماذا يريد الجميع أن أنحني أمام هذه الأنثى؟ وها قد أفسدت كلّ شيء بجملةٍ واحدة. في اللحظة التي أردتُ أن أكنّ لها تقديرًا فائقًا، خيّبت أملي.

مؤتُ بجملٍ تُرجمَت عبر سمّاعاتها الأذنية، وقلتُ.

– أعتقدُ أنّكِ لم تفهمي ما حدث. ها هي الحقيقة: لأنّ أحدًا لم يرفع المِرساة وواصلت الجرذان الوصول إلى متن السفينة عبر هذه الوسيلة، قفزتُ من أعلى الصاري وغصتُ سريعًا لكي أبثّ الرعب وسط الجرذان الصاعدة. وإذ كنتُ قد تعلّمتُ السباحة قبل فترة قصيرة، قاتلتُ وأبقيتُ الجرذان في الماء. وقد نجحت خطّتي تمامًا ولم أحتج إلى أحدٍ. سقطت أسميرالدا من غير قصدٍ.

قالت ناتالي:

– حقًّا؟ لم أكن أعتقد أنّ الأمر كذلك.

– أنا سعيدة بكشف الحقيقة. ولن أسمح لأحدٍ أن يقول بخلاف ذلك.

في اللحظة التي لفظتُ فيها هذه الجملة، شعرتُ بذهن كلّ المستبدين الكاذبين (الذين قرأتُ تاريخهم في موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق) يتدفّق في دماغي. شارل السابع وهو ينكر دور جان دارك في الانتصار على الإنكليز، روبسبير وهو ينفي دور دانتون في الثورة الفرنسية، وستالين وهو ينفي دور تروتسكي في الثورة الروسية.

في الوقت ذاته، بدأتُ أُدرك أنّه لا يمكن للمرء أن يحكم دون أن يكون جاحدًا. لا بدّ للمرء أن يبني باستمرار روايته الخاصّة عن الماضي وفقًا للأحداث الراهنة لكي يعطي الانطباع بأنّه قد خطّط لكلّ شيء وتحكّم به.

مهما يكن، دار في خلدي أنّ ناتالي قد تكون محقّة. يجب أن أكتب الكتاب المقدّس «خاصّتي» للقطط لكي أصل إلى مصاف النبيّة.

بإشارةٍ منّي أفهمتها بأنني لم أعد بحاجة إليها وتقدّمتُ نحو فيثاغورس. همستُ في أذنه:

- كلّ هؤلاء الرفاق الموتى يمنحونني الرغبة في أن أعيش حياةً أقوى.

سرتُ قليلًا وأنا أتمايلُ بمؤخّرتي، وهززتُ ذيلي، وخفقتُ برموشي، ثمّ عدتُ نحوه وأسندتُ خطمي على خطمه، إلى حدّ ما مثلما يفعل البشر.

قلتُ بلهجة قاطعة:

- ضاجعني!

أعتقد أنّ هذه هي الأنوثة الحقّة: أن تُعرب الأنثى عن رغبتها دون انتظار أن يخطو الذكر الخطوة الأولى نحوها.

يستخدم البشر كلمة غبيّة لشرعنة هذا التحفّظ وهي: «الحشمة».

الحشمة هي فخٌّ اخترعه على الأرجح الرجال لمنع النساء من التعبير عمّا يشعرن به، في حين أنّهم لا يتوانون عن فعل ذلك.

في تقليدٍ للبشر، قبّلته من فمه (وجدتُ هذه الحركة مقزّزة ولكن بما أنّ البشر يقومون بها، لا بدّ أنّها معاصرة وتُمتِعُ فيثاغورس) ولعق كل منا لسان الآخر. ثمّ التصقتُ بخاصرته كما لو أنني أريدُ دفعه، وهنا، لففتُ ذيلي على ذيله لأشكّل قلبًا، ومن ثمّ جديلةً.

حسنًا، قبل أن أنشغل بكتابي المقدّس الخاصّ للقطط، سأستمرّ في اكتشافي بشأن «شعور الحبّ على طريقة البشر». سوف تسمح لي هذه التسلية اللطيفة أن أنسى كلّ العنف الذي عانينا منه طيلة النهار. وأنا في أمسّ الحاجة إلى ذلك.

فجأةً، وبينما كنتُ أتهيّأُ لتلقي جسد شريكي، لفتَ شيءٌ غريب انتباهي.

وقد جاء ذلك من أعلى مبنى شاهدناه على الساحل. وكان ذلك عبارة عن سلسلة من ثلاث ومضات ضوئية تتكرّر باستمرار.

منعتني هذه الإشارات من التركيز. صرختُ:

- **انظر إلى هناك!**

أشرتُ إلى قمّة المبنى حيث تنبعثُ الومضات الضوئية.

نهضنا جميعًا لكي نذهب إلى مقدّمة سفينة **الأمل الأخير**، التي انحرفت،

محمولة بالتيارات المائية والأمواج، منذ أن لم تعد لها لا مرساة ولا دفّة قيادة.

لم تكن هناك أضواءٌ متلألئة فحسب، بل أيضًا العديد من النوافذ المُنارة. منعنا الانبهار من الانتباه لما كان يحدث في مانهاتن.

أكّد رومان ويلز الذي أمسك بالمنظار المقرّب وراقب:

- هناك بشرٌ في المبنى! من هنا أرى حتى ظلال بعض الأشخاص وهم يتحرّكون خلف النوافذ.

سألت أسميرالدا:

- كيف يمكن لبشرٍ البقاء على قيد الحياة بوجود هذا العدد الهائل من الجرذان؟

قلتُ، مأخوذةً بحدسٍ:

- فقط بالصعود إلى الطوابق العليا! هذه الأبراج تحميهم بارتفاعها الشاهق!

قال أنجيلو، الذي لا يعرف معنى للتفكير، بلهجة الواثق من نفسه:

- يجب أن ننزل لكي ننضمّ إليهم.

قالت أسميرالدا، الأكثر واقعية منه:

- أوّلًا، يجب التحدّث إليهم.

اقترح الببغاء شامبليون:

- يمكنني الذهاب إليهم. وأودّ أن أذكّركم بأنني أُجيد أيضًا التحدّث بلغة البشر الإنكليزية.

شرح رومان:

- لنوافذ هذا النوع من العمارات زجاجٌ مزدوج ولا يمكن أن تُفتَح. وهي كاتمة للصوت. يؤسفني أن أخبركَ يا شامبليون بأنّه حتى وإن وصلتَ إلى هناك في الأعلى، فلن تستطيع فعل شيءٍ سِوى النقر بمنقاركَ على الزجاج وفرصكَ في القدرة على التواصل مع شاغلي المبنى ضئيلة.

ردّ الطائر:

- ومع ذلك سوف أذهب إلى هناك، فلا بدّ أنّ هناك في قمّة المبنى

بعض الأشخاص الذين خرجوا لتشغيل هذه الأضواء! إنّهم على الأرجح يقفون فوق شرفةٍ. وسوف أعود في الحال.

وقد أفرد جناحيه الأبيضين لكي يبدأ بالتحليق.

قال أنجيلو بإلحاح:

شامبليون على حقّ، لا بدّ من المضي قدمًا. هيّا بنا ننطلق سباحةً!

هذا هو ابني تمامًا: يطرحُ دائمًا الفكرة السيّئة في الوقت غير المناسب...

قال رومان ويلز:

- كلا، سوف نردّ في البداية على إشاراتهم الضوئية.

أطلقت ناتالي من مسدّسها التحذيري رشقة ضوئية جديدة ذات وهجٍ أحمر أضاءت واجهة عمارات نيويورك.

أمسك ويلز بمصباحه الكهربائي اليدوي وبعث سلسلة من ثلاث ومضات منتظمة ردًّا على ومضاتهم. ثمّ غيّر الحركة وأرسل ثلاث ومضات قصيرة، وثلاث ومضات طويلة، تلتها ثلاث ومضات قصيرة. ثمّ توقّف عن بثّ الومضات.

من جديد، كرّر العالم الفرنسي إرسال سلسلته من ثلاث ومضات قصيرة، وثلاث ومضات طويلة، تلتها ثلاث ومضات قصيرة، فتلقّى من أعلى المبنى سلسلة من الومضات الطويلة والقصيرة.

شرحت ناتالي:

- هذه تقنية مورس، وهي تقنية قديمة للتواصل عن بعد باستخدام الأضواء أو الأصوات. هذه الإشارة ترمز إلى ثلاثة أحرف وهي S, O, S، وهي الأحرف الأولى من العبارة الانكليزية «Save our ship» أي «أنقذوا سفينتنا».

انبهرتُ مرّة أخرى بالأفكار التي وجدها البشر من أجل حلّ مشكلاتهم بشأن التواصل عن بعد. إذًا سيكون هذا هو «المورس».

كان عليّ أن أراجع في موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق خاصّتي تاريخ هذه التقنية وكيفية عمل هذا النظام.

البشر الذين كانوا في أعلى العمارة ردّوا بدورهم بسلسلة مختلفة من الإشارات.

– وبهذه الإشارة، ما الذي يريدون قوله بلغة المورس خاصّتهم؟

– أربعة أحرف C, O, M, E أي كلمة COME بالإنكليزية التي تعني «تعالوا».

نشط رومان في إرسال إشارات ضوئية.

– حقًّا؟ وبماذا ردّ عليهم؟

– قال يريد أن يعرف الوسيلة التي يمكنه استخدامها للوصول إلى هناك في الأعلى.

تواصل الحوار الضوئي بين العمارة وسفينة **الأمل الأخير**، إلى أن انقطع كلّ شيء. سألتُ بقلق:

– لم يعد يرغبون في التواصل؟

– يقولون إنّهم سوف يدلّوننا على الطريقة التي نصعد بها إليهم. انتظرنا.

تحوّل النسيم إلى ريحٍ طردت الغيوم، وكشفت عن البدر المكتمل.

أنار القمر كلّ شيء.

فظهر شيءٌ يشبه نبتة نفل بأربع وريقات بلاستيكية صفراء متوهّجة ظلّ معلّقًا في الهواء. وظلّ يهتزُّ مصدرًا طنينًا.

قالت ناتالي، مدهوشةً:

– هذه طائرة بدون طيّار! إنّهم يمتلكون طائرات بدون طيّار!

وقد تدلّى من هذه الطائرة بدون طيّار حبلان.

من جديد، أخبرتنا الإشارات بلغة المورس بالخطوة التالية التي يجب اتّخاذها، وقال رومان:

– يجب تثبيت هذين الحبلين بنقطة متينة من السفينة وسوف يسحبوننا إلى قمّة العمارة.

سألتُ وأنا أتذكّر التجربة التي خضناها في مدينة روان:

– هل يشبه هذا بكرة الانزلاق بالحبل الناقل؟

أوضحت ناتالي وهي تربط الحبل إلى طرف سور السفينة:

– نعم، ولكن هذه المرّة سوف يُستخدَمُ الحبل ليس في الانزلاق نحو الأسفل، بل في السحب إلى الأعلى.

في هذه الأثناء، حرّر رومان البكرة وأنزل المِرساة لكي تبقى السفينة أكثر ثباتًا خلال تنفيذ العملية.

وأخيرًا وصل ما يشبه كرسيًا بلاستيكيًا معلّقًا بالحبل بواسطة بكرة.

أبدى فيثاغورس تحفّظًا، فقال:

– لستُ متحمّسًا كثيرًا لفكرة الذهاب بهذه الطريقة. أنتِ تعلمين جيّدًا أنني أعاني من الدوّار.

حرّكته رعشة عارمة.

حاولتُ أن أُقنعه:

– ولكن سبق أن فعلنا هذا.

– كان الارتفاع أقلّ من هذا.

– كما أنّكَ سافرت في منطادٍ هوائيٍّ صعد إلى ارتفاعٍ يعلو هذه العمارة.

– بالتأكيد، ولكنّني استطعتُ تجنّب النظر إلى الأسفل من خلال المكوث في قاع سلّة المنطاد. أمّا هنا، فلا يوجد أيّ مكانٍ للاختباء فيه.

لديه جوابٌ لكلّ شيء.

– لقد سبق أن اعتليت عمود هذا الصاري ولم تشعر بالدوّار.

– لكنّ عمود الصاري متين وهو ملتحم مع جسر السفينة. يمكن لأحدنا النزول منه. أمّا هنا، فسنصبح معلّقين في الفراغ دون إمكانية الاختباء أو العودة إلى الخلف.

تبًّا، يا له من جبانٍ رعديد.

صرخت أسميرالدا:

– وصلت الجرذان!

في الواقع، بدأت بعض الجرذان التي لا بدّ أنّها اكتشفت حواراتنا الضوئية بالسباحة باتجاهنا. لسوء الحظّ، بهدف تثبيت بكرة الانزلاق بالحبل الناقل، كانت المرساة لا تزال في المياه. وبالتالي توفّرت للجرذان فرصة التسلّق والصعود إلى السفينة.

قلتُ لفيثاغورس:

- أنا آسفة، ولكن لم يعد لنا الخيار.

جلست خادمتي في الكرسي البلاستيكي، وقفزتُ لكي أتكوّر على نفسي فوق ركبتيها. انضمّ أنجيلو إليّ. وأرادت أسميرالدا أن ترافقنا أيضًا.

مؤتُ:

- لا، ليس أنتِ!

- ولماذا؟

- هذا المكان لفيثاغورس. أمّا أنتِ، فستصعدين مع رومان.

ثمّ استدرتُ بالتحديد نحو ذَكَري الذي كان يرتعدُ خوفًا.

- حسنًا، هيا، تعالَ بسرعة.

- باستيت، هذا ليس مجرّد شعور، ينتابني إحساسٌ سيّئ.

- ما الذي يبدو لك أفضل: الجرذان الحقيقية أم الدوار المتوقَّع؟

وافق أخيرًا القطّ السيامي ذو العينين الكبيرتين الزرقاوين على أن يأتي للانضمام إلينا على ركبتي خادمتي.

- يكفينا ألا ننظر إلى الأسفل.

وقبل أن نذهب بعيدًا في هذا الحوار، اشتدّ حبل الجرّ ليسحبنا نحو الأعلى.

غادرنا السفينة، ثمّ وجدنا أنفسنا فوق البحر. ومن هناك رأيتُ جيّدًا رتل الجرذان السابحة التي انطلقت لاقتحام سفينة *الأمل الأخير*.

لحسن الحظّ، لعبت الأمواج ضدّها، ودفعتها نحو الشاطئ، ولكنّها لم تستسلم.

واصلنا الصعود نحو الأعلى.

شعرتُ بفيثاغورس، الكبير، فيثاغورس الحكيم، الذي كان يرتعش بكامل فرائه. أغمض عينيه ووضع قوائمه فوق أجفانه.

اقتربت العمارات منّا في نفس اللحظة التي صرّت فيها البكرة.

هلمّي إليّ يا نيويورك! هلمّي إليّ يا أمريكا!

وكلّما تقدّمنا أكثر، لاحظتُ أنّنا بالفعل في مكانٍ عالٍ جدًّا. لم أكن قد رأيتُ عمارات بهذا الارتفاع في باريس.

لو سقطتُ من هذا الارتفاع، حتى وإن وقعتُ على قوائمي برشاقة، فلا أعتقدُ أنني كنتُ سأنجو.

أنا شخصيًا، لم أشعر بالدوّار، ولكن فيثاغورس بدأ يرتعشُ على نحوٍ متزايدٍ.

أضاء نور القمر مدينة نيويورك.

وجدتُ هذه المدينة أكثر غرابة وأنا أراها من مكاني العالي. كانت العمارات بالفعل عملاقة وكانت تضيء بكلّ جدرانها الزجاجية.

ولكنّ الريح اشتدت أكثر وأصبحت تضرب الكرسي على نحوٍ أقوى وتجعله يهتزّ. فجأةً، توقّف الحبل الذي يسحبنا عن رفعنا نحو الأعلى ووجدنا أنفسنا نتأرجحُ فوق الفراغ، معلّقين فقط بالحبل.

اهتززنا بفعل التيارات الهوائية. ذُعِرَ فيثاغورس.

من المدهش جدًّا أنّ يكون كائنٌ على هذه الدرجة من الثقافة والذكاء على هذا القدر من الخوف أيضًا.

بدأت ناتالي أيضًا تشعر بالقلق من توقّفنا معلّقين فوق الفراغ، فصاحت:

– إيه، أوه!

تشبّث أنجيلو بي وأنا تشبّثتُ بناتالي التي تشبّثت بدورها بالكرسي البلاستيكي. تمسّك فيثاغورس أيضًا بي، غارزًا مخالبه بعمق في فرائي إلى درجة أنّه ثقب جلدي.

– تمسّك جيّدًا، يا أنجيلو، لا بدّ أنّ هذا لن يستمر طويلًا.

بقينا عالقين هكذا وظلّت ناتالي تصرخُ نحو السماء:

– إيه، أوه! أنتم من في العمارة، هل تسمعونني؟

ظلّ البرج صامتًا، وحينما التفتنا، لم نعد نرى سفينة ***الأمل الأخير*** التي لا بدّ أنّها قد تعرّضت لغزو الجرذان.

فجأةً هزّتنا هبّة من الريح بقوّة أشدّ. فقدت ناتالي توازنها، وانزلقت من الكرسي. ولكنها لحسن الحظّ امتلكت رشاقة وخفّة التمسّك به بيدها

اليمنى، وفي هذه اللحظة، تعلّق الكرسي بالحبل، وتشبّثت ناتالي بالمقعد، وأنا تعلّقتُ بقائمتيّ الأماميتين بثياب ناتالي، وتمسّك أنجيلو بقائمتي الخلفية اليمنى، في حين تشبّث فيثاغورس بقائمتي الخلفية اليسرى.

وهكذا أصبحنا معلّقين في وضعيةٍ ليس هناك ما هو أكثر خطورةً منها.

قال فيثاغورس وهو ينظر إلى الأسفل:

– أنا على وَشْك الإفلات.

– تمسّك بذيلي.

لففنا ذيلينا بعضهما على بعض على شكل جديلة.

كافح أنجيلو ونجح في اتّخاذ وضعية أكثر راحةً رغم ارتعاشه.

ضربت هبّة ريحٍ ثانية ورجّت على نحوٍ أشدّ أرجوحتنا.

أقبلت سحابةٌ واسعة وكثيفة ورطبة وغطّتنا تمامًا، وأصبحنا، وربّما كان هذا أمرًا إيجابيًا، لم نعد نرى ما يحيط بنا.

شعرتُ بمخالب أنجيلو المغروزة في جلدي.

بات الذكران ثقيلين على قائمتيّ، وإذا لم يتطوّر الوضع سريعًا، فسوف أفلت، وسنسقط نحن الثلاثة في الفراغ.

قمتُ على نحوٍ خفيّ بتأمين قبضة قائمتي اليمنى، التي يتمسّك بها أنجيلو، وعلى نحوٍ أقلّ قبضة قائمتي اليسرى، حيث يتمسّك فيثاغورس.

أفلت فيثاغورس فجأةً.

ماء مواءً مفزعًا، وسقط.

فيثاغورس!

لقد سقط.

شقّ على ذهني أن يتقبّل هذه الفكرة.

كلا، هذا غير ممكن.

استغرق الأمر بعض الوقت إلى أن أدركتُ ما حدث.

فيثاغورس... مات...

فيثاغورس، «حبيبي» فيثاغورس مات!

لقد اخترتُ ابني على حساب ذَكَري.
هذا خطأي... ماذا فعلتُ؟
خفّ الضغط على طرفيّ الخلفيين، لكنّ أنجيلو لم يتفوّه بجملة إيجابية.
– أوف يا أمّاه، سوف نتمكّن من النجاة.
هل اتّخذتُ الخيار الصحيح؟

8. عن صعوبة الاختيار

كيف تُتّخَذ الخيارات؟

في كتابه *الأمير*، يروي مكيافيلي أنّ مَلِكًا كان يتّخذ كلّ قراراته وهو يحدّد خياراته برمي النرد. في الحِقْبَة نفسها، كان مَلِكٌ آخر، له دولة بنفس حجم دولة المَلِك الأوّل، يحكم اعتمادًا على ذكائه ومنطقه. في النهاية، بحسب ما يروي ميكافيلي، لاقى المَلِكان نفس مستوى النجاح. من هنا، استنتج الكاتب الإيطالي أنّ التفكير لا يضمن في نهاية المطاف اتّخاذ الخيارات الصائبة، تمامًا مثلما لا يؤدّي غياب التفكير بالضرورة إلى الإخفاق.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

9. بدونه

مات فيثاغورس!!!

نجح أنجيلو في التمسّك بي وأنا متمسّكة بناتالي، التي استطاعت مستندةً إلى مرفقيها أن تجلس على الكرسي.
ومن جديد سُحِبنا نحو قمّة المبنى الشاهق.
خرجنا من بين السحب ولم تكفّ نظرتي عن التحديق في الفراغ من تحتنا.

مات فيثاغورس.

لم أستطع تقبّل هذه الفكرة.

لا بدّ أنني أحلم وسأستيقظ.

تنفّستُ بعمق.

يجب أن أتمالك نفسي.

فوجّهتُ إليه كلمة وداعية.

فيثاغورس، لن أنسى أبدًا أنك أنت من حوّلتني من القطّة الجاهلة التي كنتُها إلى قطّة واعية.

لقد فتحت ذهني، مثلما فتحتِ العين الثالثة فيما بعد رأسي.

لقد أخبرتكَ بأنني أحبّكَ ولكنني أعتقدُ أنه كان من الممكن أن أحبّك أكثر.

لو كنتُ أعلم ما الذي سيحدث، لفعلتُ ربّما... ربّما... لفعلتُ ماذا، بالضبط؟

بحثتُ عن الكلمات لأعبّر بها ولكنني لم أجدها.

تبًا، يا فيثاغورس، كان بوسعك أن تتمسّك مثلي بناتالي! وكنت بذلك ستتجنّب أن...

ماذا...؟

أن أتخذ خيارًا ومن ثمّ أشعر بالذنب.

ماذا كنتَ ستفعل لو كنتَ في مكاني، أنت القطّ الذكيّ جدًّا؟

كنتَ ستفعل نفس الشيء.

حسنًا إذًا، لا جدوى من محاولة جعلي أشعر بالندم.

لم أستطع أن أتمالك دمعةً سقطت من عيني وجعلتني أشعر بحرقة خفيفةٍ في طرفها.

واصلت بكرة الانزلاق بالحبل الناقل رفعنا إلى الأعلى وانتهت بالوصول إلى قمّة المبنى.

المكان الذي وصلتُ إليه كان عبارة عن سطحٍ إسمنتي تعلوه قبّة دائرية ضخمة خضراء اللون.

استُقبِلَت ناتالي من قبل امرأة شقراء.

تصافحتا بالأيدي، وفق هذا الطقس الذي يمارسه البشر ويتيح لهم ترك القليل من العرق على بشرة بعضهم (في حين كان يكفيهم أن يحكّوا مباشرة تحت إبط بعضهم للحصول على نتيجة أكثر فاعليّة بكثير في تبادل الفيرمونات).

تبادلتا الحديث بلغة البشر.

ما كدنا نصل حتى أطلق كائنان بشريان سلّة الحبل الناقل من جديد نحو الأسفل لجلب الناجين الآخرين على متن سفينة ***الأمل الأخير***.

لا بدّ أنّ الجرذان تسلّقت سلسلة المرساة. أتمنّى ألّا يكون الأوان قد فات. سيكون من المحزن أن نفقد رومان وأسميرالدا بعد أن فقدنا فيثاغورس.

مع أنّ، بالنسبة إلى أسميرالدا...

لكن الدموع واصلت الانهمار بطريقة لم أستطع حبسها وأنا ألوذ مسرعةً بركنٍ، فاختبأتُ فيه، وتكوّرتُ على نفسي، ولعقتُ دموعي.

في... ثا... غورس...

من الجوهري ألا يراني أحدٌ غير أنجيلو وأنا أبكي. لا ينبغي أن يرى أحدٌ ضعفي.

في... ثا... غورس...

ثمّ فكّرتُ أنّه لم يكن سِوى ذَكَرٍ. وكما يقول البشر: «نفقدُ واحدًا، فنجدُ عشَرةً».

تبًّا، لا أستطيع إيقاف هذا السائل الذي يتدفّق من عيني.

أنا! المَلِكة، النبية، تبكي!!! يا لها من علامة ضعف.

أعتقدُ أنّ البشر لديهم عبارة لتعريف هذه الحالة: «الحِداد».

وهذا أيضًا مفهومٌ مجرّد بالنسبة إليّ، ولكنّه يسدّ هذه الحالة الشعورية الجديدة من خلال تعريفها بكلمة واحدة.

فسمحتُ لنفسي أخيرًا، وأنا منعزلة في مخبأي، بإطلاق العنان لحزني وسيل دمعي.

تذكّرتُ أوقاتًا أمضيتها معه. المرّة الأولى التي رأيتُه فيها من بعيد، في شرفة المنزل المجاور؛ وحينما قادني إلى أمام المرآة وجعلني أعتقد أنّ منْ تظهر في المرآة هي قطّة أخرى وهي أنثاه؛ وعندما قاتلنا الجرذان جنبًا إلى جنب؛ وحينما مارسنا الحبّ فوق تمثال الحرية الصغير في جزيرة البجع في باريس؛ وحينما أوصلنا دماغينا بوصلة يو إس بي؛ وحينما صعدنا إلى كرسي بكرة الحبل الناقل وأخبرني بأنّ إحساسًا سيّئًا ينتابه...

يجب أن أتمالك نفسي.

انتهى بي الأمر إلى أن خرجتُ من مخبأي ورحتُ أراقب ديكور سقف المبنى الذي نزلنا فوقه. خارج الرافعة التي كانت تُستخدَم في سحب بكرة الانزلاق بالحبل الناقل، رأيتُ ألواح الطاقة الشمسية مستندة إلى دعائم، وعنفات هوائية، وحدائق صغيرة معلّقة تضمّ شجيرات ونباتات. وجدتُ أيضًا صهريج مياه وما يشبه غرفةً لها بابٌ لا بدّ أنّه، بحسبِ ما خمّنت، يؤدّي إلى الطوابق السفلية.

إذًا، هذه هي أمريكا.

لا بدّ أنّ هذا هو ما فكّر فيه الكائن البشري الذي سبقني إلى اكتشافها، كريستوفر كولومبوس.

هنا، لم أعد مَلِكة، أنا مجرّد أجنبية.

في الواقع، لم أتصوّر أمريكا بهذا الشكل.

لا بدّ أنّ كريستوفر كولومبوس فكّر في هذا أيضًا.

وسط الظلام، لمحتُ العشرات من البشر فوق السطح، بينهم الشخصان اللّذان يُديران المقبض الموصول إلى الحبل الذي أتاح لنا الصعود.

نظرتُ حولي، ورأيتُ، عدا البشر، قطًّا ضخمًا ذا فراءٍ بلون الصوف فيه بقعٌ وخطوطٌ سوداء وصدره أبيض.

إنّه قطٌّ من السكان الأصليين.

رغبتُ في أن أتقدّم نحوه ولكن تفصيلًا جعلني أتوقّف في الحال.

في زاوية فمه، لمحتُ ريشًا أبيضَ ونقطةَ دم.

شامبليون!

لم أجرؤ على طرح السؤال. أنجيلو الذي انضمّ إليّ هو الذي تكفّل بذلك نيابةً عنّي.

– ألم ترَ ببّغاءً أبيض اللون من صنف الكوكاتو؟

تعرّفتُ إلى فصيلة القطّ الضخم وأنا أتذكّر ما كنتُ قد قرأتُ عنه ورأيته في موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق: إنّه قطٌّ أمريكي قصير الشعر. أجاب على سؤال أنجيلو:

– أهو حيوانٌ ثرثارٌ بعض الشيء؟ في الواقع، رأيته.

عبستُ.

– وهل تعرف أين هو؟

– بالطبع.

– أين؟

– في بطني.

تفوّه بكلماته دون أدنى سخرية.

أصابتني كلماته بالهلع.

فبعد الأسد هانيبال، وقطّ الشارتروه فولفغانغ، والقطّ سفينكس، وكذلك الكائنة البشرية باتريسيا، والخِنْزير بادينتر، وكلب البوردر كولي نابليون، ومن ثمّ فيثاغورس، ها قد مات الآن الببغاء شامبليون، مقتولًا لا على أيدي أعدائنا بل من قبل من يُفترَضُ أنّهم حلفاؤنا.

سأل:

– هل كنتم تعرفونه شخصيًّا؟

قال أنجيلو:

– كان صديقًا.

– آه، آسف. ولكن ما إن يصل الطعام إليّ مباشرةً، لن أقيم حسابًا للرسميات. بشكلٍ عام، لا تغامر الحمامات بالصعود إلى هذا الارتفاع وهي تعلم أنني هنا. أمّا هذا الببغاء، فيبدو أنّه لم يكن على علمٍ بوجودي. علاوة على ذلك، لم يكفّ عن الكلام والثرثرة وأنا لم أفهم شيئًا ممّا قاله. هل كان مهمًّا؟ لا أدري ما الذي كان يريدُ إيصاله ولكنني وجدتُ أنّ له فائدة أكبر.

انقضضتُ على ذاك القطّ الأمريكي ذي الشعر القصير وانهلتُ عليه بضرباتٍ من قوائمي. وقد بوغِتَ كثيرًا إلى درجة أنّه لم يفكّر حتى في الدفاع عن نفسه. عضضتُ أذنيه، وغرزتُ أنيابي في ظهره. كان ضخم الحجم ولم يشعر حتى بالألم. دافع عن نفسه بتكاسل. والأنكى هو أنّه، بدل أن يموء ألمًا أو غضبًا، راح يتجشّأ مصدرًا روائح بدت لي أنّها منبعثة من صديقي الكوكاتو الراحل.

وفي النهاية جاء الكائن البشري ذو الشعر الأشقر الطويل ليفصل بيننا.

ثمّ أمسكتني ناتالي من جلد رقبتي فمنعتني هذه الوضعية من الضرب بل حتى من المقاومة. إلا أنني بقيتُ غاضبة. وأطلقتُ تنهيدة طويلة تعبيرًا عن عجزي.

لقد خسرتُ سريعًا جدًّا الكثيرين ممّن كانوا معي.

سمعتُ من بعيد أنّ أسميرالدا ورومان قد وصلا بدورهما إلى قمّة المبنى.

انتفضتُ، وحاولتُ أن أستعيد شيئًا من كرامتي، فأدرتُ ظهري لقاتل شامبليون وذهبتُ للانضمام إليهما.

وجدتُ أنّ آثار العضّات تغطّي جسديهما. سألتهما:

– هل جرى الأمرُ على ما يُرام؟

أجابت أسميرالدا التي كانت الدماء تنزفُ من خطمها:

– بما أنّ الكرسي استغرق وقتًا في العودة إلينا، اضطررنا للقتال بعض الوقت. ولكن لا بأس، فنحن أحياء.

رأيتُ آثار الأنياب ظاهرة على رومان أيضًا، وثيابه ممزّقة.

أضافت القطّة السوداء ذات العينين الصفراوين:

– أنا سعيدة لأننا أصبحنا في مأمنٍ أخيرًا. كنّا على وَشْك الفشل في الوصول إلى هنا.

ألقت نظرات قلقة على ما حولنا.

– وأين فيثاغورس؟

إذا كانت هناك جملة لا ينبغي لفظها، كانت هذه الجملة.

يا لها من غبيّة أسميرالدا هذه.

وبدل أن أُجيب على سؤالها، هربتُ نحو الحرف الآخر من السطح. من هناك، رأيتُ أبراج نيويورك التي كانت لا تزال مضاءة بالقمر المكتمل بدرًا وانحنيتُ لكي أحاول تخيّل ما شعر به فيثاغورس وهو يسقط.

وماذا لو ألقيتُ بنفسي لكي ينتهي كلّ شيء؟

ولكنني رفعتُ رأسي.

يجب التفكير بشيءٍ آخر.

نظرتُ إلى بعيد. لم يكن هناك غير المحيط الشاسع من جانبٍ وناطحات السحاب المذهلة من جانبٍ آخر.

أعتقدُ أنني أكره أمريكا.

10. ما قدّمته أمريكا لأوروبا وما أخذته منها

ها هو ما قدّمته أمريكا لأوروبا بعد رحلات كريستوف كولومبس.

البطاطا: زُرِعَت البطاطا في بوليفيا والبيرو وتشيلي تحت اسم البطاطس وأسهمت في وضع حدٍّ للمجاعة في أوروبا. الذرة: وكانت للذرة ألوانٌ أخرى غير اللون الذي اعتدنا عليه اليوم: الذرة الزرقاء والحمراء والبيضاء والسوداء؛ وكانت الغذاء الرئيسي للهنود الحمر الذين كانوا يستخدمونها على شكل طحين. الطماطم: كانت تُعدُّ في أوروبا غذاءً سامًّا مخصّصًا للاستخدام الطبي، ولم تُستَهلَك كغذاء حقيقي إلا بدءًا من عام 1780. الفانيليا: وهي تُستخرَج من ثمرة زهرة أوركيد استوائية في أمريكا الوسطى، تنمو وتتعرّش مثل اللبلاب على مسندٍ. الأناناس: وقد اكتُشِفَ في غوادلوب. الكاكاو: كانت شعوب المايا والأزتيك تستخرج منه شرابًا مرًّا (شوكوتل) مثيرًا للرغبة الجنسية أو منشّطًا للمحاربين وكانت حبوبه تُستخدَمُ نقودًا. الفول السوداني: لقد عُثِرَ على نباته وبذوره في مقابر ما قبل كولومبية. القرع والكوسا واليقطين وقرع العسل: وكانت هذه القرعيات تأتي بمعظمها من المكسيك. ديك الحبش: ويُسمّى في الأصل «الدجاج الهندي»، وقد دُجِّنَ من قبل شعب

المايا منذ الألفية الأولى قبل الميلاد. الفاصولياء: ومنشأها من الإكوادور وبوليفيا والبيرو. الفلفل الحار والفلفل: جاءا من كوبا والمكسيك. ويمكننا أن نذكر أيضًا: عبّاد الشمس، والباباي، والقلقاس، والكينكينا، والصبّار، والأفوكا، ودون أن ننسى بالطبع التبغ.

وهناك أيضًا إسهامات سلبية: السفلس، وهو مرض تناسلي معدٍ، ألحق أضرارًا كبيرة بالشعوب الأوروبية وضرب (وغالبًا قتل) الملايين من السكان. من بين ضحاياه: موتسارت، بيتهوفن، موباسان، بودلير، رامبو، فلوبير، فيدو، غوغان، تولوز لوتريك، شوبير، باغانيني، شومان، آل كابوني، لينين، موسوليني، ستالين.

ها هو ما قدّمته أوروبا لأمريكا بدءًا من عام 1492: الأسلحة النارية؛ الخيول التي استخدمت للركوب؛ الدين التوحيدي المسيحي؛ داء الحصبة؛ داء الخنّاق، الإنفلونزا؛ التيفوئيد، السعال الديكي، الجدري (وهذا المرض الأخير على نحوٍ خاصّ كان قاتلًا). وتُشير التقديرات إلى أنّ هذه الأوبئة الناجمة عن هذه الآفات الصادرة من أوروبا قد أهلكت ثلاثة أرباع السكان من الهنود الحمر.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

11. في أعلى البرج

طلع النهار ورأيتُ عبر الزجاج الشمس التي بدأت تُضيءُ العمارات.

أوه كلا، هذا لم يكن كابوسًا. أنا في أمريكا، وفيثاغورس مات...

انتفضتُ لكي أتخلّص من كلّ تلك الصور التي تدافعت في ذهني.

نظرتُ حولي واكتشفتُ أنني نمتُ متكوّرة على نفسي في حضن خادمتي البشرية، التي كانت متكوّرة بدورها في حضن ذَكَرها رومان. وكان ابني أنجيلو ملتصقًا ببطني كما لو أنّه يريد أن يرضع من أثدائي من جديد.

انسحبتُ وأجريتُ طقوسي المعتادة في التمطّي عند الاستيقاظ ومن ثمّ الذهاب إلى التواليت الصباحي.

عليّ ألا أعود إلى التفكير بما حدث.

لا بدّ أن تستعيد الحياة مجراها. لا يمكنني أن أواصل هدر كلّ طاقتي في هذا الحداد. عليّ أن أهتمّ بأمر الأحياء.

– صباح الخير، يا أنتِ!

التفتُّ، مدهوشةً. منِ الذي يخاطبني هكذا، وعلاوة على ذلك رافعًا الكلفة؟

تبًّا، إنّه الأمريكي الشنيع القصير الشعر الذي أكل شامبليون.

لم أكلّف نفسي حتى عناء الردّ عليه. مرّرتُ قائمتي اليسرى خلف رأسي وواصلتُ تبرّزي، عارضةً في هذه الوضعية مؤخّرتي لكي أُظهِرَ له أنني لا أرغب في التجاوب معه.

– لا أحمل ضغينة بسبب ما حدث بالأمس. أُدركُ أنّكِ كنتِ متوتّرة بعد الرحلة ببكرة الانزلاق بالحبل الناقل. كان عليّ أن أكون أكثر بعدًا عنكِ.

كان عليك بالأحرى أن تتجنّب التهام صديقي.

خرجتُ من الغرفة لكنّه لحق بي.

– لقد أخبرتني أسميرالدا بأنّك غاضبة منّي لأنني أكلتُ الببغاء.

والأنكى هو أنه أصبح صديقًا لهذه الساقطة.

توجّهتُ نحو الدرج الذي رأيته غير بعيدٍ.

ظلّ القطّ الأمريكي ذو الشعر القصير يسير ورائي.

– لكي تغفري لي، ربّما تكون لديّ هديّة أقدّمها لكِ. في الحقيقة، لم تتركي فرصة لكي أخبركِ بذلك، ولكن طالما أنّكِ تحبّين هذا الببغاء إلى هذه الدرجة، لا بأس، لقد بقيت بعض القطع منه أخفيتها...

أعتقد أنني سأقتله.

– أقدّمها لكِ بطيبة خاطر. هنا، نحن نتميّز بحسن الضيافة.

لو تفوّه بكلمةٍ أخرى لنحرته.

عليّ أن أتمالك نفسي. لا يمكننا أن نصل إلى قارةٍ جديدة ونقتل أحد ممثليها في الحال.

- هل ضايقتُكِ؟ أشعر بأنني ضايقتكِ. يقول لي أصدقائي إنّني أرعن في بعض الأحيان.

يجب أن أتمالك أعصابي. كان هناك الكثير من الجثث كجثّة شامبليون.

- حسنًا، أشعرُ بأنّكِ لا ترغبين في تناول لحم الببغاء. لا يمكن الجدال بشأن الأذواق والألوان. إذا كنتِ تبحثين عن مكانٍ يمكنكِ أن تأكلي فيه «شيئًا آخر»، يمكنني أن أدلّكِ عليه. إنّه في الطابق الذي يعلونا مباشرةً، ولكنني أحذّركِ: بالنسبة إلينا، نحن القطط، تمامًا كما هي الحال بالنسبة إليهم، هم البشر، لا يوجد سِوى مصدر وحيد للبروتينات، الجرذ. هم يتناولونه مطبوخًا! ولكن لديهم الخضراوات، أمّا أنا، فلا أحبّ الخضراوات. يبدو أنّ هناك مؤخّرًا بعض القطط النباتية. لا يمكنني أن أصدّق ذلك. ألستِ نباتية، أنتِ أيضًا؟

لا تقتليه.

- ومع ذلك، كان لصديقكِ الببغاء مذاقٌ طيّب.

لدى الوصول إلى الطابق العلوي، اكتشفتُ ما يشبه مطعمًا صغيرًا يتناول فيه البشر الذين استيقظوا باكرًا جرذانًا مشويّة على السيخ، في حين كانت قططٌ أخرى، وجميعها ضخمة، تلتهم جرذانًا نيّئة.

راح القطّ الأمريكي ذو الشعر القصير وجلب لي جرذًا طازجًا وقدّمه لي كقربانٍ.

ربّما يعتقد أنّه يشتريني بهداياه.

- لا أدري إن كنتُ أخبرتكِ من قبل ولكنّني أُدعى بوكوفسكي. وأنتِ؟

بوكوفسكي؟ *لقد سبق أن رأيتُ هذا الاسم في مكانٍ ما.*

نعم، لقد تذكّرت، الآن (لقد قرأتُه في موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق). كان هذا اسم شاعر أمريكي شهير مدمن على الكحول.

تظاهرتُ بأنّني لم أجد جرذه شهيًّا بما فيه الكفاية، ولكن لأنّ كلّ هذه الانفعالات أزعجتني بعض الشيء، ولأنّني كنتُ جائعة جدًّا، لم أستطع الامتناع عن قضم فخذ الجرذ بأسناني.

أعتقد أنّكم أنتم أيضًا، لا بدّ أنّكم قد عرفتم هذا الشعور باللقمة الأولى

من جرذٍ حينما كنتم جوعى. إنّ لحمه مالحٌ وحامضٌ بعض الشيء في آنٍ واحدٍ. ثمّ ينزلق في الحلق. أنا أعلم أنّ هناك من يستلذّ بتناول الآذان الصغيرة الدائرية المطاطية قبل الانقضاض على الأفخاذ المفتولة العضلات. أمّا أنا، فالخطم هو ما أحتفظُ به لأتناوله في الأخير. إنّه طريّ ومالح ومليء بالعصارة. ثمّ، حينما أجوع مرّة أخرى، أتناول الذيل تقريبًا بنفس الطريقة التي يمتصّ بها البشر السباغيتي.

بعد اللقمة الأولى، أدركتُ أنّ الجرذ الأمريكي ليس له نفس مذاق الجرذ الفرنسي. إنّه أكثرُ... حلاوةً. هذا ربّما لأنّ بقايا الطعام التي يرميها البشر الأمريكيون في الحاويات أكثر حلاوةً. وينعكس هذا على مذاق قوارضهم.

راقبني بوكوفسكي وأنا أتناول الجرذ. أكّد لي هذا الشاعر:

– أشعرُ بأنّكِ لا تزالين غاضبة منّي. أنا آسفٌ بكلّ صدق على تناولي لصديقكِ. لم أكن أعلم. لو أنني أستطيع تقيّؤه لكي يستعيد حياته، لفعلتُ ذلك دون تردّد.

أكلتُ بصخب، وأنا أقضم عظامًا صغيرة بين أضراسي.

– هل لديكِ ذكرٌ معتمدٌ أم أنّكِ حرّة؟

عليّ ألا أعود إلى التفكير في فيثاغورس. عليّ أن أبتعد عن هذا المعتوه.

من بعيد، لاحظتُ أنّ ناتالي ورومان يُناقِشان المرأة الشقراء التي استقبلتهما. ذهبتُ خُلْسَةً للانضمام إليهما واستقررتُ على ركبتي خادمتي لأصغي إلى حديثهما على نحوٍ أفضل.

–... حكايتكم لا تُصدّق. القول إنّكم قد عبرتم المحيط الأطلسي بسفينة شراعية مع قططٍ وخنازير وكلابٍ! أنا لا أصدّق هذا! أنا آسفة جدًّا لأنني لم أخبركما. اسمي إديث كولدستاين. يمكنكم بالطبع البقاء معنا قدر ما تشاؤون.

– ولكن أخبريني، يا إديث، لقد روينا لكم الوضع في فرنسا، ولكن هنا، ما الذي حدث بالضبط؟

– حسنًا، لقد حدث نفس ما حدث في بلادكم تقريبًا. الأزمة الاجتماعية

في أوروبا نقلت العدوى في النهاية إلى الولايات المتّحدة. هنا، الحرب الأهلية لم تكن ناجمة عن معارضة العلمانيين والمتديّنين، أو الفقراء ضدّ الأثرياء، بل كانت بالأحرى سلسلة من الصراعات المتوازية بين مختلف الجماعات الإثنية التي تشكّل فسيفساء أمّتنا. وقد أُطلق عليها تسمية «حرب القبائل». انتظم الناس وتجمّعوا بحسب أصولهم الإثنية (السود، الصينيون، اللاتينيون، الإيرلنديون، الإيطاليون، الألمان، الهنود الحمر، اليابانيون، الكوريون)، وبحسب انتماءاتهم الدينية والطائفية (البروتستانت، الكاثوليك، اليهود، المسلمون، الهندوس، العقلانيون) ولكن أيضًا بحسب النمط الثقافي (الجمهوريون، الديمقراطيون، الشيوعيون، الفوضويون، الهيبيون، البانكيون، مغنو الروك، القوطيون، التكنوقراط). كانت حرب القبائل حقبة من الفوضى العارمة على كامل التراب الوطني. تمامًا مثلما حدث عندكم في أوروبا، توقّفت النظم الإدارية والتنظيمية تدريجيًّا عن العمل بشكلٍ سليم ثمّ توقّفت عن العمل بشكلٍ كامل. تراكمت جبالٌ من القُمامة في المدن الكبرى. خرجت الجرذان من جحورها في الأقبية وأنفاق المترو والمجاري لتزحف بين هذه الأكوام من القُمامة. تقاتلت الجرذان السوداء والرمادية والبنّية وقد انتصرت هذه الأخيرة في النهاية. ولأنّ هذه الجرذان ناقلة للأمراض، وخاصّة نفس الطاعون المتحوّر الذي ضرب أوروبا، بدأ البشر يمرضون ويموتون. وتمامًا مثلما حدث عندكم، لم تعد أمام العلماء فرصة العمل بهدوء وأمان بحيث لم يستطيعوا اكتشاف لقاحٍ فاعلٍ. وبالتالي فتك الطاعون تدريجيًا بالبشر من السكان الأمريكيين. ومع ذلك، سعى فريقٌ صغيرٌ من الباحثين في جامعة نيويورك، وكنتُ جزءًا منه، إلى تركيب سمٍّ قاتلٍ للجرذان، بدل اكتشاف لقاحٍ مضادٍ للطاعون.

واصلت إديث كولدستاين:

– بدأنا بتطوير عقّارات كيميائية قاتلة للجرذان أساسها الزرنيخ، والسيانيد، والفينول، والفوسجين. ثمّ جرّبنا السموم ذات التركيب الأكثر تعقيدًا مثل: الكورار، وسمين البوتيولينام، والريسين، والموسكارين. ولكن ظلّ الفشل نفسه يرافقنا. فسعينا إلى اكتشاف عقّار قاتل للجرذان من جيلٍ جديدٍ قادرٍ على التحايل على إجراءات الحجر الصحي للجرذان. لقد

استلهمنا من السموم القاتلة التي تستخدمها أجهزة الاستخبارات الروسية في اغتيال المنشقين عنها. وهي سمومٌ تستخدم موادَّ مشعّة مأخوذة من المراكز النووية. ويتطلّب الحصول على هذه المواد بالطبع الوصول إلى المراكز النووية ولكن كان من الممكن الحصول عليها. فصنعنا سمومًا مشعّة. وقد نجحنا في الأمر، لكنّ الجرذان تكيّفت مع هذه السموم أيضًا.

تنهّد رومان ويلز:

– للأسف.

– بيد أنّني، كعالمة في علم الأحياء وعلم الوراثة، اقترحتُ أن نجرّب شيئًا أكثر تطوّرًا: تقنية تُدعى كريسبر (التكرارات العنقودية المتناظرة القصيرة المنتظمة التباعد).

سأل رومان:

– نوعٌ من التقطيع وإعادة برمجة الحمض النووي DNA كما لو أنّ الأمر يتعلّق بمعالجة نصّ، أليس كذلك؟

– هذا اختصاصي. فطرحتُ مشروعًا. وأسميته «بروميثيوس» في إشارة إلى أسطورة بروميثيوس الإغريقية.

علّق الفرنسي:

– ذاك العملاق من حكماء التايتن المحكوم عليه بأن يأتي كلّ صباح نسرٌ عملاق يلتهم كبده... ولأنّ الكبد ينمو من جديد، كان عقابه أبديًا.

– أردنا أن يُتلَف كبد الجرذان، وهو أحد الأعضاء الأكثر هشاشة في جسمها، بأسرع من أن ينمو. «أعدتُ برمجة» الحمض النووي DNA المتحوّر وأدمجته بفيروسٍ بسيطٍ للإنفلونزا. ثمّ حقنّا فيروس الإنفلونزا هذا في بعض الجرذان وأطلقناها. وقد نقلت، من خلال العطس، الفيروس المحوِّل للحمض النووي لمتلقيه.

خلصتْ ناتالي إلى القول:

– لقد اخترعتم وباءً للإنفلونزا لتدمير أكبادها، أهذا هو المقصود؟

– كانت الجرذان تموت دون أن تستطيع معرفة المادة التي تقتلها لأنّها كانت الحمض النووي خاصّتها.

- وهل نجح ذلك؟

- عبثًا وضعت الجرذان في الحجر الأفراد الذين ظهرت عليهم اضطرابات، فقد جاء هذا الإجراء متأخّرًا. أمّا الجرذان الناجية فقد غادرت مانهاتن.

تذكّر رومان:

- وفي هذه الفترة أعلنت جامعة نيويورك، التي كانت على صلةٍ بجامعة أورسيه في فرنسا، أنّها قد وجدت حلًّا فاعلًا.

ردّت إديث بالإيجاب:

- نعم، ولكن فيروس الحاسوب **الله أقوى من العلم**، الذي أطلقه المتطرفون الدينيون، ضرب الإنترنت وانقطع الاتصال بين الولايات المتّحدة وفرنسا. لم نستطع أن نشرح صيغتنا التي تسمح بصناعة العقّار القاتل للجرذان العالمي...

قالت ناتالي:

- وهذا ما يفسّر أننا اعتقدنا أنّكم نجحتم في....

- بعد مضي بضعة أسابيع، ظهر حشدٌ من الجرذان لتغزو من جديد مانهاتن. وكانت هذه الجرذان قد أصبحت منيعة على عقّار بروميثيوس.

- استطاعتْ أن تجد مَخْرجًا؟

- نعم، ووقعت مدينة نيويورك مرّة أخرى تحت سيطرة هذه القوارض الأكثر تصميمًا. لجأنا إلى الأبراج العالية وقُمنا بسدّ كلّ منافذ الأقبية والطوابق الأرضية. وبنينا بذلك مجتمعًا بشريًا يعيش فقط في الأعالي، ومقطوع الصلة تمامًا مع الأرض.

التفت بوكوفسكي نحوي وهمس بلطف:

- هل يمكننا أن نتحدّث، نحن الاثنين؟

- ترى جيّدًا أنّني مشغولة.

هبطت أذناه في الحال في إشارة على إحباطه، ولأنني خرخرتُ في وجهه مكشّرةً عن أنيابي، أذعن للخروج من مجالي البصري والشمّي.

أعدتُ التركيز على حديث إديث وناتالي.

– لقد بنينا عالمًا معلّقًا. وأقمنا شبكة من بكرات الانزلاق بالحبال الناقلة لربط سكان الأبراج بعضهم مع بعض. وينتقل البشر بهذه الطريقة من عمارة إلى أخرى على مقاعد ذات بكراتٍ. وعليهم أن يتحاشوا السقوط وإلّا لن تدعهم الجرذان يعيشون طويلًا.

المصير الذي لا بدّ أنّ فيثاغورس قد لاقاه...

– علاوة على بكرات الانزلاق بالحبال الناقلة، أنشأنا نظامًا للمسيّرات. إنّها ذاتية الشحن ومزوّدة بسطحٍ من الخلايا الفوتوفولتية لكي تعمل بالطاقة الشمسية. في النهار، تشحن نفسها تلقائيًا بالطاقة الشمسية، وخاصّة إذا كان الطقس مشمسًا. وفي الليل، تعمل ذاتيًا مدّة ساعة واحدة باستخدام الطاقة المخزّنة.

– مسيّرات؟ لا بدّ أنّها ثمينة في عالمٍ لا يحقّ للمرء فيه أن يلامس الأرض.

– لحسن الحظّ، قبل أن تغزو الجرذان كلّ شيء، استطعنا أن نحصل على المئات من المسيّرات من إحدى منصّات البيع بالتجزئة التي كانت تستخدمها في تسليم الطرود البريدية.

– وبهذه الطريقة استطعتم أن ترسلوا لنا بكرات الانزلاق بالحبال الناقلة...

– إنّها وسيلتنا الفضلى لنقل الأشياء الصغيرة ولكن أيضًا للتصرّف عن بعد دون أن نتعرّض للخطر. كما عثرنا في مبنى إمباير ستيت على مسيّرات كانت تُستخدم في إعداد التقارير التلفزيونية. وهي مزوّدة بآلات تصوير. وبفضل هذه المعدّات نراقب نشاط الجرذان. وقد استطعنا أن نرصد بعض الجرذان التي نطلق عليها لقب «البارونات». وهي تتزعّم المجموعات المحليّة. إنّها أكبر حجمًا من سواها وأشدّ قوّة. وهي التي تُعطي الأوامر. والذكور الآخرون يخافون منها ويُطيعون أوامرها.

علّقت ناتالي:

– البارونات؟ في الواقع، مجتمعها يشبه مجتمعًا قروسطيًا.

– ذات يوم، اكتشفت فرقنا المزوّدة بكاميرات الفيديو تجمّعًا مؤلّفًا من هذه البارونات الشهيرة فقط. كان يقف في وسطها جرذٌ ضخم يُعادلُ حجمه ضعف حجم الجرذان الأخرى. وقد تمكّنّا من تصويره.

عرضتْ إديث على هاتفها المحمول مقطعًا مصوّرًا. جثمتُ على كتف خادمتي لكي أشاهد بدوري الشاشة الصغيرة.

بعد مقطعٍ واسعٍ تظهرُ فيه مجموعة الجرذان، تركّزت عدسة الكاميرا على جرذٍ سمين.

– هذا هو مَلِك جرذان مانهاتن. وكما ترون، البارونات كلّها في وضعية خضوعٍ أمامه. أطلقنا عليه اسم آل كابوني كناية عن اسم مَلِك المافيا في نيويورك خلال أعوام الثلاثينيات من القرن العشرين.

سأل رومان:

– هناك سؤالٌ عمليٌّ صغير: نحن في أيّ برجٍ وعلى أيّ ارتفاع؟

نهضت إديث عندئذٍ واقترحت الصعود إلى آخر طابقٍ في المبنى. فلحقتُ بهم.

هناك في الأعلى، اقتربوا من الحافة المحيطة بقمّة البرج. وقفتُ على تلك الحافة وأنا أصغي إليهم.

– نحن هنا في الحيّ الماليّ في مانهاتن، الواقع على ويست ستريت. وهو مؤلّف من أربعة مبانٍ. والمبنى الذي ترونه أمامنا هو البرج رقم 1، المعروف بسطحه المربّع. يبلغ ارتفاعه 176 مترًا. وفي هذا المبنى كان يقع بنك ليمان برادرز قبل إفلاسه إلى جانب مؤسسات أخرى. أمّا برجنا فهو البرج رقم 2، وهو فايننشال تاور. وهو مؤلّف من 44 طابقًا ويبلغ ارتفاعه 197 مترًا. وكان يضمّ مقرّات شركات كوميرز بنك ومجموعة نومورا اليابانية. على الجانب الآخر، البرج رقم 3، ويبلغ ارتفاعه 225 مترًا، وهو مقرّ شركة أمريكان إكسبريس، ويتميّز بسطحه المصمّم على شكل هرم. وأخيرًا، البرج رقم 4، ويبلغ ارتفاعه 152 مترًا، وسطحه مصمّم من عدّة طوابق مربّعة، حيث كان يقع بنك ميريل لينش. أمامكم الآن القلب المالي القديم لمدينة نيويورك بأكمله.

تبًّا، إذا كنتُ قد فهمت الحديث جيّدًا، نحن الآن على ارتفاع 197 مترًا.

تفقّدتُ الجوار. وجدتُ أنّ كابلات تربط برجنا بالمباني الأخرى، وحينما ارتفعت الشمسُ في الأفق، انطلق بشرٌ على هذه الكابلات للانتقال من مبنى إلى آخر.

عندما تكون نقطة الانطلاق أعلى من نقطة الوصول، ينزلقون نحو الأسفل. وحينما تكون الحالة معاكسة، يُسحَبون بواسطة بكرات شبيهة بالتي أتاحت لنا الوصول إلى هذا المكان.

لمّا انحنيتُ، لمحتُ الأرض التي تعجّ بالجرذان.

سرتْ رياح الارتفاع عبر فرائي.

نظرتُ إلى ما هو أبعد. فبدت لي المدن الأمريكية الكبرى التي انتصبت أمامي مدهشة بمبانيها، مثل أشجارٍ مربّعة الشكل تشكّل غابة رمادية. بدت هذه المدينة باردة جدًّا، كئيبة جدًّا وهندسيّة جدًّا.

كيف يمكن للمرء أن يتحمّل كونه بعيدًا جدًّا عن الطبيعة؟

من المؤكّد أنّه ليس بوسع قطٍّ القفز من إحدى هذه النوافذ والسقوط سليمًا على قوائمه.

كيف يمكن للمرء العيش دون أن يُلامس الأرض؟

قدّمت إديث بعض الشروحات الأخرى:

– هناك مجموعة من العلماء تحاول أن تخترع مضادًا لفيروسات الحواسيب لإقامة الصلات والتواصل بين الجماعات البشرية الناجية.

وأوضحت، قائلةً:

– علينا أن نتحرّر بأيّ ثمنٍ من الجرذان وأن نعاود الاتصال مع الجميع. إنّها مسألة وقتٍ وحافزٍ لا غير.

سألت ناتالي:

– كم عدد البشر في مانهاتن؟

– قبل الانهيار الكبير، كان يعيش على هذه الجزيرة مليونان من البشر. الآن، بحسب آخر إحصاءٍ سكّاني أجريناه، لم يبق سِوى أربعين ألف نسمة.

– وما هو عدد المباني التي يقيمون فيها؟

– تضمّ نيويورك أكثر بقليل من مئتي مبنى يبلغ ارتفاعها 150 مترًا. وقد هجر السكان المباني التي يقلّ ارتفاعها عن ذلك، خشية تمكّن الجرذان ذات يومٍ من تسلّق واجهاتها.

– وهذا يعني أنّ كلّ برج يضمّ وسطيًّا مئتي نسمة، أليس كذلك؟

- هناك تباين كبير بين عدد سكان كلّ مبنى. هنا في هذا المبنى، يبلغ عددنا ثلاثمئة شخص، وكانت هناك أبراجٌ أخرى يُقيم فيها عددٌ أقلّ، ثمّ هناك البرج الأعلى ارتفاعًا، مبنى مركز التجارة العالمي 1 الذي يضمّ وحده عشرة آلاف نسمة.

سألتُ:

- وكم من القطط؟

ترجمت ناتالي سؤالي:

- اليوم، ثمانية آلاف قطٍّ وخمسة آلاف كلبٍ. هنا فقط، ثمانمئة قطّ وقطّة.

لن أتمكّن قطّ من حفظ هذه الأرقام. حفظتُ فقط العدد ثمانية آلاف قطّ وقطّة. ثمّ دار في خلدي الشيء التالي: في حين كنتُ أعيشُ في فرنسا في عالمٍ أفقي، نحن الآن هنا في عالمٍ عموديٍّ، إذا سقطنا منه لن نقع على قوائمنا وسوف تُنهَشُ أجسادنا بالأنيابِ القاطعة كالشفرات.

- نحن جميعًا نتغذّى على لحم الجرذان ولكن أيضًا على الفطور التي نستنبتُها في الطوابق السفلية، ثمّ على بعض زراعات الخضروات والفواكه التي نزرعها فوق الأسطح، ولكنّها تنبتُ على نحوٍ أبطأ من الفطور. وكمصدر للطاقة، نستخدم هذه الألواح الشمسية والعنفات الهوائية؛ أمّا بالنسبة إلى احتياجاتنا من المياه، فلدينا الخزانات التي تتجمّع فيها مياه الأمطار.

سألت ناتالي:

- ألا تخشون أن تصعد الجرذان إليكم؟

- لا تستطيع تسلّق الواجهات الزجاجية لأنّ مخالبها لا تعلق بها، ثمّ إنّنا سددنا بالإسمنت كلّ شبكات الأنابيب التي تُستخدَم للتكييف أو التهوية أو المياه الجارية أو المراحيض أو لنقل القُمامة. كلّ شيء يتمّ الآن في الأعلى.

سأل رومان:

- وحينما يصبح هناك الكثير من القُمامة والنفايات؟

- لدينا نظام للتنظيم الذاتي بفضله تُستخدَم فضلاتنا ونفاياتنا العضوية والمياه المستعملة كسماد لمزروعاتنا.

تفحّصتُ هذا العالم من الأبراج وبكرات الانزلاق بالحبال الناقلة

والمسيّرات. عالمٌ مبنيٌّ بالتأكيد لتجنّب الجرذان، ولكنّني لم أشعر فيه بالراحة على الإطلاق لأنني لا أستطيع القفز من سطحٍ إلى آخر.

هنا، لن أستطيع الفرار في حال دَهمنا خطرٌ مفاجئ.

انضممتُ إلى الآخرين الذين كانوا قد نزلوا إلى الطوابق السفلية التي تقع فيها الغرفة التي أسكنونا فيها. وهناك، حينما وصلتُ أمام الباب، سمعتُ شيئًا مفاجئًا: ناتالي ورومان كانا يتحدّثان بعضهما مع بعض بصوتٍ عالٍ، فاقتربتُ منهما. استطعتُ أن أسمع ترجمة ما كانا يقولانه من خلال السمّاعة الأذنية التي كانت ناتالي قد وضعتها غير بعيدٍ عنها، والتي كانت لا تزال تعمل.

– ربّما تعتقد أنني لم أرَ كيف كنتَ تنظر إلى إديث هذه!

– ولكننا يا ناتالي، بالكاد وصلنا إلى هنا!

– لقد مضى أكثر من شهر ونحن معًا دائمًا وجهًا لوجه، وأنا أفهم أن ترغب في شيءٍ مختلف، ولكنّك هنا، كنت تنظر إليها بكثيرٍ من الرغبة!...

ثار غضب خادمتي.

سأل الذَكر البشري باندهاش:

– هل تغارين عليّ؟ هل تعتقدين أنّ هذا هو الوقت المناسب لذلك؟

– اسمع، قناعتي هي أنّ زواجنا انتهى، وبالتالي يمكنك أن تذهب وتنام مع «حبيبتك» إديث وأنا سأرى حياتي. هيّا انصرف!

وعند هذه الجملة، خرج رومان من الغرفة.

حككتُ بمخالبي الباب ورضيت خادمتي أخيرًا أن تفتح الباب.

كانت تبكي.

أخذتني بين ذراعيها.

– في النهاية، الرجال كلّهم مخيّبون للأمل وليس هناك من أحبّ سواكِ يا باستيت.

أثّر فيّ هذا التصريح كثيرًا، ومرّة أخرى، شعرتُ بأنّ حياتها ليس لها أيّ معنى من دوني. انسللتُ من بين ذراعيها وجلبتُ لها السمّاعة الأذنية لكي تفهم ما سأقوله لها.

- هل تغارين يا ناتالي؟

- إنّه يلقي نظرات غرامية على الأمريكية. وهي عالمة أحياء، فضلًا عن ذلك!... أنا أعلم أنّه مفتونٌ بكلّ النساء العالمات، في حين أنني لستُ سِوى مهندسة معمارية.

- ولكن ما الذي فعله، على نحوٍ دقيق؟

- لا شيء. أقصد، أجل: نظر إليها بعينين أرادتا أن تقولا كلّ شيء ودلّتا على أنّه يشتهيها. نحن النساء البشريات، نلاحظ ذلك في الحال.

- إذًا، هو لم يفعل شيئًا.

- لا يمكنكِ أن تفهمي هذا الأمر.

ستقول لي مرّة أخرى إنني لستُ إلّا قطّة.

- أنتِ لستِ إلّا قطّة. ثمّ إنّ العلاقات الغرامية عندكم مختلفة. لنقل إنّها «أكثر بساطة ومباشرة أكثر».

إنّها تعتقدُ أنني لا أُبدي أيّ مشاعر في علاقاتي.

- أنتِ، يا باستيت، لا تعرفين المشاعر البشرية.

لعقتُ دموعها.

في الواقع، تعتقدُ أنني نبيّة ربّما، ولكنّها تعتقدُ أيضًا أنني بلا قلب.

قرّرتُ ألّا أغضب.

قلتُ لها:

- بحسب ما أعلم، لم يقم رومان أي علاقة جنسية حتى الآن مع إديث. ألا تعتقدين أنّه كان عليكِ أوّلًا أن تنتظري إلى أن يغري هذه الأنثى الأمريكية قبل أن تلقي عليه اللوم؟

- سوف يفعل ذلك، هذا مؤكّد!

استنشقتُ نفحة كبيرة من الهواء.

كيف سأقنعها؟

- إذًا، تفضّلين توبيخه وتركه «مسبقًا»؟

- لديّ كبريائي.

– وماذا لو لم يحدث بينهما شيء؟

– بلى، سوف يحصل شيءٌ بينهما! إديث أجمل منّي، وأصغر سنًّا منّي، وأمريكية، وأكثر علمًا منّي، وأكثر... حداثةً. وقد رأيتُ كيف ينظر إليها، هذا أمرٌ حتمي. سوف يحصل.

– وماذا لو لم ترغب هي فيه؟

– سوف ترغب فيه من كلّ بدّ، وقد رأيتُ ذلك أيضًا في نظرتها.

في تلك اللحظة، فهمتُ مشكلة البشر: يُستخدَم خيالهم غالبًا في صنع شقائهم أكثر من سعادتهم.

يتخيّلون الله، في حين أنّهم يقتلون من لا يؤمن به.

يتخيّلون أنّ الكائن الذي يحبّونه يخدعهم، فيهجرونه.

نظرتُ إلى سيّدتي وكنتُ على وَشْك أن أسأل نفسي كيف لجنسٍ لا يستطيع حتى التفاهم في حياته الزوجية أن يستمرّ حتى يومنا هذا.

لا والأنكى أنّ هذا الشخص هو الذي حوّلني إلى ما أنا عليه الآن.

هنا، تبدو كأنّها طفلة صغيرة تخشى أن تُسرَق منها لعبتها.

– اسمعي يا ناتالي، أنا على قناعة بأنّ زوجكِ أقلّ ضعفًا ممّا تعتقدين. ثمّ إنّنا في مواجهة تحدّيات أكثر أهمية بكثير وعلينا أن نتصرّف بشأنها. نحن لا نزال نعاني تبعات انهيار حضارتكم وعلينا أن نحاول خلق مقاومة في مواجهة الجرذان التي غزتنا. إنّ المشكلات الوجودية التي تواجهنا تتجاوز بالضرورة أمزجتنا العاطفية، ألا تعتقدين ذلك؟

– لقد سبق لي أن عشتُ هذه الحالة، ولكن مع رجلٍ آخر. ولهذا السبب أنا أعرف ما الذي ستؤول إليه الأوضاع. كان هو الآخر يشبه رومان. لقد عشنا معًا ستّة أشهر، ثمّ قابل ذات يوم، وبنفس هذه الطريقة، امرأة شقراء مثل هذه الأمريكية وتركني لكي يذهب معها.

أجهشت من جديد بالبكاء.

إنّها لا تُصغي إليّ. إنّها لا تفعل غير إقناع نفسها بما تعتقده مسبقًا. حسنًا، سأكون قد حاولتُ على الأقلّ.

– هيّا انصرفي، دعيني وحدي.

أمسكت بي من جلد رقبتي، ثمّ وضعتني خلف الباب الذي أغلقته بإحكام، كما لو أنّها خشيتْ أن أُدير قبضته.

لقد خيّبت خادمتي أملي بعض الشيء، ولكنني أكثر ما تأسّفتُ له هو أنني لم أجد الكلمات المناسبة لكي أُطمئنها وأُقنعها.

أوه، ثمّ اللعنة، فأنا لستُ طبيبة نفسانية للأزواج!

صعدتُ إلى قمّة فايننشال تاور ونظرتُ مرّة أخرى إلى نيويورك.

جاء أنجيلو وأسميرالدا وانضمّا إليّ على حافة الحاجز ونظرا بدورهما إلى هذه المدينة المختلفة جدًّا عن باريس.

كانت الكابلات الموصولة بين البنايات تشكّل ما يشبه شبكة عنكبوت عملاقة. وكان البشر الجالسون في مقاعدهم المعلّقة بالحبال يلقون التحية بعضهم على بعض عن بعد.

وفي الأسفل تمامًا تُشاهد الجادات والشوارع الواسعة تجثم فيها سيارات وهياكل عظمية تغطّي عظامها أشلاء عضلية.

أعرفُ الآن أنّ هذه هي أمريكا...

على نحوٍ مفاجئ، بينما كنتُ أحدّق في الشمال الشرقي إلى البرج الذي كانت إديث قد أشارت إليه باسم أمباير ستيت بولدينغ، بدا لي أنّه يرتجف.

دار في خلدي أنّ هذا وهمٌ نظري ناجمٌ عن تعبي وعن الانفعالات التي انتابتني خلال الأيام الأخيرة، لكنّ البرج بدأ يهتزّ، ثمّ تمايل، كما في حركة تصويرية معادة ببطء، جانبًا وانهار محدثًا دويًّا هائلًا اهتزّت له الأرض. وبالتزامن مع ذلك، تصاعد عمودٌ هائل من الغُبار كما لو أنّه يحلّ محلّ البرج بسحابةٍ صوفية اللون.

أتمنى ألّا يكون قد حدث ما فكّرتُ فيه.

12. تاريخ نيويورك

في عام 1523، تمكّن المستكشف الفلورنسي جيوفاني دي فيرازانو من إقناع مَلِك فرنسا فرانسوا الأوّل بتمويل رحلة استكشافية لإيجاد ممرٍّ

عبر أمريكا بهدف الوصول إلى المحيط الهادئ. سار منطلقًا من دييب على متن سفينة شراعية، أسماها الدلفين، بمحاذاة الشاطئ الشرقي الأمريكي متوجّهًا نحو الشمال وتوقّف، في 17 أبريل/ نيسان 1524، في الخليج الذي سوف يُسمّى لاحقًا بخليج نيويورك.

كان أوّل مستكشفٍ أوروبي يكتشف الموقع، الذي أطلق عليه اسمًا فرنسيًّا: أنغوليم الجديدة، وذلك بالتحديد تكريمًا لراعيه فرانسوا الأوّل، الكونت أنغوليم. ولكنّه عاد إلى فرنسا ولم ينجح في القيام برحلة استكشافية ثانية. وكان الإنكليزي هنري هودسون هو الذي وصل إلى المكان في عام 1609، وهذه المرّة لمصلحة شركة الهند الشرقية الهولندية التجارية. اكتشف مصبّ النهر الذي سوف يُسمّى لاحقًا باسمه وأثار برواياته وقصصه عن المكان الرغبة لدى الهولنديين للاستقرار فيه. في عام 1916، بنى أدريان بلوك مستعمرة على الموقع الذي سيصبح في المستقبل موقع مدينة نيويورك، وقد أطلق عليها اسم أمستردام الجديدة. وقد وجد أنّ قبيلةً من الهنود الحمر تُقيم أصلًا في الجزيرة الرئيسية، مونسي (اسم مانهاتن يعني في لغتهم «الجزيرة الصغيرة»).

بدأ الاستعمار الهولندي في عام 1623 مع وصول ما يقرب من ثلاثين عائلة بروتستانتية. ولم تُبنَ مدينة أمستردام الجديدة رسميًّا إلّا في عام 1626 بعد أن اشترى بيتر مينوت أرضًا لقاء 60 فلوران هولنديًّا، وهو المبلغ الذي يعادل 25 يورو في يومنا هذا. راودت بيتر فكرة توحيد زعماء (ساشيمات) قبائل ديلاوير والسوسكيهانوك لكي يدمجهم في تطوّر المجتمع الجديد. وقد تجاوز عدد أفراد هذا المجتمع من أربعمئة إلى ألف وخمسمئة نسمة بين أعوام 1640 و1660.

في عام 1664، نشب نزاعٌ بين الإنكليز والهولنديين بسبب السيطرة على الطرق التجارية. احتشدت سفن حربية إنكليزية قبالة أمستردام الجديدة، التي استسلمت دون مقاومة. وتكريمًا لمَلِك إنكلترا تشارلز

الثاني، اتّخذت المدينة حينئذٍ اسم شقيقه، دوق يورك. فولدت نيويورك.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

13. الصعود إلى الأعلى

غزت رائحةُ غبارٍ حجري الهواء.

هُرِعَ البشر الذين كانوا من حولنا، أنا وأنجيلو وأسميرالدا، لكي ينظروا باتجاه ما حدث للتوّ.

شعرتُ بانفعالٍ كبير.

جاءت بعض القطط الأخرى وانضمّت إلينا لكي تشاهد هي الأخرى المشهد. وكان بوكوفسكي من بينها.

لم أشأ أن أضيّع وقتي في الحوار مع هذا الحيوان الذي أنفر منه بشدّة، فانضممتُ إلى سيّدتي التي كانت تراقب بالمنظار المقرّب المنطقة المُصابة.

أقلعت مسيّرات لكي تقترب من المكان وعلى الأرجح لكي تصوّره. سألتها:

– ماذا هناك؟ ما الذي يحدث؟

لم يُجبني أحد، في حين أنني، بعكس ذلك، أستطيع أن أفهمهم عندما يتحدّثون وأنا أسمع، حتى من بعيد، أصواتهم عبر السمّاعة الأذنية لناتالي.

تمتم رجلٌ عجوز:

– **مبنى أمباير ستيت بولدينغ!**

بدا أنّهم لا يصدّقون ما تراه أعينهم.

ردّدت إديث غولدستاين، التي بدت تحت صدمة المنظر:

– هُم نالوا من مبنى **أمباير ستيت بولدينغ!**

سألتُ مرّة أخرى:

– «هُم»؟ من هؤلاء «هُم»؟ الجرذان؟ لا أفهم كيف تستطيعُ جرذانٌ أن تهدم مبنى.

ولكن لم يُصغِ أحدٌ إليّ. تبدّد الغبارُ تدريجيًّا، وعرضت لنا المسيّرات، من خلال الشاشات الرقمية، المشهد عن كثب. شاهدنا جثثًا هامدة، تعود على الأرجح للبشر الذين كانوا يقيمون في البرج. كانت الجثث مستلقية ممزّقة وسط كتل الإسمنت، والجرذان تتغلغل بين الأنقاض والركام.

وأخيرًا رضيت ناتالي بأن تنزل منظارها وتمتمت:

– لقد استطاعت الجرذان أن تقضم بأنيابها أساسات مبنى أمباير ستيت بولدينغ حتى انهار البرج...

أضاف رومان:

– ما كان كينغ كونغ ليستطيع أنّ يدمّر هذا البرج بهذه الطريقة، ولكنّ الجرذان استطاعت فعل ذلك. ليست الحيوانات الضخمة ما ينبغي الخوف منها بل الصغيرة...

أجابت ناتالي:

– لقد درستُ هذا المبنى خلال دراستي للهندسة المعمارية في الجامعة. لقد بُني مبنى أمباير ستيت بولدينغ في عام 1930. وأساساته مكوّنة من كتل من الحجر الجيري. الجدران مبنية، أو بالأحرى «كانت» مبنية، من القرميد المصنوع من الإسمنت... هذه المواد هشّة وقابلة للتفتيت وهي ربّما غير قادرة على مقاومة أنياب القوارض. ولكن اطمئنّوا، فالبرج الذي نقيم فيه مبنيٌّ في عام 1987 من الخرسانة. وهو أمتن بكثير من البرج المنهار.

قلتُ:

– على أيّ حال، أنيابها متينة للغاية.

في الطابق الأخير، على شاشات الحواسيب المحمولة للبشر، أظهرت مشاهد الفيديو المصوّرة من قبل المسيّرات بزوايا مختلفة حجم الكارثة. طلبتُ من ناتالي أن تدعني أنظر بالمنظار وتبيّن لي حينئذٍ أنّ في قمّة الأبراج الثلاثة الأخرى في الحيّ المالي بشرٌ مذعورون ينظرون بدهشة باتجاه سحابة الغبار التي حلّت محلّ مبنى إمباير ستيت.

ثمّ سُمِعَت ضجّة ثانية.

انهار برجٌ آخر.

كان برجًا بعيدًا من جهة الشمال، وعلى الأرجح كان برجًا قديمًا، هو الآخر.

وجّهتُ المنظار نحو الأسفل. كانت مجموعاتٌ من الجرذان تجري في الشوارع مثل سيلٍ من دمٍ بنّي. تابعتُ بالنظر ذاك التيار: تجمّعت الجرذان أيضًا أسفل البرج رقم 1. وفعلت الأمر نفسه بالنسبة إلى البرج رقم 3 وكذلك البرج رقم 4. وحتى... أسفل برجنا!

كلا، هذا مستحيل. لقد قالت ناتالي إنّ مبنى إمباير ستيت انهار لأنه مبنى قديم جدًّا وأساساته مبنية من الحجر الجيري والجدران من القرميد والإسمنت، ولكن أساسات هذا المبنى من الخرسانة...

عادت مسيّرات لتصوّر الجرذان التي بدأت تقضم برجنا.

على الشاشات، رأيناها بوضوح وهي تنجح، بالآلاف، في غرز أنيابها في الجدران وتفتح فيها ثغراتٍ.

أسنانها أكثر متانةً من أساساتنا. ومن خلال التناوب على القضم في مجموعات، تصبح أكثر كفاءةً. لا شيء يوقفها. إنّها تشبه أمواجًا تنقضّ على جرفٍ صخري. ولكثرة تكرارها لنفس الحركة دون توقّف، سوف تنتهي بالنيل منّا.

قفزتُ في مكاني.

انطلقت صفّارة إنذارٍ من أربعة أقماعٍ معدنية ضخمة على السطح. دبّ الهلع في صفوف البشر، وساد القلق، بدرجةٍ أقلّ، بين الحيوانات الأخرى التي لم تفهم بعد ما الذي يحدث.

أعلنت إديث في مكبّرٍ للصوت:

- **إخلاءٌ فوري!!!**

دبّ ذعرٌ لا يوصف بين البشر الذين نقلوا قلقهم إلى القطط والكلاب.

انضمّ إلينا الآخرون من سكان برجنا على شرفة قمّة المبنى وتجمّع الجميع على الحافة الشرقية. كان ينطلق من هناك حبلٌ ناقلٌ نحو مبنى آخر أكثر ارتفاعًا بكثير.

ومن ثمّ جرى كلّ شيء سريعًا جدًّا.

عُلِّقتْ سلالٌ ببكرات الرافعات. وعلى عجلٍ، حاول البشر جمع ممتلكاتهم الأغلى قيمةً في حقائب ظهرية.

نظر إليّ أنجيلو وماء، قائلًا:

– أمّاه، لا أريدُ أن أهرب! أريدُ أن أقاتل، وأنا متأكّدٌ من أننا سنتغلّب على هذه الجرذان كما فعلنا مع الجرذان التي أرادت الصعود إلى سفينتنا الشراعية.

مَنْ وهبني ابنًا على هذه الدرجة من الحماقة؟

لم أعد أتذكّر جيّدًا من كان الأب لأنها كانت سهرة كُرِّمتُ فيها من قبل مجموعة كاملة من ذكور القطط الذين كانوا يعيشون فوق أسطح مباني مونمارتر.

ومع ذلك حاولتُ أن أكون مهذّبة في الردّ عليه.

– همم... إنّه لأمرٌ جيّد أن يكون المرءُ شجاعًا، يا أنجيلو، ولكن لا ينبغي لنا أن نخوض إلّا المعارك التي يمكننا الانتصار فيها.

على الرغم من الاستعجال في عملية الإجلاء، انتظرنا وقتًا طويلًا... لأننا، نحن الذين وصلنا مؤخّرًا، عُدنا بالطبع غرباء، ولذلك كنّا آخر من انتقلنا.

أزعجني الانتظار وأشعرني بالضجر، فصعدتُ إلى كتف خادمتي.

– إلى أين سنذهب؟

– إلى المكان الوحيد الذي سنكون فيه بأمان. مبنى مركز التجارة العالمي.

– ناطحة السحاب الأعلى؟

شرحت لي خادمتي:

– نعم. يبلغ ارتفاعها 541 مترًا. وتتألّف من مئة وأربعة طوابق. كما أنّه المبنى الأحدث، فقد بُني بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001، ويتمتّع بتقنية متطوّرة أكثر بكثير من المباني الأخرى.

– تُريدين القول إنّ هذا البرج سيستطيع أن يقاوم أنياب الجرذان؟

– هذا مؤكّد.

– حتى إذا كان عددها كبيرًا جدًّا؟

– بحسب رأيي، هذا هو البرج الوحيد الذي سيمكنه الصمود.

– اشرحي لي، من فضلكِ، يا سيّدتي. ليس لدي الوقت الكافي لكي أراجع الموسوعة ولكنني أُريدُ أن أعرف ما الذي يجعلكِ متأكّدة من متانة هذا البرج؟

– كلّ برجٍ مبنيٌّ من مواد البناء الأكثر صلابة في عصره. قبل الآن، كان القرميد الحجري ومن ثمّ القرميد والإسمنت، والآن، تُستخدَم الخرسانة. بيد أنّه هناك العديد من أنواع الخرسانة. الخرسانة العادية، الأقدم، لديها قدرة على المقاومة من 16 إلى 40 ميجا باسكال. وميجا باسكال هي وحدة قياس الضغط. ثمّ تأتي الخرسانة بي اتش بي، وهي خرسانة عالية الفاعليّة: لديها قدرة على المقاومة من 50 إلى 80 ميجا باسكال. ومن ثمّ خرسانة بي تي اتش بي، وهي خرسانة فائقة الفاعليّة: لديها قدرة على المقاومة من 80 إلى 100 ميجا باسكال.

تدخّلتُ بالسؤال:

– المبنى الذي نحن فيه مبنيّ من خرسانة بي تي اتش بي؟

أجابت ناتالي على سؤالي، وهي مدهوشة من أن تهتمّ قطّة بسيطة مثلي بالتحديد بمجال اختصاصها المفضّل في لحظة حرجة جدًّا:

– بالضبط. ولكن الجرذان لا تخشى من مهاجمته. وسوف تنجح في النهاية في جعله ينهار هو الآخر.

– والمكان الذي سنذهب إليه، هل خرسانته مختلفة؟

– مبنى مركز التجارة العالمي 1 مبني من خرسانة بي يو اتش بي، وهي خرسانة فائقة الفاعليّة للغاية. وهي أفضل أنواع الخرسانة على الإطلاق ولديها قدرة على المقاومة تصل إلى 250 ميجا باسكال. وهذه الخرسانة، على سبيل المثال، هي التي تُستخدَم في بناء المحطّات النووية.

هل من المفترَض أن يُطمئنني هذا الأمر؟

أبقيتُ عينًا على شاشة الفيديو التي يُشاهدُ فيها أسفل برجنا. بدأ الغبار بالتعتيم على الشاشة وراودني الشكّ في أنّ الجرذان تنقضّ على أساسات المبنى.

انتظرتُ دورنا على بكرة الانزلاق بالحبل الناقل الصاعد بمزيدٍ من التفلسف. وأخيرًا حان دورنا. أمسكت ناتالي بنا، أنا وأنجيلو، بين ذراعيها. وذهبت أسميرالدا مع رومان كما كانت قد اعتادت.

التصقنا بعضنا ببعض في حين أُعْطيت إشارة الانطلاق من كائنٍ بشريّ.

بدأ كرسيّنا بالتحرك وانطلقنا.

كان الارتفاع أعلى ممّا كنتُ أعتقد.

مررنا فوق مساكن منخفضة، ومظلمة، وفارغة.

أشارت إليّ ناتالي على حديقةٍ فيها حفرتان مربّعتان.

– في هذا المكان كان يرتفعُ برجا مبنى التجارة العالمي اللّذان انهارا.

– هوجِما من قبل الجرذان؟

– كلّا، من قبل متعصبين دينيين.

لم أجرؤ على طرح المزيد من الأسئلة. بدا كأنّ هذا الأمر قد أثار فيها شعورًا غير مريحٍ.

لاحظتُ أنّ زوايا مبنى مركز التجارة العالمي 1 منحدرة. ودار في خلدي أيضًا أنّه من المدهش الاحتفاظ عمليًّا بنفس الاسم للبرج الجديد.

بدأت عملية الرفع تسبّب لي الدوّار. أعتقدُ أنّ حادثة فيثاغورس غيّرت مفهومي للفضاء وللارتفاع. لم أعد أتحمّل الفراغ من تحتي مثلما كنتُ أتحمّل في السابق.

وجدتُ الجدران الزجاجية أشبه بمرايا تعكس صورة الغيوم. شعرتُ بأنّه لم يعد هناك مَعْلمٌ صلبٌ.

حلّقتُ ببطء.

لحسن الحظّ، وصلنا أخيرًا إلى قمّة ذلك المبنى التَذْكاري الضخم.

في الطابق الأخير، اكتشفتُ سارية لا بدّ أنّها كانت عبارة عن برج هوائي للإذاعة أو التلفزيون. هناك أيضًا، استخدم بشرٌ لسحبنا رافعة ومقبضًا كانا يستخدمان في السابق كآلةٍ لتنظيف الزجاج

أشاروا إلينا بأن ننزل بسرعة لكي يرسلوا السلّة من جديد.

وجدنا السطح مزدحمًا بحشود البشر والقطط والكلاب المتدافعة. توجّهنا نحو الدرج لكي نُخلي منطقة الاستقبال.

نزلنا ووصلنا بذلك إلى قاعة مفتوحة لا بدّ أنّها مطعمُ الطابق الأخير.

هناك أيضًا وجدنا أنّ فوضى عارمة تسود المكان. في الواقع، كان كلّ البشر والقطط الحاضرين في حالة من الهلع والعصبية. رأينا الخوف على وجوههم وشعرنا بأنّ الجوّ مشبعٌ برائحة تعرّقٍ حادّة، يتصاعد فيه صخبٌ عصبيّ. كان جوّ نهاية العالم.

أحدثَ انهيار مبنى أمباير ستيت بولدينغ رعبًا عارمًا. والهجوم المتزامن عمليًّا على كلّ الأبراج المأهولة بالبشر أفزعهم.

تصاعدت أصوات البشر بحدّة، وماءت القطط بنبرةٍ حادّة. حتى الكلاب نبحت متذمّرةً.

أسرعتُ في الانسحاب من بين هذا الغليان الذي يمنعني من التفكير.

في لحظات الفوضى تلك، عرفتُ أنني وحدي أستطيع إنقاذ العالم. أنا وعقلي. أنا وقدرتي على إقامة العلاقات بين العناصر المختلفة.

انضمّ إلينا رومان وأسميرالدا أخيرًا. بقينا معًا.

دلّنا بشرٌ على المكان الذي سنقيم فيه. وكانت مجموعاتٌ قد سبقتنا في الخروج من هذه القاعة عبر الدرج للذهاب إلى الطوابق السفلية، التي لا بدّ أنّها أقلّ ازدحامًا.

خفّت كثافة الحشد شيئًا فشيئًا. ومن خلال نتفٍ من الأحاديث التي سمعتُها، أدركتُ أنّه يُعرَض على القادمين الجدد الانضمام إلى جماعاتهم الخاصّة، وأنّ هناك قبيلةً في كلّ طابق.

نزلنا نحن أيضًا إلى الطوابق السفلية.

قالت أسميرالدا التي ظلّت تمتلك موهبة التلفّظ بالجملة التي لا تُفيدُ في شيء في اللحظة الأسوأ التي نمرّ فيها:

- كنّا سنحسن صنعًا لو أننا لم نغادر فرنسا قط.

تأكّدت نظرية إديث بشأن الجماعات. في الطابق السادس والتسعين، كانت هناك حشودٌ من سكان الحيّ الصيني؛ وفي الطوابق الأدنى، كان هناك سكان الأحياء اللاتينية واليهودية والإيطالية، وطلّاب حي غرينتش فيليج، والبونكيون والإنجيليون، وأتباع حركة التفوّقية البيض، والسود، وعصابات اللاتينيين، إلخ.

وقد لاحظنا أنّ الديكور يختلف بحسب كلّ مستوى. كما أنّ السكان كانوا يرتدون أزياء خاصّة تختلف من جماعة إلى أخرى.

تبيّن لي أنّ فسيفساء الجماعات التي تشكّل المجتمع الأمريكي، مع نظامها القائم على الثقافات الموازية، تستمر في هذه اللحظة الخاصّة للغاية في هذا البرج الذي يمثّل في اللحظة الراهنة نموذجًا مثاليًا مصغّرًا عن عالم تلك الجماعات. حتى إنّه بدا لي أنّ السكان في كلّ طابقٍ يتكلّمون بلغاتٍ مختلفة.

سألت ناتالي أحدَ السكان الأصليين:

- هل هناك طابقٌ خاصّ بالفرنسيين؟

- بالطبع. الطابق التاسع والستون.

ذهبنا إلى هناك.

في هذا الطابق، كان السكان قد أعادوا خلق أجواء مونمارتر في بدايات القرن العشرين. يجري كلّ شيء كما لو أنّ كلّ قبيلة تريد أن تبدو على الصورة الكاريكاتورية التي يرسمها الأمريكيون عنها.

هناك علمٌ ثلاثي الألوان بالأزرق والأبيض والأحمر، وصور لبرج إيفل وقوس النصر وكنيسة القلب المقدّس، وكاتدرائية نوتردام في باريس، ونسخة من لوحة الجوكندا الموجودة في متحف اللوفر، وصور للجنرال

ديغول، وأخرى للممثّلة بريجيت باردو، ولراقصات ملهى الطاحونة الحمراء، وصورة شخصية لجول فيرن.

بدا واضحًا أنّ الفرنسيين المقيمين في الطابق يقبلون على أيّ حال بالنظرة المبسّطة لبلدهم بل بدا أنّهم يتمثّلونها. ربّما بدافع الحنين، كان بعض سكّان الطابق التاسع والستين يعتمرون البيريه الفرنسية، ويشذّبون شواربهم بزوايا حادّة، أو حتى يرتدون سراويل ذات حمّالات.

بدا واضحًا أنّ الانهيار الكبير قد منحهم الرغبة في تأكيد أصولهم وإظهار خصوصياتهم.

وجدنا بعض الناس يتحلّقون حول طاولة كبيرة مغطّاة بشرشفٍ فيه مربّعات حمراء اللون ويتناولون وجبات من الهوت دوغ. إلا أنّهم يستخدمون في إعدادها بدل السجق الوردي المعتاد لحم جرذ بنيّ مطبوخ.

إنّهم يخبزون!

شممتُ بمتعة الرائحة التي سبق لي أن شممتها في العصر الذي كانت الحضارة البشرية لا تزال تنتج هذا النوع من النفائس الشمّية.

صاحت أسمير الدا، البراغماتية، بدهشة:

– لا أعرف كيف هو الأمر بالنسبة إليكم، ولكنني لا أزال جائعة.

راح رومان وناتالي يجلبان شطائر بلحم الجرذ المطبوخ وجلسا إلى طاولةٍ.

بالنسبة إلينا، وكما كان متوقّعًا، تناولنا لحم جرذٍ نيء.

هذا المصدر للبروتين لا ينضب، على الأقلّ.

ولكنني طلبتُ من ناتالي أيضًا قليلًا من الخبز.

شعرتُ بهذا الغذاء يجري في بلعومي ويسقط في معدتي.

بدا ابني أنجيلو مدهوشًا لرؤيتي أتناول خبزًا. ذاق أنجيلو بدوره قطعةً من الخبز... لكنّه لفظها في الحال.

إنّ قطًّا يأكل خبزًا ليس قطًّا طبيعيًا. نحن نُعَدُّ من الحيوانات آكلة اللحوم.

تفحّصتُ المكان من حولنا. لا بدّ أنّ الطابق التاسع والستين كان غرفة العمل لهيئة تحرير مجلّة.

حوِّلَت المكاتب فيها إلى أسرّة أو إلى طاولات في غرف الطعام، وقد فُصِلَت بعضها عن بعض بستائر.

تفاوضت إديث، التي ظلّت معنا، مع مسؤولين عن الطابق لكي تحصل على ثلاثة «أسرّة».

استطعنا أن نستقرّ في الطابق.

بثّت شاشةٌ برامجَ قناةٍ إخبارية داخلية في البرج.

شاهدنا فيها الجرذان وهي تتجمّع في الطابق التَّحتانيّ. ولكنّها لم تنجح في الانقضاض على الزجاج والخرسانة ذات المقاومة الفائقة للغاية والفولاذ. فعادت خالية الوفاض قبل أن تحلّ سريعًا مجموعة أخرى محلّها، كانت هي الأخرى أقلّ فاعليّة.

قالت ناتالي التي لم ترفع عينيها عن الشاشة:

- هذه المرّة، لم تنجح!

من جهتي، انخرطتُ في النشاط الذي يريحني أكثر من سواه: لعقتُ نفسي.

مررتُ قائمة خلف أذني وبدأتُ بالعمل.

لا تفكّري في فيثاغورس، ولا تفكّري في شامبليون، ولا تفكّري في كلّ رفاق الرحلة على متن سفينة الأمل الأخير. لا تفكّري في الجرذان.

انهمكتُ في العمل بحزمٍ وإصرار، ودسستُ لساني الخشن بين شعري لأنتزع منه خصلاتٍ ملتصقة بجلدي.

وبهذه الطريقة تخلّصتُ من كلّ المصائب التي حلّت علينا.

وللمرّة الأولى منذ الأيام الأخيرة، شعرتُ بأنني في أمانٍ.

كانت أمّي تقول: «دائمًا ينتهي الشقاء بالتعب من الانقضاض على نفس الأشخاص».

نظرتُ إلى ابني.

أنجيلو المسكين، أنت لم تولد في أفضل العوالم. كلّ ما استطعتُ أن أقدّمه لكَ هو إنقاذ حياتك حتى هذه اللحظة. بالنسبة إلى المستقبل، لم يعد لديّ أيّ رؤية.

هنا لم أعد مَلِكة.
لم أصبح بعد نبيّة.
أنا مجرّد قطّة غريبة يتسامح معها السكان الأصليون.
قطّة خائفة ولم يعد لديها ما يكفي من الخيال لكي تستشفّ الطريقة التي قد تتحسّن بها الأمور.

الحقيقة المحزنة هي أننا نخضعُ لغزوِ جنسٍ يتكاثر بسرعة فائقة، وهو ينجح، بعدد أفراده فقط، في أن يتطوّر بسرعة لكي يواجه كلّ التحدّيات ويتغلّب عليها.

استرخيتُ في وضعية القيلولة كي لا يأتي أحدٌ ويزعجني، واتّصلتُ عبر عيني الثالثة بالموسوعة المعلّقة برقبتي لكي أرى إن كان بوسعي العثور على أوضاع مماثلة انتهت في النهاية لمصلحتنا نحن القطط.

14. قصّة القطّ أوسكار

في شهر مايو/ أيار من علم 1941، بعد أن تحدّت البحرية الملكية البريطانية، غرِقَت السفينة البحرية الألمانية بسمارك، التي سُميّت «الغول النازي». من بين أفراد طاقمها البالغ عددهم ألفين ومئتي جنديٍّ، لم ينجُ سِوى مئة وأربعة عشر فردًا بالإضافة إلى قطٍّ أسودَ ذي رقبة بيضاء. وقد أنقِذَ هذا القطّ من قبل طاقم المدمّرة الإنكليزية اتش ام اس القوزاق، الذي أطلق عليه اسم أوسكار. بيد أنّ المدمّرة نفسها تعرّضت، بعد شهرٍ من تلك الواقعة، إلى هجومٍ من قبل غوّاصة ألمانية. نسف الانفجار كامل مقدّمة السفينة وتسبّب بمقتل مئة وخمسة وتسعين جنديًّا من أفراد طاقمها.

مرّة أخرى، كان أوسكار من بين الناجين القليلين ونُقِل هذه المرّة إلى متن حاملة الطائرات الإنكليزية أرك رويال. ومرّة أخرى عاكس الحظّ أوسكار، فبعد مضي بضعة أسابيع، هوجِمَت حاملة الطائرات أرك رويال بدورها وأُغرِقت من قبل طوربيدٍ ألماني. ولكن عُثِرَ على القطّ أوسكار

جاثمًا على لوحٍ عائم. لم يجرؤ الناجون الجائعون على تناول لحمه. فنُقِل أوسكار إلى متن المدمّرة اتش ام اس لايتنينغ.

بلغت حكايته في النهاية مسامع قادة البحرية البريطانية الذين لم يرغبوا في المجازفة من جديد بأن يجلب هذا القطّ النحس لسفينة أخرى، فقرّروا نقله في البداية إلى مكاتب حاكم جبل طارق ثمّ إلى دار البحرية في بلفاست، في إيرلندا الشمالية، حيث مات بهدوء بعد مضي أربعة عشر عامًا. وقد خُلِّد في لوحة فنية رسمتها الفنانة جورجينا شاو بيكر، حيث يُشاهَدُ فيها قطٌّ باللونين الأبيض والأسود يجثم على لوحٍ عائمٍ فوق سطح مياه البحر. وهذه اللوحة معروضة في المتحف البحري الوطني في لندن.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

15. مناقشات

صاح ديك. فتحتُ عينيّ. في الواقع، لم يكن ذلك ديكًا بل رنينٌ يشبه صوت الديك. أدركتُ أين أكون وفهمتُ أنّني كنتُ قد نمتُ وأنا أطالع الموسوعة.

كانت قيلولة بسبب الإنهاك العصبي.

ما زلنا في فترة ما بعد الظهيرة.

رأيتُ ناتالي تقضم أظافرها، وأنجيلو متكوّرًا في حضني. وعلى سريرٍ آخر، وجدتُ رومان وأسميرالدا. تذكّرتُ أنني في المبنى الأعلى ارتفاعًا في مانهاتن، في أمريكا، بعيدة جدًّا عن باريس، وبعيدة جدًّا عن بيتي في مونمارتر. بعيدة عن الهدوء. وسط الجرذان.

استمرّ رنين صوت الديك، موقظًا الجميع. تُرى هل هناك كارثة أخرى؟

صعدتُ إلى كتف ناتالي التي كانت تتبادل الحديث مع بشرٍ آخرين. أخبرتني: هناك اجتماعٌ طارئ للحكومة في الطابق الرابع بعد المئة لاستعراض الوضع وتقييمه.

- هل يمكنني المجيء معكم؟

كان المطعم القديم قد أُعدّ للاجتماع. وقد نُصِبَت منصّة في نهاية القاعة، مع منبرٍ للحديث، وخلفه شاشة للعرض. ووضِعَ أمام المنصّة ما يقرب من مئة كرسيّ. وعلى الجانب، تتيحُ النوافذ الزجاجية رؤية مدينة نيويورك من ارتفاعٍ شاهق.

جلس بشرٌ على الكراسي، وظلّ آخرون واقفين على أقدامهم من حولهم.

رأتنا إديث غولدستاين من بعيد وجاءت تنضمّ إلينا.

شرحت لنا قبل أن نطرح عليها أسئلة، فقالت:

- هؤلاء هم ممثلو القبائل المئة والواحدة.

سأل رومان ويلز:

- مثل تجمّعٍ للقبائل الهندية؟

- كلا، سيكون بالأحرى أشبه بجمعيةٍ للأمم المتّحدة، ولكنّها ستكون جمعيةً **للقبائل المتّحدة**. لكلّ قبيلة ممثلها لإسماع صوتها، والقرارات المهمّة تُتّخذُ فيها عبر التصويت بالأغلبية.

دقّقتُ في المشاركين في الاجتماع. تعرّفتُ من خلال أزيائهم الخاصّة إلى صينيٍّ وكاكريٍّ وبونكيٍّ وقوطيٍّ ولاتينيٍّ بل على هنديٍّ أحمر يرتدي زيّ قبيلته.

من حولهم، كان هناك ما يقارب الألف من المشاهدين الذين جاؤوا لحضور الحدث.

سألتُ بنفاد صبر.

- ولماذا لم يبدأ الاجتماع حتى الآن؟

أجاب رومان:

- ينتظرون الرئيسة.

- آه... هناك رئيسة؟

- بحسبِ ما فهمت، انتُخِبَت من قبل مجموع القبائل، الأمر الذي يمنحها الحقّ في اتّخاذ جميع القرارات الأساسية بشأن مسائل الحياة اليومية.

- تتولّى السلطة التنفيذية؟

– في الواقع، هي تؤدّي دور رئيس الجمعية ورئيس الحكومة.

مرّت قرابة عشر دقائق، ثمّ دخلت سيّدة مسنّة من بابٍ خلف المنصّة. كانت ترتدي ثوبًا أزرق فاتح اللون، وتنتعل حذاءً أسود اللون. كان شعرها الأبيض ذو البروق الوردية مثبّتًا ويشكّل ما يشبه طاقية. سارت متوكّئة على عُكّازةٍ وبدا أنّها بالفعل قد شاخت كثيرًا.

صاحت ناتالي باندهاش:

– أوه! لقد عرفتها. إنّها هيلاري كلينتون. لقد ترشّحت سابقًا لكي تصبح رئيسة للولايات المتّحدة الأمريكية ممثّلة عن الحزب الديمقراطي. ولكنّها لم تُنتَخَب رئيسةً أبدًا، ولكن يبدو أنّها نجحت هنا!

أضاف رومان:

– لقد سمح لها الانهيار الكبير بأن تصل أخيرًا إلى تحقيق حُلمها.

وقفت هيلاري كلينتون، متوكّئةً على عُكّازها أمام المنبر، ووضعت عليه بعض الأوراق المكتوبة، واختبرت لاقط الصوت، ثمّ تحدّثت إلى الجمعية. رغم تقدّمها في السنّ، بدت أنّها نشيطة وحيويّة بوضوح.

– أيّها السيّدات والسادة، إنّنا نمرّ في لحظةٍ عصيبةٍ.

فهمتُ ما قالته بفضل عيني الثالثة الموصولة باللاقط المستقبِل والمترجِم الخاصّ بخادمتي ناتالي. لحسن الحظّ، تلفّظت هيلاري كلينتون بلفظٍ سليمٍ تمامًا.

قالت:

– ما يحدث لنا يشبه حكاية الأطفال *الخنازير الثلاثة الصغيرة*. إذا كنتم تتذكّرون، بنى كلّ خنزيرٍ من الخنازير الثلاثة بيتًا ليحمي نفسه من الذئب. بُني البيت الأوّل من القشّ، والثاني من الحطب، والثالث من الحجارة والطين. حينما وصل الذئب، بدأ بمهاجمة البيت المبني من القشّ، وقال إنّه سينفخ ويهدم البيت، وفعل ذلك. ففرّ الخِنْزير الأوّل وراح يلوذ ببيت الخِنْزير الثاني، الذي يمتلك بيتًا من الحطب، ولكن الذئب لحق به ونفخ على البيت الثاني فانهار البيت الخشبي بدوره، ففرّ الخنزيران وراحا يستجيران بالخِنْزير الثالث الذي يمتلك بيتًا من حجر وطين، وهنا نفخ الذئب على البيت ولكن

البيت صمد وظلّت الخنازير الثلاثة في مأمن، ولم يستطع الذئب أن يلتهمها. في الحقيقة، البيت المصنوع من القرميد، أي مبنى أمباير ستيت بولدينغ، انهار ولجأتم إلى برجنا المصنوع من الزجاج والفولاذ.

تنهّدت، وصمتت للحظةٍ قبل أن تستأنف حديثها، قائلةً:

- هل سيصمد؟ نتمنّى ذلك، لأنّه ملاذنا الأخير. إذا عجزت ناطحة السحاب هذه عن المقاومة، فلن يعود هناك حينها أيّ مخرج، ولا أيّ مكان يمكن الذهاب إليه، وستكون هذه نهاية البشرية على جزيرة مانهاتن هذه. وربّما ما وراء...

تلا صمتٌ ثقيل ذكر هذه الفرضية المشؤومة.

- بيد أننا لا نستطيع أن نبقى هنا ننتظر مكتوفي الأيدي. حتى وإن كنّا نمتلك مخزونًا من الأغذية، وحتى إن كانت الجدران متينة، يبقى التهديد حقيقيًّا لأنّ عدوّنا يختلف عن الذئب والحكاية الخرافية، فهو لا يكفّ عن التطوّر ليغدو أكثر تهديدًا يومًا بعد آخر.

سُمِعَت أصواتُ همسٍ في القاعة.

- وكبداية، أقترحُ أن يستعيد برجنا برج مركز التجارة العالمي 1 اسمه الأصلي وهو «برج الحريّة». وبهذا سوف يغدو هذا البرج من الناحية الرمزية نقطة الانطلاق لتحرير العالم.

بدا أنّ هذا الاقتراح قد أبهر الجميع، ومن دون أيّ مفاجأة تمّت الموافقة على الاقتراح بالتصويت عليه من خلال رفع الأيدي.

قالت هيلاري:

- حسنًا. وبعد أن انتهينا من هذه النقطة، أودّ أن أذكّركم بعددٍ من العناصر. مع الواصلين الجدد القادمين من مختلف الأبراج المأهولة في مانهاتن، يضمّ برج الحريّة الآن قرابة أربعة آلاف نسمة من البشر، وثمانية آلاف قطّ وقطّة وخمسة آلاف كلبٍ. ويُقدّر عدد خسائرنا، بين سكّان برج أمباير ستيت بولدينغ والسقوط العرضي لبكرات الانزلاق بالحبال الناقلة أثناء الإجلاء، بثلاثمئة شخصٍ، وثمانين قطًّا، وخمسين كلبًا. وهي نسبة معقولة إذا ما أخذنا الظروف الصعبة بعين الاعتبار. كما أودّ أن أهنّئ فرقنا للإطفاء والإنقاذ التي

نشطت عبر خطوط بكرات الانزلاق بالحبال الناقلة وأمّنت عمليات الإجلاء بأفضل الظروف. ولذلك أقترح تصويتًا على منحهم علاوة مكوّنة من الماء العذب والطعام.

من جديد، جرى التصويت بالموافقة بالإجماع، تلاه تصفيقٌ حادّ لكلّ الذين أتاحوا نجاح مهمّة إخلاء الأبراج الأخرى.

– أمّا وقد أُنجِزَت هذه المهمّة، فأتمنّى أن تُقطَعَ كلّ الحبال التي توصلنا بالأبراج الأخرى، وذلك تجنّبًا لرؤية جرذانٍ تنجح في التسلّق على هذه الحبال، وهو خطرٌ ليس قليلًا، نظرًا لتقدّمها في كلّ المجالات. دعونا نصوّت على هذا المقترَح.

ومن جديد، تمّت الموافقة بالإجماع.

لقد فهمتُ خطّتها. اقترحت أفكارًا عاديّة لا ضرر منها للتصويت عليها لكي تبدأ بجعل الدعم والتأييد لها مسألة معتادة. إنّها تقنية 3 + 1. لقد قرأتُ شيئًا بخصوص هذه التقنية في الموسوعة: تُطرَح على أحدهم ثلاثة أسئلة تستدر تلقائيًّا ردًّا إيجابيًا، ومن ثمّ يرغب في استحصال الإجابة بطريقة إيجابية على السؤال الرابع. والحال أنّ هذا السؤال الرابع هو الذي غالبًا ما يكون موضع خلافٍ أكثر من سواه.

– حسنًا. بالنسبة إلى القادمين الجدد الذين احتموا بجدراننا، أعلم أنّ كلّ شيء جرى على ما يُرام. هنا أيضًا، أودّ لفت الانتباه إلى العمل الرائع المُنجَز من قبل فرق الاستقبال في برج الحرية. لقد تحاشوا أيّ تدافعٍ أو ازدحامٍ. ومع ذلك، لا بدّ لي من التذكير بأنّ هذا البرج لم يكن يُؤوي حتى يوم أمس سِوى عشرة آلاف ساكنٍ وأنّ وصول ثلاثة آلاف شخصٍ في غضون بضع ساعات يطرح دون شكّ تحديًا لوجستيًا. وبالتالي، إلى أن يُدمج هؤلاء «الغرباء من الأبراج الأخرى» اندماجًا كاملًا ويجدوا وسيلةً ليكونوا نافعين للمجتمع، أقترحُ ألا ينالوا وضع «مواطن» بل وضعُ «مقيم».

رفع مندوبٌ صيني يده وطرح السؤال الذي طرحناه جميعًا على أنفسنا:

– ما هو الفرق بين الوضعين؟

– سيكون للمواطن أفضلية الوصول إلى مخزون الماء، والغذاء،

والخضراوات، والكهرباء، والأجهزة الإلكترونية. وبعد أن يحصل جميع المواطنين على احتياجاتهم كاملة، يمكن تقديم ما تبقّى للمقيمين. وبطبيعة الحال، المقيمون الذين سوف يتمكّنون من إظهار امتلاكهم موهبة خاصّة مفيدة أو ضرورية للمجتمع سوف يمكنهم الحصول على وضعية مواطن على نحوٍ أسرع.

بدا لي كلّ هذا غامضًا بعض الشيء ولكنني استنتجتُ منه أننا، أنا ورفاقي من البشر، لدينا وضع أدنى، ونحظى بطعامٍ أقلّ وحقوقٍ أقلّ.

قال رومان ويلز، غاضبًا:

– هذا أمرٌ لا يُصدّق! حتى في هذه الظروف القاسية للغاية، لا يزال هؤلاء الأمريكيون ينجحون في خلق تمييزٍ.

طُرِح هذا المقترح للتصويت عليه. ولكن بما أنّ ممثلي القبائل كانوا جميعًا من المواطنين ويتمسّكون بامتيازاتهم، صوّتوا هذه المرّة أيضًا بالإجماع على مقترح هيلاري كلينتون.

هذه السيّدة عبقرية في السياسة.

بنفس هذه الطريقة سيكون عليّ أن أحكم عندما أصبح مَلِكة. سوف أجعلهم يصوّتون على اقتراحات لا أهمية لها، ومن ثمّ أتلاعب بهم من أجل تمرير المسائل المثيرة للجدل.

راجعت هيلاري كلينتون أوراق ملاحظاتها، ثمّ واصلت حديثها:

– أطلب من الزعيم شوفال فوغو، ممثّل جماعة سيوس للهنود الحمر، الانضمام إلينا لكي يعلّم القادمين الجدد عاداتنا وتقاليدنا.

تقدّم رجلٌ وصعد إلى المنصّة. كان يعتمر كوفيّة فيها ريشٌ ويرتدي سترة من الجلد عليها رسومات لحيواناتٍ.

– هنا، نحن نصطاد الطرائد بالقوس والسهم من الطابق الأوّل. إنّها أقواسٌ صنعناها بأنفسنا من قضبانٍ بلاستيكية عثرنا عليها في المكاتب. وقد دبّبنا رؤوس السهام باستخدام شفرات المشارط. وكلّ سهم مربوط إلى حبل وما إن ينغرز في جرذٍ، يكفي سحب الحبل للحصول على الجرذ. أمّا بالنسبة

إلى الماء، إذا أردتم الاغتسال، فلا بدّ من بناء صهريجين أو ثلاثة صهاريج جديدة، وسوف أشرح لكم كيف بُنِيَت.

– شكرًا، شوفال فوغو. وشكرًا لفريق الإمداد الذي أحسن بالفعل حتى الآن تأمين ما يلزم. لم ينقصنا قطّ لحم الجرذان، ولا الماء العذب. حسنًا، دعونا ننتقل إلى فريق المسيّرات. سيلفان، هل يمكنك المجيء إلى هنا؟

انضمّ إليها رجلٌ شابّ، طويل القامة، وملتح، وله شعرٌ بنّي أشعث، ووقف إلى جانبها بالقرب من المنبر.

سحب جهاز تحكّمٍ، وأشعل الشاشة الكبيرة المعلّقة فوقهما على الجدار.

– لقد اكتشفنا مكان مَلِك الجرذان، آل كابوني.

هذه المرّة، عبّر الهمس الذي سرى في الحضور عن الرضا.

– على الصور التي التُقِطَت هذا الصباح، رأينا أنّه في اللحظة التي انهار فيها برج أمباير ستيت بولدينغ، كان آل كابوني وباروناته حاضرين.

في الواقع، في الصور المبثوثة، تُلاحَظ في وسط حشود الجرذان ذات الحجم العادي مجموعة من الجرذان الأكبر حجمًا، ومن بينها، الجرذ الضخم الذي سبق لي أن رأيته على الهاتف الذكيّ لإديث غولدستاين.

واصل سيلفان حديثه:

– فاستخدمتُ نظامًا للذكاء الاصطناعيّ لكي أسجّل الشكل الدقيق لآل كابوني. منذ تلك اللحظة، بات باستطاعتنا أن نتتبّعه وسط بني جنسه بفضل التعرّف التلقائي إلى شكله.

قدّم الشريط المصوّر.

– لقد لاحقت مسيّراتنا آل كابوني وهي تصوّره من الأعلى ومن بعيد، واكتشفت في النهاية المكان الذي يختبئ فيه.

على الشاشة، شوهِدَ الجرذ الضخم محمولًا من قبل باروناته وهي تسبح لكي تصل إلى المنطقة المعشوشبة التي فيها بضع أشجار ومن ثمّ الدخول إلى مبنى.

– الآن نعلم أين يعيش العقل المفكّر لأعدائنا. في جزيرة الحرية، الجزيرة التي يقع فيها تمثال الحريّة، وعلى نحوٍ أدقّ تحت أساس التمثال.

لم تبدُ هيلاري أنّها تشاركه حماسته. قالت ببرود:

– هذا تقدّمٌ طفيف، ولكن طالما لا نعرف كيف نقضي عليه، لا يكفي أن نعرف مكان اختبائه. هل هناك أخبار جديدة لسنا مطّلعين عليها، مصدرها الوافدون الجدد ربّما؟

رفعت إديث غولدستاين يدها، وقالت:

– نعم، أنا لديّ ما أقوله.

فدُعيت إلى المنصّة.

– صباح الخير، أنا قادمة من الحيّ المالي، البرج رقم 2. أنا من قمتُ بتركيب العقّار المضاد للجرذان بروميثيوس الذي قضى في المرحلة الأولى على كلّ جرذان نيويورك.

سألت هيلاري كلينتون:

– ماذا كان عقّارك بروميثيوس هذا؟

– سأشرح ذلك. لقد استخدمتُ تقنية سي آر آي اس بي آر. إنّها «مقصّات كيميائية» سمحت بقص ولصق قطعٍ في شرائط الحمض النووي كما لو أنّ الأمر يتعلّق بشرائط حقيقية من النسيج. لن أزعجكم بالتفاصيل التقنية ولكن هذا يتيح إحداث تحوّل في الجينات. وبذلك استطعتُ أن أجري تحوّلًا في الجرذان. ومن ثمّ نشرتُ هذا الحمض النووي المتحوّر باستخدام الفيروس العادي للإنفلونزا الأكثر قدرةً على نقل العدوى. وقد اخترتُ اسم بروميثيوس بالتحديد لأنّ التحوّل يضرب الجينات المسؤولة عن أكبادها. كانت الجرذان تُصاب بإنفلونزا تعمل على تحوّلها دون أن تعلم أنّها مُصابة بالتهابٍ في الكبد.

ردّت إحدى ممثّلات البونكيين بسخرية:

– ولكنّها نجحت في إيجاد المضادّ لهذا العقّار. وقد رأينا النتيجة.

– ولهذا السبب بالضبط أدرس حاليًّا صيغة جديدة للوباء. وكنتُ على

وَشْك النجاح في الوصول إليه، في مختبر برجنا، عندما اضطررنا للهجرة إلى برج الحريّة. كنتُ أعمل على تقنية مماثلة ولكنّها لا تعمل على الكبد هذه المرّة، بل على القلب.

سألت هيلاري، قلقةً:

– وباء سيسبّب لها أزمات قلبية؟

– الفكرة هي أنّ موتها سيبدو «طبيعيًّا» بالنسبة إليها بغية ألّا تفكّر في وضع الجرذان المصابة في الحجر الصحّي. كاد هذا التدبير ينجح في المرّة الأولى. ما أطلبه هو أن تُخصّص لي قاعةٌ أحوّلها إلى مختبرٍ بيولوجي. وبالطبع يمكن لمن يشاء أن ينضمّ إليّ.

– ممتاز. هذا لا يحتاج إلى تصويتٍ. يمكنكِ الذهاب إلى الطابق الخامس، حيث توجد عيادة بيطرية. وبذلك تستطيعين أن تستخدمي كلّ المجاهر والأجهزة الضرورية لأبحاثكِ. هل هناك مهاجرون آخرون قد تكون لديهم أبحاث متقدّمة ومفيدة لنا؟

رفعت سيّدة سوداء البشرة، وتلفّ شعرها المجعّد على شكل كتلة كروية ضخمة على رأسها، يدها. دُعيت هي الأخرى إلى الوقوف على المنصّة. كانت ترتدي قميصًا رياضيًّا أصفر اللون عليه صورة حاسوبٍ.

– أنا جيسيكا نيلسون. وأنا قادمة من برج **بنك أمريكا**. أنا طالبة سابقة في معهد ماساتشوستس للتقانة (إم آي تي) في بوسطن، متخصّصة في فيروسات الحواسيب. وقد انتقلتُ إلى نيويورك قبل عامٍ من الانهيار الكبير وكنتُ أعمل بالتحديد لمصلحة **بنك أمريكا** على أنظمة الحماية الرقمية. عندما ضرب فيروس **الله أقوى من العلم** العالم، بدأتُ أعمل بمفردي على ابتكار مضاد فيروسي يناسب بشكلٍ خاصّ الوضع مستفيدةً من مادة معلوماتية من أحدث جيل. لم يعد بوسعي الوصول إلى المِلفّات القديمة المحفوظة على الكلاود (الحوسبة السحابية)، فكتبتُ، بهدف الأمان، برامجي الخاصّة حتى أتأكّد من أنّها لن تُصاب بالفيروس.

سألت هيلاري كلينتون بتلهّف:

– وما هو مقترحكِ، إذًا؟

ابتسمت المرأة الشابّة.

– هذا ليس مقترَحًا، بل معلومةٌ: لقد نجحتُ في تصميم المضاد الفيروسي في الأسبوع الماضي وكنتُ أهمّ باختباره لحظة إطلاق الإنذار. غير أنّ الخبر السارّ هو أنني أعتقدُ أنّ المضاد الفيروسي أصبح جاهزًا.

– تعتقدين؟

– في الواقع، أنا متأكّدة من ذلك. يكفي أن نقوم بتنصيبه لكي نرى النتيجة. ويمكننا فعل ذلك في الحال.

– وما الذي سيفعله مضادكِ الفيروسي بالضبط؟ اعذريني ولكنني لستُ خبيرة في المعلوماتية...

– لقد أسميته **العلم أقوى من الله** لأنّه سوف يُبطل مفعول الفيروس الذي خرّب الإنترنت.

– هل تقصدين أنّكِ تمتلكين وسائل إصلاح الإنترنت وإعادة تشغيله على كامل الكوكب؟

هذه المرّة، بدت الرئيسة متأثّرة وتوجّهت بالحديث إلى جيسيكا نيلسون بنبرةٍ أكثر احترامًا. أظهرت المرأة الشابّة تواضعًا. قالت:

– آمل ذلك.

أخرجتْ فلاشة يو إس بي تشبه كثيرًا تلك التي أحملها حول رقبتي.

– أقترحُ أن أشغّل البرنامج أمامكم وأمام ممثلي القبائل المئة والواحدة حتى تتأكّدوا بأنفسكم من فاعليته. هل يمكننا توصيل حاسوبٍ بالشاشة المنصوبة خلفنا؟

ردّ سيلفان بالإيجاب ملوّحًا بحاسوبه الخاصّ، وأشار:

– لدينا هنا شبكة خاصّة، محليّة، على طراز الإنترنت. وهي تعمل فقط في دارة مغلقة وليست موصولة أبدًا بالإنترنت الخارجي وذلك بالتحديد لتجنّب إصابة أجهزتنا بالفيروس.

قالت خبيرة المعلوماتية الشابّة:

– سأضع إذًا في البداية هذا «اللقاح» في حاسوبكِ، ثمّ، عندما يصبح

محميًّا، سوف يكون بوسعه الاتصال مع الشبكة الدولية. وحينها لن يتضرّر بالفيروس بل سينشر هو نفسه فيروس **العلم أقوى من الله** الذي سوف يُعطِّل كلّ التأثيرات الضارّة لفيروس **الله أقوى من العلم** المُطلَق من قبل المتشدّدين الدينيين.

سأل سيلفان، بقلق:

- هل هذا يعني أننا نعرّض أنفسنا لخطر أن تُصاب أجهزتنا بالفيروس، إن لم تنجح العملية؟

أجابت جيسيكا:

- لا مكاسب كبيرة بدون مخاطر كبيرة. يجب أن تثق بي.

نظر إليها سيلفان بقلق. قال:

- الخطر جسيم، ولذلك أنا من أدعو إلى التصويت على الأمر. أريدُ أن أتأكّد من أنّني لن أخضع لأيّ عتب في حال فشلت المحاولة. أذكّر بمن لديه شكّ أنّ شبكتنا المعلوماتية تدير كلّ شبكة الكهرباء، والأجهزة الإلكترونية، وأجهزة المعلوماتية، والهواتف الذكيّة المُستخدَمة في برج الحريّة. وهذا يعني أنّه إذا ما فشل مضادكِ الفيروسي، واتّصلنا بالإنترنت، فسوف تخرج كلّ أجهزتنا عن الخدمة.

- ثق بي.

تكلّمت هيلاري كلينتون بدورها، وقالت:

- سوف نجري تصويتًا. إنّنا نقامر بكلّ قطاعنا الخاصّ بالمعلوماتية في لعبة البوكر هذه، أليس كذلك؟

أجاب سيلفان:

- بكلّ تأكيد، وأنا آسف، يا آنستي، ولكننا لا نعرفكِ.

جرى التصويت برفع الأيدي، ومن أصل مئةٍ ومشاركٍ، صوّت خمسون ممثّلًا لمصلحة المقترح في حين صوّت واحد وخمسون ممثّلًا ضدّه.

أعلنت هيلاري كلينتون، بعد أن تنحنحت:

- حسنًا، صوتي يُحسَب بصوتين، وبالتالي أنا من سأتّخذ القرار النهائي.

اقتربت السيّدة المسنّة من جيسيكا نيلسون وأمسكت بيديها. حدّقت

بعينيها الزرقاوين في العينين السوداوين للمرأة الشابّة وظلّت لوقتٍ طويل في هذه الوضعية كما لو أنّها تتواصل مع دماغها.

– هل تضمني لنا أنّه ليس هناك خطر أن نُصاب نحن أنفسنا في الوقت الذي نريد فيه مكافحة الفيروس؟

– هناك خطرٌ، ولكنّه ضئيلٌ. ولكن إذا ما نجحنا، فسوف نصل إلى الكثير من الإمكانيات الجديدة. أعتقد أن هذا الأمر يستحقّ المحاولة.

أبقت هيلاري يديها لبضع لحظاتٍ إضافية بين يدي المرأة الشابّة، ثمّ أغمضت عينها، ونطقت أخيرًا بالقرار:

– حسنًا. سنجرّب ذلك. ضعي المضاد الفيروسي خاصّتكِ على هذا الحاسوب ومن ثمّ سنوصله على الإنترنت العالمي.

متغلّبًا على تحفّظاته، هزّ سيلفان كتفيه وأدخل فلاشة اليو إس بي التي من المفترض أنّها تحتوي على البرنامج المعجزة في مأخذ حاسوبه.

ثمّ أوصل الحاسوب بقابس الشاشة المعلّقة خلفهم.

ظهر على الشاشة محتوى الحاسوب والمضاد الفيروسي الذي كان اسمه بالأحرف الأولى LSPFQD (إل إس بي إف كيو دي).

ثم ترك جيسيكا تتصرّف.

فتحت المرأة الشابّة برنامجها، وفعّلته، وقالت:

– الآن، لُقِّح هذا الحاسوب وكامل الشبكة الداخلية في برج الحرية بالمضاد الفيروسي.

لم أفهم ما قصدته، فشرحت لي ناتالي:

– لقد نجا الحاسوب من الفيروس، مثل طفلٍ لم يُقتَل باللقاح.

ثمّ اتّصلت جيسيكا بالإنترنت. فتحت برنامجًا يتيح الاتصال بالشبكة ونشرت مضادها الفيروسي.

ظهرت خطوطٌ من البرنامج:

«اكتُشِفَ جهازٌ جديد. اكتُشِفَ فيروسٌ. هجومٌ على النظام. أوقِف الهجوم. أُرسِلَ المضاد الفيروسي. نُصِبَ المضاد الفيروسي. دُمِّرَ الفيروس. يجري البثّ من هذا الجهاز الجديد».

هذه السلسلة من الجمل المشفّرة ظهرت مرّات عديدة، وعلى نحوٍ أكثر تواترًا.

فاستخدمت جيسيكا برنامجًا للعرض البصري أظهر خارطة نصف الكرة الأرضية. ثمّ شرحت، قائلةً:

– أنا متّصلة الآن بالقمر الاصطناعيّ العسكري للمراقبة «أونيكس» الذي سيكون باستطاعتنا أن نراقب انطلاقًا منه انتشار المضاد الفيروسي عبر الكوكب.

سألت الرئيسة:

– ما هذه النقاط الحمراء التي تصبح زرقاء اللون؟

– إنّها الحواسيب الضخمة التي تعمل كأبدال. إنّها تُنظَّف تدريجيًا.

سيلفان هو الذي بدا الأكثر دهشةً.

– **لقد نجح الأمر!** لقد نجح المضاد في تلقيح الإنترنت ضدّ **فيروس الله أقوى من العلم**.

شعرتُ بأنّ الحالة الشعورية لناتالي، الواقفة بجانبي، قد تغيّرت تمامًا.

بعد هنيهةٍ من الدهشة، أطلق الحضور شهقة ارتياح وبدأ بالتصفيق.

وقفت القاعة بأكملها تصفّق بحماسة.

قرأتُ في موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة أنّ التصفيق يعادل فعل أخذ أحدهم شخصًا في أحضانه، ولكن بما أنّ الكائن البشريّ المعنيّ بهذه البادرة كان بعيدًا جدًّا، انتهت الأيدي المواجهة للفراغ إلى أن ضربت بعضها بعضًا. إذًا، التصفيق يعني القول لأحدهم: «أرغب في أن أحضنك»، مع عرضٍ ضمنيٍّ بفعلٍ جنسي.

ولأنني لم أشأ أن أبدو غير مدركة لما يحدث، بدأتُ بدوري بالتصفيق، وذلك بضرب كفّي قائمتيّ الأماميتين بعضهما ببعض، ورحتُ أتساءلُ عن نتائج عودة الإنترنت.

هل سيصلون إلى كلّ المعلومات؟

ما كدتُ أطرح السؤال، حتى جاءني الجواب. سيلفان هو الذي أوضح الأمر:

– الإنترنت يعمل ويسمح لنا بالاتصال مع الحواسيب الأخرى لكنّ المضاد الفيروسي أتلف تلقائيًّا جميع المِلفّات المصابة بالفيروسات.

سألت هيلاري:

– ماذا فقدنا، إذًا؟

– المِلفّات.

– أيّ مِلفّات؟

– أقصد النصوص، والصور، والتسجيلات المرئيّة، والموسيقى، أي كلّ الملفات الموصولة بالإنترنت.

– أي عمليًّا جميع...

– لا بدّ أنّ...

حاولت الرئيسة أن تفهم الموقف. صاحت:

– هل تُريدُ القول إنّنا نستطيع الاتّصال ولكننا فقدنا ذاكرتنا؟

تدخّلت جيسيكا، وقالت:

– أنا آسفة، ولكن هذا هو الثمن المدفوع من أجل تشغيل إنترنت جديد.

ممتاز. إذًا، لا أزال الوحيدة الحائزة على موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة وخزينها الهائل من المعلومات، على شكل نصوص، وتسجيلات مرئيّة، وموسيقى. إنّ كلّ ذاكرة البشر معلّقة الآن برقبتي...

قال رومان بكلّ بساطة وهو يُلقي عليّ نظرةً خاطفة:

– لا تقلقوا، لدينا لحسن الحظّ نسخة احتياطية محفوظة. سوف يمكننا من جديد أن نسمع موتسارت، وأن نرى لوحات ليوناردو دافنشي ونشاهد كلّ أفلام سيرجيو ليون، ومونتي بيثون، وستانلي كوبريك.

مررتُ قائمتي على قلادتي.

قالت هيلاري كلينتون، التي تُريد دائمًا، مثلي تمامًا، أن تُعطي الانطباع بأنّها أصل جميع الانتصارات، بإلحاح:

– لا يهمّ: لقد نجحنا في إعادة الإنترنت! ما الذي تنتظرونه حتى تتّصلوا ببقية العالم؟

عبست جيسيكا.

– لا أدري إن كان لا يزال هناك بشرٌ لديهم حواسيب تعمل ومشحونة وموصولة بالشبكة.

طلب بعض ممثلي القبائل الحديث. كان عدد من أرادوا تقديم اقتراحات حول طريقة استخدام الإنترنت كبيرًا جدًّا.

تبادل بعض الهيبيين وبعض أعضاء جماعة كو كلوكس كلان الشيوعية المتطرّفة الشتائم. كما تهاوش الأفارقة والآسيويون أيضًا، ونشبت الخلافات بين العديد من القبائل.

سألتُ خادمتي:

– ما الذي يجنونه من هذه الجدالات؟

– هذا هو مبدأ نظام الجمعية المتّحدة.

– لا قيمة لهذا، أنا أفضّل الديكتاتورية. على الأقلّ إذا ما أخطأ الزعيم، يُقتَل ويُستبدَل بآخر. هذا ما تفعله الجرذان، ومبدئيًّا يبدو أنّ هذا هو سرّ نجاحها. لماذا يهدر البشر كلّ هذه الطاقة في مناقشات لا طائل منها؟

– هذا تطوّرٌ سياسي. حتى الهنود الذين كانوا أوّل من عاشوا في هذه القارة يتداعون إلى هذا النوع من الاجتماعات. وهم يسمّونها باو واو. يجلسون ويتحدّثون. ومن ثمّ يصوّتون ويعدّون أنّ الأغلبية تعبّر عن التفكير الجمعي.

انتهى زعماء القبائل بالهدوء ولكنّ النقاشات تواصلت والتوتّر كان واضحًا وملموسًا. لم يتوقّفوا عن الجدال إلّا حينما استأنفت جيسيكا الحديث. قالت:

– مضادنا الفيروسي **العلم أقوى من الله** عملي، ولذلك إذا أردتم يمكنني أن أحاول إجراء اتصالٍ مباشرٍ مع حاسوبٍ نشطٍ وملقّح بالمضاد الفيروسي.

كان هذا التصريح جديرًا بتهدئة الجميع.

أمرت هيلاري كلينتون:

– افعلي ذلك!

أمسكت المرأة الشابّة بأجهزة التحكّم بالحاسوب. استطعنا أن نتابع ما تفعله على الشاشة المنصوبة فوق المنصّة. أشارت إلى نقطة زرقاء بدأت تومض.

سألت هيلاري:

– ما الذي تفعلينه الآن، بالتحديد؟

– بهذه الطريقة كأنني أتّصلُ بهواتفهم، ولكن لا أتلقّى ردًّا. وهذا يعني أنّ ليس هناك أحدٌ أمام الحاسوب الذي جرى إصلاحه. سوف أحاول مع حاسوبٍ آخر.

جرّبت عملية جديدة، دون أن تحصل على أيّ نتيجة. ومضت النقطة الزرقاء، ولكن لم يظهر أنّ أحدًا قد استجاب في الطرف الآخر.

سألت الرئيسة:

– هل هناك مشكلة؟

– إمّا أنّهم موتى أو أنّهم نائمون، أو أنّهم لا يجرؤون على الردّ لأنّهم يعتقدون أنّ الحواسيب لا تزال مصابة بالفيروس.

جرّبتْ نقاطًا زرقاء أخرى، الواحدة تلوى الأخرى، إلى أن غيّرت إحداها فجأةً لونها وأصبحت بيضاء اللون. سمعنا صوتَ خشخشةٍ من مكبّر الصوت.

ضبطت جيسيكا عناصر مختلفة من برنامجها وأصبح الصوت تدريجيًّا مفهومًا.

قالت خبيرة المعلوماتية في شركة معهد ماساتشوستس للتقانة (إم آي تي) بكلّ بساطة:

– هذا جيّد، يمكنكم التحدّث معهم. تكلّموا عبر لاقط الصوت، إنّهم يسمعون صوتكم.

قالت الرئيسة:

– مرحبًا؟ هل من أحد؟ أين أنتم بالضبط؟

– نحن في مدرسةٍ في جزيرة بارو، على بعد خمسين كيلومترًا إلى الغرب من السواحل الأسترالية.

– كيف تسير الأمور عندكم؟

– غزت الجرذان المدن الأسترالية الكبيرة، وضرب الطاعون معظم السكان. حاولنا أن ندافع عن أنفسنا بالنار، وقد نجحت هذه الوسيلة لبعض الوقت، ثمّ نجحت القوارض في تجاوز المناطق المشتعلة. نحن مجموعة صغيرة نجحنا في الفرار إلى هذه الجزيرة المحمية بأعجوبة. هناك

بعض قطعان الجرذان التي بدأت بمحاولة الوصول سباحةً ولكننا نجحنا في صدّها لأنّها أُنهِكت بسبب طول المسافة التي قطعتها. ومع ذلك، لا أدري إلى متى يمكننا الصمود لأنّ عددها لا يكفّ عن التزايد.

واصلت جيسيكا الاتصال بالحواسيب، بفضل القمر الاصطناعيّ أونيكس الذي مسح سطح الكرة الأرضية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. ورأينا نقطةً زرقاء أخرى تتحوّل إلى اللون الأبيض.

– نحن الآن على جزيرة جوخوف، في شمال شرق سيبيريا، نحن فريقٌ من الفيزيائيين الروس الذين تجمّعوا للهروب من الجرذان. نحن محميون بالمياه والبرد. لكنّ بعض الجرذان نجحت في التأقلم مع هذه الظروف المُناخية وكلّ صباح، يزداد عدد الجرذان الواصلة إلى الشاطئ وهي منهكة.

نجح اتصالٌ آخر، وهذه المرّة في الغرب:

أشار فريقٌ من العلماء الإسرائيليين:

– هنا، في قلعة مسادا القديمة، الصحراء هي التي تحمينا من الجرذان. نحن علماء البيولوجيا. الحرارة والجفاف يُضعفان الجرذان ولكنّها لا تستسلم ولا تتوانى عن محاولة مهاجمتنا. يتمتّع حصننا بمصدرٍ داخلي للمياه العذبة الباردة التي لا يمكن الوصول إليها من الخارج، ولكن الجرذان مثابرة ولا تيأس. إنّها تحفر أنفاقًا. لا نعلم إلى متى يمكننا الصمود. نحن سعداء بأن تلقّينا أخيرًا اتّصالًا خارجيًّا!

نجح اتصالٌ رابع:

– في المعبد البوذي الذي نوجد فيه الآن، في بوتان في أعالي جبال همالايا، الارتفاع الشاهق والبرد الشديد يُبقيان الجرذان بعيدة عنّا.

تتالت الاتصالات العالمية.

وكانت معظمها تجري مع جامعات ومراكز الأرصاد الجويّة أو المراصد الفلكية، أو المدارس التقنية الواقعة في الجزر أو أيضًا في قمم الجبال.

وفي كلّ اتصالٍ جديد، كانت القاعة تتنفّس الصعداء ويشعر الحضور بالارتياح. وهكذا نهض المجتمع البشري مباشرةً أمامنا.

حينما مرّ القمر الاصطناعيّ فوق فرنسا، أصبح رومان ويلز أكثر توتّرًا. طلب من جيسيكا الاتّصال بجامعة أورسيه. رنّ جرس الاتصال، وومضت النقطة الزرقاء ولكنّها لم تتحوّل إلى اللون الأبيض.

غمغمت ناتالي:

– لم يعد هناك أحدٌ في الجامعة.

وحينما بدأ القمر الاصطناعيّ أونيكس بمسح القارة الأمريكية، التقطنا إشارةً قادمة من منطقة هافانا.

– مرحبًا، هل هنا كوبا؟

– كلّا، هنا ليست كوبا. أنتم في اتّصالٍ مع منصّة عسكرية أمريكية. من أنتم؟

– نحن في نيويورك. هل يمكنني التحدّث مع مسؤولٍ من مجموعتكم؟

– سأوصللكِ به.

مرّ بعض الوقت، ثمّ جاء صوتٌ عميق من مكبّرات الصوت.

– الجنرال غرانت على الخطّ. مع من أتشرّف بالتحدّث؟

أزاحت السيّدةُ النحيلة ذات الشعر الأبيض جيسيكا جانبًا لكي تردّ هي على الجنرال:

– هيلاري كلينتون، رئيسة الولايات المتّحدة.

– «السيّدة» هيلاري كلينتون؟ زوجة... السابق... أقصد التي...

– التي انتُخِبَت رئيسةً، في الحقيقة. أنا سعيدة بأنّك تعرفني، يا جنرال غرانت. بالنسبة إليّ، لم يحالفني الحظّ في التعرّف إليك، ولكنني في غاية السعادة بالتحدّث إليك. ويُذكّرني اسمك بالتأكيد بانتصاراتٍ سابقة. استعرضْ لي الوضعَ من فضلك. كيف تسير الأمور عندكم؟ وقبل كلّ شيء، أين أنتم بالضبط؟

– نحن في المركز العسكري المتخفّي تحت غطاء جهازِ حفرٍ نفطي قبالة السواحل الكوبية. لقد فقدنا كلّ اتّصال مع القارة. أنتم أوّل من يدخلون في اتصالٍ معنا منذ زمنٍ طويلٍ.

– ما هي آخر معلومة حصلتم عليها؟

– نيويورك، بعد حقبة من الحرب الأهلية والفوضى، غزتها الجرذان، وتهيّأنا للمجيء إلى هناك، ولكننا علمنا أن مجموعةً من العلماء وجدت عقّارا عامًّا مضادًا للجرذان. وبذلك طُهِّرَت المدينة وتهيّأت لتصدير عقّارها لكي تُطهّر الأرض الأمريكية من الجرذان. وهذا ما حدث، أليس كذلك؟

– لم يعد عقّارنا المضاد للجرذان فاعلًا. بالمقابل، أصلحنا للتوّ شبكة الإنترنت ونحاول تنسيق جهودنا لكي نستعيد السيطرة على مانهاتن. وكرئيسة للدولة، أطرح عليكم السؤال: ما هي وسائل عملكم؟

– نحن الكتيبة الخامسة من سلاح الفرسان المدرّع، التي تسمّى «فرسان سفر الرؤيا». تضمّ كتيبتنا خمسمئة مدرّعة. ولدينا قوارب إنزال برمائية، مصمّمة خصيصًا للنقل. في الواقع، كنّا جاهزين في حال واجهنا احتمال وقوع هجومٍ علينا من جزيرة كوبا.

– مدرّعات؟ أيّ نوعٍ من المدرّعات؟

– إنّها مركبات من أحدث جيل، وهي مزوّدة بتجهيزات متطوّرة للغاية. هناك أربعة رجال في كلّ مدرّعة، وبالتالي تضمّ كتيبتنا ألفي جندي.

– ولم تصدأ معدّاتكم طيلة هذه المدّة؟

– لدينا نظامٌ معتمد للصيانة والتشحيم للأسلحة وكذلك تدريبات للتأكّد من أننا في جاهزية قتالية تامّة.

قامت جيسيكا ببعض عمليات الضبط على الحاسوب، وظهر في الحال إطارٌ صغير في زاوية الشاشة أطلّ منها رجلٌ عسكري يرتدي بزّة عسكرية رسمية. وشاهدنا خلفه قاعةً مليئة بشاشات، ورجالًا آخرين بالزّيّ العسكريّ الرسمي.

وقفت هيلاري أمام كاميرا الحاسوب.

– عمت صباحًا أيّها الجنرال، أنا سعيدةٌ برؤيتكَ، هل تستطيع أن تراني أنت أيضًا؟

– نعم. احترامي يا سيّدتي الرئيسة.

– حسنًا، أنت تعرف إذًا سلطة الحكومة الأمريكية الانتقالية التي أمثّلها.

أمسكت بالحاسوب المحمول ولوّحت به في الهواء لكي تصوّر كاميرته القاعة التي لوّح فيها ممثّلو القبائل المئة والواحدة بإشارةٍ من أياديهم.

– اسمكِ، سيّدتي الرئيسة، يكفي لتطميني على شرعية «حكومتكم الانتقالية»، مثلما قلتِ.

– ممتاز يا جنرال. من الآن فصاعدًا، أنتم تحت أمرتي، أليس كذلك؟

– آه... نعم، سيّدتي الرئيسة.

– وكرئيسة للسلطة التنفيذية، وبالنتيجة، كقائدة للجيوش، آمرك بتنظيم تحرّك مدرّعاتكم وجنودكم بهدف تحرير نيويورك من غزاتها. إذا ما بدأتم بالتحرك، وسلكتم الطريق إلينا، برأيك كم من الوقت يستغرق وصولكم إلى هنا؟

حسنًا، وأخيرًا، ها هم البشر الذين بدأوا بالتحرّك والعمل! كم من الوقت سيمرّ قبل أن يتصرّفوا أخيرًا!

كم سيكون الأمر بسيطًا لو أنّ الجميع نسّقوا بعضهم مع بعض لعزف نفس الموسيقى.

16. آلات أرْغن بالقطط

في عام 1549، خلال استعراض موكبٍ لاحتفالٍ ديني في بروكسل، ظهرت عربة مع جهاز أرغن مدهش. كان عبارة عمّا يقرب من عشرين صندوقًا تُحبَسُ فيها قططٌ على نحوٍ منفصل. كانت أذيال القطط تخرج من أعلى تلك الصناديق وهي موصولة بأزرارٍ ما يشبه لوحة أزرار بيانو. كانت القطط مصطفّة حسب سلّم الأنغام التي تصدرها بالمواء. وكان موسيقيٌّ يعزف لحنًا بالضغط على الأزرار (وبالتالي بسحب الأذيال...).

بعد مرور قرنٍ، وفي عام 1650، في ألمانيا، صُمِّم نموذجٌ مماثل من قبل أثانيسيوس كيرتشر. وتكوّن النموذج هذه المرّة من نوعٍ من البيانو القيثاري مع عددٍ أكبر من الصناديق التي تحتوي على قططٍ. وهنا أيضًا، كانت هناك لوحة أزرار يرتبطُ كلّ زرٍّ منها بإبرة سوف توخز القطّ، وترغمه على المواء بنغمته. وبعد ذلك، في القرن الثامن عشر، استخدم الطبيب الألماني يوهان كريستيان رايل آلة مماثلة لمعالجة المرضى المصابين

بالتشنّج العضلي. كان يعدّ سماع آلة على هذا القدر من الإدهاش كفيلًا بخلق اضطرابٍ شعوري يساعد على الشفاء.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

17. هجوم فرقة الخيّالة المدرّعة

وقفنا على قمّة برج الحريّة نترقّب وصول النجدة.

كنّا جميعًا متلهّفين للغاية لرؤية المركبات البرمائية المدرّعة وهي تصل!

أُرسِلَت المسيّرات بانتظام إلى عرض البحر، ولكنّها رغم كونها مزوّدة بألواحٍ للطاقة الشمسية، لم تكن تمتلك القدرة الذاتية الكافية للابتعاد عن السواحل.

كانت تحلّق وتحوم فوق المنطقة مصدرةً طنينًا كطنين الذباب.

وأخيرًا ظهر على الشاشة شكلٌ غامق اللون يبرز من بين الضباب.

كانت السفينة الحربية أكبر حجمًا بعشرة أضعاف من سفينتنا الشراعية *الأمل الأخير*. وهذا من مزايا ومثالب الأمريكيين: يصنعون كلّ شيء بأضخم حجم، حتى عماراتهم، وحتى سفنهم، وحتى... جرذانهم.

طلبتُ المنظارَ المقرّب، وبعدما وضعتْه ناتالي أمام عينيّ، صعدتُ إلى أعلى قمّة الهوائي لكي أستكشف الأفق.

لحق بي أنجيلو. سألني، كأنّه يعتقد بصدق أنّ لديّ الجواب لكلّ شيء:

- إن نجحوا في الوصول إلينا، فماذا سنفعل؟

- سوف ألقي خطابًا أمام جمعية ممثلي القبائل البشرية والحيوانية وأعتقد أنّه سيكون علينا اعتماد دستورٍ عالميٍّ.

قال باهتمام:

- ماذا؟ ما معنى هذا؟

- طرح القواعد الجديدة للعبة التي نعتقد، نحن القطط، أنّها ستكون الأصلح لمستقبل الجميع.

- أنتِ تفكّرين في كلّ شيء، يا أماه.

- هذا قدري. من الضروري تأسيس جمعية أوسع تضمّ حقًّا المزيد من الحيوانات، الممثّلة بطريقة أكثر إنصافًا وتوازنًا ممّا هو عليه التمثيل في الوقت الراهن.

- وكيف سيتواصلون بعضهم مع بعض؟ لم يعد شامبليون موجودًا لكي يترجم...

- عبر العين الثالثة. سوف يُزوّد جميع الممثلين في الجمعية بها. وسنكون بهذه الطريقة متأكّدين من أننا نفهم بعضنا بعضًا تمامًا.

اقتربت السفينة. على الأرض، لم تبدُ الجرذان مدركة للخطر المحدق بها.

أصبحتُ أرى السفينة على نحوٍ أوضح. إنّها أشبه بسفينة شحن، لونها رماديّ فاتح، وفيها مدخنة تطرح عمودًا من الدخان الأسود.

أرسل مسؤولو برج الحرية ما يقرب من عشر مسيّرات لتصوير عملية الإنزال.

فضّلتُ النزول إلى قاعة الجمعية لأشاهد الصور التي سوف تُبثّ على الشاشة الضخمة.

وكانت هذه الشاشة العملاقة مقسّمة إلى شاشات صغيرة تتيح لنا رؤية المشهد من زوايا عديدة وبمقاييس عديدة من تكبير الصورة.

ألقت السفينة العسكرية مراسيها قبالة الرصيف، ثمّ أطلقت العشرات من قوارب الإنزال، يحمل كلّ قاربٍ مركبتين مدرّعتين.

وأخيرًا وصلت قوارب الإنزال إلى الشاطئ. وطأت المركبات المصفّحة أرض الجزيرة وبدأت بالسير.

بطبيعة الحال، امتلأت المنطقة بالجرذان الفضولية بخصوص هذه الظاهرة الجديدة.

توجّهت المدرّعات ببطءٍ نحوها. وإذ لم تعرف القوارضُ هذه الحيوانات الخضراء الضخمة، اتّخذت وضعية التأهّب للقتال، كما لو أنّ عليها أن تواجه فيلة. أحنت ظهرها ونصّبت آذانها وأذيالها، وكشّرت عن أنيابها، وبدأت تصفّر، وهذا الصفير بالنسبة إليها هو صرخة حربٍ. مرّة أخرى، منحها عددها الكبير الشعور بأنّها لا تُقهَر.

واصلت العربات المصفّحة تقدّمها، ولكنّ الخطوط القتالية للجرذان لم تكتف بعدم التراجع، بل تراصت صفوفها لكي تواجه هؤلاء الخصوم القادمين من البحر.

ثمّ كانت الصدمة. عند المواجهة، سحقت العربات المدرّعة الجرذان في طريقها مثل حبّات تين ناضجة. ومثل الفاكهة، انفجرت الجرذان وتحوّلت إلى عصيرٍ أحمر أرجواني.

صوّرت المسيّرات المعركة.

بحسب ما رأينا، أطلقت المدرّعات المزوّدة بالأسلحة الرشّاشة النار، وأحرقت المدرّعات المزوّدة بقاذفات اللهب الجرذان الموجودة في الأنحاء، بل كانت بعض المدرّعات مزوّدة بقاذفات القنابل اليدوية التي ضربت تجمّعات الجرذان.

لكنّ العربات المدرّعة كانت أكثر فاعليّة من الأسلحة النارية، وتحوّلت الجرذان إلى عصيدة تحت الجنازير السميكة للعربات المصفّحة.

دقّت ساعة الانتقام.

واصلت العربات المدرّعة عملياتها وتوغّلت في المدينة.

تنازعتنا مشاعر الفرح بالنصر والتحسّر على تأخّر القيام بهذه العملية.

أبهرتنا التسجيلات المرئيّة الواردة من المسيّرات.

سارت العربات المدّرعة الضخمة في شوارع نيويورك وهي تسحق الغزاة.

لقد نَجَوْنا.

ناتالي، الواقفة بجانبي، هي الأخرى اجتاحتها موجة من الانفعالات القويّة.

إنّها اللذة القديمة للضحيّة التي تنال الانتقام وتتحوّل إلى جلّاد.

قالت:

– إنّها تشبه جزّازات العشب.

أبديتُ ملاحظةً:

– على الأرجح، سوف يستعيدُ البشر السيطرة على وجه الأرض، ولكنّ الجرذان سوف تحظى دائمًا بفرصة الاختباء في أنفاق المترو والمجاري.

– إذا ما استعدنا السيطرة على الأرض، لن تعود الجرذان في موقع القوّة. سوف تعيش كما في الماضي، مختبئةً في الأنفاق. بل ربّما يمكننا السير بهدوء وأمانٍ في الشوارع.

في إطارٍ على الشاشةِ، ظهر وجه الجنرال غرانت. شرع في الحديث.

– المهمّة قيد التنفيذ، أين أنتم الآن؟

أجابت هيلاري كلينتون:

– في برج الحريّة، الذي كان يُسمّى سابقًا مركز التجارة العالمي. هل تعرف مكانه؟

– تمامًا، سأنضمّ إليكم.

فصوّرت المسيّرات قاربَ إنزالٍ أنزل عربة مدرّعة بيضاء أكبر حجمًا من المركبات الأخرى وقد عُلِّق علمٌ أمريكي على هوائيها. أقبلت المركبة دون تردّد نحونا.

صرّحت الرئيسة الأمريكية:

– يجب الذهاب للقائه!

لحقتُ بفريق الاستقبال. ولحق بي أنجيلو، المحبّ للاطّلاع على كلّ جديد. كانت مسافة النزول من الطوابق المئة والأربعة عبر الدرج طويلة، ولكنني كنتُ توّاقة لرؤية المعركة عن كثب.

في الأسفل، اجتاحتني رائحة كريهة منبعثة من الدم والجثث. إنّها جثث الجرذان.

أينما نظرت، لم أرَ سِوى أعداء مسحوقين. في الحالة الطبيعية كان من شأن هذا المنظر المُرْضي أن يُفرحني ولكنني لم أستطع نسيان كلّ أصدقائي الذين فقدوا حياتهم في الحرب ضدّ الجرذان.

إنّها رائحة نهاية الخوف.

وأخيرًا ظهرت المدرّعة البيضاء الكبيرة. توقّفتْ أمام مدخل ناطحة السحاب خاصّتنا، وانفتحتْ فتحةٌ برجها.

شاهدتُ الرجلَ الذي نزل منها يعتمر خوذةً ذات واقية للوجه يظهر من تحتها شعرٌ طويلٌ أبيض. بشرتُه برونزية وفي فمه غليون، وعلى أنفه نظاراتٌ

شمسية. وعند خروجه من مركبته، ألقى تحيّة عسكرية، واضعًا أصابعه المضمومة بعضها إلى بعض بثبات على صدغه. نزل في إثره عسكريان آخران.

التقوا بسكان برجنا. ضحكوا، وتبادلوا التهاني، وتعانقوا، وقال بعضهم لبعض أشياء بلغة البشر التي لم أستطع أن أسمعها بوضوح، ثمّ صعدوا الدرج.

أمّا أنا، فقد راودتني رغبةٌ شديدة في رؤية داخل قمرة قيادة المدرّعة وما فيها، فدخلتُ إليها، متخليّة عن كلّ حذر، عبر برجها.

بحسب رأيي، هنا في هذا السلوك أيضًا كنتُ أحضّر نفسي لأقوم بوظيفة المَلِكة: أن أكون فضولية لمعرفة كلّ شيء وأن أرغب في فهم كلّ شيء.

لحق بي أنجيلو ككلّ مرّة.

وجدنا في الداخل رجلًا يرتدي الـزِّيّ العسكري الرسميّ الأزرق البحري. ولاحظتُ حوله مقابضَ وأزرارًا مضيئة وشاشاتٍ. كما كان هناك أيضًا ما ظننتُ أنّه مخزونٌ من القذائف وصناديق الذخيرة.

توجّهتُ إلى الجندي وأمرته بالمواء بأن يسير بالمركبة المدرّعة لكي أتمكّن من متابعة هجوم الجرذان من الداخل. ولكنني لم أستطع إفهامه ما أُريد لأنّ جهاز الاستقبال والترجمة لم يكن بحوزتي.

أشرتُ على أنجيلو بالتوقّف عن إزعاج هذا الجندي وخرجنا من المركبة. سرنا على تلك الأرض الغريبة الملساء والحمراء الممزوجة بنداتف الوبر البنّي المسحوقة على الأرض. فاحت رائحةُ دمِ الجرذان قويّة بحيث شعرتُ بحرقةٍ في أنفي وشعرتُ بنوعٍ من الدوخة والغثيان.

كانت سلاسل المركبات المدرّعة التي مرّت قد سحقت بالفعل الكثير من القوارض.

رأينا في كلّ مكان تقريبًا شظايا بيضاء تلمع: الأنياب المتكسّرة إلى قطعٍ. شمّ أنجيلو الأرض.

– كما ترى يا أنجيلو، هناك حلولٌ لجميع المشكلات. المسألة ليست إلّا مسألة صبر وخيال.

تحمّس ابني كثيرًا لمنظر خصومنا وقد تحوّلوا إلى عصيدة.

– تعال، ودعنا نصعد إلى البرج. سوف نرى ما يحدث على نحوٍ أفضل من خلال كاميرات المسيّرات.

قفزنا على درجات السلالم ووصلنا منهكين إلى قاعة الجمعية في الطابق الرابع بعد المئة.

هناك، شاهدنا تتمّة الإنزال مثل فيلمٍ سينمائي.

كان الجنرال غرانت يقف بجانب هيلاري كلينتون. لم يخفِ الاثنان فرحتهما بمتابعة الوضع على الشاشة الكبيرة.

فوجئنا جميعًا بأن يكون الحلّ، بعد كلّ التوتّرات التي راكمناها، سريعًا وبسيطًا إلى هذه الدرجة.

القليل من الأسلحة الثقيلة المتطوّرة في مواجهة قوارض تركض كالحشرات في كلّ الاتجاهات دون أدنى إمكانية لغرز أنيابها اللعينة في المعدن.

لم نعد نتحرّك، فقد تجمّدنا في أمكنتنا مبهورين بالمشاهد المعروضة على الشاشات.

كان المشهد أشبه بحربٍ ليس فيها سِوى معسكر واحد يقتل في حين لا يفعل المعسكر الآخر سِوى الاستسلام للمقتحمين.

بدأ الإنزال في الساعة الثامنة صباحًا، وببلوغ الساعة الثامنة مساءً، صعد الجنرال غرانت إلى المنصّة وتحدّث في مكبّر الصوت ليدلي بتصريحٍ إلى جمعية القبائل المئة والواحدة.

– لقد انتصرنا. جزيرة مانهاتن محرّرة بالكامل من كلّ وجودٍ للجرذان. تلقيّتُ التقارير الأخيرة التي تؤكّد أنّه لم يعد هناك أيّ جرذٍ يُرى على كامل أراضي الجزيرة. وبالتالي يمكنكم الخروج وممارسة حياتكم الطبيعية، مثلما كانت قبل الانهيار الكبير.

تحدّثت هيلاري بدورها إلى الجمعية، فقالت:

– أقترح قبل كلّ شيء أن يأخذ العسكريون مكانهم بيننا وأن ينضمّوا إلى الجمعية ويشكّلوا القبيلة الثانية بعد المئة. وهذه القبيلة سوف تُمثّل

بالطبع فيكَ، سيادة الجنرال غرانت! وبهذه المناسبة، اسمحوا لي أن أقدّم لسيادتكم، كتَذْكارٍ، هاتفًا ذكيًّا يعمل على بطارية تُشحَن بالطاقة الشمسية التي سوف تسمح لك بالبقاء على اتّصالٍ دائمٍ معي، وحتى معنا نحن الحاضرين هنا جميعًا.

سُلِّم الهاتف الذكي إليه مثل صولجانٍ وضجّت القاعة بالتصفيق.

قالت الرئيسة:

– أقترحُ أن نقيم حفلًا كبيرًا للاحتفال بهذا النصر. من الآن فصاعدًا، انطلاقًا من هنا، من هذا البرج المسمّى ببرج الحرية في مانهاتن سوف تنطلق عملية التحرير من المحتل الجرذي. ربّما تتمّ عملية التحرير مدينة تلوى مدينة، ثمّ من قرية إلى قرية، إلى حين تحرير العالم بأجمعه من هذه القوارض اللعينة! وحينئذٍ ستبدأ النهضة.

أشار الجنرال غرانت إلى مساعده، فجلب هذا الأخير قارورةً خضراء وذهبية فتحَها وفوّر ما في داخلها.

تعرّفتُ إلى الرائحة من بعيد.

إنّها شامبانيا.

– لديّ عددٌ لا بأس به من القوارير المخزّنة. سيمكننا أن نقدّمها كلّها لكم.

همهم الحضور بالموافقة.

– أرفع كأسي نخب الانتصار على الجرذان.

فتح العساكر قوارير الشامبانيا وشرب الجميع الأنخاب، بمن فيهم أنا التي طلبتُ من ناتالي كوبًا من الشامبانيا لكي ألعقها.

أعلنت هيلاري:

– فلتبدأ الحفلة!

وزّع العساكر الطعام المحفوظ، وأكلنا جميعًا، البشر والقطط، أخيرًا طعامًا غير لحم الجرذان. ثمّ وقفت مجموعةٌ من العساكر في ركنٍ لكي يعزفوا الموسيقى. فاندفع البشر اثنين اثنين وبدأوا يشبكون أياديهم ويتمايلون.

سألتُ ناتالي:

– ما هذا؟

– إنّه «الرقص». إنّه أحد الفنون السبعة الرئيسية. هناك العمارة، والنحت، والرسم، والموسيقى، والأدب، والرقص، والفنّ السابع هو: السينما.

– علّميني. أعتقد أنّ الرقص هو الفنّ البشري الوحيد الذي أجهله تمامًا.

– هذا أمرٌ منطقيّ، لأنّه حتى وإن شاهدتِه بالفيديو، فلن تستطيعي فهمه بالفعل من دون ممارسته.

– علّميني.

– لكي يرقص الشريكان رقصًا ثنائيًّا، يمسك في البداية، كما ترين، أحدهما بيدي الآخر ويخطوان خطوات متناسقة.

– لكي يذهبا إلى أين؟

– لا يذهبان إلى أيّ مكان. لكي يبقيا في مكانهما. يدوران دائريًّا أو يخطوان خطوة إلى الأمام وأخرى إلى الخلف.

رأيتُ بالفعل أنّ الجنرال غرانت والرئيسة كلينتون يتقدّمان ويتراجعان.

هذا شيءٌ تافه.

راقبتُ لوقتٍ طويل وبدأتُ أفهم.

قدّمت الموسيقى إيقاعًا مساعدًا للمتمايلين.

وهكذا، من خلال التحرّك عموديًّا، يمكنهم استنتاج ما الذي قد يحدث... أفقيًّا.

– هل هذا تمهيدٌ لممارسة الحبّ؟ مثل عروض المغازلة عند الطيور قبل التزاوج؟

ابتسمتْ.

– نعم، نوعًا ما ولكنْ لا أعتقد أنّ هذين الاثنين سيفعلان ذلك هذا المساء.

لم يكن قد سبق لي أن حضرتُ حفلةً بشرية. يشكّل الرقص والشامبانيا والموسيقى مزيجًا مناسبًا للاسترخاء والراحة بعد التوتّر الناجم عن خوض المعركة.

في كلّ الطوابق، وحتى على شرفة السطح، عُزِفَت الموسيقى ورقص الناس.

حتى القطط والكلاب احتكّت بعضها ببعض اثنين اثنين أو في مجموعات.

لقد استعادت الطاقة الحياتية استحقاقاتها.

رأيتُ أنجيلو وهو يشمّ ردفي قطّة شابّة أمريكية مُشعرة.

جاء جنودٌ من الكتيبة الخامسة، منهكين، وانضمّوا إلينا في حين ذهب آخرون إلى مناوبتهم لاستكمال «تأمين» مانهاتن.

نعم، *لقد انتهى كلّ شيء. لقد انتصرنا. وهذا ليس بفضلي أنا، بل بفضل الجنرال غرانت هذا وجنوده. بعد الآن، سيكون بوسع كلّ شيء أن يعود كما كان في السابق. سيُعيد البشر بناء حضارتهم، ونحن القطط سوف نبقى في مساكنهم، نتغذّى ونسكن ونُحمى بفضل دباباتهم، ومدافعهم الرشّاشة، وقاذفات اللهب خاصّتهم، التي أظهرت أخيرًا أنّها وسيلة الدفاع المُثلى ضدّ قطعان القوارض.*

تغيّرت الموسيقى. أصبح اللحن أبطأ من ذي قبل، ووجدته متناغمًا جدًّا.

سألتُ ناتالي، التي ظلّت جالسة بجانبي:

– ما هذا؟

– «هوتيل كاليفورنيا» لفرقة إيجلز (الصقور). إنّها أغنية هادئة.

شاهدتُ رومان يتقدّم نحونا بحذر ودعاها إلى الرقص، ولكنها رفضت.

انفصل رومان وناتالي.

كلّ هذا بسبب حكايات الغيرة! هل خادمتي حمقاء إلى هذه الدرجة؟

نهضتْ وتوجّهت نحو الرجل الهندي شوفال فوغو وعرضت عليه أن يرقصا معًا.

وبينما كنتُ أراقب ناتالي وهي تتمايل ممسكة بيدي الزعيم الهندي، شعرتُ برأس أنفٍ رطبٍ يلامس مؤخرتي. التفتُّ.

إنّه بوكوفسكي.

سألني القطّ الأمريكي ذو الشعر القصير:

– هل يمكنني أن أعرض عليكِ القليل من الحنان؟

مَنْ يحسِبُ نفسه، هذا القطّ؟ هل يساوي نفسه بي؟ على أيّ حال، لا أزال أفكّر في فيثاغورس. لا بدّ أنّ هذا هو الحداد النفسي.

ألحّ القطّ الأرعن:

- إذًا، ماذا قلتِ؟

لم أكلّف نفسي حتى عناء الردّ عليه.

هو معي *أنا*؟

حتى عندما أكون بحاجة إلى «الحنان»، بالتأكيد لن أرتاح مع هذا القطّ المسخ.

أنا صاحبة مبادئ.

لا أمارس الحبّ مع الأفراد الذين أكلوا أصدقائي.

بعد أن يئس منّي، التفت نحو أسميرالدا، التي لم تصدّه ووافقت منذ اللحظة الأولى على أن تتحدث معه.

لو تكاثر هذان الاثنان، سيكون ذلك عارًا.

لقد تمّ الأمر، وأفسدَ كلّ شيء، وأنا الآن أفكّر في فيثاغورس.

تمنّيتُ كثيرًا لو أنّه كان بجانبي ليتذوّق طعم هذا الانتصار.

وبينما بلغتِ الحفلة ذروتها، قرّرتُ العودة نحو كوبي من الشامبانيا وشربت.

راودني سؤالٌ بإلحاح وأزعجني. الآن، وإذ سيعود كلّ شيء إلى طبيعته، سيكون عليّ أن أواصل مساعيّ. فكّرتُ من جديد في رغبتي بأن أصبح نبيّة. تُرى هل سيكون بوسعي، بعد إبراهيم، وموسى، وزرادشت، وبوذا، واليسوع، أن أكون نبيّة جديرة بالفعل بهذا الاسم؟

18. المسيحون الثلاثةُ في يبسيلانتي

كان الدكتور ميلتون روكيش عالمَ نفسٍ مولعًا بمبدأ الهويّة. في الأوّل من يوليو/ تموز 1959، راودته فكرة تجربة مبتكرة: أن يجمع في مستشفى الأمراض النفسية في يبسيلانتي الواقعة في ولاية ميشيغان ثلاثة مرضى يعانون من الفصام العقلي وكان كلّ منهم مقتنعًا بأنّه يسوع المسيح. أي: جوزيف كاسيل، البالغ ثمانية وخمسين عامًا، وهو فلاح، وقال: «أنا

إله»؛ وكلايد بينسون، البالغ سبعين عامًا، وهو موظّفٌ مكتبي، وقال: «أنا خلقتُ الإله»؛ وليون غابور، البالغ ثمانية وثلاثين عامًا، وهو عامل كهرباء، سمّى نفسه ريكس كنايةً عن الكلمة اللاتينية التي تعني «مَلِك»، وهي إحدى تسميات يسوع. كان ميلتون روكيش يأمل أنه بمجرّد أن يلتقي أحد المرضى بأناسٍ آخرين من المفترض أنّ لهم هويّته نفسها، سيعيد النظر في يقينياته.

من المؤكّد أنّ كلًّا من المرضى الثلاثة قد ارتبك بحضور المريضين الآخرين، لكنّ كلًّا منهم ظلّ مقتنعًا بأنّ الآخرين كانا دجّالين وأنّه هو وحده يسوع المسيح الحقيقي. بحسب رأي كاسيل، كان المريضان الآخران مجنونين. وبحسب رأي بينسون، كانا رجلين آليين. وبحسب رأي غابور، كانا كاذبين. شجّعهم روكيش على أن يتناقشوا فيما بينهم لكي يستطيع كلٌّ منهم عرض حججه. قال كاسيل: «من الأفضل أن تعبداني». وشرح بينسون: «لستما إلّا بشرًا». وأكّد غابور: «أنا الربّ».

ومن جرّاء الجدال الدائر بينهم، انتهوا إلى أن تقاتلوا في اشتباكٍ بالأيدي.

بعد مضي سنتين على التجربة، ظلّ كلٌّ من المسيحين الثلاثة مقتنعًا بأنّه المسيح يسوع الوحيد والحقيقي في حين أنّ الاثنين الآخرين دجّالان. أمّا بالنسبة إلى ميلتون روكيش، فقد ندم على التجربة وأعلن أنّه ليس من حقّ أيّ باحثٍ أن يتصرّف كإلهٍ مع مرضاه، ولو كان ذلك بهدف تطوير العلم.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

19. صداع الكحول بعد الثمالة

في اليوم التالي للحفلة، في الصباح الباكر، خيّم الصمت على كلّ شيء وعلى الجميع. أشرقت الشمس على بشرٍ نائمين على الأرض العارية. وكانت القطط والكلاب من جهتها مستلقية كيفما كان في قاعة الجمعية المحوّلة إلى

قاعة للرقص. حاولتُ أن أنهض، ولكنني شعرتُ بصداعٍ فظيعٍ في جمجمتي أرغمني على أن أحاول عدّة مرّات قبل أن أستطيع الوقوف على قوائمي.

كان ذلك يعود على الأرجح إلى كميّة الشامبانيا التي شربتُها في الليلة الماضية.

ترنّحتُ حتى وصلتُ إلى نافذة مفتوحة حيث استطعتُ استنشاق القليل من الهواء المنعش.

ثمّ عدتُ وشاهدتُ الشاشة.

وها قد انتصرنا.

لكنّ شيئًا ما شغل بالي.

لقد انتصرنا، ولكن ليس بفضلي أنا.

لن يُعترَف بضرورة وجودي. ولن أصبح مَلِكةً. سوف أعود قطّة طبيعية تلتمس المداعبة بينما تشاهد خادمتها التلفزيون... وعلاوة على ذلك، أنا أقلّ من قطّة عاديّة، أنا قطّة غريبة، ولستُ حتى قطّة مواطنة، بل قطّةٌ مقيمةٌ.

ارتعشتُ وانتفضتُ.

سرتُ بين الأجساد الممدّدة. وجدتُ أنجيلو وأنثاه الجديدة الأمريكية، وأسميرالدا مستلقية جنبًا إلى جنب مع بوكوفسكي، ولكنني لم أرَ ناتالي.

استيقظ الجميع تدريجيًّا.

اغتسلنا وتناولنا الطعام. على الشاشة، عُرِضَت صور انتصار الأمس، وتخلّلتها المقاطع المصوّرة الجديدة في بثٍّ مباشر.

نجحت المدرّعات في الوصول إلى مصفاةٍ، الأمر الذي أتاح لها التزوّد بالوقود. وبذلك بات بإمكانها مواصلة التحرّك والتصرّف.

وإذ جرى «تنظيف» الشوارع الواسعة أوّلًا، انقضّت المدرّعات على الشوارع الأضيق.

وسط دهشتي الكبيرة، كانت لا تزال هناك جيوبٌ لمقاومة الجرذان المتجمّعة في خطّ جبهةٍ أمام سلاسل المدرّعات. لم تصمد طويلًا، ولكن عليّ الاعتراف بأنّ إصرارها كان مثيرًا للإعجاب.

لم تشأ الاستسلام.

سحقتها المدرّعات.

إلى أيّ مدى تثق بنفسها حتى تأمل في أن تحظى بفرصة أخرى في النصر بعد الذي تعرّضت له نهار أمس!

جلس الجنرال غرانت أمام طاولةٍ ولم يكفّ عن تناول الطعام وهو يراقب في الوقت ذاته الشاشة ويُصدر بين الفينة والأخرى الأوامرَ عبر الهاتف.

فجأةً، جعلته رسالة واردة يعبس. أمسكَ بجهاز التحكّم وكبّر حجم إحدى الشاشات التي تعرض الصور الملتقطة بشكلٍ مباشر من قبل مسيّرةٍ. رأينا فيها مدرّعةً معزولة، متوقّفة في مكانها، وتُطلق من خلفها سحابةً كثيفةً من الدخان الأسود.

رأيناها محاطة بالجرذان.

فُتِح البرج العلوي، وخرج الرجال الأربعة منه، وشرعوا يركضون وسط الجرذان، ولكنّ القوارض تشبّثت بسيقانهم وانتهت إلى إسقاطهم. وشاهدنا عندئذٍ المشهد الفظيع لقتلهم أمام عدسات كاميرا المسيّرات.

فكّرتُ في البداية بعطلٍ ميكانيكي ولكنّ شاشة أخرى عرضت مشهدًا مماثلًا. مدرّعة تطرح دخانًا أسودَ ثمّ يخرج منها رجالٌ يهربون وسط الجرذان قبل أن يُمسَكَ بهم.

دهمني شعورٌ سيّئ.

وما جرى بعد ذلك كشف عن وجود مشكلة. استطاعت الجرذان أخيرًا إيجاد ثُغْرَة في المدرّعات.

جاءت المسيّرات تصوّر وتحوم حول المدرّعات وهي توجّه من قبل بشرٍ حاولوا أن يفهموا كيف استطاعت قوارض التصدّي لهذه المركبات المدرّعة الفائقة التطوّر.

توقّف الجنرال غرانت عن تناول الطعام. بدا أنّه غير مصدّقٍ ما تراه عيناه.

بعد خسارة مدرّعتين أخريين، أمسك بهاتفه وأعطى أوامره بصوتٍ صارمٍ.

وفي الحال عرضت لنا المسيّرات المدرّعات التي تراجعت. توقّف العديد منها في منتصف الطريق، وقد تعطّلت. من أصل المدرّعات الخمسمئة التي خرجت من السفينة الحربية، وصل نصفها فقط سليمًا إلى أسفل مقرّ قيادتنا، الذي استطاعت أطقمها المكوّنة من ألف جندي الوصول إليه بفضل حبالٍ أُلقيت من نوافذ الطابق الأوّل.

تلقّى الجنود الناجون على الفور الرعاية والتُقِطت أسلحتهم.

صعدوا، وهم منهكون وبعضهم جرحى، إلى قاعتنا الخاصّة باجتماعات الجمعية. تحدّثوا مع الجنرال غرانت الذي كان في غاية القلق، فالتفت إلى هيلاري كلينتون لكي يشرح لها الوضع. عبست الرئيسة، ثمّ أطلقت صفّارة الإنذار للدعوة إلى اجتماعٍ طارئ لممثلي القبائل المئة والاثنتين في الطابق الرابع بعد المئة.

الجنرال غرانت هو من قام شخصيًّا بالتصريح، وقد تلقيّتُ ترجمته من خلال عيني الثالثة:

– يجب أن تتوقّف عملية «نيويورك محرّرة» لأنّ دبّاباتنا لم تعد قادرة على خوض العمليات. لقد حاولنا أن نحلّل المنهج المستخدَم من قبل أعدائنا للتغلّب علينا وقد فهمنا ذلك. لكثرة ما حاولت الجرذان الصعود إلى الدبّابات وعضّ المعدن، نجحت في العثور على الثُغْرَة. فتحة العادم. فأرسلت جرذان انتحارية لكي تسدّ هذه العوادم بأجسادها، فأوقفتْ إطراح غازات المحرّكات التي تعمل بوقود الديزل.

سعل، وهو متعكّر المزاج، ثمّ أعلن:

– لقد فكّرت للوهلة الأولى في أن أعرض على أطقم الدبّابات وعليكم أنتم أيضًا الذهاب إلى قوارب الإنزال للصعود إلى سفينتنا، ولكنني تلقيّتُ للتوّ معلوماتٍ، و... احم... واتّضح أنّ... بعض الجرذان السابحة... احم، المدرّبة بطريقةٍ خاصّة، قد نجحت في تسلّق سلاسل المراسي وتعطيل هذه السفينة.

اللعنة، كان علينا تحذيرهم. مأخوذةً بحماسة الانتصار الذي بدا مؤكّدًا، لم أفكّر في إثارة هذا الموضوع. ولا الآخرون فعلوا ذلك.

شرحتُ الوضع لأنجيلو.

اعترف صغيري:

– سدّ فتحات عوادم الدبّابات بجرذان انتحارية، إنّها بالفعل حركة قويّة جدًّا. بصراحة، لم أعتقد قط أنّها سوف تجدُ حلًّا.

ومع ذلك أراد الجنرال غرانت أن يقول شيئًا إيجابيًا لكي يوحي بأنّ الموقف لم يتجاوزه.

– على الأقلّ، هنا، نحن في أمانٍ.

يا له من غبيّ.

وفي الحال سيطر شعورٌ أليمٌ على الممثلين المئة والاثنين والأشخاص الذين جاؤوا من الخارج لحضور الاجتماع الطارئ.

من جديد، رفع البشر من نبرتهم الحادّة في النقاش. وجرى البحث عن المذنبين. عاتب بعضٌ هيلاري كلينتون على ثقتها بهذا الجنرال التافه. وانتقد آخرون عدم كفاية العسكريين. وأشار الاستعلائيون البيض إلى أنّه كان هناك الكثير من الجنود السود في المعركة. وقام السود بدورهم بشتم البيض، ومرّة أخرى، لم يجد البشر طريقة للتنفيس عن توتّرهم غير التشاجر.

طلب الجنرال غرانت الكلام. ولأنّه لم يستطع أن يفرض الصمت، أخرج مسدّسه وأطلق رصاصة في السقف، فتحَت فيه حفرة سقطت منها حفنةُ من الإسمنت. وقد أسفر دويّ الطلقة عن توقّف المشاجرات في الحال. وهدأت القاعة أخيرًا وأصغت. قال الجنرال:

– لا أرى بعد الآن سِوى حلٍّ واحدٍ. خلال الحرب العالمية الثانية، لكي ننتصر على الألمان، اخترنا أن ننزل على الشواطئ الفرنسية، ولكن تبيّن أنّ هذه العملية صعبة للغاية، وتعرّضنا لخسائر كبيرة. وكذلك ضدّ اليابانيين، كان الخيار أكثر راديكاليةً. القنبلة الذرية. أعتقدُ أنّه للتعامل مع عدوٍّ بهذا العدد الضخم وعلى هذا القدر من القوّة والقدرة على التكيّف، لا بدّ على الأقلّ من اعتماد هذا الخيار.

لم تبدُ هيلاري كلينتون، الواقفة إلى جانبه، رافضة للفكرة.

- كيف ترى استخدام هكذا سلاح، جنرال غرانت؟

- في الوقت الحالي، هذه ليست إلّا فكرة، ولكنني أعتقدُ أنّه سيكون علينا أن نجرّ الجرذان كلّها إلى مكانٍ معزول، وهناك، نفجّر كلّ شيء. إنّ انفجارًا نوويًّا سيكون كفيلًا بإحداث أضرار كافية للقضاء على ملايين الجرذان.

سألت هيلاري كلينتون:

- ولكن كيف سنرغم أو نحثّ الجرذان على الذهاب إلى مكانٍ محدّد؟

- أُكرِّر ما قلت، في الوقت الحالي، هذه ليست إلّا فكرة وعلينا أن نتحقّق من جدواها. أعتقدُ أنّ علماء البيولوجيا وعلماء البيئة والكيميائيين من بينكم سوف يجدون الحلّ. ربّما سيكون عليكم إطلاق صرخة أنثى جرذ في حالة إثارة جنسية، أو رائحة تحبّها الجرذان كثيرًا، المهمّ في الأمر هو أن نتحايل عليها ونستدرجها إلى مكانٍ ما.

لم تُقنع اقتراحاته أحدًا ولا طمأنت أحدًا، وبينما كنا نشاهد على الشاشات الجرذان وهي تعود بأعدادٍ كبيرة وتغزو شوارع نيويورك، عادت المشاجرات بين ممثلي القبائل.

ارتفعت أصواتهم أكثر، وتبادلوا الشتم والذم.

شعرتُ بأنّ البشر قد أصبحوا أقلّ توحّدًا وتماسكًا على نحوٍ متزايد بعد هذا الفشل ومع هذا الاقتراح الذي يصعب وضعه موضع التنفيذ.

بكلّ صراحة، خيّب العساكر الأمريكيون أملي. كنتُ أعتقدُ أنّهم سيصمدون لوقتٍ أطول بوجود معدّاتهم المتطوّرة.

لا أعلم ما الذي تفعلونه أنتم في حالةٍ كهذه، ولكن بالنسبة إليّ، عندما أتلقى ضربة تنال من معنوياتي، أوّل ما أرغبُ في فعله، مثلما قلتُ سابقًا، هو أن ألعق نفسي.

يبدو لي أنني بذلك أغتسلُ ممّا هو سيّئ وقد يدخل إلى جسمي.

انضمّ إليّ بوكوفسكي في الوقت الذي كنتُ منهمكة فيه بالعمل.

عرض عليّ، قائلًا:

- هل نرتاح قليلًا بممارسة الحبّ؟

فكرةٌ ثابتة. لم أردّ عليه، ولكنّه تابع:

- لقد رأيتُكِ تشربين الشامبانيا، ولكن ربّما ترغبين في تذوّق مشروبٍ محليٍّ سوف يُريحكِ أكثر. هل تعرفين الويسكي؟

بقيتُ غير مبالية، وتنهّد الهرّ الضخم. قال بإلحاح:

- الآن عرفنا ذلك، لم يعد هناك أملٌ، سوف نقضي جميعًا. وبالتالي ليس هناك ما نخسره إن أحسنَ بعضنا إلى بعض، ألا تعتقدين ذلك؟

لن يفهمني بهذه الطريقة.

بحثتُ عن رومان ووجدته أخيرًا في الطابق الخامس، المليء بشاشات الحواسيب الموصولة بالإنترنت. وكانت هذه الحواسيب تؤمّن الاتصالات مع الجماعات البشرية الأخرى الناجية على سطح الكوكب.

كانت ناتالي هي الأخرى في الطابق نفسه.

أراني بطاقةً ومضتْ عليها نقطة بيضاء، في إشارةٍ إلى حاسوبٍ نشطٍ.

همس لنا:

- لقد وجدتُ شيئًا.

- ماذا؟

- بوسطن.

إلى جانبه، رأيتُ جيسيكا تدخلُ في حديثٍ مع أناسٍ من بوسطن.

- أنا طالبة سابقة في معهد ماساتشوستس للتقانة (إم آي تي). وأنتم، هل أنتم من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا؟

- نحن من مصنع شركة بوسطن داينامكس.

- صنّاع الروبوتات؟

- نعم، وأنتم؟

- نحن في نيويورك، في برج الحرية. نحن من أصلحنا الإنترنت. اعتقدنا أننا قد انتصرنا على الجرذان باستخدام الدبابات، ولكنّ القوارض وجدت ثُغْرَة فيها. وأنتم، كيف نجوتم؟

- على وجه التحديد بفضل الروبوتات العسكرية. ولكننا نجحنا فقط في الدفاع عن مصنعنا وإنقاذ أنفسنا.

أرادت جيسيكا مواصلة الحديث، ولكنّ الاتصال انقطع فجأةً. عبثًا حاولت معالجة الأمر، فلم تنجح في معاودة الاتصال.

طلب رومان ويلز إعادة توجيه القمر الاصطناعيّ أونيكس.

غيّر بعض المعايير وعاد ليستقرّ فوق فرنسا، وعلى نحوٍ أدقّ فوق أورسيه، التي بعثت وميضًا أزرق.

سألت ناتالي:

- ماذا تفعل؟

شرح:

- يجب عليّ أن أتأكّد.

- لقد سبق أن حاولت عدّة مرّات. لماذا تصرّ؟

لكنّ الرجل الشاب لم يُصغِ إليها. واصل إجراء التعديلات، ثمّ أرسل إشارةً. هذه المرّة، تلقّى خشخشةَ ردٍّ.

سأل رومان:

- مرحبًا. هل هناك من يسمعني؟

لكنّ الصوت لم يكن مفهومًا.

فاقترح رومان أمرًا آخرَ.

- فلنتواصل عبر الرسائل النصّية، اتّفقنا؟

ظهرت حروفٌ على الشاشة السوداء.

- اتّفقنا.

- أنا البروفيسور رومان ويلز. كنتُ أنتظرُ هذا الاتصال منذ زمنٍ طويل! لقد عبرنا المحيط الأطلسي بسفينةٍ. أمضينا خمسة وثلاثين يومًا في الطريق، ولكننا وصلنا بسلامٍ إلى أمريكا. نحن الآن في نيويورك نقيمُ في برجٍ. كنّا نعتقد أنّ هناك عقّارًا مضادًا للجرذان فاعلًا هنا، ولكننا اكتشفنا أنّ هذا غير صحيح. نحن نواجه الملايين من الجرذان بقيادة مَلِكٍ يُدعى آل كابوني، ووجد الوسيلة لتحويلها لكي يجعلها قادرة على مقاومة العقّار المضاد

للجرذان. كما أنّنا جرّبنا هجومًا بالدبابات ولكنّ الجرذان نجحت في إخراجها عن الخدمة. عددها أكثر بكثير من جرذان فرنسا. ويبدو أنّ مَلِكها قويٌّ جدًّا، وماذا عندكم أنتم؟

– هنا أيضًا، الجرذان منتشرة في كلّ مكان.

– ولكنكم أقمتم نظامًا للدفاع باستخدام السياج الكهربائي، أليس كذلك؟

– كلا.

مرّ بعض الوقت. راودني حدسٌ غريب. مؤتُ:

– اسأله منْ يكون.

نقر رومان على الرسالة.

– مع منْ أتحدّث الآن، من فضلك؟ هل أنت أحد العاملين في أورسيه من الذين أعرفهم من قبل؟

– في الحقيقة سبق لنا أن التقينا.

– كيف حدث ذلك؟ هل أنت عالمٌ؟

– كلا.

وفجأةً جاءني الجواب، واضحًا:

تيمورلنك!!!

أدرك ناتالي ورومان أيضًا الأمر. ولكن بعد فوات الأوان.

لقد تظاهر بأنّه كائنٌ بشري من خلال الاتصال عبر حاسوب جامعة أورسيه بفضل عينه الثالثة التي أتاحت له الاتصال بالأجهزة. وبالفعل، خلصت الرسالة إلى التالي:

– أنا سعيدٌ بأن عرفتُ أخيرًا مكان وجودكم. امنحوني فقط بضعة أيام لكي أنظّم الرحلة وألحقُ بكم. أتوق إلى استعادة موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة وإلى مقابلة هذا المَلِك العظيم للجرذان الأمريكية الذي أسميتموه آل كابوني.

20. آل كابوني

آلفونس كابوني وِلد في عام 1899. وبدأ حياته الدراسية في مدرسة كاثوليكية صارمة. وقد طُرِد منها في سنّ الرابعة عشرة بسبب اعتدائه بالضرب على مدرّسٍ. فشرع بمهنته كرجل عصابة في عصابة للفتيان البلطجية أطلقت على نفسها اسم «سفاحي بروكلين». كانوا يمارسون السرقة والابتزاز والقمار غير القانوني السرّي. حينما بلغ الثامنة عشرة من عمره، أصبح بوّابًا ونادلًا في حانة تعود إلى زعيم مافيا، هو فرانكي ييل.

ولأنّه شتم شقيقة زعيمٍ آخر للمافيا وهو فرانك غالاسيو، قام أحد رجال هذا الأخير بطعن آل كابوني بالموسى في وجهه وشقّ خدّه الأيسر، ومن هنا جاء لقبه: سكارفيس (ذو الندبة). اعتذر عن تلك الإهانة وأصبح بعد ذلك الحارس الشخصي للزعيم المافيوي غالاسيو.

ثمّ انتقل إلى شيكاغو وعمل محاسبًا في حانة زعيمٍ آخر للمافيا، وهو جوني توريو، الذي كان يمتلك العديد من بيوت الدعارة، ونوادي القمار واليانصيب في الحي الإيطالي. كانت عصابة توريو تضمّ ثمانمئة رجلٍ. أصبح كابوني مروّج مخدّرات، ثم حارسًا شخصيًّا، ثمّ الساعد الأيمن للزعيم توريو. في عام 1920، أُقرّ قانون حظر الكحوليات في أمريكا. سلّم توريو حانة سرّية لكابوني، اسمها «أربعة – اثنان». إلا أنّ توريو أُصيب بجراحٍ خطِرة على أيدي رجال عصابات آخرين، كانوا إيرلنديين هذه المرّة، فقرّر بعد هذه الحادثة أن يتقاعد ويذهب للإقامة في إيطاليا، تاركًا عصابته لكابوني. وبهذه الطريقة، بدأت في عام 1925 سطوة آل كابوني. وقد دعم هذا الأخير في الانتخابات الجمهوري جوزيف كلينا لمنصب حاكم الولاية وذلك من خلال إرسال مئتين من رجاله لترهيب الناخبين وإفراغ الصناديق من البطاقات الانتخابية التي صوّت بها الناخبون لكي تُملأ بعد ذلك ببطاقات تصويت أخرى مكتوب عليها «كلينا». وشيئًا فشيئًا، وضع تحت جناحه رجال السياسة والقضاة ورجال الشرطة المحليين.

في السادسة والعشرين من عمره، أصبح آل كابوني زعيم المافيا الإيطالية في شيكاغو. فكان يمتلك مئة وإحدى وستين حانةً، ومئة وخمسين صالةَ قمارٍ، واثنين وعشرين بيتًا للدعارة. وعلاوة على ذلك، كان قد رشا الشرطة المحليّة. حينما بلغ الثلاثين من عمره، كان منافسه الوحيد هو زعيم المافيا الإيرلندية، باغز موران. في يوم عيد الحبّ (يوم القديس فالنتين)، دهم رجالُ شرطة زائفون مقرّ موران. وبعد صفّ مساعدي زعيم العصابة على الجدار، قتلوهم بطلقة في قفا الرأس. نجا موران من تلك العملية، لكنّ آل كابوني فكّك كلّ المافيات وأصبح مَلِك المافيا وعدو الدولة رقم واحد.

أسفرت أزمة عام 1929 عن آلاف العاطلين عن العمل، ورمّم آل كابوني صورته أمام السكان من خلال توزيع وجبات حساء مجّانية على الفقراء.

أوقِف أخيرًا في عام 1931 بتهمة التهرّب الضريبي وارتكب خطأ الانفصال عن محاميه، وهو خبير ضرائب لامع وجده كابوني يطلب مبالغَ باهظة، ليستبدله بمحاميين من بين أصدقائه، ولكنّهما أقلّ كفاءةً.

وقد أدانته محكمةٌ وحكمت عليه بالسجن سبعة عشر عامًا. وبعد انقضاء ثمانية أعوامٍ، طُعن بالسكين في سجن آلكاتراز من قبل سجينٍ آخر. بعد إصابته، استطاع أن يخرج من السجن ويعود إلى عائلته. كان قد أُصيب بداء السفلس في شبابه، ولم تكفّ حالته الصحيّة البدنية والذهنية عن التدهور. توفيّ في عام 1947 في ميامي. أودِع رمادُ رفاتِه في مقبرة مونت كارمل إلى جانب رفاة العديد من رجال العصابات الآخرين المشهورين.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

الفصل الثاني
حصيلة كلّ المخاوف

21. احموني من أصدقائي، وأنا سأتكفّل بأعدائي

كانت أمّي تقول: «مهما حصل معكِ، يمكن أن يحدث ما هو أسوأ».

منذ فشل هجوم الدبّابات ووصول رسالة تيمورلنك، لم يكفّ الجوّ داخل برج الحريّة عن التدهور.

بقدر ما أنعش إصلاح الإنترنت ووصول الجنرال غرانت الأمل لدينا، أثارت الهزيمة في المعركة ونية تيمورلنك في اللحاق بنا الخلافات داخل صفوفنا.

ما أسمّيه «خلافات» أقصدُ بها الانقسامات بين القبائل. أصبحنا بعيدين عن واقع المجالس الأولى المقترنة بنقاشات (الباو واو) للقبائل الهندية المسالمة.

مرّت الأيام وشهد كلّ اجتماعٍ مجموعات متعارضة: السود ضدّ البيض، الهنود ضدّ الكاوبوي، البروتستانت ضدّ الكاثوليك، العرب ضدّ اليهود، العسكر ضدّ المدنيين، الأغنياء ضدّ الفقراء، الشباب ضدّ الشيوخ. حتى عند الحيوانات، لم تعد الأمور على ما يُرام على الإطلاق. تشاجرت القطط والكلاب أحيانًا.

انكفأ كلٌّ على قبيلته، ورغم أنّ رومانِ وجيسيكا تواصلا مع العلماء الآخرين في العالم أجمع، فإنّ أبحاثهما لم تتوصّل إلى أيّ حلٍّ ملموسٍ. كانت الجماعات البشرية الأخرى في كلّ مكان تعيش هي أيضًا في حالةٍ من الخوف والهلع.

ومن جهة أخرى، كانت هناك خصومات بين الكائنات الأكثر قربًا منّي. فقد ظلّ الخلاف بين رومان وناتالي مستمرًّا ولم يتصالحا.

ولكن بالمقابل، بدا أنّ علاقة ثنائية، أو على الأقلّ صداقة متينة وغير متوقّعة، قد تكوّنت بين إديث، عالمة الأحياء في مجال الجينات، وجيسيكا نيلسون، خبيرة المعلوماتية.

والقصص الغرامية الوحيدة التي بدت أنّها مستمرّة، كانت قصص ابني أنجيلو مع تلك القطّة الأمريكية التي تُدعى كيمبرلي، وأسميرالدا مع بوكوفسكي الحقير.

مرّت الأيام، ووصلت إلينا المعلومات عن بقية العالم بالقطّارة. منذ أن أصبح لدينا إنترنت، علمنا أنّ المقاومات، في كلّ مكانٍ تقريبًا، تسقط واحدة تلوى الأخرى تحت هجمات الجرذان التي تزداد عددًا وذكاءً باستمرار.

حتى مدن أمريكية كبيرة مثل لوس أنجلوس، أو سان فرانسيسكو، أو شيكاغو، أو دينفر وقعت بالكامل تحت سيطرة الجرذان. وخارج القارة الأمريكية، تعرّضت مدن مثل بكين، وموسكو، وريو دي جانيرو، ومكسيكو، وبومباي، ولاغوس لغزو القوارض.

لم أجرؤ على تصوّر مستقبلٍ تستطيعُ فيه كلّ الجرذان التواصل على كامل سطح الكوكب مثلما نفعل نحن أنفسنا.

إذا ما تحقّق هذا الكابوس، فسوف ينتهي الأمر بالنسبة إلى البشر، ولكن أيضًا بالنسبة إلى القطط، والكلاب، والخنازير، والخيول، والأبقار، وكلّ الحيوانات التي قد تقاومها.

كيف سيكون عالمٌ تحت سيطرة الجرذان بالكامل؟

في ذلك المجتمع، سوف يسود منْ يُسمون «القادة»، وهم زعماء مستبدون، قساة، لا يعرفون سِوى القوّة والقسوة. حتى داخل مجتمعهم، هناك تراتبية: المنتمون إلى الطبقة العليا يسحقون المنتمين إلى الطبقة الدنيا. ووصول تيمورلنك إلى القارة الأمريكية، بحسب رأيي، سوف يجعل الأمور أسوأ بكثير.

ثمّ إنّني أظنّ أنّه يحقدُ عليّ بشكلٍ خاصّ ويريدُ أن يسرق منّي ثروتي الأغلى، ألا وهي موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

ظلّ سرٌّ واحدٌ لم أجد له تفسيرًا. فقد قال تيمورلنك: «سألحق بكم»، ولكنني لم أفهم كيف سيتمكّن بدوره من عبور الأطلسي.

بداهةً، الجرذان لا تجيد الإبحار.

وصل إلينا الجواب على سؤالي هذا بعد خمسة وثلاثين يومًا، عبر الأفق. لمّا رآنا نغادر على متن السفينة الشراعية **الأمل الأخير**، لم يعقّد مَلِك الجرذان الفرنسية أمور الحياة، وفعل الأمر نفسه. سِوى أنّه لم يكن على متن سفينة قديمة، بل على متن ناقلة نفطٍ حديثة. ارتعشتُ وأنا أتخيّلُ عدد الجرذان الموجودة داخل الناقلة.

تُرى هل سوف تستقبل الجرذان الأمريكية أبناء عمومتها من الجرذان الفرنسية بالبساطة نفسها التي استقبلَنا بها البشرُ والقطط الأمريكيون؟

تابعنا تتمّة العمليات بفضل المسيّرات التي بُثّت تسجيلاتها المرئيّة في قاعة الجمعية.

اقتربت الناقلة. كان سطحها مغطّى بالفراء الرمادي وتخيّلتُ أن أحواضها أيضًا لا بدّ أن تحتوي الكثير من تلك الجرذان التي سبق لي أن قاتلتها.

حينما أصبحت السفينة قريبة بما فيه الكفاية، ألقت الجرذان الفرنسية بنفسها في الماء لكي تصل إلى شاطئنا «نحن». كان منظرها أشبه بنهرٍ رماديّ يجري بلا هوادة من الناقلة نحو الضفّة.

رأينا على الشاشات المنطقةَ التي جرى فيها أوّل اتصالٍ بين جرذان القارتين.

نظرت الجرذان الأمريكية والفرنسية بعضها إلى بعض بحذر.

لهنيهةٍ راودني الأمل في أن ترفض القوارض الأمريكية نظيرتها الفرنسية، ولكن بعض أفراد المجموعتين اقتربوا وشمّوا بعضهم بعضًا. بدت الجرذان فضوليّة أكثر منها مرتابةً.

وا أسفاه.

لمحتُ حينئذٍ طيفًا صغيرًا لجرذٍ أبيض يبرز من بين حشد ذوي الفراء الرمادي.

إنّه هو.

أمرتُ رومان بأن يقرّب الصورة.

وحالما توضّحت الصورة، تعرّفتُ إليه.

لم يكتفِ فقط بمجيئه شخصيًّا، بل علاوة على ذلك، كان هو يقود بنفسه حشده، جاثمًا على ظهر جرذين آخرين.

لم يكن قد أصبح سمينًا، ولم يكن قد شاخ، كان لا يزال يمتلك تلك العين الحمراء البرّاقة، والشعر الناصع البياض، والأذن الدائرية المرتعشة والذيل الطويل، الوردي والرفيع الرشيق.

دلّتني ناتالي على شاشة أخرى. صوّرت مسيّرةٌ وصولَ جرذٍ ضخمٍ بنّي اللون، تحمله ستّة جرذانٍ أصغر حجمًا.

آل كابوني.

بدا أضخم حجمًا وأكثر طولًا ممّا كان عليه حينما رأيته للمرّة الأولى مصوّرًا من قبل طائرة مسيّرة. كان بالفعل بدينًا.

تُرى أيكون هذا هو، الجرذ الأمريكي الذي استلهم تحوّل العقّار المضاد للجرذان وعلى الأرجح وجد الثُغْرَة في الدّبابات؟

تفحّصتُ الصور بدقّةٍ وتركيز.

اقترب مَلِكا القارتين بعضهما من بعض تدريجيًّا بتقدّم حامليهما.

حانت اللحظة التي أصبحا فيها وجهًا لوجه، شمّ أحدهما الآخر، ووقفا على قوائمهما الخلفية. استطاعت لواقط الصوت في المسيّرات أن تلتقط حتى صفيرهما الحادّ الذي تبادلاه.

أجرى الجرذان نقاشًا مطوّلًا، وبدا توتّرهما من خلال حركات الذيلين والتكشير عن الأنياب.

سألت الرئيسة الأمريكية:

– كيف استطاع جرذٌ أن ينجح في نقل هذا العدد الكبير من أبناء جنسه في سفينة ويقودها نحو نيويورك؟

أجاب رومان ويلز:

– إنّه ليس جرذًا عاديًّا. لدى تيمورلنك عينٌ ثالثة، مثل باستيت. وبذلك يستطيع الاتصال بالأنظمة الإلكترونية. والحال أنّ هذه السفن الضخمة الأكثر

حداثةً مؤتمتة. يمكنها أن تُبحر مثلما تسير السيارات الذاتية التوجيه، من خلال التكيّف مع أحوال البحر والتيارات المائية لكي تحافظ على ثبات مسارها.

لم يكن على تيمورلنك، الذي يجيد الوصول إلى الإنترنت للتزوّد بالمعلومات والاتصال مع حاسوبٍ لبرمجته، سِوى أن يحدّد اتجاهًا للسفينة.

من جهتي، راقبتُ اللقاء بانتباه.

في البداية، بدا أنّ كلّ شيء يسيرُ سيرًا حسنًا، ولكنّ الجوّ انقلب سريعًا جدًّا. انتصب الجرذ الأمريكي على قوائمه بكامل حجمه الضخم وصفّر بقوّة. صلّب ذيله ورفعه كما لو أنّه أراد أن يجلد من يقف قبالته. انتفخ كلّ فرائه ومنحه هيئة أضخم من ذي قبل. في المقابل، اتّخذ مَلِك الجرذان الفرنسية هيئة مختلفة، إذ خفض رأسه في إشارة على التواضع والتذلّل.

هدّأتْ حركةُ الخضوع هذه الجرذَ الأمريكي.

واستؤنِف الحوار بنبرةٍ أقلّ عدائية.

فعّل رومان لاقط الصوت التوجيهي لالتقاط الأصوات.

من المؤسف ألّا يعود شامبليون بيننا، كان سيترجم لنا هذه المحادثة.

مهما يكن، وحتى دون أن نفهم، لاحظنا النوايا السلطوية لدى آل كابوني، في حين كانت نبرة تيمورلنك تنمّ عن الخضوع.

بدا أنّ الجرذ الأمريكي يزداد غضبًا والجرذ الفرنسي يزداد خضوعًا.

رفع الأوّل من حدّة صرخاته النافثة ومدّ قائمَته باتجاهنا.

لا بدّ أنّه يتحدّث عنّي.

بدا تيمورلنك قلقًا ونظر هو الآخر نحو برجنا.

اقترب آل كابوني وبدأ يشمّ زميله الفرنسي. ولكي يُظهِرَ أنّه لا يخفي شيئًا، قدّم له هذا الأخير مؤخّرته في وضعيةٍ تدلّ على أنّه يستطيع أن ينتهك جسده أيضًا إذا أراد ذلك. قرّب الآخر خطمه، ولكنّه بدا أنّه قد اكتفى بحركة الخضوع هذه دون أن يحتاج إلى الذهاب حتى النهاية. فوقف الجرذ الأمريكي بجانب تيمورلنك، ورفع إحدى قوائمه وتبوّل على رأس الجرذ الأبيض، الذي ظلّ هادئًا.

ثمّ وقف الجرذان وجهًا لوجه وراحا يُصدران أصواتًا فيها صريرٌ بدت أكثر ودّيةً.

التفت تيمورلنك حينئذٍ نحو المسيّرة الأقرب وأفرج عن إشارة تحيّة وهو يحدّق في العدسة.

هذه الإشارة هي لي أنا. إنّه يسخرُ منّي.

اختلطت الجرذان الرمادية بعد ذلك مع الجرذان البنّية. وسارت معًا إلى شاطئ البحر وسبح الجميع نحو جزيرة الحرية.

ما إن وصلا إلى هناك، حتى اندسّ المَلِكان داخل قاعدة النصب التَذْكاري ولم نعد نستطيع رؤية ما يحدث.

أصبح جميع البشر والقطط الذين حضروا المشهد تحت صدمة الصور التي أظهرت بما لا يدعُ مجالًا للشكّ التحالف بين ألدّ أعدائنا.

توجّهتُ إلى ناتالي:

– أريدُ التحدّث إلى ممثلي القبائل المئة والاثنتين.

– ولكنّكِ قطّة...

– اشرحي لهم منْ أكون. تدبّري أمركِ.

تردَّدت خادمتي، ثمّ رضيتْ بأن تصعد إلى المنصّة لكي تهمس بشيءٍ ما في أذن هيلاري كلينتون.

التفتت الرئيسة نحوي ونظرتْ إليّ، مدهوشةً.

ثمّ تقدّمت نحو مكبّر الصوت.

– لقد نُقِلَ إليّ أنّ هناك شخصًا يعرف جيّدًا هذه الجرذان الفرنسية ويودّ أن يتحدَّث أمامكم.

أقبلت ناتالي نحوي، وتسلّقتُ كتفها اليمنى فحملتني إلى المنصّة.

أضافت هيلاري كلينتون:

– هناك فقط تفصيلٌ صغير يجب توضيحه. هذا «الشخص» ليس كائنًا بشريًّا.

لا أحد كاملٌ.

في قفزةٍ رشيقةٍ، وقفتُ على المنبر لكي أرى جيّدًا أعضاء الجمعية.

نصبت ناتالي سمّاعتها الأذنية قبالة لاقط الصوت. وبهذه الطريقة، أصبحتْ ترجمةُ كلماتي، التي كانت تسمعها على نحوٍ حصري حتى الآن، تُنقَل إلى الجميع.

حسنًا، سيكون عليّ أن أعثر على الكلمات المناسبة.

– أيّتها البشريات، أيّها البشر، أيّتها القِطَط، ذكوراً وإناثًا، أُسعدتم صباحًا.

حتى الآن كلّ شيء يسير على ما يُرام...

– شكرًا لكم، سيّدتي الرئيسة كلينتون، لمنحي الكلمة وشكرًا لكم، يا ممثّلي القبائل، لإصغائكم إليّ. أقدّم لكم نفسي، فأنا أُدعى باستيت. لستُ إلّا قطّة وربّما يعدّ بعضكم أنّنا نحن القطط من جنسٍ أدنى. بيد أنّه...

رفع بعض البشر إشارات الاحتجاج، لكنّ عددهم لم يكن كبيرًا.

– بيد أنّه، لكوني قطّة، تصادَف أنني أعرف، بل أعرف جيّدًا جدًّا، مَلِك الجرذان الفرنسية الذي رأيتموه على الشاشات. اسمه تيمورلنك.

دبّ دويٌّ بين ممثلي القبائل المئة والاثنتين، وقد عزوته إلى الإعجاب بي.

عليّ أن أبقى مسيطرة على نفسي، فأنا أتحدّث إلى آخر حكومةٍ مشكّلةٍ من قبل البشر في البلد الذي كان سابقًا البلد الأقوى في العالم.

– على الجانب الآخر من المحيط، كان هذا الجرذ الصغير الأبيض ذو العينين الحمراوين ألدّ أعدائي، ولكن تصادف أن أُتيحَت لي الفرصة لأن أتحدّث معه وجهًا لوجه. وإذا كان هذا اللقاء ممكنًا، فذلك لأنّني، كما ترون، أمتلكُ قابس يو إس بي مركّبًا في جبيني، وبفضل هذه الوسيلة أيضًا باستطاعتي التحدّث إليكم الآن. والحال أنّ تيمورلنك مزوّد بهذه الأداة نفسها. وقد تواصلنا بذلك عبر دماغينا بفضل كابلٍ إلكتروني أتاح لنا أن نكون متّصلين بعضنا ببعض.

توقّفتُ للحظةٍ قصيرةٍ عن التكلّم، لأتأكّد من أنّ الجميع يُصغي إليّ.

– وبالتالي عليكم أن تعرفوا أوّلًا وقبل كلّ شيء أنّه ليس جرذًا عاديًّا. إنّه نتاج مختبرٍ علميٍّ وقد نجا من تجارِب صادمة ومؤلمة. ثانيًا، أنّه حازم وذكيّ للغاية. لا ينبغي أبدًا الاستهانة به والتقليل من شأنه. ثالثًا، لقد سبق

له أن استخدم عينه الثالثة لكي يتّصل بالحواسيب قبل أن تُصابَ بالفيروس. وبالتالي، فقد وصل، مثلي تمامًا، إلى كلّ المعارف البشرية. رابعًا، يمتلك ثقافة عامّة واسعة جدًّا، وخاصّة في مجال التاريخ، والجغرافيا، ولكن أيضًا في مجال التكنولوجيا. لديه القدرة على تكييف ما تعلّمه مع الظروف التي يواجهها. خامسًا، يُجيد استخدام النار. وبهذه الطريقة استطاع أن يعبر أسوارنا الخشبية في باريس. سادسًا، أنّه مندفع ومتحمّس للغاية لأنّه يريدُ الانتقام بسبب كلّ الأذى الذي تعرّض له على أيدي البشر حينما كان جرذَ تجارِب. يُضاف إلى هذا أنّه يُريدُ الوصول إليّ، أنا شخصيًّا، لأنّه يعلم أنني أمتلك عمليًّا كلّ ذاكرة البشر في فلاشة يو إس بي بسعة واحد زيتا بايت (ألف مليار مليار بايت). ولهذا السبب تحمّل عناء كلّ هذه المتاعب لكي يعبر المحيط مع حشده البنيّ.

من جديد توقّفتُ للحظةٍ عن التكلّم. بدأ هرجٌ ومرجٌ في القاعة.

– انتبهوا، لم أقل هذا فقط لكي أخيفكم. أُريدُ فقط أن أحذّركم من التهديد الذي يشكّله هذا الفرد على وجه التحديد، الذي لا يشبه الجرذان الأخرى. من خلال رؤية الطريقة التي تواصلتْ بها بعضها مع بعض قبل قليل، استنتجتُ أنّ تيمورلنك سوف يُعلّم على الأرجح الجرذان الأمريكية كيفية استخدام النار. وبالتالي ربّما علينا أن نفكّر منذ الآن بما سيحدث إذا ما حاولت الجرذان إيقاد النار في هذا البرج. هذا هو كلّ ما أردتُ أن أُخبركم به.

تلا مداخلتي صمتٌ مطبق، ثمّ نهض الجنرال غرانت.

تكلّم ووصلتني الترجمة مباشرةً من عيني الثالثة بفضل السمّاعة الأذنية لخادمتي ناتالي:

– لا أفهم لماذا نستمعُ إلى قطّة. لا سيما إذا كانت كلمات هذه القطّة تبدو كأن ليس لها من هدفٍ سِوى زيادة خوفنا. وهذا يجعلنا نتساءل إن كانت لا تعمل لمصلحة الجرذان.

لاقت مداخلته استحسانًا عارمًا في القاعة.

استغلّت هيلاري كلينتون ذلك لتأخذ لاقط الصوت من جديد. التفتت نحوي.

- ما اسمكِ؟

- باستيت. مثل اسم الإلهة المصرية.

- حسنًا يا باستيت، لقد فهمتكِ وأنا أصدّقكِ. تبدو لي مختلف المعلومات التي نقلتِها إلينا موثوقة، بيد أنّكِ لم تجدي لنا حلًّا. لم تفعلي شيئًا سِوى زيادة وهننا.

- وددتُ أن أحذّركم مسبقًا من أنّه يجب توقّع هجومٍ بالنار وبالتالي ضرورة التفكير باتّخاذ تدابير وقائية في مواجهة ذلك.

احتجّ بعض الأشخاص، مطلقين صيحات عدائية ضدّي.

أخذت هيلاري لاقط الصوت من جديد.

- قبل كلّ شيء، يا عزيزتي باستيت، أودّ أن أطمئنكِ: لكون برجنا من الزجاج والفولاذ والخرسانة ذات الجودة العالية، فإنه سوف يقاوم مقاومةً أفضل من سياجٍ خشبي...

تعالت بعض الضحكات بين الحضور.

يسخرون منّي لأنني لستُ إلّا قطّة.

نظرت إليّ ناتالي باستياء.

بعد كلّ شيء، إنّهم لا ينالون ربّما إلّا ما يستحقّون. طالما أنّهم يعتقدون أنهم جميعًا متفوّقون جدًّا، فليُفنوا بالغرور الخاصّ بجنسهم.

رفع أحدهم يده لكي يطلب التكلّم. إنّه شوفال فوغو، ممثّل جماعة الهنود الأمريكيين.

طلبت هيلاري من الجميع التزام الصمت للإصغاء إليه.

- أُريدُ أن أطرح سؤالًا على هذه القطّة. لقد أخبرتِنا أنّ هناك تهديدًا من جرّاء معرفة المَلِك الفرنسي للنار، ولكن هل لديكِ حلٌّ أكثر شموليةً تطرحينه علينا عدا أخذ الاحتياطات في مواجهة الحرائق؟

- نعم.

توقّفتُ للحظة عن التكلّم لإحداث الإثارة والتأكّد من أنني أجذب الانتباه العامّ ثمّ استأنفتُ الحديث وتُرجِمَت كلماتي هذه المرّة أيضًا تلقائيًّا بفضل الوصلة التي كان رومان قد صنعها لي. حاولتُ أن ألفظ الكلمات بوضوحٍ.

- يجب اغتيال المَلِكين قبل أن يضعا مشاريعهما المشؤومة موضع التنفيذ. ويجب القيام بذلك بأسرع ما يُمكن.

هذه المرّة، انفجر بعض الحاضرين بالضحك. وصفّر آخرون وسخروا منّي.

استمرّ ذلك لوقتٍ قصيرٍ.

كانت أمّي تقول: «أن يكون معكِ حقّ قبل أن يحين الوقت المناسب أسوأ من أن يكون معكِ حقّ متأخّر. في البداية، ينزعج الآخرون منكِ لأنّكِ تخلخلين العادات السائدة. ومن ثمّ يكرهكِ الآخرون لأنّكِ لم تجدي وسائل الإقناع».

لاحظتُ أنّ وحده شوفال فوغو ينظرُ إليّ بفضول، كما لو أنّه لم يكن يعرف كيف يتّخذ موقفًا منّي.

ربّما يكون لديّ حليفٌ بين ممثّلي القبائل.

ثمّ انتهت الجلسة وتفرّقنا.

ذهبتُ إلى المقصف وتناولتُ الغداء على انفرادٍ مع خادمتي، لأنّها بكلّ بساطة كانت لا تزال على خصامٍ مع رومان.

أعتقد أنني لم أفهم جيّدًا علاقاتهما الثنائية. بدا لي كلّ شيء صعبًا. إنّهما يسميّان هذه «مشاعر»، وأنا أقول إنّ هذه «تعقيدات لا داعي لها».

وبالتالي، مثل طفلٍ مع والدين مطلّقين (قرأتُ في موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق نصوصًا حول هذا الموضوع)، كنتُ أمضي وقتي بالتناوب مع خادمتي ناتالي وخادمي رومان.

كنتُ أمضي وقتًا أطول مع الأولى منه مع الثاني.

أبعد من مكاني بقليل، رأيتُ إديث وجيسيكا، وهما لا تزالان قريبتين بعضهما من بعض، ولمحتُ خلفهما أسميرالدا وبوكوفسكي جالسين إلى المائدة وجهًا لوجه على طريقة البشر.

سألتُ ناتالي:

- هل ترين أنني مغرورة وأنانية؟

- لماذا تسألينني هذا السؤال؟

– ذات مرّة، وصفتني أسميرالدا بهاتين الصفتين.

– وما رأيكِ أنتِ في هذا؟

– يبدو لي أنّه إذا كنتُ سأصبح ذات يوم مَلِكةً أو نبيّة، فيجب أن أمتلك الحدّ الأدنى من الثقة بنفسي.

أصغت ناتالي إليّ وهي مشتّتة الذهن. كانت منشغلة بشكلٍ خاصّ بمراقبة رومان عن بعد وهو يتناول وجبته مع سيلفان.

– بصراحة، كيف تريدين أن تنقذي العالم إذا كنتِ لا تعدّين نفسكِ شخصًا مهمًّا؟ الآن وأنا أعرف جيّدًا تاريخ البشر، أطرحُ السؤال التالي: هل كان إسكندر الأكبر متواضعًا؟ هل كان آتيلا يتّسمُ بالإيثار؟ هل كان جنكيز خان متواضعًا؟ لا ينبغي للمرء أن يخلق لنفسه أوهامًا. إذا أراد المرء أن يطوّر بني جنسه، الثقة والكاريزما ضروريتان. لا أعلم كيف كنتم ستتصرّفون لو أنكم كنتم في مكاني، ولكن بالنسبة إليّ كانت هذه هي تقنيتي: عدم المماطلة وعدم تقديم التنازلات في سبيل تنظيم الجميع في توافقٍ هشّ. هي أن أكون مقدامة وبسيطة ومباشرة، وأقول ما أفكّر فيه. وهذا هو السبب الذي جعلني أجد الشجاعة في التحدّث أمام الجمع قبل قليل.

قالت ناتالي وهي تتناول قطعة صغيرة من لحم الجرذ المسلوق:

– لقد أحسنتِ صنعًا.

– علاوة على ذلك، هؤلاء الممثلون المئة والاثنان يتشاجرون دون توقّفٍ من أجل تفاهات.

وبدل أن تردّ عليّ، مضغت جرذها الساخن، بينما واصلتُ مناجاتي:

– القيادة لا تعني الانتظار أو التمنّي في أن تُحلّ الأمور من تلقائها. إنّها لا تعني ترك الآخرين يقرّرون نيابةً عنكِ. وإذا ما أخطأتُ، أتحمّل مسؤولية خطأي.

أو سوف أحمّل المسؤولية لشخصٍ آخر من بين من أسمّيهم «الصمامات».

– لقد رأيتموني أثناء المعارك، أنا لستُ «لطيفة»، بل أنا فاعلة. وبعد ذلك، سوف تحكم الأجيال القادمة عليّ. بالطبع، الذين لا يفعلون شيئًا ولا

يعرّضون أنفسهم لأيّ خطر يبدون محبوبين أكثر من الذين لديهم مشاريع طموحة تتطلّب في بعض الأحيان قليلًا من الصرامة. تأخذ عليّ أسميرالدا أنني لا أمتلك في سجلّي أيّ انتصارٍ كبيرٍ حاسمٍ، ولكنّها ماذا أنجزت هي حتى تحكم عليّ؟

أجابت خادمتي وفمها مليءٌ بالطعام:

- لا شيء.

سعدتُ بأنّها لم تحدّثني عن الإنقاذ المزعوم حينما سقطتُ في الماء في ميناء نيويورك.

نهضت ناتالي وراحت تطلبُ المزيد من الخضراوات، التي كانت تُعَدُّ سلعةً نادرة. ثمّ عادت إليّ.

أمّا أنا، فبقيتُ مكتفيةً بجرذي النيء. ومع ذلك أردتُ أن أواصل عرض وجهة نظري.

- شخصيًّا، ليس لديّ أيّ موقف سلبي من الطغيان، ما دام أنّ من شأن ذلك الدفع قُدمًا بالأمور في الاتجاه الصحيح بأسرع ما يمكن. لقد قرأتُ تاريخكم. يدّعي البشر طيلة الوقت أنّهم يكرهون الطغاة ولكن انظري إلى منْ يجري الحديث عنهم في الكتب: يوليوس قيصر، لويس الرابع عشر، نابليون، ستالين، ماو تسي تونغ، أي أسوأ القتلة الدمويين، المتسلطين القمعيين. إنّهم هم الأكثر ذكرًا في استطلاعات الرأي حول الشعبية حتى وإن تبيّن أنّهم، وقد ثَبُت ذلك بمرور الزمن، أسوأ الزعماء الذين دمّروا بلدانهم. لقد نُسيت دعايتهم الكاذبة وقصورهم الباذخة التي بُنيت من الضرائب الباهظة. لقد فرضوا الرقابة على الصحافة وأسكتوا المعارضة، واستطاعوا تدعيم أركان سلطتهم دون أن تكون هناك شهادات وتقارير ناقدة. وبما أنّ المؤرخين الخاضعين وحدهم قد نجوا، فقد مرّت أخطاء الطغاة تحت جنح الصمت وضُخِّمت أصغر انتصاراتهم.

كنتُ آمل أن أُثير إعجاب متحدّثتي بمعرفتي للتاريخ، ولكنّ خادمتي واصلت تناول جزرتها دون أن تكفّ عن النظر إلى رومان. بيد أنّها رضيت مع ذلك بأن تردّ عليّ:

– هذا ليس بالأمر السهل جدًّا.

– إذا كنتِ غير مقتنعة بعد، دعيني أذكّركِ بأنّ كلّ الزعماء الصالحين، والإداريين الناجحين، المتحرّرين، قد انتهوا نهاية سيّئة: لويس السادس عشر، الذي حدّث فرنسا وأتاح لها أن تكون لها مستعمرات في كلّ أنحاء العالم، انتهى بالإعدام في ساحةٍ عامّة تحت سيل الشتائم والبصق، وأنا أعرف ذلك، فقد قرأتُ عنه في موسوعة العلم المطلق والنسبي الشاملة؛ ونابليون الثالث، الذي نقل البلاد إلى العصر الصناعي، أُطيح به؛ وغورباتشوف، الذي أخرج روسيا من النظام الشيوعي، لحق بشخصه كلّ الحقد من لدن شعبه؛ وزاو زيانغ، الذي أراد أن يتجنّب انتهاء احتجاجات ساحة تيانانمن بحمّام دم، أُقيل من قبل وزرائه واستُبدل به الجزّارُ لي بينغ. هناك الكثير من الدروس والعبر التي تؤخذ من هذه الحالات. من الأفضل أن يكون المرء طاغية مستبدّا وفاسدًا بدل أن يكون زعيمًا مؤهّلًا ومخلصًا وكريمًا ويسمح بوجود المعارضة لسلطته ونقدها. في الحقيقة، مات أغلب أسوأ المستبدين في أسرّتهم، بعد أن شاخوا، محاطين بعوائلهم المحبّة وخدمهم المخلصين، في حين أنّ معظم المصلحين، وكما شرحت ذلك لكم للتوّ، عُزِلوا أو قُتِلوا. بالنسبة إليّ، ما أستنتجه من كلّ هذا هو أنّه يجب أن أفرض نفسي حتى ولو كان ذلك على حساب الآخرين. وأمام عدوٍّ قاسٍ، يجب أن أكون أكثرَ قسوةً.

ولكن ناتالي لم تُصغِ إليّ. بل تساءلتُ في نفسي إن كان ما رويتُه لها يهمّها.

إنّها تتجاهل تمامًا استنتاجاتي السياسية. هي أيضًا تعتقد أن رأي قطّة حول الزعماء البشريين غير مهمّ بالضرورة.

بدأت ناتالي في البكاء.

– هل ما أخبرتكِ به من أنّني أفضّل الطغاة على الجمعيات الديمقراطية هو ما وضعكِ في هذه الحالة؟

هزّت رأسها في حركةٍ تدلّ على النفي.

– ما الذي يُبكيكِ إذًا؟ أهي الجرذان؟ أهو وصول تيمورلنك؟ أهو عدم إصغاء أحد إلى نصائحي؟

قالت:

- كلا.

ثمّ دسّت رأسها في زاوية مرفقها.

- ما بكِ يا ناتالي؟... أخبريني. أنت تعلمين أنني لستُ فقط سيّدتكِ، بل أنا أيضًا، ماذا قلتِ لي سابقًا؟ آه نعم... «صديقتكِ». ماذا هناك؟

رفعت الكائنة البشرية رأسها، شعثاء الشعر، ومسحت دموعها ثمّ قالت فجأةً:

- أنا حامل.

22. صغيرُ القطّ

يولَدُ صغيرُ القطط وهو أصمّ وأعمى. تبقى عيناه مغمضتين مدّة أسبوع. خلال هذه المدّة، لا يميّز سِوى الرائحة واللمس. في اليوم العاشر، يصبح بوسعه أن يسمع. وحينما يبلغ من العمر شهرًا، يلتهم طعامه الصلب الأوّل وتصبح حاسّة السمع عنده أقوى ممّا هي عند البشر بثلاثة أضعاف. وحينما يبلغ من العمر عامًا كاملًا، يبلغ حجمه النهائي.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

23. هموم صغيرة تُضافُ إلى الهموم الكبيرة

لا أعرف ما هو رأيكم، أنتم، بالبشر، ولكن لكثرة ما عشتُ معهم، وجدتُ في النهاية أنّهم يُثيرون العطف.

لديهم تصرّفات غير منطقية تمامًا.

بالطبع لم أقل لخادمتي ناتالي أنّ هذا الحمل يبدو لي سببًا وجيهًا للتصالح مع رومان، ولكنني توقّعتُ تمامًا أنّها كانت ستردّ علي بالقول:

- أنا متأكّدة من أنّه قد نام مع إديث.

راقبتُ من بعيد إديث، التي كانت تمسك بيد جيسيكا. راقبتُ رومان، الذي بدا أنّه يتحدّث في موضوعات علمية مع سيلفان، ودار في خلدي أنّه لن يكون هناك جدوى من محاولة إقناعها، ففي كلّ الأحوال هي تُقنع نفسها بنفسها بهذه الفكرة وبالتالي إذا ما قدّمتُ لها أيّ حجّة تخالف رأيها سوف تعدّني متواطئة مع رومان ضدّها.

يعيش كلّ شخصٍ مع حقائقه وهو مقتنعٌ بأنها الحقائق الوحيدة.

تصرّفتُ كأنّها لم تقل شيئًا، ومؤتُ:

- مُباركٌ لكِ!

- لا أُريد الاحتفاظ بهذا الطفل.

هذا شيءٌ آخر.

- لم أعد أحبّ رومان.

وبدأت من جديد بالبكاء.

لا أرى صلةً بين الحدثين.

يُقدّم الذكور الحيوانات المنوية. تُخلَق مشاعر المحبّة بين الأمّ والطفل، ولا أفهم ما هي ضرورة الآباء في هذه المسألة. شخصيًّا، اعتبرتُ على الدوام أنّ الذكور لا فائدة منهم سِوى إمتاعنا جنسيًّا، ومن ثمّ مساعدتنا حينما نحتاج إلى المساعدة. لم تكن العلاقة مع فيثاغورس مختلفة عن هذا إلّا لأننا كنّا، نحن الاثنين، لدينا عينٌ ثالثة في جبيننا. أتاحت لنا هذه الملحقات أن نوصل ذهنينا معًا مباشرةً، وأن نخلق مستوى من التفاهم الذي يصعب إيجاده مع ذكرٍ آخر.

وفي الواقع هذا الحنين إلى تلك الميزة في التواصل هو وحده الذي جعلني أصدّ إغراءات بوكوفسكي وكلّ الذكور الآخرين الذين حاولوا إغوائي منذ رحيل فيثاغورس.

عرفتُ مسبقًا أنني سوف أصابُ بخيبة أملٍ كبيرة إن لم يكن هناك سِوى الاتصال الجسدي الذي فضّلتُ ألّا أجرّبه حتى.

قلتُ:

– لو كنتُ أنا في مكانكِ، لاحتفظتُ بالطفل!

– اعطِني سببًا واحدًا يجعلني أحتفظُ به!

– حسنًا... لقد سبق لي أن رأيتُ كائنات بشرية صغيرة، إنّها وردية اللون بالكامل، وجميلة. ليست جميلة بقدر صغار القطط، ولكن لا بأس بها، بالنسبة إلى الذين يحبّون هذا النوع من الحيوانات، لا بدّ أن يكون امتلاكهم لواحدٍ منها أمرًا لطيفًا. طبعًا إذا استثنينا تغيير الحفاضات والبكاء المتواصل.

ظلّت سارحة بأفكارها. أعتقدُ أنني لم أُجد العثور على الكلمات المناسبة لإقناعها. فجرّبتُ أمرًا آخر.

– إذا كنتِ لا تريدين فعلًا هذا الطفل، أنا أرغبُ في الاعتناء به. لقد رأيتِ أنني أمٌّ ناجحة مع أنجيلو، على ما يبدو لي، أليس كذلك؟

حسنًا، لقد تمّ الأمر، ها هي تبكي مرّة أخرى.

ما الذي قلتُه وأغضبها إلى هذه الدرجة؟

– أشعر بأنّكِ تحسبينني أمًّا غير جديرة بالثقة، لقد أغضبني هذا قليلًا.

شهقت وابتسمت لي، ثمّ داعبت بحنان الشعر الطويل لخدّي.

قالت:

– أحبّكِ أنتِ.

لقد سبق أن سمعتُها تقول هذه الجملة لذكرها رومان. وإذا كانت تحبّني بالطريقة نفسها، فهذا يعني بالنسبة إليّ أنّها غيورة بما يكفي لتتحمّل بقائي حرّة.

– ها هي نقطةٌ مشتركةٌ بيننا. فأنا أيضًا أحبّ نفسي.

أطلقتُ هذه الدعابة لكي أُريحها، ولكن بدل أن تضحك، عصرتني بقوّة بين ذراعيها، عصرتني بقوّة كبيرة قاربت حدّ الإيلام. قاومتُ قليلًا.

– أوه، عزيزتي باستيت! كيف ستكون حياتي بدونكِ!

من جهتي، تخيّلتُ الأمر جيّدًا. سوف أكون مع رومان، الذي يتميّز بثباتٍ أكثر في مشاعره، حتى وإن كان يُقلّلُ من إظهارها.

- إذا كنتِ تُريدين إسعادي، احتفظي بهذا الطفل.

- ولكنّه سيولَد في عالمٍ تغزوه الجرذان!

- لقد قرأتُ تاريخكم. في كلّ عصرٍ، كان هناك على الأقلّ خطرٌ جسيمٌ واحد. ومع ذلك، ظهر بين أسلافكم أفرادٌ وجدوا الحلول، وإلّا لما كان هناك بشرٌ ولا قططٌ اليوم.

تنهّدت بعمق.

- عندنا نحن البشر، يمكننا إجراء عملية إجهاض، أي أننا نستطيع أن نقرّر طواعيةً وضع حدٍّ للحمل قبل أن يصل إلى نهايته. ويمكننا بذلك أن نتجنّب ولادة أطفالٍ سوف يكونون تعساء في حياتهم.

- ولكن منْ قال لكِ إنّ كائنكِ البشريّ الصغير سوف يكون تعيسًا في حياته؟

- كيف يمكن للمرء أن يكون سعيدًا هنا؟

- يمكن للأمور أن تُحلّ.

- مع أبٍ يفتقر إلى المصداقية إلى هذا الحدّ مثل رومان؟

- ما الذي يجعلكِ تقولين هذا؟

- أشعرُ بأنّه مستعدٌّ لأن ينام مع نساءٍ أخريات.

حاولتُ أن أمزح لكي ألطّف الجوّ:

- أو مع رجالٍ آخرين...

هنا أيضًا، لم تستجب لمزاحي.

- يجب أن تثقي بالمستقبل، يا ناتالي. أنتِ تجعلين نفسكِ تعيسةً بسبب غيرةٍ لا داعي لها. أنا متأكّدة من أنّ كلّ الأمور سوف تُحلّ. استعدّي لمفاجآت سارّة بدل النظر على الدوام إلى الأسوأ.

ومررتُ بدوري قائمتي فوق خدّها في إشارةٍ وديّة.

وفي هذه اللحظة بالذات، دوّت صفارة الإنذار.

نهض جميع من كان في المقصف ومن ثمّ وصلت المعلومة عبر مكبّر الصوت.

- حريقٌ!

وها قد تأكّد أنني كنتُ على حقّ.

شممتُ رائحة الدخان.

إذًا، لقد كان تيمورلنك سريعًا في التصرّف. إنّه هنا منذ صباح اليوم وقد أقنع الجرذان الأمريكية باستخدام النار ضدّنا. سيكون الوضع صعبًا.

وكما هي العادة في حالات الخطر، استولى هلعٌ مفرط على البشر ولكن أيضًا على القطط والكلاب. ركض الجميع باتجاهات مختلفة وهم يصرخون فزعًا. أثار الناس بعضهم في بعض الخوف والهلع. أُعطيت إرشاداتٌ متناقضة في حين ظلّت مكبّرات الصوت تُردّد الإنذار نفسه:

– **حريقٌ!**

أمّا أنا، فأنتم تعرفونني، لا أحبّ أن أدع المشاعر تستولي عليّ، سواء كانت مشاعر الخوف أو الحبّ، بكلّ بساطة لأنّ هذا يمنعني من التفكير بصفاء ذهنٍ.

فذهبتُ إلى قاعة المعلوماتية في الطابق الخامس، حيث نرى الوضع بفضل كاميرات المراقبة. رأيتُ رتلًا من الجرذان القادمة نحونا حاملةً ورقًا وحطبًا. لمّا وصلت إلى البرج، اندسّت في فوهةِ أنبوبٍ للتهوية يقع في الأرضية.

شرح لي رومان ويلز الموقف:

– هناك خمسة طوابق لمواقف السيارات تحت برج الحرية. ومن المستحيل حماية هذه المواقف لأنّها تقع تحت الأرض ويمكن الوصول إليها عبر شبكات التهوية والمجارير. وهذا يتطلّب سدّ الكثير من الأنفاق أو الدفاع عنها. لذلك وضعت الجرذان كلّ المواد القابلة للاشتعال التي استطاعت العثور عليها لإيقاد النيران في مواقف السيارات وخلق ما يشبه مجمرةً تحت برجنا. وهي تأمل بذلك في أن تراه ينهار.

– وهل هذا ممكن؟

– لا أعرف شيئًا عن هذا الأمر. في الواقع، يتوقّفُ هذا على نوعية المواد القابلة للاشتعال التي نجحوا في جمعها. إذا كانت هذه المواد تحتفظُ بالنار

لفترةٍ طويلةٍ، أعتقدُ أنّ الحريق سيُضعف في كلّ الأحوال أساسات البرج وبالتالي سيدمّرها...

هذا هو بالضبط ما كنتُ أخشاه.

تدخّل سيلفان، قائلًا:

- على هذه الشاشة، يتبيّن لنا أنّ الأنظمة المضادة للحريق قد عملت، ولكن بما أنّه لم تعد هناك مياه جارية، لا تُطلق ما يكفي من الماء. وهناك، نرى أنّه يوجدُ دخانٌ بدأ يغزو الطوابق الأرضية. والحال أنّ أنظمة طرد الدخان لم تعد تعمل هي الأخرى.

- ما الذي سيحدث إذًا؟

سمعنا صوتَ انفجارٍ. وأظهرت واحدة من الشاشات أنّ انفجارًا قد وقع في مواقف السيارات.

- إنّ خزّانات وقود السيارات التي لا تزال مركونة هي التي تنفجر.

على شاشاتٍ أخرى، رأينا الجرذان تواصلُ جلب الورق والحطب لكي تحافظ على النيران مشتعلةً. بدأ الدخان المتصاعد في أنظمة التهوية يصبح ملحوظًا.

بعد عذاب الماء، ها هو عذاب النار. بالتأكيد، لن تكون هذه الحياة سهلة على الإطلاق.

حاول البشر في قسم الإطفاء التصرّف ولكن لم يكن لديهم ما يكفي من الماء في الصهاريج. من جهتهم، فتح جنود الجنرال غرانت نوافذ الطابق الأوّل وأطلقوا النيران من مدافعهم الرشّاشة على رتل الجرذان التي كانت تنقل الحطب، ولكنّ عدد القوارض كان يفوق كثيرًا عدد الذخائر، ومقابل كلّ جرذٍ يسقط، كانت ثلاثة جرذان تأخذ مكانه في مهمّة نقل المواد القابلة للاحتراق.

وقف أنجيلو بجانبي. سأل:

- كيف سيوقَف هذا؟

في تلك اللحظة، بعث نظام التهوية سحابة داكنة من الدخان إلى داخل المبنى نفسه.

أجبته:

– تستطيع النار أن تدمّر كلّ شيء، المسألة ليست إلّا مسألة وقت.

ارتعشت ناتالي، وقالت:

– أتذكّر أنني رأيتُ مشاهدَ انهيار برجي مركز التجارة العالمي وكانت التعليقات تقول إنّ هذا ناجمٌ عن القضبان الحديدية التي ذابت، ولكنّ الحرارة الناتجة عن كيروسين الطائرات كانت أعلى من حرارة هذا الحريق التقليدي.

الآن وقد غزا الدخان كلّ الطوابق، لم يعد أمام شاغلي برج الحرية خيارات غير الصعود إلى الشرفة فوق الطابق الرابع بعد المئة.

ففي هذا المكان، ورغم الأدخنة المتصاعدة على طول الواجهة، استطعنا أن نستنشق هواءً منعشًا.

انهمك رجال الإطفاء في مدّ الأنابيب وخراطيم إطفاء الحريق، ولكن لم تتبقَّ قطرة ماءٍ واحدة في الصهاريج، وفي الأسفل، واصلت أرتال الجرذان التي تسعّر النيران تدفّقها.

انحنيتُ لكي أراقب الموقف: بدأت قاعدة مبنانا تُحاطُ بألسنة من اللهب الصفراء. تزايد عدد انفجارات مخازن السيارات. خمّنتُ أنّ درجة الحرارة في الطابق الأوّل قد أصبحت مرتفعة جدًّا.

حسنًا، ماذا كان سيفعل فيثاغورس لو كان في مكاني؟

أكثر من أيّ وقتٍ مضى، افتقدتُ حكمة رفيقي القديم.

ففكّرتُ في مصدري الآخر للنصائح السديدة: أمِّي. كانت تقول: «في الحياة، في مواجهة خطرٍ ما، ليس هناك سِوى ثلاثة خيارات: 1) المقاومة، 2) عدم القيام بأيّ شيء، 3) الهروب».

بدت لي مقاومة النار أو الجرذان صعبة. وعدم القيام بأيّ شيء سيجعلنا نمرضُ خوفًا. والهروب يعني الذهاب للوهلة الأولى إلى برجٍ آخر، سيكون هو الآخر معرّضًا لخطر الحريق في الظروف نفسها.

لا أعتقدُ أنّه من الممكن أن أخرج من برج الحرية لكي أركض في شوارع مانهاتن.

ولأنّ الاحتمالات الثلاثة هذه لم تكن مناسبة، ابتدعتُ احتمالًا رابعًا: أن أتواصل مع الكوكب.

جلستُ على قوائمي الأربع. أغمضتُ عينيّ، وتنفّستُ بعمق. شعرتُ بذهني ككرة فضيّة عائمة وسط جمجمتي. جعلتُه يتجاوز الحاجز العظمي لتجويف جمجمتي ليحلّق في السماء. هناك في الأعلى، استطعتُ أن أشاهد المشهد الذي رأيتُ فيه نفسي جالسة القرفصاء في الأسفل وسط البشر الخائفين.

أنا أقوى منهم. أنا أتحكّم بذهني.

تعالت الكرة الفضيّة لذهني في السماء. رأيتُ في الأسفل برج الحرية، ورأيتُ الجرذان التي تتدفّق في أرتالٍ، فارتفعتُ أكثر، ورأيتُ مانهاتن من الأعلى، فارتفعتُ أكثر، ورأيتُ أمريكا من السماء، فارتفعت أكثر، ورأيتُ الكرة الأرضية مثلما رأيتُها من قبل في صورة ملتقطة من قبل قمرٍ اصطناعيّ.

ما إن حفظتُ الكوكب في ذهني، حتى أرسلتُ إليه رسالة واضحة:

أنقذنا يا كوكب الأرض.

كانت هذه هي المرّة الأولى التي أمارس فيها نوعًا من الدعاء، ولكن كانت هذه أيضًا المرّة الأولى التي أحاول فيها التواصل مباشرةً مع كوكبي.

غايا، من فضلك، اجعل غيومك تمطر.

كرّرتُ مرّاتٍ عديدة هذه الرسالة ثمّ فتحتُ عينيّ.

ولكن بدل المطر، اشتدّت الريح وأجّجت ألسنة النار الصاعدة من الأقبية. كما ازداد الدخان.

ربّما كان دعائي محدودًا جدًّا.

يجب ألّا أدعو غايا فقط، بل الكون برمّته.

كانت أمِّي تقول: «ليس للكون سِوى ثلاث إجابات على دعائكِ: 1) نعم، 2) انتظر قليلًا، 3) لديّ ما هو أفضل لك».

فانتظرت.

طال انتظاري.

المشكلة مع الكون هي أنّ الخيار رقم 2 هو الأكثر شيوعًا. والحال أنني، لسوء الحظّ، لستُ صبورة.

ضربت الريح فرائي وأثار هذا أعصابي.

يجب أن أسترخي، أحتاج إلى الاسترخاء.

انتظرتُ لوقتٍ بدا لي طويلًا إذ إنّ المرتفع الذي وجدتُ نفسي فوقه بدأ يحترق في قاعدته. فجأةً، خفّت الرياح، ثمّ خمدت تمامًا.

رفعتُ رأسي نحو السحابة الرمادية التي تعلونا وبدأتُ أموء بقوّة شديدة:

- أيّها الكون، إذا كنتَ تُريد أن تراني أحكم ذات يوم هذا الكوكب، فيجب أن تنقذني الآن!

في النهاية، حتى إذا كانت نسبة إمكانية أن أصبح إلهة نسبة ضئيلة، يجب أن أؤثّر في سير الأحداث، أليس كذلك؟

وفي تلك اللحظة اكفهرّت السماء، ومن ثمّ سُمِع دويّ الرعد وشوهد البرق الذي أضاء كلّ شيء. سقطت قطرة ماء على خدّي.

لم يسبق أن أسعدني الاتصال بالماء مثلما أسعدتني تلك القطرة.

تبًّا، أستطيع أن أعطي الأوامر لعناصر الطبيعة لكي تُطيعني! هذا وكنتُ أُعدُّ نفسي قطّة عادية يمكنها، في أفضل الأحوال، أن تصبح مَلِكة. يمكنني أن أفعل أكثر من هذا بكثير!

توقّف البشر، والقطط، والكلاب من حولنا عن البكاء والنواح في الحال. وحلّت البهجة في محلّ الاستغراب. بدأت القطط بالمواء، والكلاب بالنباح، معتقدةً أنّ صرختي هي التي مزّقت السحابة الداكنة الراكدة فوقنا.

اشتدّ هطول المطر تدريجيًّا. وهبّ الإطفائيون لتنظيم صفوفهم والبدء بالاستعدادات الضرورية.

بدأت الصهاريج تمتلئ بالمياه، وأوصِلت الأنابيب بها لرشّ ألسنة النار بالمياه.

في الأسفل تمامًا، لمّا رأت الجرذان الورق والحطب وهما يبتلّان بمياه المطر، أدركت أنّه لم يعد هناك جدوى من عملها.

أصبح المطر يهطل بغزارة.

صاح الجميع ابتهاجًا وماءت القطط ونبحت الكلاب بفرحٍ تحت المطر.

ولكن أنا منْ مؤتُ بأقوى صوتي لأنني كنتُ أعلم أنني أنا، وأنا وحدي، من أجادت إطلاق هذه العاصفة المنقِذة.

أضاء برقٌ جديد حشود الناس المتجمهرة فوق سطح برج الحرية.

هكذا أنا بطبعي: حينما يُلجَأُ إليّ، أُطلقُ رعدًا.

وحينئذٍ راودتني فكرة الطريقة التي سيمكنني بها أن أُملي سفري الخاصّ من إنجيل القطط...

24. سفر إنجيل القطط

«في البدء كان العدم.

لم يكن ذلك كافيًا.

برعدٍ، أمطر الكون وخلقَ هذه السماءَ، والأرض والبحر.

ووجد أنّ هذا حسن.

بيد أنّ هذا لم يكن كافيًا، فهو بلا حركة.

فأضاء الكونُ، برعدٍ جديدٍ، العالمَ وخلق القطط.

ورأى الكون أنّ هذا أحسن.

ولكنّ القطط كانت جائعة.

فخلق الكونُ لإطعامها طيورًا في السماء، وفئرانًا على الأرض وسمكًا في البحر.

كان لها مذاقٌ طيّبٌ، ولكن ظلّ ذلك غير كافٍ لأنّ القطط كانت تتعب من الذهاب للبحث عن هذه الطرائد ومن إيجاد الملاذات للاحتماء من المطر.

فخلق الكون البشرَ. كانوا مزوّدين بخمس أصابع لها مفاصل تجعلها قابلة لتقديم الملاذات والطعام سريعًا لكلّ القطط.

هكذا وُلِدت حضارة البشر، التي كان دورها الوحيد التمهيد لظهور عهد حكم القطط».

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

25. اقتراحي

هذا ممتاز.

عرفتُ بداية إنجيل القطط، فشعرتُ بالارتياح. وهكذا توضّح أخيرًا كلّ شيء وعاد إلى طبيعته. كانت ناتالي على صواب: يجب أن ندوّن سفر التكوين الخاصّ بنا.

فحينما زال الخوف واختفت رائحة الدخان، قفزتُ بوثبةٍ حازمة على كتف خادمتي وأمرتُها بالصعود إلى المنصّة لكي أستطيع التحدّث إلى الحضور.

هذه المرّة، أصغت جمعية ممثلي القبائل المئة والاثنتين إليّ.

كم نستطيع أن نهدُر وقتًا في الشكليّات!

وقفتُ أمام البشر وتُرجِمَت أقوالي كما في آخر مرّة مباشرةً لكي يفهمها الجميع.

– إذًا، كما قلتُ لكم، هناك خطر النار، وكما قلتُ لكم، لديّ خطّة لإخراجنا من هذه المشكلة. وتشتمل هذه الخطّة على ضرب العدو في رأسه من خلال اغتيال الزعيمين في الوقت نفسه. ولكن قبل أن أشرح لكم تفاصيل هذه الخطّة، أودّ أوّلًا أن أتقاسم معكم أمنية. هذه الجمعية تنقصها قبيلة، هي قبيلتي أنا، قبيلة القطط. ولذلك لن أكشف عن خطّتي الهجومية إلّا حينما تقبلون بأن يكون لبني جنسي ممثلٌ رسمي هنا في هذه الجمعية النبيلة.

سألت هيلاري كلينتون بصوتٍ مخنوق:

– هل تمزحين؟ ما أنتم «إلا» حيوانات!

- وماذا يعني؟ وما أنتم «إلا» بشرٌ!

- ربّما ولكن هذه جمعية للبشر، أسّسوا بموازاتها جمعيتكم الخاصّة بالحيوانات.

لن أستطيع تحمّل هذه المرأة طويلًا.

تمّ الأمر، إذ بدأ جميع ممثلي القبائل بالتحادث فيما بينهم، الأمر الذي أثار ضجيجًا فهمتُ من بينه على نحوٍ خاصّ جُمَلًا من قبيل: «ولكن من تحسِبُ نفسها، هذه القطّة!» أو: «لن ينقصنا إلّا هذا، أن تعدّ قطّة نفسها ندّا لنا، بل والأنكى أن تصبح ممثّلة قبيلة» أو: «ماذا تُريد؟ حقّ التصويت على قدم المساواة معنا!»

انتظرتُ إلى حين عودة الهدوء ثمّ استأنفتُ حديثي:

- هل تعتقدون أنّ الوقت مناسبٌ لهذا النوع من الجدل؟ هل عليّ أن أذكّركم بأنّه قبل دقاق معدودة فقط كنّا جميعًا في حالة ذعرٍ ننتظر الموت حرقًا بالنار؟

قال ممثّل المورمون:

- نعم، ولكن لستِ أنتِ من أنقذتِنا! إنّها صلاتنا.

- هل أنت متأكّد من ذلك؟ ألم تلاحظ أنّ البرق قد لمع بعد موائي؟

هذه المرّة، استُقبِلَت جملتي بالضحكات والاستهزاء والسخرية.

حسنًا، أشعرُ بأنّ هذه ليست اللحظة المناسبة لأشرح لهم أنني سأصبح مَلِكتهم. إنّهم لا يزالون أسرى أنماط التفكير القديمة.

في تلك اللحظة بالضبط نهض رومان ويلز من مكانه، وانضمّ إليّ على المنصّة وأمسك لاقط الصوت. قال:

- ولماذا لا يحقُّ لباستيت أن تكون ممثّلة قبيلتها؟ ففي النهاية، أظهرت مرّات عديدة في فرنسا أنّها بطلة حقيقية. لقد أعطت الكثير من الأفكار التي بفضلها استطعنا حلّ العديد من المشكلات. باستيت ليست مجرّد قطّة بسيطة، إنّها تملكُ عينًا ثالثة تتيح لها الاتصال معنا وهذه العين الثالثة نفسها جعلتها تكتشف الكثير من الأشياء عن عالمنا. إنّها مطّلعة جيّدًا على تاريخنا

وتقنيتنا، وكما أشارت أمامنا، هي الوحيدة التي تعرف شخصيًا منْ أعدّه عدوّنا الألدّ: تيمورلنك مَلِك الجرذان.

من جديد، قاطعت موجةٌ من الصفير والصياح تصريحه.

إنّهم لا يعرفونني حتّى ومع ذلك يكرهونني.

قال ممثّل البيض من دعاة التفوقيّة:

– لن تشارك قطّة أبدًا في نقاشاتنا وتصويتنا! لقد سبق أن تغاضينا عن ضمّ الكثير من الناس، وهم ليسوا الأفضل، إلى الجمعية وبقائهم بيننا، ولكن لن نضيف إليهم المزيد.

سأل ممثّل جماعة السود:

– هل تقصدنا نحن بكلامك هذا؟

وسأل ممثّل اللاتينيين:

– أم تقصدنا نحن؟

وتصاعدت النبرة بينهم ونسيني الجميع ليعودوا إلى نزاعاتهم الإثنية أو الدينية.

آه من هؤلاء البشر! في بعض اللحظات، أتساءلُ في نفسي لماذا أضيّع وقتي رغبةً منّي بإنقاذهم في حين أنّهم يفعلون كلّ شيء لكي يخسروا.

لم يدع رومان ويلز نفسه يفقد التركيز. رفع درجة صوت المكبّر حتى بلغ حالة الارتجاع الصوتي. لوى الصفير أغشية الطبل في آذان الحاضرين، وظهر التأثير مباشرةً: سكت الجميع وأصغوا أخيرًا.

– تكمن أهمية الموافقة على طلب هذه القطّة أيضًا في أنّها الوحيدة التي تمتلك على ما يبدو حلًا لمعالجة الوضع الحالي.

قال الجنرال غرانت:

– لقد اقترحتْ قتل مَلِكي الجرذان، ولكن هذا غير ممكنٍ. أعود إلى مشروعي في استخدام القنبلة الذرية، وهو أكثر واقعية بكثير.

أجبته:

- بلى، يمكن لخطّتي أن تنجح. ويمكنني أن أشرح لكم كيفية نجاحها، ولكن أُريد في البداية أن أحصل على مكانٍ بينكم. لا أفهم لماذا سأنقذكم في حين أنّكم لا تعدّونني واحدة من منكم...

يجب أن أتفاوض على كلّ شيء معهم. لكنّهم لن يحصلوا على أيّ شيء دون مقابل. ليس لديهم بالفعل أيّ سخاء، ولا أيّ منظور، إنّهم يعيشون على الخوف من خسارة ما يملكونه. ولذلك يعيشون في توتّرٍ دائم.

خشيةً من أن ينخرط الجميع في التجادل، قرّرت هيلاري كلينتون أن تأخذ لاقط الصوت من جديد. قالت:

- ما الذي نخسره إن طرحنا هذا الأمر للتصويت؟ ففي نهاية المطاف، الأغلبية الديمقراطية هي التي ستقرّر.

قال رومان ويلز:

- مهلًا. قبل أن يجري التصويت، أُريد فقط أن أذكر لكم السياق. لقد قاومنا هجمة النيران فقط بفضل الهطول الإعجازي للمطر، ولكنّ المطر... سوف يتوقّف. وحينئذٍ، ما الذي سيمنع الجرذان من معاودة الكرّة؟ لدى باستيت خطّة لاغتيال المَلِكين، وبحسب ما أعرف عن تيمورلنك، إذا قُتِلَ، لا يمكن الإتيان ببديلٍ له، لأنّه الجرذ الوحيد في العالم الذي يمتلك عينًا ثالثة تتيح له، تمامًا مثل باستيت، الاتّصال بالإنترنت.

وعاد الهرج والمرج، وأدلى كلٌّ بتعليقه.

نقرت هيلاري بقلمها على الكأس الموجودة على المنبر.

- سوف نجري التصويت في كلّ الأحوال. في الوضع الذي نعيشه الآن، لم يعد هناك شيءٌ مهمّ نخسره.

توقّفت عن التكلّم، ثمّ التفتت نحوي.

- همم، فقط من باب المعرفة، واعذريني على سؤالي، فأنا لا أُريدُ الإساءة إليكِ، ولكن هل أنتِ قطّة أصيلة ذات نسبٍ ربّما؟

- كلا، أنا قطّة زقاق، وفخورة بكوني كذلك. مثلما يقول أحد كتابكم البشريين: «لا تُقاسُ قيمة المرء بعراقة أصله». أو شيءٌ من هذا القبيل.

- إذًا أنتِ...

أعلم عن أيّ كلمة دنيئة تبحث.

- «لقيطة»؟ نعم، أنا كذلك. وأنا متصالحة مع هذا الأمر. هل هذا يطرح مشكلةً لكم؟

- كلا، هذا فقط لكي نعرف. كانت عندي قطّة بورمية من سلالة أصيلة كنتُ قد اشتريتُها بثمنٍ غالٍ جدًّا، وقلتُ في نفسي قد يكون من شأن هذا أن يؤثّر على بعض الأشخاص الحاضرين هنا إذا علموا أنّكِ متحدّرة من نسبٍ مرموق.

كلّا أنا أحلم. ما الذي يخطر ببال هذه المرأة بشأني في لحظة مفصلية كهذه! إذا كان البشر يحكمون بعضهم على بعض بحسب نسبهم، فليس من المستغرب أن يكونوا منقسمين. وخاصّة إذا ضيّعوا الكثير من الوقت في اللحظة الأكثر استراتيجيةً حول هكذا أمور تافهة. أنا لقيطة ولا أخجل من ذلك أبدًا. أمّا بالنسبة إلى القطط البورمية، فلطالما اعتبرتُ أنّ البشر ولفرط رغبتهم في الحفاظ على النسب الأصيل قد حوّلوها إلى أقارب متشابهين محنّطين.

حرصتُ على أن أصوغ بصوتٍ عالٍ هذه الفكرة الأخيرة.

- حجتي الوحيدة هي خطّتي لحل هذه الأزمة. ولن أكشفها لكم إلّا إذا قبلتموني ندًّا لكم. لا أفهم لماذا سأنقذُ أناسًا يعدّونني أدنى مكانة منهم.

وموتوا كمدًا.

تلا صمتٌ مداخلتي، فأضفت:

- بالطبع، إذا كان لدى أحدٍ آخر حلٌّ، فسأكون مهتمّة جدًّا بسماعه.

ومرّة أخرى موتوا كمدًا. أنا أعشق هذه اللحظات القصيرة التي أقلب فيها، بجرأة، الأوضاع التي تبدو على أنّها الأصعب.

استأنفت هيلاري كلينتون حديثها.

- إذًا، منْ يوافق على السماح للسيّدة «باس-تيت» بأن تمثّل قبيلتها، التي ستكون قبيلة القطط، هل توافقون على ذلك؟ الأمر الذي سوف يؤدّي إلى تغيير عددنا من مئة وقبيلتين إلى مئة وثلاث قبائل ويمنحها الحقّ في التصويت في كلّ جلساتنا المقبلة.

كانت اليد الأولى التي تُرفَع هي يد شوفال فوغو، ثمّ تلتها ثلاث أيادٍ أخرى.

فقط أربعة أصوات من أصل مئة وصوتين؟

سادت حالة من التردّد. تبادل الممثّلون النظرات فيما بينهم.

بدا لي أنني أسمع صوت أفكارهم: «كلا، لن أصوّت لقطّة مهما حدث!»، «إنّها ليست سِوى حيوان»، «منْ تحسِبُ نفسها!».

ربّما لستُ سِوى حيوانٍ، ولكنّ مشكلتهم هي بالتحديد مع حيوانات.

رُفِعَت أياد أخرى. وأخيرًا استقر عدد الأيادي المرفوعة، وإذ رأت هيلاري أنه لم يعد يتحرّك شيء، قرّرت أن تُحصي الأصوات.

من أصل مئة وصوتين، حصلتُ على ثمانية أصواتٍ فقط.

خسرتُ التصويت.

أعتقدُ أنّ إجراءات جمعيتهم عبارة عن نظامٍ يعطّل كلّ قرارٍ غير اعتيادي.

نظر الجميع إليّ. استرددتُ لاقط الصوت وأعلنت:

– طالما ينبغي لأحدنا أن يتنازل، فسأكون أنا المتنازلة. إنّ التحديّات أكبر بكثير من أن تخضع للأهواء السياسية لعددٍ من الأشخاص، حتى وإن كانوا ممثلي القبائل أنفسهم. سأعرض إذًا خطّتي عليكم. مثلما أسلفتُ وأخبرتكم، أعداؤنا الآن عبارة عن زعيمين موهوبين للغاية: آل كابوني، الذي وجد وسيلةً للتكيّف مع فيروس إديث كولدستاين، وتيمورلنك الذي يتمتّع بمعرفة العديد من تقنياتنا بما فيها النار. وقد استطعتم أن تتأكّدوا بأنفسكم كم يمكن لهذا العنصر الأخير أن يغيّر قواعد اللعبة.

أصغوا إليّ.

– إذن، مثلما أخبرتكم، ما أقترحه عليكم هو أن نذهب للقضاء عليهما. أنا مستعدّة أن أتصرّف بنفسي وعلى مسؤوليتي الخاصّة. ولكن إذا ما عدتُ حيّةً، حينها أطلب منكم الالتزام بقبولي تلقائيًا في جمعيتكم كممثّلة للقبيلة الثالثة بعد المئة، قبيلة القطط.

هذه المرّة، لفتُّ انتباههم التامّ.

سأل الجنرال غرانت باندهاش:

- ستذهبين وتحاولين بنفسكِ قتل المَلِكين؟

- لا أجد حلًّا آخر.

سرتْ همساتٌ وسط الحضور. شعرتُ بأنّه يجب أن أتحدّث عن نفسي وأن أكون حاضرة بقوّة.

واصل الجنرال بطرح سؤالٍ آخر:

- وكيف ستفعلين ذلك، بطريقةٍ عمليّة؟

- سأتطرّق لهذا الأمر. نحن نعرف الآن أين هما المَلِكان. في قاعدة تمثال الحرية. وأنا أنوي أن أضرب ذلك المكان.

توقّفتُ للحظةٍ عن التكلّم لإحداث الإثارة وجذب انتباه الحاضرين.

- لقد سبق أن قمتُ بتنفيذ مهمّة خاصّة في الماضي، برفقة رومان ويلز. كانت العمليّة الخاصّة ضدّ بشرٍ من المتعصبين الدينيين. هجمنا في الليل وحقّقنا كلّ أهدافنا من العملية.

قال رومان:

- أؤكّدُ ذلك.

- في الوضع الراهن، بما أنّ القصر مليءٌ بحشدٍ من الجرذان، لا بدّ من القيام بعملٍ أكثر سريّةً، وبالتالي بدون مشاركة البشر. من خلال الرائحة وحدها، تستشعرُ الجرذان وجود البشر من بعيد. يؤسفني قول هذا ولكنّ رائحتكم قويّة جدًّا، خاصّة عندما تخافون.

سألت هيلاري:

- كيف ستذهبين إلى هناك؟

- باستخدام مسيّرة. لقد رأيتُ أنّ لديكم في برج الحرّية مسيّرات ذات حجمٍ كبير قادرة على رفع أحمالٍ أثقل بقليل من حمولة مسيّرات فايننشال تاور. وبالتالي أطرحُ عليكم السؤال التالي: هل بوسع مسيّراتكم الخارقة حمل قطٍّ؟

أجاب سيلفان، المختصّ بهذه المعدّات:

- مسيّرات فايننشال تاور كانت تُستخدم في الحالة الطبيعية في إلقاء

طرود مراكز الشراء عبر الإنترنت. وهي بشكلٍ أساسي عبارة عن كتب. أمّا مسيّراتنا فهي تنقل بشكلٍ أساسي كاميرات لمصلحة القنوات التلفزيونية التي كانت في الطابق الثاني والأربعين. وهي قادرة على رفع حمولةٍ تصل إلى أربعة كيلوغرامات وخمسمئة غرامٍ. كم يبلغ وزنُ قطٍّ؟

راحت إديث وجلبت ميزانًا للأشخاص. وقفتُ على الميزان، وهي منْ أعلنت:

- ثلاثة كيلوغرامات وثمانمئة غرامٍ.

- ممتاز، إذًا إليكم فكرتي. سأطلبُ من رومان أن يُركّب جهاز تحكّم بالبلوتوث على أحد هذه الأجهزة الطائرة لكي أتمكّن من قيادته مباشرةً من خلال ركوبه. أعتقدُ أنّه سيجيد فعل هذا.

وافق رومان بإيماءةٍ من رأسه.

- بهذه الطريقة سيكون الأمر إلى حدٍّ ما كما لو أنني أقود طائرة. سوف أتكوّر على نفسي على المنطقة المسطّحة من جسم المسيّرة، مثبّتة على سبيل المثال بحزامٍ ألفّه حول ردفيّ وهو ما سيجنّبني السقوط. هل يمكنكِ أن تربطيني، يا ناتالي؟

- بكلّ تأكيد.

إنّهم مذهولون لأنهم لم يكونوا يتوقّعون أنني أستطيع إعطاء تفاصيل تقنية دقيقة إلى هذه الدرجة. لقد تبيّنوا أنّني قد فكّرتُ في كلّ شيء مسبقًا.

- إذًا، سوف أصل ليلًا، وفي حين تكون كلّ الجرذان نائمة، سأدخل إلى قاعدة التمثال، وسأعثر على وكر المَلِكين وهنا... سأقتلهما.

هذه المرّة، نظر الجميع إليّ نظرة مختلفة.

بدأوا للتوّ يدركون منْ أكون.

صرّحت هيلاري كلينتون:

- لستُ مقتنعة على الإطلاق أنّ مهمّة كهذه سوف تنجح.

ماذا حلّ بها، هذه أيضًا؟

- رغم أنّني قيّمتُ مقترحكِ من مختلف الجوانب، فإنّ فرص نجاح قطّةٍ في التسلّل إلى قاعدة تمثال الحرية، المليء هو نفسه بآلاف الجرذان،

والوصول إلى المَلِكين، وقتلهما والخروج سالمةً تبدو لي ضعيفة للغاية، بل معدومة.

سجّل الجنرال غرانت موافقته على ما قالته الرئيسة وأضاف:

– إذا كان يجب أن يُنفّذ هذا المشروع، فسوف يكون من خلال الجنود. باستخدام القنابل الدخانية، أو القنابل اليدوية أو الأسلحة الرشّاشة، على سبيل المثال. الآن، أعترفُ بأننا لم نجد بعد وسيلة للتنفيذ، ولكن أمهلونا بضعة أيام، وأعتقدُ أنني سأتمكّن من تنظيم مهمّة خاصّة سوف تكون فاعلة بالفعل.

قلتُ:

– ليست أمامنا «بضعة أيام». يجب أن نتصرّف بسرعة قبل أن يتوقّف المطر عن الهطول وتحاول الجرذان مجدّدًا حرق برجنا. بالنسبة إليّ، التوقيت المثالي هو أن نضرب هذه الليلة.

فجأةً، تحدّثت ناتالي. اعترضت:

– كلا!

ماذا حلّ بها؟

– كلا لا يمكنكِ الذهاب وحدكِ.

يُعرقَلُ المرءُ دائمًا من قبل منْ يعتقد أنّهم حلفاؤه.

رددتُ عليها:

– بلى، أستطيع.

– كلا. الأمرُ خطِرٌ جدًّا وليست لديكِ فرصة للنجاح. تذكّري، يا باستيت، حتى المهمّة في فرنسا، أنجزتِها مع رومان.

تبًّا، ما بال الجميع يعارضونني؟

– إذا كان لا يمكنكِ أن تذهبي مع كائنٍ بشريٍّ هذه المرّة، فلا بأس، أعتقد أنّه يجب أن يرافقكِ قطٌّ آخر.

مؤتُ باتجاه مجموعة القطط الحاضرة:

– منْ منكم سيكون مستعدًّا للذهاب في هذه المهمّة المحفوفة بالخطر؟

أجاب أحدهم ورائي:

- أنا.

استدرتُ.

أنجيلو.

كنتُ فخورةً بشجاعة ابني. ولكنني لم أستطع أن أدعه يأتي معي. لم يكن واردًا بالنسبة إليّ أن أرى العائلة كلّها تختفي دفعة واحدة. فإذا ما سقط أحدنا يجب أن ينجو الآخر.

- منْ سواه؟

تلا صمتٌ طويلٌ سؤالي، ثمّ فجأةً أعلن أحدهم عن نفسه:

- أنا.

نظرتُ باتجاه ذلك المواء. قالت أسميرالدا:

- أنا أجيء معكِ. أنا أخفّ وزنًا منكِ.

ودون أن تنتظر الإذن منّي، صعدت إلى الميزان. أعلنت ناتالي:

- ثلاثة كيلوغرامات وستمئة غرامٍ. في الواقع يُمكنُ رفعها من قبل مسيّرة.

- ممتاز، إذًا في هذه الحالة، سنذهب، نحن الاثنتين، معًا.

ماء ثالثٌ أيضًا:

- نحن الثلاثة.

استدرت.

بوكوفسكي. *لم يكن ينقصني إلّا هذا.*

قال قاتل شامبليون بنبرة أرادها أن تكون نبرة الفارس الشجاع الشهم:

- لا يمكنني أن أدع أسميرالدا تذهب وحدها في هذه المهمّة.

كافأته الأنثى ذات الفراء الأسود والعينين الصفراوين بلعقةٍ، ردّ عليها بضربة قويّة من لسانه.

ربّما عليّ أن أذكّرها بجريمة صاحبها. مع أنّ... في الوضع الذي وصلنا إليه لن يغيّر هذا الشيء الكثير في الموضوع. ومن ثمّ، لستُ مثل البشر، فأنا أعدّ المصلحة العامّة أولى من الخصومات الخاصّة.

لم ينتظر القطّ الأمريكي الشنيع ذو الشعر القصير وصعد إلى الميزان.

أعلنت إديث:

- أربعة كيلوغرامات وثلاثمئة غرامٍ.

اللعنة، لقد نجح في الاختبار.

قالت هيلاري كلينتون:

- ممتاز، لقد أقنعتنا.

استدارت نحو لاقط الصوت لتتأكّد من أن الحضور يسمعها.

ختمت هيلاري وهي تُصفّق لإثارة التأثير الجماعي:

- هذه الليلة، بالاستفادة من العتمة والمطر، سوف تنطلقون، أنتم الثلاثة، على متن المسيّرات. إذا نجحتم في المهمّة، سوف يكون لكم الحقّ في تمثيلٍ كقبيلة ثالثة بعد المئة في جمعيتنا. أعتقد أنّ هذا يستحقّ التشجيع!

ربّما في تلك اللحظة بالذات تبيّن لي أنّ الذهاب إلى وسط آلاف الجرذان لقتل زعيمَيها (المحميين بتدابير فائقة على الأرجح) ربّما تكون فكرة سيّئة.

ولكنني كنتُ فخورة للغاية بحيث لم أفكّر بالتراجع عن قراري.

ولذلك، بانتظار أن تُجهَز مركبتي الطائرة، وقفتُ أمام الكوّة الزجاجية، متأمّلة نيويورك تحت المطر.

ثمّ أغمضتُ عينيّ.

بفضل عيني الثالثة، اتّصلتُ بموسوعتي، موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة لكي أرى أجمل صور النشاط البشري لكي أحفّز نفسي في هذه المهمّة الانتحارية.

مرّرت أمام ناظريّ دون انقطاع لوحات متحف اللوفر: *الموناليزا، طوافة ميدوسا، الحرية تقود الشعب، عذراء الصخور، عرس قانا، قَسَم الإخوة هوراس، صانعة الدانتيل، الغش مع آس الماس، قارب دانتي*. وأرفقتُ مناظرها ذات الجمال السامي مع الموسيقى التي لا تقلّ روعةً للمغنّية كالاس وهي تغنّي «كاستا ديفا».

تُرجمَت الأقوال تلقائيًّا في موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة:

«الإلهة الصافية التي تُنير

هذه النباتات القديمة المقدّسة،
أديري لنا وجهكِ الجميل،
بدون غمامة وبدون خمار.
انشري في الأرض هذا السلام
الذي تنشرينه في السماء».
لم أفهم كثيرًا ما كان يعنيه هذا النصّ ومع ذلك وجدتُه رائعًا.
لا بدّ أنّه شعرٌ.
استسلمتُ للموسيقى والصوت واللوحات الفنية.
كانت كلّ العبقرية البشرية تتجلّى في هذا الفنّ رغم أنّه يبدو عديم الفائدة.

كنتُ أحتاجُ إلى هذا المنظور على الأقلّ لكي أحفّز نفسي. أحفّز نفسي على ماذا؟ على أن أجازف بحياتي لإنقاذ بعض البشر الأغبياء ومحدودي الأفق الذين لم يتوفّروا حتى على لباقة التصويت على أن أُعدّ ندًّا لهم.

حسنًا، بكلّ تأكيد اتّخذتُ الخيار الخاطئ، ولكن فات الأوان ولم يعد هناك سبيلٌ إلى التراجع. لقد بدأتُ وعليّ الآن أن أذهب حتى النهاية. حينما نُدركُ فجأةً أنّنا ارتكبنا خطأً جسيمًا، نقول لأنفسنا عمومًا إنّه يجب أن نتمهّل أو نتوقّف أو نستديرُ نصف استدارة. بيد أنّ هذا يكون أسوأ ما نفعله. يجب أن يذهب المرء حتى النهاية في خطئه لكي يتأكّد من أنّه قد ارتكب خطأً بالفعل.

26. عن فنّ استمرار المرء على أخطائه

يقول المثل اللاتيني: «Errare humanum est, perseverare diabolicum» أي، الخطأ فعلٌ بشري، وتعمّد ارتكابه فعلٌ شيطاني.

بيد أنّ قليلين يمتلكون موهبة دان دانري في فنّ ارتكاب الأخطاء بسوء نيّة وتعمّد.

أراد الرجل الشاب، المولود في عام 1725 لأمٍّ خادمة وأبٍ مجهول في جنوب غرب فرنسا، أن يصبح بأيّ ثمن ثريًّا ومشهورًا، سريعًا جدًّا،

وبدون دراسة ولا عمل. ولبلوغ هذا الهدف، وضع، وهو في الرابعة والعشرين من عمره، خطّة: اختلاق مؤامرة مزعومة ضدّ مَرْكيزة دي بومبادور.

في المرحلة الأولى، أعدّ طردًا مفخّخًا يحتوي على عبوة ناسفة مع ألعاب نارية مخصّصة للمسرح. وفي المرحلة الثانية، ذهب إلى فيرساي لكي يبلغ الشرطة أنّه قد سمِعَ في التويلري عن أشخاصٍ شريرين أعدّوا طردًا مفخّخًا ضد المَرْكيزة على الأرجح بهدف شنّ هجوم إرهابي. وكان يأمل من وراء ذلك أن يحصل على مكافأة ويُعدّ منقذًا.

وقد أخذت الشرطة في الحقيقة هذه الإخبارية على محمل الجَد. في عام 1749، حصلت مدام بومبادور على قرار عزل مَرْكيز دي موريباس، وزير البحرية. وهو يغادر منصبه، وجّه إليه تهديداتٍ. وفُتِحَ تحقيقٌ في ذلك، واستجوبت الشرطة دانري الذي أراد أن يبالغ في خطورة المؤامرة. طلبت منه الشرطة أن يقدّم تقريرًا كتابيًا. وعندما قارن المحقّق نصّه المكتوب بالكتابة الموجودة على الطرد المفخّخ تأكّد من أنّها مكتوبة بالخطّ نفسه. اعترف دانري في النهاية بأنّ المسألة كانت عبارة عن تمثيلية لكي يحصل على العطايا من المَرْكيزة. نُقِلَت اعترافاته إلى المَلِك لويس الخامس عشر. حسبَ المَلِك أنّ دانري هذا أخطر ممّا يبدو عليه وحبسه في الباستيل.

ومن هناك، راح دانري يرسلُ يوميًّا رسائل إلى بومبادور لكي يشتكي من قلّة الطعام ومن القذارة و«الجوّ السيئ» في السجن. وفي النهاية منحته الموافقة على أن يُنقَل إلى سجن فانسان. ومن ثمّ، معتبرًا أنّ ظروف الاعتقال ليست مريحة بما فيه الكفاية، فرّ من السجن. وجد ملاذًا عند صديقة تعمل في غسل الملابس، وسارع من هناك إلى الكتابة إلى بومبادور ليطلب منها أن تقوم برفع الجور الذي وقع عليه. في رسالته، ذكر عنوانه. فجاءت الشرطة وأوقفته.

وجد دانري نفسه من جديد في سجن الباستيل. ولكنّه لم يستسلم

وواصل كتابة الرسائل إلى مَرْكيزة دي بومبادور لكي يشكو المعاملة الجائرة التي يتلقاها وطلب منها التدخّل العاجل. وانتهى الأمر إلى مصادرة الحبر والورق، فكتب بدمه على قميصه.

وفي النهاية، وبعد أن سئم من عدم تلقيه الردّ ولا الاعتذار من المَرْكيزة، فرّ من السجن مرّة ثانية. فرّ إلى امستردام، ولكنّه أرسل من هناك رسالة شتائم وإهانات إلى مركيزة دي بومبادور، موقّعة مع ذكر عنوانه الجديد. فاعتقلته الشرطة الهولندية التي سلّمته إلى الشرطة الفرنسية.

هذه المرّة، حُبِسَ في أسوأ زنزانة منفردة في سجن الباستيل، مكبّلًا بالقيود. نجح في تدجين جرذٍ لحمايته من الجرذان الأخرى. رقّق عجينة فُتاة الخبز ليصنع منها ورقًا واستخدم عظمة سمكة لكي يكتب بدمه مذكّرة حول ضرورة إصلاح السجون. تأثّر قسيس السجن بمثابرته فقدّم له ورقًا، وريشةً وحبرًا، فاستخدمها في كتابة مذكّرة أخرى حول الإصلاح الضريبي الشامل.

في عام 1759، بعد احتجازٍ في زنزانة منفردة دام عشر سنوات، سُمِحَ له بالعودة إلى زنزانة عادية. دجّن زوجًا من اليمام قدّمهما هديّة لمدام دي بومبادور لتضعهما في قفص طيورها. وحينما علم بموت هذه الأخيرة، قرّر المطالبة بإطلاق سراحه مباشرة مع تعويضٍ من مئة ألف ليرة مقابل سلبه أجمل سنوات عمره. ولأنّ طلبه لم يؤخذ على محمل الجد، استغلّ الضباب لكي يفرّ من السجن ويعود إلى منزل صديقته العاملة في غسل الملابس.

فكتب رسالة إلى وزير الداخلية لكي يطالب بتعويضه. وقد اقترح عليه الوزير أن يراجع أحد مراكز الشرطة ويشرح موقفه.

وقد ذهب إلى مركزٍ للشرطة، وهناك أوقِفَ بالطبع.

أُرسِلَ مكبّلًا إلى سجن فانسان، وأودِع في زنزانة منفردة. بيد أنّه أُطلِقَ سراحه في عام 1777 من قبل الوزير مالشيرب، الذي أُعجِبَ بمثابرة هذا الرجل. وما كاد يخرج من السجن حتى ذهب إلى الباستيل لكي يقاضي الارستقراطيين بشأن الحيف الذي وقع عليه وطالب بتعويضه. وهنا

جرى توقيفه مرّة أخرى وأُعيدَ إلى السجن.

كتب رسالةً وصلت في النهاية إلى يد المَلِكة ماري أنطوانيت. تأثّرت بوضعه وطالبت بأن يُطلَق سراحه. فمنحه لويس السادس عشر راتبًا تقاعديًّا كتعويضٍ عن اعتقاله التعسّفي.

في عام 1789، أثناء الثورة، زعم أنّه أوّل ضحية لانتهاكات النظام الملكي، وطالب بتعويضٍ، حصل عليه في النهاية من الجمعية التشريعية. فأقام دعوى على ورثة مَرْكيزة دي بومبادور وكسب هذه القضية، وألزمهم بدفع مبلغٍ باهظٍ. ثمّ نشر قصّة حياته (تحت اسمٍ مستعار هو لاتود)، بعنوان: الاستبداد المكشوف، الذي حصد أعلى المبيعات في زمن الثورة. وقد مات ثريًّا ومشهورًا بدون أن يدرس أو يعمل على الإطلاق.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

27. مهمّة مستحيلة

حلّقنا وسط الظلام وتحت المطر.

جثمتُ جيّدًا على المسيّرة الشبيهة بنبتة نفل رباعية الأوراق تشكّل كلّ ورقة منها دعامة تدور عليها مروحة.

حلّقت خلفي، معلّقة بسلسلة صغيرة، مسيّرة أسميرالدا، ورُبطَت بهذه الأخيرة مسيّرة بوكوفسكي.

أنا لا أحبّهما، ولكن من المؤكّد أنه ستكون فرصة نجاحنا نحن الثلاثة معًا أفضل ممّا لو كنتُ وحدي. سوف يكون عليّ فقط، في حال واجهنا مشكلة، أن أستخدمهما كدرع وقاية أو كوسيلة لإبطاء تقدّم منْ يحاولون اللحاق بي.

تذكّرتُ جملةً كانت أمّي تردّدها: «إذا ما لاحقكِ أحدٌ، ليس المهمّ أن تركضي بسرعة أكبر من سرعة منْ يلاحقكِ. المهمّ هو أن تركضي بسرعة أكبر من سرعة شخصٍ آخر قد يهمّ المُلاحِقَ أكثر منكِ».

تساءلتُ عن رأي أمّي لو رأتني في هذه اللحظة.

أعتقدُ أنّها كانت ستفخرُ بي. فانتصبتُ جيّدًا ونفختُ صدري واستنشقتُ جرعة كبيرة من الهواء الرطب.

يمكنني أن أنجح.

إذا ما انتصرتُ حينها فلن أقضي على تهديد الجرذان فحسب، بل سأستحقّ دون اعتراضٍ محتمَلٍ مكاني كممثّلة للقبيلة الثالثة بعد المئة.

وسيكون هذا بداية صعودي لكي أصبح رئيسةً.

ثمّ إمبراطورة.

ثمّ نبيّة.

ثمّ إلهة.

وبعد عدّة سنوات من الهيمنة دون أدنى معارضة، سوف أستلقي على فراشٍ وثيرٍ، دافئٍ، بالقرب من خادمتي ناتالي، وأنا أنظرُ إلى المطر في الخارج أو أشاهد مباراة لكرة القدم في التلفزيون. لن تعود هناك جرذانٌ. وسوف أحكم، وسأكون في منتهى السعادة.

بصراحة، لا أعرف كيف هو الأمرُ بالنسبة إليكم، أمّا أنا، فأُريد أن أكون، أثناء هطول المطر، في مكانٍ دافئٍ بالقرب من جهاز التدفئة وأنا أشرب كوبًا كبيرًا من الحليب الدافئ وأنظرُ إلى العاصفة عبر النافذة. قبل الانهيار الكبير، كنتُ أحبّ كثيرًا مشاهدة التلفزيون، وأنا أرى بشرًا يلعبون كرة القدم أو يخوضون الحرب.

الفرق بين المباراة والحرب يكمن فقط في حجم الطلقات والكُرات.

تقدّمت المسيّرة فوق المطر.

حننتُ إلى الفراش الوثير. كنتُ أعشقُ رائحة فراش خادمتي. عطرٌ من زهر الخزامى الممزوج بعطر بشرتها. من المؤكّد أن رائحة غالبية البشر نتنة، ولكنني كنتُ قد اعتدتُ الرائحة الزكية لكائني البشري وكانت هذه الرائحة قد تحوّلت بالنسبة إليّ إلى معْلَمٍ شمّي مُريح.

كما كنتُ أحبّ أيضًا أن أراقب من النافذة الآخرين الذين يتبلّلون بالمطر:

القطط السائبة التي لا خدم لها، والحمامات الدائخة لكثرة تناولها قطعٍ من البلاستيك، والكلاب الشاردة، والبشر المشرّدون الذين لا مأوى لهم.

ولكن هنا، كنتُ أنا من أتلقّى زخّاتٍ من قطرات مياه المطر.

وأنا أكره أن يتبلّل فرائي.

تقدّمت المسيّرة تحت المطر نحو مكمن الخطر. سَرَتْ في جسمي رعشة مؤلمة وانتفضتُ لكي أتخفّف قليلًا من الماء الذي بدأ يُثقِلُ فرائي.

يجب ألّا يتجاوز وزني أربعة كيلوغرامات ونصف الكيلو غرام.

ومن جهة أخرى، لا بدّ أن وزن بوكوفسكي قد زاد لأنّ مسيّرته المحلّقة خلفنا سحبتنا نحو الأسفل. رفعتُ درجة قوّة المحرّكات الكهربائية وتشبّثتُ بمركبتي الطائرة.

خطّط برقٌ السماء. وقعت الصاعقة قريبًا جدًّا منّا بحيث هزّت الهواء.

وفي النهاية رأيتُ عبر الجدار المطري تمثالَ الحرية الذي بدا أنّه يمدّ شعلته مثل مانعةٍ للصواعق. وللمرّة الأولى أخافني التمثال.

درتُ دورةً.

كان رومان قد صنع معجزات في تصميمه لهذه المسيّرة، فقد قُدتُها كما لو أنّ قوائمي على مقودٍ.

أخبرني قبل الإقلاع بأنّه قد ركّب نظامًا سهلًا للإقلاع: يكفي التفكير ذهنيًّا في الرمز المشفّر «103683» لكي ينطلق المحرّك في الدوران. وفي الحقيقة ما إن راودتني هذه الفكرة، التي تحوّلت إلى إشارات كهربائية منقولة عبر البلوتوث، حتى دارت المراوح وأقلعت الطائرة المسيّرة.

كانت ناتالي قد ثبّتت حزامَ حمايةٍ من السقوط ممتازًا مصنوعًا من أشرطة جلدية. وبفضل حزام الأمان هذا، استعطتُ أن أناور وأستدير على نحوٍ حادٍّ دون أن أجازف بالإفلات أو السقوط.

يجب أن أبقى مركّزة على الهدف الذي أرغبُ في تحقيقه.

أن أقتل المَلِكين.

طرنا وسط العاصفة.

وهذه المرّة تحاشيتُ الوقوع في الخطأ الذي ارتكبته في المرّة السابقة.

قبل الإقلاع، أودعتُ لدى رومان ويلز قلادتي التي تحمل موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة.

إذا ما فشلت مهمّتي، فلا ينبغي أن يقع كنزنا الثمين من المعارف بين القوائم الخاطئة.

وصلنا أخيرًا فوق جزيرة الحرية التي وجدتها على شكل حبّة لوز.

لم نرَ أحدًا. كان المطر والبرد والرعد قد ثبّطت همّة الجرذان المناوبة الأكثر حماسةً.

وضعنا مسيّراتنا الثلاث في منطقة مشجَّرة.

فككنا أحزمة الأمان الجلدية قبل أن نتقدّم نحو الحائط ذي الشكل النجمي الذي يحيط بالتمثال.

وما إن وصلنا إلى هناك، لم يعد بوسع كاميرات المسيّرات أن تتابع مغامراتنا، وأصبحنا متروكين لقدرنا وحدنا.

وصلنا، أنا وأسميرالدا وبوكوفسكي، إلى قاعدة التمثال.

دخلنا إلى النصب من باب المدخل الذي تعلوه صخورٌ ضخمة صوفية اللون.

كانت تنتشر في كلّ مكان جرذان غارقة في النوم العميق. لحسن الحظّ غطّى دوي الرعد والمطر على ضجيج خطواتنا. والماء الذي غطّى فراءَنا أخفى رائحتنا.

وصلنا إلى قاعة واسعة وجدنا في وسَطها نموذجًا مصغّرًا لشعلة التمثال، تنام جرذانٌ حوله من كلّ الجهات. تقدّمنا خُلْسَةً وبحذرٍ شديد. أصبحت رائحة الجرذ المبلّل خانقة على نحوٍ متزايدٍ في ذلك المكان المغلق. صعدنا الدرج لكي نصل إلى طابقٍ علوي. هذه المرّة، لم يعد هناك نموذجٌ لشعلة التمثال في وسط القاعة بل رأينا نموذجًا مصغّرًا لتمثال الحرية.

دقّقتُ النظر في جرذان هذا الطابق وتبيّن لي أنّها مختلفة عن الأخرى. وجدتها أكبر حجمًا وأكثر طولًا ومفتولة العضلات أكثر من غيرها.

أهذا بلاط البارونات؟

كان عددها بالمئات.

وجدنا بعض الجرذان الرمادية الضخمة، واستنتجتُ من ذلك أنّ البارونات الفرنسيين قُبِلوا بين البارونات الأمريكيين.

صعدنا إلى طابقٍ أعلى وأصبحنا في قاعةٍ أضيق من التي قبلها تفوح منها بقوّة رائحة الهرمونات الأنثوية.

هنا قاعة حريم الجرذان...

كان عدد إناث الجرذان بالمئات، بينها بعض الإناث الرماديات اللواتي لا بدّ أنّهنّ فرنسيات.

صعدنا إلى طابقٍ أعلى ووصلنا إلى قاعة صغيرة الحجم فيها إناثٌ أصغر سنًّا، روائحها أكثر حدّة، تشبه رائحة التوابل.

لا بدّ أنّ القاعة السابقة كانت لحريم الإناث البارونات وفي هذه الحالة، قد تكون هذه القاعة هي للحريم المَلكي.

وجدتُ عددهنّ أقلّ من سابقاتهنّ. قرابة عشرين أنثى فقط. وعدد الإناث الرماديات يساوي عدد الإناث البنيّات.

ظننتُ أنّ المَلِكين، في إطار تحالفهما، قد تبادلا أفضل إناثهما.

تقدّمنا أكثر وحينما وصلنا إلى نهاية القاعة، وجدنا حجرةً أضيق من سابقتها. شممتُ رائحة خفيفة معروفة.

تيمورلنك.

كان المَلِكان ينامان على وسائد من الحرير.

وجدتُ أنّ مَلِك الجرذان الأمريكية، آل كابوني، أضخم حجمًا ممّا كنتُ أتصوّره أثناء مراقبته بالكاميرات. كان بحجم مرموطٍ.

وبدا تيمورلنك، مَلِك الجرذان الفرنسية، بجانبه صغيرًا جدًّا. أسهَم لونه الأبيض وعيناه البيضاوان في منحه شيئًا من الغرابة التامّة مقارنة بنظيره الأمريكي.

أشرتُ بحركاتٍ من أذنيّ لأسميرالدا وبوكوفسكي.

كان يجب على بوكوفسكي أن يبقى في مكانٍ أخفض بقليل من المدخل

لكي يراقب المكان أثناء قيامنا، نحن القطّتين، بتنفيذ عملية القتل في الصالة الملكية.

اقتربنا ببطءٍ وحذرٍ. رأينا المَلِكين يغطّان في نومٍ عميق.

نصّبتُ أذني اليمنى لكي أُفهِمَ أسميرالدا أنّني جاهزة للهجوم.

مددنا معًا مخلبنا الأطول والأكثر حدّة والذي سوف نستخدمه كأداةٍ قاطعة.

بيد أنّ أسميرالدا ظلّت متحفّظة. حدّقت فيّ بثبات وبدت أنّها تنتظر أن أَضرب أوّلًا.

ما الذي حلّ بها؟

وفي تلك اللحظة بالذات، أضاء رعدٌ أقرب وأكثر إشراقًا الغرفة دفعة واحدة.

ففتح مَلِك الجرذان الأمريكية إحدى عينيه. انقضّ على أسميرالدا. كانت أسنانه حادّة جدًّا واستفاد من وزنه الثقيل لسحق القطّة. عضّ رقبتها. ولو واصل ذلك لشقّ جلدها ونحرها تمامًا.

أمّا تيمورلنك فقد ظلّ نائمًا.

كان عليّ الاختيار بين قتل تيمورلنك على الفور أو إنقاذ أسميرالدا (وهي أكثر قطّة أكرهها في الواقع).

جرى كلّ شيء سريعًا في ذهني.

تذكّرتُ كلّ الأذى الذي ألحقه تيمورلنك بنا من خلال قتل سكان جزيرة المدينة (جماعتي) ومن خلال صلب هانيبال (الأسد الذي حمانا). تذكّرتُ معركتنا على متن القارب وسط نهر السين في روان. تذكّرتُ عدوانيته وذكاءه وحشده البنّي الذي لحق بنا بالآلاف من الجرذان المتعصّبة.

في الوقت ذاته، تذكّرتُ كلّ ما فعلته أسميرالدا بي من خلال تبنّيها ابني، ومغازلة ذَكَري فيثاغورس والسخرية منّي، والادّعاء أنّها قد أنقذتني من الجرذان.

ومض رعدٌ جديد. أصبحت العاصفة قريبة جدًّا، والرعدُ أشدّ دويًّا.

فتح تيمورلنك بدوره عينيه.

رأينا بعضنا بعضًا.

تعرّف إليّ.

ووسط دهشتي الكبيرة، لم ينقضّ عليّ.

جرى ما تبقّى من المشهد مع مؤثّرٍ قرأتُ عنه في الموسوعة يُسمّى الأثر (الستروبوسكوبي)، أي حينما يكون هناك الكثير من البروق البيضاء المتوهّجة وسط الظلام بحيث تبدو كلّ الحركات مضطربة، وكلّ وميضٍ من النور يكشف مشهدًا مختلفًا عن الذي سبقه.

جرى كلّ ذلك وسط ضجيج العاصفة.

يبدو كوكبي في حالة غضبٍ.

قاومت أسميرالدا ولكنّها لم تستطع الإفلات من خصمها الضخم، الذي عضّها وغرز أسنانه الطويلة مثل سيوفٍ على نحوٍ أعمقَ في رقبة رفيقتي في المغامرات. سمعتُ مواءها الفظيع.

إن لم أفعل شيئًا في الحال، ستموت.

فتركتُ تيمورلنك، وقفزتُ وضربتُ عيني آل كابوني. شقّ مخلبي عينه اليمنى مثل حبّة عنب. وانبجست منها عصارةٌ شفّافة.

متفاجئًا بضربتي، فتح مَلِك الجرذان الأمريكية فمه لكي يُطلق صرخة ألمٍ، الأمر الذي أتاح الفرصة لاسميرالدا لكي تفلت من بين أسنانه.

لم يتزحزح تيمورلنك من مكانه، وظلّ يحدّق إليّ بثباتٍ، وقد بدا عليه القلق من المشهد الذي يجري في جوّ نهاية العالم هذاـ كما لو أنّ الأمر لا يعنيه.

مؤتُ:

– فلنهرب!

بدأنا أنا أسميرالدا بالهرولة، فرآنا بوكوفسكي واستنتج من ذلك أنّ عليه أن يركض معنا. جرى آل كابوني بسرعة، رغم بدانته وجرحه، مدفوعًا بالغضب. كانت كتلة من الغضب الشديد هي التي تركض خلفنا.

صفّر وصرخ.

عبرنا منطقة الإناث الملكيات، ثمّ منطقة إناث البارونات، ثمّ قاعة

البارونات أنفسهم، ومن ثمّ قاعة الجرذان العاديّة. في الوقت الذي استيقظت فيه جميع الجرذان وفهمتْ ما يحدث، نجحنا في المرور في *اللحظة الأخيرة.*

لم تكن لدينا ثانية واحدة نضيّعها. بدت جماعة الجرذان مثل كائنٍ عملاقٍ نائم انتفض وأصبح على الفور في حالة استنفارٍ تامّ.

عليّ ألّا أفكّر بأنني في مكانٍ مغلقٍ، محاطةً بآلاف الكائنات العدوانية.

عليّ ألّا أفكّر إطلاقًا.

قفزنا نحن الثلاثة إلى الأمام.

شعرتُ بعمودي الفقري وهو يتماوج، وبذيلي وهو يحافظ على توازني، وبالريح وهي تضرب فرائي المبلّل.

كان كلّ جسمي رشيقًا. شعرتُ بأنني قد استعدتُ للتوّ الفهد القابع في أعماق جيناتي.

ركضتُ بسرعة كبيرة جدًّا بحيث بدا لي أنني أحلّق فوق الأرض.

تركّزت كلّ طاقتي على السعي إلى قدرتي على الجري بحيث عمل دماغي ببطءٍ في حين نبض قلبي بقوّة.

سمعنا دويّ الرعد.

كنتُ في المقدّمة وكنتُ أعلم أنّ مساعدَيّ يجريان خلفي.

أضاءت البروق كلّ شيء.

أخيرًا، رأيتُ باب مدخل قاعدة التمثال. أزحتُ بضعة جرذانٍ، استيقظت لتوّها، حاولت اعتراضنا وقطع الطريق علينا.

علينا الخروج بسرعة.

وأخيرًا وصلنا إلى المطر والهواء المنعش في الخارج.

تبلّلت كلّ عضلات جسمي.

لهثتُ مادّةً لساني مثل كلبةٍ.

دون أن ألتفت إلى الوراء لأرى ما الذي يفعله رفيقاي في المهمّة،

اتّجهتُ نحو مسيّرتي، وفي ثلاث حركات خفيفة وماهرة، ربطتُ حزام الأمان. وأرسلتُ رسالة ذهنية.

الرمز 103 683. تشغيل. إقلاع فوري.

ولكن لم يحدث شيء.

تبًا، إذا كان هناك شيءٌ أكرهه، فهو توقّف الآلات التي كانت تعملُ سابقًا.

استدرتُ إلى الخلف ورأيتُ أسميرالدا وقد صعدت إلى مسيّرتها، في حين أنّ بوكوفسكي، الأضخم وبالتالي الأكثر بطئًا، قد تخلّف عنّا، وخلفه الجرذان التي لاحقته عن قرب.

103683. تشغيل.

مرّة أخرى لم يحدث أيّ شيء واقتربت الجرذان التي تلاحقنا.

بحث ذهني، الذي بات حادًّا، عن وسيلة لإخراجنا من هذا الوضع.

هذا مستحيل، ليس من الممكن أن يكون هناك «علم نفس المسيّرات».

وسط الشكّ والحيرة، حاولتُ مع ذلك أن أهدّئ من روعي، فأغمضتُ عينيّ وقلتُ في ذهني:

من فضلكِ، يا سيّدة مسيّرة، أديري المحرّك.

أخذتُ نفسًا عميقًا وركّزتُ على نيّة واضحة:

103683. تشغيل.

انتظرتُ، مستسلمةً.

بدأت شفرات مراوح المسيّرة الشبيهة بنبتة نفل رباعية الأوراق بالدوران، طاردةً كلّ ماء المطر المتجمّع عليها.

فتحتُ عينيّ ببطء، والتفتُّ: كانت أسميرالدا متأهّبة تمامًا على مسيّرتها، التي دارت شفرات مراوحها أيضًا.

خلفنا، لمحتُ مسيّرة بوكوفسكي التي تحرّكت أيضًا ولكن دون راكبٍ. كان القطّ الأمريكي ذو الشعر القصير بالكاد على بُعدِ بضعة أمتارٍ ولكنّه لم يستطع تسلّق مركبته الطائرة. قاتل ضدّ الجرذان، ولكنّها غمرته بعددها

الهائل. وخلال بضع ثوانٍ، غطّته عشرة جرذانٍ غاضبة وهائجة، مزّقته قطعًا. وانطلقت جرذانٌ أخرى تجري نحونا.

اقترحتُ على الذكاء الاصطناعيّ لمسيّرتي: *هلّا تقلعين فورًا؟*

ارتفعت المسيّرة.

ولكن في اللحظة التي هممتُ فيها بالارتفاع فوق ذلك الجحيم، قفز جرذ من البارونات، أضخم حجمًا من سواه وأسرع وأكثر تصميمًا، في الهواء مندفعًا بقائمتيه الخلفيتين. لم يرتفع كثيرًا ليتمكّن من الصعود إلى متن مسيّرتي، ولكنّه استطاع أن يغرز أسنانه في ذيلي وضغط بقوّة لينجح في التحليق معي.

تبًّا، لقد تعلّق جرذٌ بذيلي.

وقفزتْ في الحال جرذانٌ أخرى لكي تتشبّث به، وهي تأمل أن تشكّل ثقلًا كافيًا على مركبتي لمنعها من الإقلاع.

رغم المطر الذي أثقل فرائي والخمسمئة غرامٍ التي أضافها الجرذ إلى وزني البالغ ثلاثة كيلوغرامات وثمانمئة غرامٍ، ظلّت المسيّرة عالقة في الجوّ، ولكنّها أيضًا لم تعد قادرة على الارتفاع أكثر.

تعلّق جرذٌ ثانٍ بالأوّل، ثمّ تعلّق ثالثٌ بالجرذين الآخرين. هذه المرّة، شقّ على المحرّكات ذات المراوح الرباعية الشفرات أن تتحمّل أثقالها.

من خلال التفكير، ضاعفتُ من قدرة المحرّك لكي ترتفع مسيّرتي إلى مستوى أعلى.

ولكن عبثًا.

وصلت تعزيزاتٌ إضافية.

حاولتُ أن أتقدّم إلى الأمام، ولكن حتى هذه المناورة صارت بطيئة جدًّا.

أصبحت هناك الآن ستّة جرذان متعلّقة بالجرذ الذي يعضّ ذيلي وبقينا نراوح في مكاننا.

لن تنال منّا بهذه الطريقة!

جهدت أسميرالدا ومطّت لأقصى ما أمكنها، فاستطاعت بضربة من

حرف مخلبها أن تقطع ذيل القارض الأوّل، فأسقطت بذلك الجرذان الخمسة الأخرى.

ولكن هذا الأخير لم يستسلم قط.

ظهر حشدٌ غاضبٌ جديد من الجرذان. لم يعد هناك وقتٌ لمحاولة التخلّص من هذا المتطفّل. استفدتُ من فرصة وجود جرذٍ واحدٍ فقط متعلّقٍ بذيلي لكي أرتفع إلى مستوى أعلى بقليل. ولحسن الحظّ، كان المحرّك قويًّا بما يكفي لبذل هذا الجهد المطلوب للارتفاع.

أضاء البرق السماء في حين واصل المطر الهطول بغزارة. على الأرض، أطلقت الجرذان الغاضبة صيحات. حتى دويّ الرعد لم يستطع التغطية على زقزقاتها الغاضبة.

بل كانت هناك بعض الجرذان التي ألقت بنفسها في الماء لكي تسبح وتلحق بنا في حال سقطنا في المحيط. ارتفعنا عاليًا.

أتاحت السلسلة التي كانت تربطني بمسيّرة أسميرالدا لها اللحاق بي من مسافة قصيرة. وخلفنا، كانت المسيّرة الفارغة للقطّ بوكوفسكي.

صاحت بي القطّة السوداء ذات العينين الصفراوين:

- ناوري بالمسيّرة، فهذا سيؤدي إلى سقوط جرذكِ!

لم أكن بحاجةٍ إلى نصيحتها ولكنني قمتُ في الحقيقة بمناورات واستدارات حادّة. صرّ القارض على فكّيه بقوّة شديدة بحيثُ شعرتُ بأنّه ملتحمٌ بجسمي بكمّاشة.

لا أعلم إن كان قد سبق لكم أن تعلّق جرذٌ بأذيالكم وأنتم تحلّقون على متن مسيّرة، ولكنني أستطيع أن أؤكّدُ لكم أنّه إحساسٌ مزعجٌ للغاية. وما يزيد الطين بلّة هو أن يكون ذلك في الليل، تحت مطرٍ عاصفٍ يجلدكم ويبلّل فراءكم وعلاوة على ذلك يسيطرُ عليكم الشعور بفشلِ مهمّتكم.

حرّكتُ ذيلي بعنف في محاولةٍ للتخلّص من هذا المتطفّل ولكنّه ضغط على فكّيه ولم أعد أشعر بطرف فقراتي الذيلية.

واصل الرعد بدويّه هزّ الهواء في الجوّ.

كان علينا الوصول إلى البحر.

طرتُ على علوٍّ منخفض، معاقبةً الجرذ بضربه بسطح الأمواج.

كنتُ آمل أن يفلتني، ولكن هيهات، ظلّ مشدّدًا على فكّيه وممسكًا بذيلي بإحكام.

كان عليّ الوصول إلى برج الحرية.

طرنا.

– ويحك أيّها البارون، سوف أقودك إلى بيتي، ولستُ متأكّدة من أنّ هذا سيعجبكَ.

فسيطرتُ على الألم الناجم عن أسنان القارض، وتغلّبتُ أيضًا على فقدان التوازن الذي فرضه الجرذ على مسيّرتي، وانحنيتُ إلى الأمام وضاعفتُ السرعة.

فكّرتُ من جديد في تيمورلنك.

أظنُّ لو أنّني لم أتلكّأ، لاستطعتُ أن أغرز مخلبي في رقبته.

ما الذي دفعني إلى الانتظار؟

كانت أمّي قد قالت لي، ذات مرّة: «عندما يتعلّق الأمر بالجرذان، نقتلها أوّلًا، ثمّ نفكّر».

ظلّ الجرذ يسحبني ويقرصني. لحسن الحظّ، كان فرائي يخفّف قليلًا من ضغط أسنانه على ذيلي.

استطعتُ بهذه الطريقة أن أقوده إلى الطابق الأوّل في البرج، حيث ينتظرنا فريقنا الخاصّ بالاستقبال. انحنى رومان وسيلفان من النافذة لكي يلتقطانا على الطائر. أمسكت أيديهما بالمسيّرات ووضعتنا في مأمنٍ داخل القاعة.

أُغلِقَت النوافذُ من ورائنا.

يا للعجب، لقد نجونا هذه المرّة.

ولكنّ الجرذ ظلّ معلّقًا بذيلي.

– حرّروني من «هذا» ولكن لا تقتلوه!

أخذتني ناتالي بين ذراعيها في حين بدأ رومان بمحاولة فكّ القارض من خلال جرّه من إحدى قوائمه. لوّحت خادمتي، العملية، بقدّاحتها ومدّتها لتحرق طرف ذيل القارض.

أفلتني وهو يُطلقُ صريرًا غاضبًا.

وأخيرًا تحرّرتُ من هذا الجرذ المتعصّب.

ردّدتُ:

- لا تقتلوه!

التُقِطَ البارون سريعًا من قبل سيلفان الذي ثبّته تحت سترته. ثمّ جلب أحدهم حوضَ سمكٍ فارغًا وأُلقي به في داخله، قبل أن يُغلَق جزؤه العلوي بلوحٍ من الخشب.

تمّ الأمر، وانتهى كلّ شيء.

لقد نجحتُ في النجاة بجلدي.

التفتُّ نحو أسميرالدا وسألتُها:

- لماذا أردتِ أن أقتل تيمورلنك أوّلًا؟

قالت:

- أردتُ فقط أن أقدّم لكِ هذه الهديّة. كنتُ أعتقدُ أنّه سيسعدكِ أن تأخذي المبادرة نظرًا لأنّ هذه مهمّتكِ «أنتِ». حسنًا، على أيّ حال، أنا لا أرى حرجًا في أن أشكركِ. لقد أنقذتِ حياتي.

اللعنة. إنّها راقية. حتى في هذا الأمر تُثير غضبي. إنّها تعطيني درسًا في السموّ الأخلاقي.

ثمّ خطرت لي فكرةٌ أخرى.

كان من الأفضل لو أنني تركتها تموت وقتلتُ تيمورلنك.

قلتُ بنبرة فيها شيءٌ من المرح:

- حسنًا، أعترف بأننا أصبحنا متعادلتين. لقد أنقذتِني بالفعل حينما سقطتُ من السفينة.

لا أعلم لماذا، ولكن الآن وقد أنقذتُ حياتها، أصبحتُ أودّها أكثر بكثير من ذي قبل.

ربّما نحبّ الناس الذين ننقذهم أكثر من الناس الذين أنقذونا.

وهأنذي أصبحُ ضعيفةً.

في بعض الأحيان، أجدُ نفسي... كيف أقول ذلك؟... عاطفيّة بعض الشيء.

هذا هو التأثير السلبي للبشر عليّ.

بعد هذا، ما الذي قد أُجازفُ بالشعور به؟

التعاطف؟

الرحمة؟

الشفقة؟

إذًا لن يعود بوسعي أن أذهب في مهمّات خاصّة. سوف أصبح... قطّة شائخة مليئة بالتناقضات.

سأل أنجيلو:

– ماذا نفعل بالأسير؟ هل أستطيع أن أقتله؟ أوه، يا أمّاه! من فضلكِ، دعيني أقتله!

لم أكلّف نفسي حتى عناء الردّ عليه.

قالت أسميرالدا:

– المسكين بوكوفسكي. من خلال التضحية بنفسه استطاع أن يُبطِئ تقدّم الجرذان ويُتيحَ لنا الفرصة في الفرار.

شعرتُ بتعاطفٍ خفيفٍ مع القطّ الأمريكي ذي الشعر القصير، ولكنني لم أعبّر عن هذا التعاطف علنًا.

لقد استحقّ ما جرى له، ما كان عليه أن يأكل شامبليون.

دخلت هيلاري كلينتون إلى القاعة. رأت أن فرائي لا يزال يحمل بعض آثار الدماء. سألتني ووصل سؤالها إلى جهاز الاستقبال في عيني الثالثة:

– أخبريني، هل قتلتم المَلِكين؟

لم تقل لنا: «تهانيّ»، ولا قالت لنا: «أنا سعيدة بعودتكم سالمين»: لم تقل شيئًا من هذا القبيل.

هززتُ رأسي في إشارةٍ على النفي.

أردفت هيلاري كلينتون، محبطَةً:

– لقد فشلتم إذًا.

حقًّا، هذه تثير غضبي وتوتّرني.

أشرتُ على ناتالي بأن تنقل إليها السمّاعة المتلقيّة لكي تفهم ما أقوله.

أجبتُ دون أن أتخلّى عن ثقتي بنفسي:

– لقد نجحنا في جلب أسيرٍ.

– ولكن...

– وأنا مبتهجة برؤية سعادتكِ بعودتنا بسلامٍ، لأننا في الواقع فقدنا أحد أفراد فريقنا. أفترضُ أنّكِ كنتِ خائفة جدًّا من اضطراركِ إلى الحزن لموتنا نحن الثلاثة.

– لماذا فشلت المهمّة؟

كانت أمّي تقول: «حينما تجري الأمور لغير مصلحتكِ، تدبّري أمركِ في إيهام الآخرين بأنّكِ فعلتِ ذلك عن قصد وأنّ هذا عنصرٌ من الخطّة السريّة».

بحثتُ عن جملةٍ تناسب هذا المفهوم ولكنني لم أعثر عليها.

أقرّ رومان ويلز:

– لقد استطعنا متابعة الوضع بفضل كاميرا الفيديو للمسيّرات وكنا نأملُ في أن تتمكّنوا من إنجاز مهمّتكم.

– كدنا ننجح في ذلك. ولكننا واجهنا عقبة صغيرة حالت دون إكمال مهمّتنا حتى النهاية.

كرّرت الرئيسة:

– إذًا، لقد فشلتم.

هناك بعض الناس قد يكسبون في بعض الأحيان من خلال التزام الصمت لأنّ الكلمات التي تخرج من أفواههم لا تنفع في شيء.

كان عليها أن تذهب هي في هذه المهمّة، إذا كانت تعتقد نفسها فعّالة أكثر.

لحسن الحظّ، أخذتني ناتالي في حضنها وضمّتني بقوّة. تركتُها تمنحني القليل من حنانها لأنني ظننتُ أنّها قد خافت كثيرًا من أن تخسرني.

ثمّ تحرّرتُ من بين ذراعيها واقتربتُ من الجرذ الأسير وهو في حوض الأسماك خاصّته. استشاط غضبًا. ما إن رآني، قفز باتجاهي وضرب بقوّة أنيابه بجدار الحوض الزجاجي كما لو أنّه يأمل في ثقبه.

فقال أنجيلو حينئذٍ:

– أوه، يا أمّاه، من فضلكِ، امنحيني السعادة ودعيني أقتل هذا الجرذ الضخم!

أطلقتُ تنهيدة سأمٍ. وفجأةً شعرتُ بأنني متعبة جدًّا.

لم تكن لديّ سِوى رغبة وحيدة: أن أنتفض، وأن أمرّر إحدى قوائمي فوق أذني وأن ألعق جسمي لكي أزيل كلّ التوتّر الذي شعرتُ به.

فليتدبّر الكون أمره بدوني، لقد عانيتُ ما يكفي من الانفعالات هذا اليوم، وأرغبُ فقط بأن أكون بعيدة.

28. البقرة الهاربة

في نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1995، كانت بقرة حلوب في الخامسة من عمرها، وأُقرّ مصيرها بأن تتحوّل إلى لحمٍ لصناعة الهمبرغر، تتقدّم نحو بوابة مسلخٍ في مدينة هوبكينتون في ولاية ماساتشوستس. بدا لها المكان مقلقًا وفجأةً لمعت في ذهنها فكرةٌ. خرجت من رتل الأبقار الأخرى، الجاهلة أو المستسلمة. هرولت لكي تفرّ من المكان، فرأت أمامها فجأةً سياجًا بارتفاع مترٍ ونصف المتر، فاندفعت بكلّ حماسة ونجحت في رفع ثقلها البالغ سبعمئة كيلوغرامٍ في قفزةٍ للأمل الأخير فوق السياج.

ثمّ فرّت عبر الغابات وهربت من الأشخاص الذين لاحقوها.

اختبأت البقرة، التي سُمّيت منذ ذلك اليوم إيميلي، مدّة أربعين يومًا. تأثّر سكّان قرية هوبكينتون بالحادثة وتعاطفوا مع البقرة فضلّلوا طواعية الأشخاص الذين كانوا يتعقّبونها.

سمع لويس وميغنا راندا، مؤسّسا مأوى للحيوانات باسم بيس آبي، بالحادثة واقترحا أن يشتريا البقرة من مالكها. فوافق هذا الأخير على بيعها لقاء دولارٍ واحدٍ.

لاقت القصّة رواجًا كبيرًا في الصحافة المحليّة، إلى حدّ أنّ المنتجة إيلين ليتل امتلكت حقوق قصّة إيميلي لكي تحوّلها إلى فيلمٍ سينمائي وتبرّعت بمبلغ عشرة آلاف دولار لمأوى بيس آبي، الأمر الّذي أتاح لأصحاب المأوى بناء إسطبل خاصّ بالبقرة إيميلي. عاشت إيميلي في المأوى بسلام وماتت في سنّ العاشرة جرّاء إصابتها بالسرطان.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

29. أسيرٌ حسّاس

كيف هذا، ترفضون منحي مكاني كممثّلة للقبيلة الثالثة بعد المئة؟

*أعتقدُ أنني أحلم. بعد كلّ ما عانيته، بعد كلّ ما فعلته، بعد كلّ ما تعرّضتُ له من مخاطر... **تجرؤ هيلاري على التراجع عن وعدها**!*

تحرّكت مخالبي سحبًا ومدًّا في حركة لا إرادية تعبّر عن غضبي.

حاولتُ الحفاظ على هدوئي. ذهبنا إلى القاعة التي تُستخدَم مكتبًا للرئيسة. استدعتني مع ناتالي لتقديم شرحٍ أدقّ تفصيلًا حول سير مهمّتنا في «القضاء على مَلِكي الجرذان».

أمعنتُ النظر في تفاصيل القاعة.

رأيتُ كلّ الجدران تقريبًا مغطّاة بصور تعود إلى الفترة التي خاضت فيها الانتخابات التمهيدية ضدّ باراك أوباما ومن ثمّ الانتخابات الرئاسية ضدّ دونالد ترامب.

تساءلتُ في نفسي عن عمرها.

على الأرجح أكثر من ثمانين عامًا.

استقررتُ على مكتبها لكي يكون وجهي على مستوى وجهها. تُرجِمَت أقوالي مباشرةً عبر السمّاعة الصغيرة للهاتف الذكي الذي كانت ناتالي تحمله.

– لقد نجحتُ في التسلّل والدخول إلى أعماق وكرهما، وكنتُ على بعد بضعة أمتارٍ من قلب المَلِك، وحدها بعض الظروف المؤسفة منعتنا من إتمام المهمّة. ماذا تسمون هذا؟ «ظرفٌ طارئ».

أعلم أنه عليّ أن أستخدم حدًّا أقصى من الكلمات النادرة للتأثير عليها بثقافتي الرفيعة.

قالت هيلاري:

– كان من شأن المهمّة بحسب تعبيركِ أن تجنّبنا خطر حريقٍ جديدٍ في الأقبية. والحال أنّ هذا الخطر ظلّ قائمًا.

– طالما الأمطارُ تهطل، ليس لدينا ما نخشاه.

– إذًا مصيرنُا مرتبطٌ بالأحوال الجويّة. لقد فشلتِ وكانت هذه خطّتنا الوحيدة، لقد كنتِ...

فتّشتْ عن كلمة معقّدة ولكنّها اكتفت بكلمة معتدلة:

–... مخيّبة للآمال، يا باستيت.

مخيّبة للآمال؟

فقط لامتلاكها الجرأة على التفوّه بهذه الكلمات، سيكون عليها أن تدفع الثمن ذات يوم.

يجب ألّا تقلّل من شأن أعمالي إلى هذه الدرجة فقط لأنها رئيسة البشر وأنا مجرّد قطّة بسيطة. لقد كنتُ على وَشْك أن أفقد حياتي وأنا أعمل في سبيل المصلحة العامّة، يبدو أنّها نسيت ذلك تمامًا.

– ليس عليكِ إلّا أن تذهبي بنفسكِ إلى هناك، إذا كنتِ تعتقدين أنّكِ أقوى منّي!

– لستُ أنا منْ اقترحتُ الذهاب إلى قتل المَلِكين في الليل.

– بالضبط، لم تقترحي شيئًا، ولذلك لم تخطئي قط. أنتِ تنتظرين ممثليكم في الجمعية لكي يقدّموا اقتراحات ثمّ تجرين التصويت الذي تقولين إنّه ديمقراطي. متى ستحضرين شيئًا مفيدًا حقًّا وشخصيًّا؟

ردّدت بعناد:

– لقد فشلتِ، لقد فشلتِ. والآن، ليس لدينا أيّ خطّة أخرى.

تنهّدتُ بعمق، ثمّ مؤتُ:

– أنا لديّ خطّة أخرى.

أصبحت تنظر إليّ باهتمامٍ أكبر بعد هذا التصريح.

المستقبل سوف يكون دائمًا للذين يمتلكون أفكارًا خلّاقة وليس للذين لا يفعلون سِوى إدارة السلطة.

– هاتِي إذًا، ما هي خطّتكِ؟

– لقد خدعتِني مرّة، لماذا أثقُ بكِ الآن؟ لقد فهمتُ نظامكم، أنتم تستخدمونني لتسرقوا أفكاري ثمّ ترفضون مكافأتي. هذا... «ازدراء».

خيرُ وسيلة للدفاع هي الهجوم. لا بدّ أنها تُريدُ أن تعرف ما هي خطّتي الثانية، إذًا سأحتفظ بها. سأنتهز الفرصة لإذلالها.

– أنتِ تكذبين، يا باستيت.

هل تعاملني على أنني كاذبة؟

– ليست لديكِ خطّة للإنقاذ.

إنّها تحاول النيل منّي بالغطرسة والاستفزاز.

لن تنالي منّي بهذه الطريقة، يا جميلتي.

– اسمعي، يا هيلاري، أنتِ الرئيسة، ولذلك عليكِ أن تكوني موهوبة بما فيه الكفاية لإيجاد الحلول، وإلّا لماذا انتُخِبتِ. أمّا بالنسبة إليّ، بما أنني لستُ حتى ممثّلة لإحدى القبائل، لا أفهم لماذا عليّ أن أُبدي رأيي حتى. بل أكثرُ من ذلك، لا أفهم لماذا سوف أكشف لكِ استراتيجيتي. ليس لديّ أيّ شيء أكسبه من ذلك.

دائمًا ينبغي أن تساير الآخر وتجاريه في حماسته حتى لا يجد أيّ مقاومة وينهار، فريسةً لجموده.

- لن تعودي تسمعي عنّي شيئًا، فأنا سأخلدُ إلى ركنٍ مثلما تفعل كلّ القطط وسأتناوب على القيلولة ووجبات الطعام. ومن حينٍ إلى آخر، سوف أخرخر، وهذا ما نجيد فعله نحن القطط، ولن يزعجكم هذا.

- هذا سخيف.

حينما لا يفهم المرءُ، يلجأ لإطلاق الأحكام ليوهم الآخرين بهيمنته.

- في الواقع، يجب أن أكون سخيفة. أنا آسفة لأنني أعطيتكم آمالًا زائفة بمحاولتي الفاشلة في عملية الاغتيال المزدوجة. لن أعاود الكرّة أبدًا.

نزلتُ عن الطاولة وأدرتُ لها ظهري كاشفةً بوضوح عن مؤخّرتي. وهنا أطلقتُ ريحًا، وهو ما يعادل عندنا نحن القطط رفع الإصبع الوسطى عند البشر بغرض الإزدراء والإهانة.

هرولتُ نحو الباب. نهضت ناتالي هي الأخرى ولحقت بي.

ربّما تكونين رئيسة، ولكنني مَلِكة، حتى وإن كنتِ لم تلاحظي ذلك بعد. أنا مَلِكة القطط وأنتِ لستِ إلّا كائنة بشرّية مسكينة لا تملك أيّ فكرة لإنقاذ بني جنسها.

- ارجعي يا باستيت.

توقّفتُ في مكاني فورًا ونصّبتُ أذنيّ.

- لم تخبريني بفكرتكِ.

- أفكارُ القططِ ليست سِوى أفكار قططٍ وأنا مدركة لخيبة أملكِ من فكرتي السابقة.

- أنا أقبل بالإصغاء إليكِ من جديد، يا باستيت. ما هي خطّتكِ الجديدة؟

- كلّما فكّرتُ فيها أكثر، بدت لي أنّها لن تعجبكِ.

واصلتُ طريقي نحو الباب. وهناك، انتظرتُ أن تُدير ناتالي مقبض الباب وتفتحه.

قالت الرئيسة:

- أحسنتِ! لقد فزتِ. إذا ما تبيّن أنّ خطّتك الثانية فعّالة، سوف يكون لكِ مكانكِ بيننا في جمعية القبائل.

- هل سأكون الممثّلة الثالثة بعد المئة؟

- إذا ما نجحتِ الخطّة، نعم.

- ولكن ماذا عن التصويت «الديمقراطي»؟

- سوف أتدبّر الأمر...

- وهل لديكِ هذه السلطة؟

- إذا ما تنحّيتُ ببعض الممثّلين جانبًا، أستطيع التأثير عليهم لكي يتعهّدوا لي بالتصويت لمصلحة المقترح.

- هل تستطيعين أن تضمني لي ذلك؟

- أعدكِ بذلك.

إنّ وعدًا من شخصية سيّاسية بشرية لا يساوي الشيء الكثير بالنسبة إليّ.

- لقد سبق أن قطعتِ لي وعودًا ولم تلتزمي بها، يا هيلاري.

- لقد وعدتُكِ بمنح المقعد في الجمعية إن قتلتِ المَلِكين. ولم تفعلي ذلك، يا باستيت.

إنّها تثيرُ غضبي، لماذا لدى بعض البشر هذا التأثير الاستثنائي في إثارة أعصابي ما إن يتفوّهوا بكلمةٍ واحدةٍ؟

كان يجب عليّ أن أحافظ على هدوئي. فلديّ هدفٌ يجب أن أحقّقه، ولديّ اتجاهٌ واضحٌ.

إنّها لا تفعل شيئًا غير المطالبة بخضوعي لأنها شخصيّة مدفوعة حصرًا نحو السلطة. ولكنّها لا تمتلكُ رؤية على المدى البعيد. إنّها تدير الحاضر ولكن ليس المستقبل. إنّها هي التي تحتاج إليّ وليس العكس.

قفزتُ إلى كتف ناتالي وأشرتُ عليها بأنني أرغب في مواصلة التفاوض بهذه الطريقة. جلست خادمتي قبالة الرئيسة، الأمر الذي وضعني في مكانٍ أعلى منها.

- لنكن واضحتين. أريدُ أن تكون لقبيلتي، القبيلة 103، المسمّاة «قبيلة القطط»، حقوق القبائل البشرية نفسها.

- هذا ممكن.

كلّ شيء استراتيجية، كلّ شيء تفاوض، يجب اللعب بطريقة جدّية.

- أريدُ أن يُحسَب صوتي خلال الانتخابات مثل أصوات البشر. أُريدُ

أن أحظى بوضعية خاصّة، وأكون شخصية مهمَّة، أعتقد أنّكم تسمّون هذا النوع من البشر «VIP». مع الامتيازات المماثلة لممثلي القبائل الأخرى. وإذا متُّ، أُريدُ أن يرث ابني أنجيلو موقعي.

- هذا ممكن، ولكن يجب أن تنجحي في المهمّة.

- أودّ أن يكون اتفاقنا كتابيًّا. لم أعد أثق بكلامك ككائنة بشرية.

فوافقت هيلاري كلينتون على أن يُكتَب نصّ اتفاقنا على حاسوبٍ وطبعت ثلاث نسخٍ منه على الطابعة.

وقّعت على الاتفاق.

قرأت ناتالي نصّ الاتفاقية وبإيماءةٍ من رأسها أكّدت لي أنّ كلّ ما طلبته موجودٌ في نصّ الاتفاقية.

فضغطتُ بقائمتي على سطحٍ مشبعٍ بالحبر كان يَستخدَم ختمًا. ثمّ وضعتُ باطن قدمي لكي أرسم توقيعًا: مثلثٌ تعلوه أربعة أشكالٍ بيضوية.



وأنا أنظر إليه على الورق، وجدتُ توقيعي جميلًا جدًّا بحيثُ دار في خلدي أنّ هذا التوقيع يمكنه أن يصبح رمزنا، أي علمنا.

في النهاية، عند البشر يقترن كلّ نمط تفكير خاصّ بشعارٍ، سواءً كانوا اليهود مع النجمة السداسية، أو المسيحيين مع الصليب، أو المسلمين مع الهلال، أو الملكيين مع زهرة اللوتس، أو الشيوعيين مع المنجل والمطرقة، أو النازيين مع الصليب المعقوف، أو الأناركيين مع الحرف A داخل دائرة.

وشعارنا يمكن أن يكون: مياو.

الأمر الذي يعني بالنسبة إلينا الكثير.

أعدتُ التوقيع نفسه على النسخ الثلاث من الاتفاقية. نسخةٌ خاصّة بالرئيسة، واحتفظت ناتالي بنسختين (واحدة لي وواحدة لها).

- إذًا، أخبريني الآن يا باستيت، ما هي خطّتكِ؟

شعرتُ بأنّها بدأت تتحدّث معي أخيرًا باحترام.

- ستكون مفاجأة. لقد أخبرتِني أنّ النتيجة هي وحدها ما يهمّكِ، إذًا سوف تحكمين على النتيجة.

وغادرتُ الغرفة جاثمةً على كتف خادمتي.

ثمّ انضممتُ إلى رومان وسيلفان اللّذين وضعا الحوض الذي يحتوي على الجرذ الأسير في قاعة الحواسيب. واصل البارون إراقة لعابه والضرب بأنيابه على جدران الحوض الزجاجي.

قال رومان:

- لا يمكن الإبقاء عليه هنا داخل الحوض لوقتٍ طويل، سوف يُجنّ! ما الذي تودّين فعله به؟

- إنّه بارون. وليس أيّ جرذٍ آخر. لا بدّ أنّه مقرّبٌ من المَلِك آل كابوني. في المرحلة الأولى، أودّ الحصول على معلوماتٍ منه حول معسكر الأعداء.

ما إن رآني القارض، حتى قفز من جديد وانهال على الجدار الزجاجي ضربًا. كان الغضب يشعّ من عينيه.

لقد تعرّف إليّ.

قال رومان:

- لم يبدُ عليه أنّه راغبٌ في التعاون معنا. ثمّ، لا أرى كيف سيمكننا أن نتحدّث معه، إذ لم يعد لدينا شامبليون ليقوم بالترجمة.

إنّه يحقدُ عليّ شخصيًّا.

اقترح ابني، النصير الدائم للأسلوب العنفي:

- ليس لدينا حلّ سِوى تعذيبه. نقتلع أسنانه، وسيكون من شأن هذا جعله أكثر تعاونًا معنا.

ظلّت ناتالي أكثر براغماتيةً.

- هل هذا الجرذ هو خطّتك الثانية التي سوف تتيح لكِ الوصول إلى موقعكِ كممثّلة للقبيلة؟

هززتُ رأسي على طريقة البشر.

- بالضبط. أعتقدُ أننا نستطيع استخدامه لمصلحتنا.

بدا رومان محبطًا.

تنهّد، قائلًا:

- اشرحي لنا مشروعكِ.

- سوف أحتاج إليك يا رومان، واحتاجُ إليكم جميعًا، لأنّ فكرتي هي التالية: بدل أن نعذّبه، نجعله... يستمتع.

نظر الجميع إليّ باندهاش.

- سوف نجعله يفهم العالم، وحينئذٍ، سوف يرغب بنفسه في أن يساعدنا.

- أمّاه! لا تقولي ذلك، لن نمنح هذا العدوّ المسعور أغلى ما نملك!

يا له من ذهنٍ محدود الأفق. بالتأكيد بلى.

لقد جاءتني الفكرة حينما تذكّرتُ الأسير الذي سبق أن جعلناه يتحدّث من خلال إعطائه المخدّرات، ولكن هنا، خطرت لي فكرةٌ أخرى، أكثر طموحًا: أن « نُعيده » لمصلحتنا.

- كلّا يا أماه، لا يمكنكِ فعل هذا.

فاستغرقتُ بعض الوقت لأشرح خطّتي لابني الأهبل.

- ليس لديّ أيّ شيء في قرارة نفسي ضدّ الجرذان. إنّها حيوانات كغيرها. ليست هناك حيوانات لطيفة وأخرى شرّيرة. الشيء الوحيد الذي يزعجني في الجرذان، هو أنّها تريد إخضاعنا أو قتلنا.

- وهذا سببٌ كافٍ لكي نرغب في القضاء عليها على بكرة أبيها، أليس كذلك؟

- كلا، لأنّه إذا أخذنا كلّ فردٍ على حدة، لن يكون لا أسوأ ولا أفضل من فردٍ آخر، قطًّا كان أو كائنًا بشريًّا أو خِنزيراً أو كلبًا. لكلّ فردٍ التفكير المتشكّل

من القيم المغروسة فيه من قبل والديه. ولكن يكفي أن نجعله يفهم أنّ هذه القيم خاطئة. وبهذه الطريقة سوف يمكننا أن نحمله على الإيمان بأنّ مصلحتنا جميعًا على المدى البعيد تكمن في الحقيقة في التعاون فيما بيننا: أن يكون معنا بدل أن يقاتلنا.

ظلّ الحضور القليل المحيط بي مرتابًا.

- أقترحُ أن نجري عملية جراحية لهذا الأسير لكي نزرع له عينًا ثالثة تمامًا مثل عيني أنا.

- ولكن كلّا، يا أمّاه، هذا عدوٌّ!

- بالضبط، هناك لحظة تكون فيها أفضل استراتيجية هي استخدام أعدائنا لمصلحتنا.

كان ناتالي ورومان من أوائل من انضمّوا إلى مقترحي.

قلتُ:

- إذا ما نجحنا في إقناعه، فسوف نحصل على ما هو أفضل من مخبرٍ، سوف نحصل على جاسوسٍ.

وانتهى المطاف بسيلفان وإديث وجيسيكا بدورهم بالتحالف معي في فكرتي.

دون انتظار، طلب رومان أدوات جراحية (لحسن الحظّ، كان هناك كل ما يلزم في العيادة البيطرية السابقة هذه) وأعدّ الطاولة لإجراء العملية للجرذ.

قامت إديث بدور المساعدة الأولى له.

شاهدتُ بفضول العملية ويدور في خلدي أنّه بهذه الطريقة ذاتها زُرِعَ القابسُ في جبيني.

في المرحلة الأولى، فتح رومان غطاء حوض السمك وضخّ غازًا مخدِّرًا في داخله. تحوّل البارون المسعور إلى بارون نائم.

أمسكت به إديث بلطف، ووضعته على لوحٍ من الفلين وثبّتت قوائمه بدبابيس كي لا يستطيع النهوض في حال انتهى مفعول المخدّر.

أمسك رومان بمثقبٍ لكي يفتح ثقبًا في جمجمة القارض بين عينيه. كان الضجيجُ فظيعًا وفاحت رائحة مزعجة من عظام الجرذ المحروقة.

استخدم العالم جهازًا لأشعّة اكس أتاح له رؤية دماغ الجرذ. وباستخدام ملاقط، زرع العشرات من الأقطاب الكهربائية بعدّة نقاط محدّدة من الدماغ ومن ثمّ أوصل الأسلاك الكهربائية الرفيعة بعدّة نقاط محدّدة من الدماغ ومن ثمّ ربط الأسلاك الرفيعة بفلاشة يو إس بي.

وضعت إديث مادّة طبّية علاجية لكي تساعد جسم الحيوان على تقبّل هذا العضو الاصطناعيّ الدماغي.

بينما كان الجرذ لا يزال تحت تأثير المخدّر، سألني رومان:

– هل تريدين أن تجعلي منه جاسوسًا «عائدًا»، هل هذا ما تريدينه حقًّا؟

اقترحت ناتالي:

– نعم، يمكننا أن نسمّيه باسم الجاسوسة الشهيرة ماتا هاري.

قال العالم الشابّ ذو النظارات الكبيرة:

– كلّا، لديّ اسمٌ أفضل. أقترحُ أن نسمّيه بولس.

– من هو بولس؟ هل هو جاسوسٌ شهيرٌ آخر؟

– إنّه الرجل الذي أصبح لاحقًا القديس بولس. لقد عاش قبل ألفي سنة. في البداية حارب يسوع المسيح، ثمّ حصلت له رؤيا على طريق دمشق وانتهى به المطاف إلى الانتقال إلى المعسكر المقابل.

30. بولس الطرسوسي، المسمّى القديس بولس

كان بولس الطرسوسي، المسمّى القديس بولس، أحد مضطهدي اليهود من تلامذة يسوع المسيح وقد شارك على نحوٍ خاص في اعتقال ورجم استفانوس. بيد أنّه في عام 36 (أي بعد ثلاث سنوات من وفاة يسوع المسيح، في عام 33)، بينما كان يُسافر ليزور دمشق، حصلت لبولس رؤيا: لقد كان في الجانب الخطأ. انضمّ إلى التلامذة الناجين واقترح أن يقودهم في سبيل إنشاء دينٍ جديدٍ.

في البداية، بدا التلامذة حذرين حيال الرجل الذي قام حتى ذلك الحين باضطهادهم. ثمّ إنّه كان هناك سببٌ آخر للارتياب في بولس: لم

يكن بولس قد التقى قط بشكلٍ شخصي معلّمهم في الفكر. علاوة على ذلك، كان يسوع المسيح يقول دائمًا إنّه لا يريد إنشاء دينٍ جديدٍ، بل يتمنّى فقط العودة إلى القيم الأصيلة لليهودية، المشوّهة من قبل المحتل الروماني.

غير أنّ بولس كان خطيبًا بارعًا، بحيث أصبح الزعيم بلا منازع للمجموعة. كان الهدف الأوّل: تحويل أكبر عدد ممكن من اليهود إلى الديانة المسيحية. أمّا الهدف الثاني، فكان هداية غير اليهود (غير المختونين). وكان الهدف الثالث هو بناء كنائس تُقيم الشعائر المسيحية. بين أعوام **45** و**58**، سافر بولس مع برنابا إلى كلّ مناطق حوض البحر الأبيض المتوسّط لكي يبشّر بالدين الجديد ويقيم تجمّعات مسيحية وخاصّة في قبرص وأنطاكيا وملطية وأفسس (على أراضي تركيا الحالية)، وفي سالونيك وكورينثوس وأثينا (في اليونان).

بيد أنّه، في مرحلة التوتّرات الكبيرة بين اليهود والرومان (كانت هناك حركات تمرّد متواترة ضدّ المحتلّ)، أصبح سلوك بولس في النهاية مقلقًا للسلطات. اعتُقِلَ في القدس ومثَلَ أمام النائب العامّ أنطونيوس فيليكس. ولمّا كان بولس يتمتّع بصفة مواطن روماني، طلب أن تجري محاكمته في روما. وهو الطلب الذي استُجيبَ له. وصل إلى العاصمة الرومانية في عام **60**، ومُنِح منزلًا خاصًّا.

في أعقاب حريق روما، في **18** يوليو/ تموز **64**، اتّهم الإمبراطور نيرون، خوفًا من تمرّد الشعب ضدّه، اليهود وخاصّة المسيحيين بأنّهم يقفون خلف هذا الحريق.

بعد أن أُدين، حظي بولس بامتياز ألا يُحرَقَ بل يُقطَع رأسه. قبل أن يموت، أقام صلاةً ثمّ مدّ عنقه ليتلقى ضربة من الفأس. ظلّ في ذاكرة الأجيال تحت اسم القديس بولس.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

31. فتحُ جمجمة

كانت أمّي تقول: «لا يمكنك أن تمتلك شيئًا إلّا عندما يمكنك تقديمه لآخرَ».

وسوف أضيف إلى قولها: إذا استطعتَ أن تقدّمه لألدّ أعدائك، فهذا لأنّك تمتلكه فعلًا.

منذ صبيحة اليوم التالي لإجراء العملية الجراحية، بينما كان المطر لا يزال ينهمرُ بلا انقطاعٍ، الأمر الذي منحنا مهلةً مهمّة، أقمنا أنا وأسيري في غرفةٍ هادئة في الطابق الرابع والعشرين.

ومن ثمّ، ودون انتظار استفاقته من صدمة ما بعد العملية الجراحية، باشرتُ بتربية هذا العدوّ السابق لتحويله إلى حليفٍ.

بعد كلّ حسابٍ، هذا جرذ، ولا يحتاج إلى رعاية.

أوصلتُ عينه الثالثة، وجرحه لم يلتئم تمامًا بعد، بحاسوبٍ وأوصلته مباشرةً مع منظرٍ من كوكبنا من الفضاء، وهي الصورة الشهيرة «الرخام الأزرق» المُلتَقَطة في عام 1972 من قبل طاقم المركبة الفضائية آبولو 17.

أرفقتُ هذا المنظر *بالكونشرتو* رقم 1 في *سلم ري الصغير وأوركسترا* باخ، والمقطوعة الأولى *أليغرو* (إحدى مقطوعاتي المفضّلة).

أعتقدُ أنّ أيّ كائنٍ، مهما كان شريرًا ومهما كان عنيفًا، لا يستطيع مقاومة التأمّل البصري والسمعي لجمالٍ على هذه الدرجة من البهاء.

إنّها القدرة السحرية للفنّ وخاصّة لموسيقى باخ. إنّها تُنضج العقل.

سيكون عليّ ذات يوم أن أقترح على ابني أنجيلو أن يخضع لنفس العملية الجراحية لزرع العين الثالثة لكي يُدرك أنّ العنف ليس حلًّا على المدى الطويل.

في البداية، بحسب ما بدا، فوجئ القارض، وحينما ظهرت الصور في ذهنه، بدا متمرّدًا وعدوانيًّا.

شبّ على قائمتيه الخلفيتين وكشّر عن أنيابه.

لا بدّ أنّه يظنّ نفسه يحلم ولا يُريد التخلّي عن نظامه القديم في التفكير.

لكنّ الكوكب يتكلّم.

ونشعر بأننا جميعًا جزءٌ منه.

من أجل الوصول إلى صورة كوكبنا مرفقة بموسيقى باخ، وجدتُ في موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة خاصّتي فيلمًا يعرض كلّ التنوّع الحيواني. وكانت الموسيقى التي تشير إلى الصور هي الحركة الثانية من مقطوعة الربيع للموسيقار فيفالدي.

ثمّ حظي برؤية حقول القمح الناضجة، والغابات الإسكندنافية التي يُشاهدُ فيها تنقّل الظبيان الضخمة، وتليها الوحوش البريّة التي تعبر نهرًا في أفريقيا، وفراشات ضخمة مهاجرة في المكسيك، ورقصات المغازلة التي تسبق التزاوج عند الطيور الأمازونية.

بثثتُ في ذهنه صورَ فيلةٍ وزرافاتٍ وسلاحف للبلدان الغريبة التي لم يسبق أن عرفها حتى. بل استطاع أن يشاهد صورًا لدلافين وحيتان، وقناديل البحر، وأخطبوطات، وأزهارٍ، ومراميط، وذئابٍ وكلابٍ، وقططٍ.

ما كان ليصل قط إلى صورٍ كهذه لو ظلّ جرذًا عاديًّا كغيره من الجرذان.

مستوحيةً من فيلم **برتقالة آلية** للمخرج ستانلي كوبريك، تناوبتُ على عرض مشاهد عنفٍ تُشاهدُ فيها جرذانٌ تُقاتلُ في عرضٍ بطيء على أنغام «ثوندرستروك»، وهي مقطوعة موسيقية لفرقة الهارد روك أي سي/ دي سي.

برأيي، لا شيء أكثر تأثيرًا من الناحية العاطفيّة من الدمج بين صورٍ واضحة جدًّا وبعض المقطوعات الموسيقية.

بثثتُ بالتناوب هذه المؤثّرات الساخنة والباردة إلى أن تسرّب الشكّ إلى الجرذ. بعد الشكّ يأتي التشكيك. وبعد التشكيك تأتي إمكانية أن يعتقد المرء أنّه قد أخطأ. وبعد اقتناع المرء بأنّه ربّما يكون قد أخطأ، تنهار كلّ اليقينيات السابقة ويمكن للمرء أن ينظر بطريقة مختلفة إلى ما كان يقاتل في سبيله لأسباب واهية.

المقاومات شديدة، ولكنّ القدرة على الاندهاش أمام معجزة الحياة

تفوق قدرة الغضب أو قدرة الحاجة إلى السلطة. وشيئًا فشيئًا، يترك الجهل مكانه للفضول.

حينما اعتقدتُ أنّ بولس قد تخلّص أخيرًا من كلّ ما رُبي عليه ومن أحكامه المسبقة بشأن النوع، اتّصلتُ معه عبر عيني الثالثة.

- طاب نهارك، أيّها الجرذ.

لم يُجب في الحال، ولذلك كرّرتُ بصوتٍ عالٍ:

- **طاب نهاركَ، أيّها الجرذ.**

بعد مرور هنيهة، جاء الردّ:

-... طاب نهاركِ، أيّتها القطّة.

لقد نجح الأمر!

- لقد قدّمتُ لك العين الثالثة لكي تُدركَ أنت أيضًا بالفعل وضع العالم والتحدّيات الكبرى الراهنة. هل ستكون مستعدًّا لمساعدتنا في إنقاذ الحياة؟

لم يُجب مباشرةً، ولكنّه سأل:

- منْ أنتِ؟

- أنا باستيت، القطّة التي قدّمت لك المعرفة.

هزهز رأس خطمه لكي يشمّني.

- ماذا تنتظرين منّي؟

- أنتظر منك شيئين: أن تروي لنا أوّلًا ما يجري في عالم الجرذان. ومن ثمّ تعود إلى معسكرك وتتجسّس لمصلحتنا.

شعرتُ بأنّه لم يعد هناك أثرٌ للمقاومة في ذهنه.

- ومن ثمّ، ونظرًا لأنّه حصلت لك رؤيا جعلتك تنتقل من معسكر الأشرار إلى معسكر الأخيار، سوف أُطلقُ عليكَ اسم كائنٍ بشريٍّ حدثت له حكايتك نفسها: إنّه بولس. هل يُزعجكَ إن أسميتُكَ بولس؟

- منْ يكون هذا؟

- إنّه زعيمٌ قاس. كان يضطَهد جماعة يسوع المسيح، وفجأةً، اكتشف أنّه

كان مخطئًا في صراعه فانضمّ إلى المعسكر المنافس الذي أصبح فيه نافعًا جدًّا وفاعلًا جدًّا.

هذه رؤيتي السريعة للعهد الجديد كما اكتشفته في موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة.

غيّر بولس من وضعيته، وباعد بين قوائمه، وتوقّف عن التكشير عن أنيابه، واسترخى. وأخيرًا فتح لي ذهنه وهذا ما سمح لي بالاتصال بذاكرته.

لقد اكتشفتُ ماضيه. وها هو:

في البداية، كان بولس جرذًا بسيطًا في مجاري نيويورك، وكان يعيش في العتمة وبين رطوبة ممرّات شبكة الأقبية التي يستخدمها البشر لطرح فضلاتهم. وقد أمضى طفولته في الخوض وسط الأرجاس في المياه الآسنة. وكان والده قد علّمه أنّ القوّة البدنية هي المعيار الوحيد لقيمة الكائنات. وقد غرس في ذهنه أنّ عليه أن يخضع للأقوى منه وأن يُخضِع من هم أضعف منه أو يقتلهم. وعلّمه كيف يكون أكثر فاعليّةً في ضرباته. قال له: «يجب القضاء على كلّ الذين لا يشبهوننا». هكذا جرت فترة الشباب من عمر بولس، بموجب قانون سحق كلّ ما هو أضعف أو بكلّ بساطة ما هو مختلف.

ومن ثمّ في لحظة ما، توقّفت المجاري عن نقل الفضلات. ذهب أفراد عائلته إلى أنفاق المترو ولكن لم يعد هناك نشاطٌ حتى في ذلك المكان الجديد. أخبرته جرذانٌ من أُسرٍ أخرى بأنّ البشر على سطح الأرض قد قتلوا بعضهم بعضًا.

وحينئذٍ، خرج الفتى بولس، برفقة والده، للمرّة الأولى في حياته من عالمه تحت الأرضي. خرج إلى شارعٍ واسعٍ خالٍ من البشر. رأى ضوء النهار. أوجع ذلك عينيه واستغرق وقتًا طويلًا حتى اعتاد الضوء.

كان البشر الأوائل الذين رآهم عبارة عن جثثٍ ملقاة على الأرصفة. تذوّق لحمهم ووجده تفه النكهة. وإذ مرّر النكهة التفهة الأولى، أحسّ بطعم مرارةٍ في فمه.

وهنا تشكّل رأيه: لم يحبّ البشر.

اكتشف بفضول مدينتهم المهجورة التي لا يعرف منها سِوى أقبيتها.

خرجت جرذانٌ أخرى من كلّ فوهات المجارير وبوابات أنفاق المترو. نظرت بعضها إلى بعض واستطاعت أن تقدّر أعدادها، ووجدتها غفيرة.

لم تستطع الأعداد القليلة من البشر والكلاب والقطط التي كانت لا تزال تتجوّل في الشارع مواجهتها وفرّت حالما ظهرت.

وفي تلك اللحظة بالذات، فكّر بولس بأنّ الوقت قد حان لكي ينتقل إلى الخطوة التالية. وقد تصرّف بشكلٍ منهجي. قال لوالده: «في الحقيقة أعتقدُ أنّك ضعيفٌ ومختلفٌ عنّي»، وقتله. ثمّ، التهم دماغه لكي يحصل على ذكائه.

واستطاع في النهاية أن يفرض نفسه على بقية أفراد العائلة. كان لديه ثلاثة وعشرون أخًا وأختًا. فأخضع بولس أخوته أو تخلّص منهم، وأغوى أخواته. مع الناجين الذين أدركوا حقيقته، فرض سطوته إلى أن توصّل إلى تشكيل مجموعة متماسكة وطيّعة. ومنذ تلك اللحظة، هاجم العائلات الأخرى، وقتل الذكور المهيمنين وأسر الإناث والصغار حتى تمكّن من تشكيل حشده الخاصّ، الذي بفضله راح يقاتل القطعان المنافسة للسيطرة عليها وضمّها تحت سلطته.

ولكي يتغذّى، اصطاد بولس كلّ أشكال الكائنات الأخرى ذات المذاق المتنوّع التي قادها سوء حظّها لمصادفته: فئران، وحمام، وصراصير وحتى كلاب أو قطط.

لم يكن بولس يتواصل مع الحيوانات الأخرى، بل يقضي عليها.

وقد بنت قسوتُه شُهرتَه. ولأنّه كان مرهوب الجانب، وصل إلى مرتبة بارون.

كان في خطّ المواجهة الأوّل في جميع المعارك التي خاضها حشده فوق الأرض. وكلّما قتل أكثر، ازداد حشده رعبًا ونما عددًا.

كان بولس على درجة رهيبةٍ من التوحّش والشراسة، ولكنّه كان يُجيدُ أيضًا أن يصبح مخطّطًا استراتيجيًّا بارعًا حينما يواجه خصومًا يعادلونه قوّةً أو يتفوّقون عليه. في ذكرياته المحفوظة عن المعارك، ثمّة معركة خاضها في مجمّعٍ تجاريٍّ مهجورٍ قاد فيها حشدًا قوامه خمسة آلاف جرذٍ ضدّ حشد

يتكوّن من ثمانية آلاف جرذٍ، وما كان ليحقّق الانتصار في هذه الموقعة الكبيرة لولا قدرته على المناورة السريعة وتحقيق عنصر المباغتة.

وثمّة معاركُ أخرى انتصر فيها بولس واستطاع أن يجعل مجموعته حشدًا مهمًّا في نيويورك في مرحلة ما بعد الانهيار الكبير للحضارة البشرية. في تلك الفترة، كانت هناك ثلاثة عشر حشدًا ضخمًا يضمّ عشرات الآلاف من الأفراد. وكان كلّ حشد يشغل منطقته الخاصّة في جزيرة مانهاتن. وفي تلك الفترة بالذات، وصل السمّ الخفيّ. كانت الجرذان تموت دون أن ينجح أحدٌ منها في معرفة ما يقتلهم.

وكانت هذه هي المرّة الأولى التي تواجه فيه لغزًا كهذا. وغياب الخصم المعروف في مواجهتها أفقدها توازنها أكثر. تقاتلت بعض المجموعات منها فيما بينها فقط للتنفيس عن غضبها في مواجهة هذا التهديد الغامض. كانت تلك مرحلة عصيبة للغاية بالنسبة إلى بولس. نفق أكثر من ثلاثة أرباع حشده.

أصبح في مواجهة خصمٍ أقوى منه.

وقد خلصتْ جرذان القطعان الثلاثة عشر إلى النتيجة نفسها: لا بدّ من الفرار. فقرّرت مغادرة مانهاتن بدل الاستمرار في الموت دون فهم ما يحدث.

هاجرت إلى الضاحية الغربية من نيويورك التي يبدو أنّ السمّ الخفيّ لم يكن نشطًا فيها. ولكن في هذا المكان الجديد أيضًا لم يعد هناك طعامٌ تقتاتُ عليه. ووسط الأنقاض والدمار، كان على الجرذان أن تواجه المطر والرياح والصقور دون أن تتمكّن من الاحتماء بأقبية المدينة.

القطعان القليلة من البقر والخنازير والحملان فرّت حالما ظهرت الجرذان التي لم تستطع حتى أن تعضّها.

في تلك الفترة، كان بولس يعتقد أنّه لن يعود بوسعه أبدًا أن يعود إلى مانهاتن. ومع ذلك كان هناك عددٌ كبيرٌ من الجرذان التي تعتقد بوجود فرصة ظهور موهوبين بينها. وهذا ما حصل بالفعل: ظهر زعيمٌ للحشد أكثر ذكاءً من الآخرين.

اقترحَ منهجًا للخروج من هذا الوضع الكارثي.

1) تحليل أحشاء الجرذان التي نفقت في مانهاتن لإعطائها كطعامٍ للآخرين بكميّات شحيحة. وبهذا ستُخلَقُ مناعة ضدّ السمّ ويظهرُ جيلٌ من الجرذان المتحوّرة المحصّنة ضدّ التهديد.

2) إنشاء مراكز للتخصيب والتكاثر بهدف مضاعفة أعداد هذه الجرذان المتحوّرة المحصّنة القادرة على العودة إلى مانهاتن دون أن تتأثّر بالسمّ.

3) اختيار الأكثر فاعليّة. وقد استفاد من المراكز التي أُرغِمتْ فيها الإناث على الإنجاب بشكلٍ متتال بهدف تحسين المزايا التي بدت له ضرورية للجيل الجديد من الفئران المتفوّقة: وهي الجرذان الأكبر حجمًا والأكثر قوّة عضليةً والمزوّدة بأنيابٍ أكثر حدّةً. ولتنمية هذه النخبة وتوسيعها، شجّع الجرذان الذكور والإناث المتّسمة بهذه المزايا على إنجاب المزيد من الصغار وقضى على كلّ الجرذان التي لا تتناسب مع هذه المعايير. كانت هذه المراكز عبارة عن أشكالٍ من مزارع التربية التي كانت الأمّهات فيها ينفقن من الإنهاك لكثرة ما كنّ ينجبن محاربين. وحدهم الذكور الأكثر عدوانية، من ذوي الأسنان الطويلة، كان يُسمَحُ لهم بالإنجاب. وكانت الجرذان الهزيلة والمسالمة وذات الأسنان القصيرة من الذكور تُحرَم من ممارسة الجنس.

وبهذه الطريقة امتلك هذا الزعيم جيشًا من الجرذان المتحوّرة والمحصّنة والمقاتلة ببراعةٍ. وهذه الجرذان المتحوّرة هي التي خاضت الهجوم لاحتلال مانهاتن.

حينما احتُلّت المدينة، استطاعت الجرذان غير المحصّنة العودة بدورها. وكان بولس أيضًا ضمن هذه الموجة الثانية. وبطبيعة الحال انتُخِبَ الزعيم الموهوب مَلِكًا، وأصبح الزعماء الثلاثة عشر السابقون للقطعان تابعين له.

ما إن انتُخِبَ الملك، حتى طوّر خطّة هادفة إلى زيادة فاعليّة شعبه. شجّع عمليات التزاوج بهدف تسريع السيطرة السكانية الجارية في مراكز الإنجاب. ومن ثمّ، وحالما أصبحت الجرذان في مانهاتن، وباتت تعيش على السطح دون وجود أيّ حيوانٍ مفترس، استفادت من المخزونات الغذائية الهائلة للبشر لكي تنمو وتكبر حجمًا على نحوٍ أسرع. ومن ثمّ أقام مَلِك الجرذان في قاعدة تمثال الحرية. قدّم البارونات له فروض الطاعة والولاء، فتأسّس

بذلك نظامٌ تراتبيٌّ معقّد. كان الشعار الجديد الذي رفعه المَلِك الجديد بسيطًا: *الطاعة أو الموت*.

وقد عمل الجميع معًا على مبدأ الثواب والعقاب الأمر الذي ضاعف من تماسك المجموعة. فُرِض نظامٌ صارم وانضباطٌ محكم. وعوقِب على الفور كلّ من ارتكب خطأً بسيطًا أو ظهرت عليه أدنى علامات التمرّد. وكُلّف كلّ فردٍ واجبَ مراقبة الآخرين والإبلاغ عن أبسط علامات الاستهانة بالسلطة.

وكانت واحدة من الجمل الشائعة وسط الحشد الكبير هي: «منْ لا يبلّغ عن المخطئين مخطئٌ أكثر منهم».

كان المخطئون يُعاقبون على أخطائهم تلقائيًّا بالموت المترافق مع صنوفٍ من التعذيب الرهيب الذي كان المَلِك خبيرًا فيها. ولم يكن يعدم الخيال في هذا المجال لأنّه كان يحبّ رؤية تعذيب أولئك الذين خرجوا عن طاعته أو الذين فكّروا مجرّد تفكيرٍ في ذلك. وكانت من جمله الشهيرة الأخرى هي: «يجب الإبلاغ عن الخطأ قبل وقوعه».

ومنذ ذلك الحين، أصبح بولس، نفسه، أشدّ المتحمّسين للسلطة والمدافعين عنها. وهو من نجح في هدم مبنى إمباير ستيت. ولبلوغه غاياته، اختار الآلاف من الجرذان المسلّحة بالأسنان الأكثر صلابةً. وأمرها بقضم الجدران بأنيابها المجرّدة. أقام نظامًا للتناوب بحيثُ إذا تعبت مجموعةٌ من الجرذان أو ثُلمت أسنانها، استُبدلت على الفور بمجموعةٍ أخرى. كان بولس قد اخترع النظام الضروري لهدم الأبراج.

كما أصبح أكثر قربًا من المَلِك وكسب حقّ النوم بجانب سيّده تمامًا في قاعدة تمثال الحرية. ولذلك حينما وقعت محاولة اغتيال مَلِكه، جرى بأسرع من الجرذان الأخرى وتشبّث بما أمكنه من قوّة لكي يحاول اعتراض الذين تجرّأوا على القيام بهكذا هجوم.

لقد تشبّث بذيلي.

استأنفتُ الحوار بفضل الاتصال بين عينينا الثالثتين اللتين بفضلهما تواصل ذهنانا من خلال ترجمة لغتي القططية مباشرة إلى اللغة الجرذية والعكس بالعكس.

– وحينما وصلت الجرذان الرمادية الفرنسية، تحالف المَلِكان، أليس كذلك؟

– في البداية، اعتقد مَلِكنا أنّه يجب التخلّص من الجرذان الغريبة الأصغر حجمًا والأقلّ تسليحًا منّا بكثير. ولكن المَلِك الفرنسي شرح أنّه يمتلك سرّ النار. فقرّر مَلِكنا الاستفادة من هذه المعرفة التي كنّا نفتقرُ إليها.

– ولهذا السبب جمّعتم الورق لإيقاد النار في برجنا.

– في الواقع هذا صحيح، ولكنّنا لن نتوقّف عند هذا الحدّ، بل سوف نشنّ عملية إحراق جديدة. وهذه المرّة، سوف نصل إلى الأقبية عبر مجارير أبعد مسافةً، لكي لا نُرصَد ولا نُكشَف، ولن نعود نستخدم الورق أو القشّ كمادة حرقٍ، بل سوف نستخدم الوقود الذي نصحنا المَلِك الفرنسي باستخدامه لأنّ المطر لن يتمكّن من إطفائه. ومن خلال متابعة أثار سلاسل العربات المدرّعة التي ذهبت للتزوّد بالوقود، عثرنا على مصفاة النفط. حاليًّا، تتناوب الجرذان على إحضار صفائح الوقود إلى هنا.

توقّفتُ.

إنّها تعكف على التحضير لإيقاد نيرانٍ جديدة في برج الحرية، ولكن هذه المرّة باستخدام الوقود!

ركضتُ لكي أعطي هذه المعلومة لخادمتي ناتالي التي أخبرت بنفسها هيلاري كلينتون بها.

أُعلِن النفير في الحال. أرسل سيلفان طائرة مسيّرة مزوّدة بكاميرا تعمل بالأشعة تحت الحمراء فكشفت لنا أنّ الجرذان قد نجحت في ثقب أحد جدران مرأب السيارات. وبدأت بنقل الصفائح التي جمعتها: أكثر من مئة صفيحة، تناوب الحمّالون على نقلها.

إنّها قوّة العدد.

قرّر الجنرال غرانت على الفور شنّ هجومٍ على مواقف السيارات بهدف لجم هذا التهديد. ولأنّ الجنود لم يستطيعوا استخدام الأسلحة النارية خشية اشتعال النار في الصفائح، لم يتبقّ لهم سِوى استخدام الأقواس والنبال والرماح والنشاب. لحسن الحظّ، كان الهنود الأمريكيون قد كدّسوا ما

يكفي من هذه الأسلحة البيضاء للقيام بعملية واسعة النطاق. ولأنّهم كانوا الأمهر في استخدام هذه الأسلحة، تقدّموا الخطوط الأمامية للمواجهة برفقة المجموعة العسكرية التي تسلّحت هي نفسها بالأقواس والنبال. نزلوا السلالم لكي يصلوا إلى القبو.

هل أذهب معهم إلى هناك أم لا أذهب؟

عاد إلى ذهني مشهد الهجوم على سفينة الأمل الأخير، سفينتنا الشراعية. لم أرغب في المشاركة في القتال ولكن بصعودي إلى أعلى الصاري، سقطتُ في عرض البحر على أكداسٍ من الجرذان.

ارتعدتُ خوفًا لمجرد التفكير في تلك الحادثة.

لمحتُ أنجيلو وأسميرالدا اللّذين رافقا الجنود إلى الطوابق السفلية.

فنزلتُ أنا أيضًا.

كان كلّ طابقٍ ننزله يقرّبنا من العدو أكثر. وصلنا إلى القبو. كان لوحٌ فولاذيٌّ ضخم قد ثُبّت لسدّ باب المصعد.

رُفِعَ اللوح الفولاذي وسرعان ما فاحت رائحة كريهة، هي مزيجٌ من رائحة الوقود والجرذان، في الجوّ وأفسدته.

أتمنّى ألّا يوقدوا النيران في اللحظة التي ننزل فيها إلى القبو.

افتتح شوفال فوغو وخيرة رماته المَسير. ونحن، من خلفهم، لحقنا بهم. وصلنا أخيرًا إلى مرأب السيارات.

في اللحظة التي وضع فيها الجنرال غرانت إصبعه على زرٍّ، خشيتُ أن تؤدّي هذه الحركة إلى حدوث شرارةٍ. ولكنّ الطابق كلّه أُضيء ورأينا الجرذان التي كانت تحمل صفائح الوقود وتشكّل رتلًا. رأينا كلَّ أربعة جرذان تحمل معًا واحدة من هذه العبوات.

لقد قال لنا بولس الحقيقة.

الجرذان التي بوغِتت بالنور جفلت وتركت أحمالها، الأمر الذي أتاح للهنود الوقت لإطلاق سهامهم والإجهاز عليها بسهولة.

أرادت بعض الجرذان أن تقاوم.

مؤثُ:

- يجب سدّ كلّ منافذ مرأب السيارات التي دخلت منها!

ترجمت ناتالي أوامري.

كان البشرُ مذعورين جدًّا بحيثُ لم يفكّروا حتى مجرّد التفكير بهذا الحلّ، تمامًا مثلما حصل على متن السفينة، حيث لم يفكّر أحدٌ برفع المرساة.

لحسن الحظّ أنني هنا معهم.

أشار الجنرال غرانت إلى العديد من جنوده، فرفعوا بعض السيّارات لكي يسدّوا بها الفتحات الموجودة في جدران مرأب السيارات. لم يعد بوسعِ أيّ جرذٍ أن يصل كتعزيزات لرفاقه. ولم يعد يواجه الهنود ولا الجنود صعوبةً في قتل القوارض المتبقية واحدًا تلو الآخر.

تمّ الأمر بسهولة كبيرة حتى إنّ معركةً لم تقع.

حينما قُتِلت الجرذان كلّها، أمر الجنرال غرانت الجنود بالاستيلاء على صفائح الوقود ونقلها لكي تُخزَّن في قمّة البرج.

سألتُ ناتالي:

- لماذا يفعلون هذا؟

- يعتقدُ الجنرال غرانت أنّ هذا الاحتياطي سيكون مفيدًا في إقامة جدرانٍ من النار.

- ناتالي، هل تسمحين لي بالذهاب إلى مقابلة هيلاري في مكتبها؟ وأتمنّى أيضًا إعارتها سمّاعتكِ الأذنية.

لحسن الحظّ، نزلت الرئيسة لكي تنضمّ إلينا.

- السيّدة الرئيسة، أعتقدُ أنّنا تجنّبنا الأسوأ بفضل أسيرنا بالتحديد، الذي أعدناه والذي سمّيناه بولس. إذا ما نجحنا في الحصول على المعلومات الأساسية قبل أن تقع الكوارث، سوف نحظى بأفضليّةٍ جدّية. سوف نستطيع أيضًا أن نحدّد توقيت هجومٍ بعمليّة خاصّة ضدّ المَلِكين مع فرصِ انتصارٍ تفوق الفرص التي أُتيحَت لناً خلال المحاولة الأولى.

لم أوضّح أنّ فرصنا في النجاح كانت كبيرة بل قلتُ إننا أخفقنا بسبب مشكلات «نفسية» بيني وبين أسميرالدا.

– كيف يعمل هذا الجرذ الجاسوس؟

– لقد زوّدناه مثلي بعينٍ ثالثة وكذلك بجهازِ بلوتوث مرسلٍ ومتلقٍّ مزوّدٍ بمترجمٍ فوري. باختصار، الكرة الصغيرة نفسها التي أحملها على جبيني.

– وهل تريدين أن يتجسّس لمصلحتنا؟

– لقد فعل ذلك بالفعل حينما أشار لنا إلى التهديد بصفائح الوقود. وأذكّركِ بأنّ هذا هو ما أنقذنا من هذا التهديد.

فكّرت هيلاري قليلًا قبل أن تقول:

– ممتاز، أنا أوافق على هذه الخطّة. بماذا يمكنني أن أساعدكِ لكي تسير سيرًا حسنًا؟

– في الواقع، مدى مرسل البلوتوث الذي زوّدناه به لا يتعدّى مئة متر. وبالتالي سوف نحتاج إلى أن نجهّز مع سيلفان نظام تقوية من قبل مسيّرة لكي يستطيع التواصل معنا.

– سوف نلبّي لكِ هذا الطلب.

لن أمرّر لها الأمر هكذا.

– هل يمكنني أن أذكّركِ بوعدكِ «المكتوب»؟

– في هذه الحالة، هل أستطيع تذكيركِ بالشروط الدقيقة؟ كان عليكِ إيقاف تهديد الجرذان، وليس فقط توقيف هجومٍ. ولكنني أعترفُ بأنّكِ تملكين خطّة جديدة مهمّة مع بولس هذا. والآنَ، يجب أن تنجح هذه الخطّة. المكافأة تأتي بعد النتيجة، أليس كذلك؟

عند هذه النقطة، رفعت الرئيسة السماعة الأذنية وناولتها لخادمتي لكي تُشير إلى أنّها تُريدُ إنهاء هذا النقاش.

لا ينبغي أن أنجرّ إلى الاستفزاز والغضب في هذه اللحظة.

هيلاري كلينتون ليست سِوى قوّة إعاقة صغيرة في طريق صعودي.

لا ينبغي أن أهدر وقتي في الصراع معها.

عليّ فقط أن أحتويها وأجد الوسائل للتقليل من قدرتها على إلحاق الضرر بي.

ذهبتُ إلى الطابق الرابع والعشرين لكي ألتقي بولس وأنقل إليه أمر مهمّته.

ولكنني اكتشفتُ أنّه لم يعد هناك أحدٌ في المكان الذي تركتُ فيه الجرذ.

شغّلتُ بقائمتي الحاسوب، واخترتُ برنامج تحديد المواقع الجغرافية وتبيّن لي أنّه قد أصبح خارج نطاق التغطية على مدى مئات الأمتار.

لم يعد بوسعنا إذًا أن نتواصل معه ولا أن نعرف مكان وجوده.

لحق بي أنجيلو وأسميرالدا وعرفا الوضع.

قال ابني:

– لقد حذّرتكِ يا أمّاه، لا يمكن الوثوق بجرذٍ.

أضافت القطّة السوداء بنبرةٍ محايدة:

– في هذه اللحظة، لا بدّ أنّه قد وصل إلى جماعته.

انتفضتُ.

أمّا أنا، فما يُثير قلقي أكثر هو أنّه يستطيع من الآن فصاعدًا أن يتّصل بالإنترنت بفضل العين الثالثة. وبالتالي أصبح لدى الجرذان الآن عنصران مثقّفان.

افترضت أسميرالدا:

– إذا كان قد غادر فهذا لا يعني بالضرورة أنّه قد تخلّى عنا، بل ربّما يكون قد باشر بمهمّته من تلقائه.

من اللطف قول هذا الكلام ولكن يجب أن أعلم أنّ احتمال صحّة هذا الافتراض ضئيلٌ جدًّا.

وصل البشر إلى قاعة الحواسيب.

أرسل سيلفان مسيّرة إلى مقربةٍ من تمثال الحرية ونجح في التقاط إشارةٍ.

بولس موجودٌ مع مَلِكه.

حلّل رومان الموقف:

– إمّا ستقتله الجرذان الأخرى أو سوف تستخدمه ضدّنا.

سأل أنجيلو:

- ماما، لقد حاولتِ، ولكنّكِ فشلتِ. لماذا لم تُصغِ إليّ؟

وها هو الآخر يدلو بدلوه!

وددتُ لو أُجيبه بأنّه حتمًا منْ لا يعملون شيئًا لا يخطئون أبدًا ولكن في الوقت نفسه كانت أمّي تقول: «لا تتجادلي مع الأغبياء، فأغلبهم لا يجيدون لا الإصغاء ولا التعلّم».

ولكي أطمئن البشر والقطط الموجودين في القاعة، بمن فيهم أنا بنفسي، قلتُ:

- لقد توصّل بولس إلى معرفة العالم، وهو لم يعد من الآن فصاعدًا كغيره من الجرذان. لقد رأيته مدهوشًا لاكتشافه كلّ هذه المعارف. أنا على قناعة بأنّ هذه التجربة قد غيّرته. لقد ساعدنا بالفعل في إيقاف الهجوم الناري الثاني، وسوف يساعدنا من جديد.

حسنًا، ولكن كلّما فكّرتُ في الأمر أكثر، بدا لي هذا الاحتمال أقلّ حدوثًا. في ذاكرتي، الكائنات لا تغيّر ذهنيتها. أنجيلو على حقّ، مهما نقلنا إليه من معارف وتربية، يبقى مجرّد جرذ، وبدماغ جرذٍ، ويعمل من أجل قضية الجرذان. وبالتالي سوف يستخدم هذه المعرفة ضدّنا.

كيف استطعتُ أن أكون على هذه الدرجة من السذاجة لكي أعتقد أنّه جرذٌ مختلف؟

كيف استطعتُ الاعتقاد بأنّه يمكن أن يمتلكَ جرذٌ نيّةً حسنةً وقلبًا طيّبًا؟ جميع الجرذان متشابهة.

وحدها ناتالي ظلّت إيجابية:

- هناك جانبٌ خيّر في كلّ واحدٍ من بيننا. لقد استطعتِ توعيته. في كلّ الأحوال، لقد منحتِ إمكانية أن يشعّ نوره، والآن هو من سيختار.

حاولتُ أن أتذكّر كلّ ما أخبرني به حول المجتمع المشيّد من قبل مَلِكهم الجديد. مجتمعٌ قاس، قائمٌ على العنف ورفض أيّ اختلاف. هل من الممكن أن يعكس هذه العملية؟

32. قنديل البحر الذي يعكس الزمن

تيورتبسايس نيوتراكولا هو قنديل بحر صغير يبلغ طوله خمسة مليمترات ويعيش في بحر الكاريبي. ما يجعله استثنائيًّا هو أنّه، حتى يومنا هذا، المخلوق الوحيد المعروف بأنّه قادر على التحوّل لاستعادة شبابه.

بفضل ظاهرةٍ تُدعى «التمايز التحوّلي»، بعد بلوغ سنّ الرشد والنضج الجنسي، وهي المرحلة التي يكون فيها وحيدًا، يستطيع أن يعكس عملية الشيخوخة ويستعيد شكله الشبابي السليلي. وتحدث هذه الظاهرة حينما يعيش هذا القنديل حالة من التوتّر، الناجم بشكلٍ خاص عن انعدام الطعام أو حضور عددٍ ضخمٍ جدّاً من الحيوانات المفترسة. وبعد ذلك يستطيع أن يبدأ من جديد بطور الشيخوخة.

لاحظ الباحث الياباني شين كوبوتا في عام 2011 بعض العيّنات التي شهدت حتى عشر عمليات لاستعادة الشباب متبوعة بعمليات شيخوخة.

من الناحية النظرية، هذا يعني أنّ تيورتبسايس نيوتراكولا يتحكّم بمستوى نضجه. غير أنّه يبقى حسّاسًا حيال الأمراض ويكون فريسةً للعديد من الحيوانات المفترسة. وبتأثير الاحتباس الحراري وازدياد الصيد الذي يؤثّر تأثيرًا بالغًا على الحيوانات المفترسة، أصبحنا نشهد عملية تكاثر وازدياد عدد هذا القنديل الصغير الذي يكاد يكون خالدًا.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

33. بولس

إذًا، لقد لعبتُ وخسرتُ.

لا أعرف بالنسبة إليكم، ولكنني حتى أنا أشكّ في نفسي في بعض اللحظات.

في الواقع، هناك القليل من الأمور التي تفقدني توازني.

كرّر ابني على مسامعي:

– الثقة بجرذٍ، يا أمّاه، كيف استطعتِ أن تكوني بهذه الحماقة.

لحسن الحظّ، انتهت نبرة صوته بالانقطاع، ولم أعد أُصغي إليه.

أدرتُ له ظهري، واقتربتُ من النافذة ونظرتُ إلى صورتي المنعكسة على زجاجها.

رأيتُ قطّةً، لم تعد شابّة تمامًا، ذات شعرٍ طويلٍ أسود وأبيض وعينين واسعتين خضراوين. قطّةٌ متعبة. قطّةٌ أخطأت ولكنّها لا تُريدُ الاعتراف بذلك لنفسها.

وماذا لو كان أنجيلو على حقٍّ؟

أعتقدُ أنني أمتلك أفكارًا خلّاقة، ولكنّها في الحقيقة أفكارٌ غير واقعيّة...

وماذا لو كنتُ قطّة تعتقدُ أنّها مهمّة وهي في الواقع ليست شخصًا طبيعيًّا بين الأشخاص الآخرين الطبيعيين؟

أو أسوأ من ذلك: ماذا لو أنني قطّة دون المستوى المتوسّط؟

بعد كلّ شيء، لا أخفي عليكم أنّه يحدثُ لي أن أخطئ في خياراتي، بل ويحدثُ لي أحيانًا أن أكذب، أن أكذب على «نفسي». أصدّق أشياء خاطئة وعلاوة على ذلك أحاول إقناع الآخرين بصحّتِها.

أجل، أجل، أؤكّد لكم هذا.

كيف يمكن وصف هذا الشعور؟

يمكننا أن نسمّيه «عقدة المُنتَحِل».

أعتقدُ أنني مَلِكة، وأُريدُ أن يخاطبني الآخرون بـ «صاحبة الجلالة»، ولكن ربما أكون مجرّد شخص غبيّ، مثلما يقول ابني. أن تكوني مَلِكة، يجب أن تمتلكي قدرات في التخطيط الاستراتيجي وفي الإدارة وفي علم النفس. يجب أن تكوني صاحبة رؤية بعض الشيء، يجب أن تكوني متقدّمة دائمًا على الآخرين، وأنا، هنا، متخلّفة عن الآخرين. أن أخدع الآخرين بتأثيرات السلطة وبتصريحات أو مواقف متغطرسة بعض الشيء، ولكنني لا أخدع نفسي...

وملاحظة ابنِي، المضافةُ إلى نظرته المتأسّفة، أقلقتني وشوّشت ذهني.

ماذا لو عرف حقيقتي؟

لقد أوشكتُ على بلوغ الرابعة من عمري، وربّما حان الوقتُ لكي أتقاعد.

خطرت لي هذه الفكرة العابرة، ولكنّها المثيرة للاضطراب، ومن ثمّ استدرتُ ونظرتُ بثبات إلى أنجيلو من بعيد.

من الناحية الموضوعية، هو أقلّ ذكاءً منّي.

ومن ثمّ نظرتُ إلى أسميرالدا.

إنّها لم تفعل شيئًا سِوى السير ورائي، دون أن تقترحَ خطّة ولا أن تتّخذ مبادراتٍ حاسمة.

جفلتُ وحوّلتُ هذه الحركة إلى نفضٍ لكلّ فرائي.

لستُ كاملة ولكنّهم أسوأ منّي.

نعم، أنا أفضل منهم. لقد أدركتُ أنّه مهما كنتُ غبيّة، فإنّ الآخرين أكثر غباءً منّي بكثير.

زال الشكّ. تذكّرتُ منْ أكون.

أنا «المَلِكة باستيت»، القادرة على خلق تحالفٍ بين العديد من الأجناس، وإقامة مجتمع، وتأسيس جيشٍ قاوم ثلاث مرّات جرذانًا يفوق عددها أضعافًا مضاعفة عددنا.

أمتلكُ قدرةً ذهنية تتيح لي التواصل بشكلٍ بديهي مع أنواعٍ أخرى.

أمتلكُ قدرةً عقلية تتيح لي الاتصال مع الكون لكي أجعل المطر يهطل حينما اشتعلت النيران في برجنا.

لم أسرق لقبي، وقد برهنتُ على أنّني جديرةٌ به.

وبالتالي، مرّة أخرى، أنا على صواب والمعارضون لي على خطأ.

لقد تمّ الأمر، وسأكون أفضل حالًا. ومع ذلك، ظلّت مشكلة بولس. من المفترض أنّه كان الحلّ الذي وجدته لمشكلتنا، والآن ربّما يكون التهديد الأسوأ الذي يواجهنا.

الآن بات لدى الجرذان كائنان يحملان عينًا ثالثة، في حين أننا، منذ مقتل فيثاغورس، لم يعد لدينا سِوى شخصٍ واحدٍ مزوّدٍ بعينٍ ثالثة.

أقبلت ناتالي نحوي وقالت لي:

- عليكِ أن ترتاحي قليلًا. لقد فعلتِ الكثير في محاولة إنقاذنا، ولكنكِ لم تحقّقي النجاح في كلّ مرّة.

فكّرتُ وأنا أنظرُ إليها، ثمّ قلت:

- خلال سرد الجرذ بولس، لاحظتُ أنني لم أكن أعرفكِ هكذا، يا ناتالي. هل يمكنني أن أطرح عليكِ سؤالًا؟ ما هي قصّتكِ الشخصية؟

فوجئت بسؤالي، فسألتني بدورها:

- لماذا تسألينني هذا السؤال؟

- أنتِ «كائنتي البشرية»، وأنا أعيشُ معكِ منذ نعومة أظافري، وفي الحقيقة، لا أعرفُ عنكِ إلّا القليل.

- أنتِ قطّة، ولذلك هذا أمرٌ طبيعي.

- ولكنّكِ الآن حامل، وعليكِ أن تتّخذي خيارًا حاسمًا، في حين أنّكِ غاضبة من والد الجنين، أريدُ أن أفهم وضعكِ وأحاول أن أساعدكِ.

انفجرت بالضحك.

- هل تعدّين نفسكِ طبيبتي النفسانية؟

ألححتُ عليها، محافظةً على رصانتي وجديتي، دون أن أوضّح لها أنّ كلّ هذا هو من أجل ألا أعود إلى التفكير بكارثة بولس:

- أريدُ أن أعرف سرّ علاقتكما الثنائية.

مرّرت يديها بين شعرها لكي تضبّه خلف أذنيها.

- أنتِ تعلمين، هناك بشرٌ يعيشون حياةً زوجية، ويلتقون كلّ يوم، ولديهم أطفال معًا ومع ذلك لا يعرفون بعضهم بعضًا. حتى إنني طرحتُ ذات يوم سؤالًا على صديقة كانت تعيش مدّة عشر سنوات مع الرجل نفسه: هل تستطيع أن تخبرني ما هو لون عيني زوجها؟ وقد تبيّن لها أنّها لا تستطيع الإجابة. لم تعد تنظر إليه وقد نسيتْ! يحدث أن ينادي كلّ منهما الآخر بكلمة «عزيزي» أو «حبيبي» لأنّ كلًّا منهما نسي اسم الآخر.

إنّها تُبالغ، هذه فقط بعض الحالات الخاصّة.

كيف يمكن لشخصين أن يحبّا بعضهما بعضًا دون حتى أن ينظرا بعضهما إلى بعض أو يهتمّ كلٌّ منهما بالآخر.

- أنتِ تعلمين، عند البشر، لا يعني العيش في حياةٍ زوجية أيّ شيء. بشكلٍ عامّ، هناك ثلاثة أعوام من الهيام، ثمّ ثلاثة أعوام من الاستقرار وإدارة شؤون الحياة اليومية، ثمّ يأتي الأطفال وهنا يتحوّل الزوجان في أفضل الأحوال إلى صديقين يعيشان معًا، وفي أسواء الأحوال إلى عدوين، ولكن في أغلب الأحيان، يصبحان في النتيجة شخصين يتشاركان السكن ويتعاونان في إدارة شؤون الأطفال، والتسوّق، ورمي القُمامة.

- وماذا عن الحياة الجنسية؟

- بعد الأعوام الثلاثة من الشغف، يتراجع عدد المرات التي يقيم فيها الزوجان علاقة جنسية بالتدريج. فقط لأنّ الجانب التكراري من العلاقة يجعل الفعل الجنسي أقلّ إثارةً.

بدأتُ أفهم على نحوٍ أفضل أنّه بعد خمسة وثلاثين يومًا من ممارسة الجنس مع فيثاغورس على متن السفينة بدأتُ أتعب (في حين كنّا على اتصالٍ مباشرٍ عبر دماغينا).

- عودي إلى قصّتكِ، يا ناتالي.

فتّشت في حقيبتها وأخرجت سيجارةً وولّاعة وأشعلتها. أنا أكره فعلها هذا، فرائحة الدخان المشوب بالقطران تلتصق بعد ذلك بشعري، ولكنني شعرتُ بأنّها بحاجة إلى هذه الحركة لكي تستجمع أفكارها.

- أنا ولدتُ في عائلة من المهندسين المعماريين. كان والدي مهندسًا معماريًا، ووالدتي أيضًا مهندسة معمارية، بل جَدّي لوالدي كان هو الآخر مهندسًا معماريًا. وأنا طفلةٌ صغيرة، سرعان ما قدّموا لي ألعاب بناءٍ وشجّعوني على بناء بيوتٍ ومن ثمّ أكواخٍ كنتُ ألعب فيها مع أختيّ. كانتا أقلّ اهتمامًا بفكرة بناء البيوت هذه، وكانتا شغوفتين بدل ذلك بالطبّ بالنسبة إلى شقيقتي البكر وبالأدب بالنسبة إلى شقيقتي الصغرى. كانت حياتنا عاديّة، ولكن حدث شيءٌ مفاجئ ذات يوم. أثناء حفلة عائلية، أفرط عمّي غيسلان في الشراب وقال: «هل تعلمين، حينما يقول والدكِ أنّ عليه أن يبقى يعمل

في ورشاته مساء الجمعة، لا يقول الحقيقة! في الحقيقة، هو يذهب إلى نادٍ يُسمّى **ترو دوك**، وهو نادٍ خاصّ بعض الشيء». وهنا راح غيسلان يغمز ويلمز. كنتُ في الثالثة عشرة من عمري. بالنسبة إليّ، كان والدي أفضل مهندس معماري في العالم على الإطلاق، وشيّد جسورًا جميلة بقدر ما هي متينة، ومدارسَ، وملاعبَ، وحدائقَ، وعماراتٍ ذات تصاميمَ مستلهمةٍ من أشكال القواقع البحرية. كنتُ أشعرُ بأنّ هناك شيئًا لا أعرفه عنه. فذهبتُ ذات مساءٍ في يوم الجمعة إلى نادي **ترو دوك**. كانت لافتة النادي تُظهر بطّةً مقابل كلمة **ترو**[1]. انتظرتُ طويلاً أمام باب الخروج من النادي. كنتُ أعلم أنّه يعود إلى البيت نحو الساعة الواحدة فجرًا. ومن ثمّ رأيتُ ما لا يُصدّق: والدي، والدي أنا، وهو يرتدي ثيابًا غريبة للغاية من الجلد الأسود، ويعتمر قبّعةً من الجلد الأسود، ويتزيّن بسلاسل مزركشة. خرج وهو يمسكُ بيد رجلٍ آخر يصغره سنًّا بعض الشيء وله شارب. ودّعا بعضهما بعضًا وهما يتعانقان ويقبّلان بعضهما بعضًا بالشفاه بوضوحٍ.

عبست ناتالي، وسحبت نفسًا عميقًا من سيجارتها وأبقت الدخان وقتًا طويلًا في رئتيها.

– ظللتُ مذهولة. لم أجرؤ على التحدّث عن الأمر مع شقيقتيّ، ولكنني لم أعد أستطيع النظر إلى عيني والدي. تُرى منذ كم من الوقت كان يذهب إلى نادي ترو دوك؟ ظلّ هذا السؤال يستحوذ على تفكيري. أصبحتُ منعزلة ومبتعدة عن الآخرين، لكنّ الجميع اعتقد أن هذا بسبب مروري بسنّ المراهقة. في النهاية، ذات يوم، أخبرنا والدي بأنّه مريض. وسمعتُ حديثًا على الهاتف مع طبيبه وتحدّث عن متلازمة كابوسي. وفي تلك اللحظة، أدركتُ أن والدي مصابٌ بالإيدز.

من جديد، سحبت نفسًا عميقًا من الدخان وأطلقته ببطء.

– هذا مرضٌ مريعٌ ينتقل من خلال العلاقات الجنسية. في ذلك العصر، لم يكن له علاجٌ. بدأ يضعف كثيرًا وينحل وتغطّى جلده ببثورٍ سوداء. مات

1- دوك (Duck) تعني في اللغة الإنكليزية «بطّة»؛ وكلمة ترو (trou) الفرنسية تُلفَظ مثل كلمة (true) الإنكليزية التي تعني «حقيقية».

بعد ذلك ببضعة أشهرٍ وقد حقدتُ عليه كثيرًا لأنّه أخفى علينا حقيقته. ومنذ تلك اللحظة من حياتي، بدأتُ أعاني من نوبات اكتئابٍ، ومن ثمّ من كآبةٍ حقيقية. لم تعد لي الرغبة في أيّ شيء. لم أعد أرغب حتى في غسل يديّ، وأقدمتُ على محاولتَي انتحار. فأرغمتني أمّي على مراجعة طبيبٍ نفساني. خلف نظاراته الضخمة، نظر إليّ بعينيه الصغيرتين اللتين بالكاد رأيتهما. طرح عليّ السؤال التالي: «هل كان والدك رجلًا صالحًا؟» أجبته بأنّه لم تكن هذه هي المشكلة، بل إنّ كونه مثليّ الجنس وأنّه أخفى عنّا ذلك، وأنّه كذب علينا، وأنّ موته بسبب ذلك صدمني كثيرًا. سألني طبيبي النفساني: «حينما كنتِ صغيرة، هل منحكِ الحنان؟» أجبتُ بنعم وأردفت: «ولكن ليست هذه هي المشكلة». استمرّ مع طرح أسئلة أخرى: «هل كان يروي لكِ حكاياتٍ قبل أن تنامي؟ هل كان يضمّك بحنان بين ذراعيه؟ هل علّمكِ المشي والكلام والقراءة؟» وأنا أجبتُ بثبات: «نعم، ولكن ليست هذه هي المسألة، ما هو مزعجٌ بالنسبة إليّ هو أنّه كان يعيش كذبةً!» تابع الطبيب النفساني بثبات: «هل كان يقدّم لكِ هدايا في أعياد الميلاد؟ هل كان يذهب في عطلةٍ معكِ؟ هل كان يساعدكِ في واجباتكِ المدرسية؟ هل أعطاكِ أسبابًا تجعلكِ فخورةً به؟» ثمّ قال لي الطبيب النفساني: «هل قام بواجبه كأب، نعم أم لا؟» أجبتُ بنعم. فختم قبل أن أستطيع إضافة أي «ولكن»، قائلًا: «في هذه الحالة، بأيّ حقٍّ تحكمين عليه؟ ما السبب الذي قد يمنعه من الحصول على المتعة؟ تذكّريه بكلّ ما فعله من إيجابيات لكِ وكفّي عن الحكم عليه». بقيتُ صامتة لا أجيب. في جلسةٍ واحدة، أدركتُ أنّه كان لديّ أفضل أبٍ وأنني كنتُ حمقاء في رغبتي بإدانته.

بعد ذلك لمتُ نفسي على كرهي له، ثمّ شعرتُ بنفحة حبٍّ كبيرة حياله ولم يعد لديّ سِوى رغبة وحيدة: أن تكون حياتي مثل حياته. فأصبحتُ مهندسة معمارية ومثلية الجنس.

أخذت نفسًا جديدًا من السيجارة.

– باغتتني شقيقتاي ذات يوم مع فتياتٍ أخريات في نادٍ يُسمى **لاكاشوتيير**. سخرتا منّي وشعرتُ بأنّ الحكاية تعيد نفسها. ولكن بما أنّه لم يكن لديّ ما أُثبته لنفسي، سخّرتُ نفسي بالكامل لمهنتي كمهندسة معمارية.

بدأت النساء يرهقنني، والتفتُّ نحو الرجال ورأيتُ أنّ هذا «أمرٌ تكميلي»، ثمّ وجدته مثيرًا على نحوٍ متزايد. حينما رأيتِني مع توماس، كانت تلك تجربتي الثالثة في العلاقة مع جنسٍ مختلف في حياتي.

– والآن أنتِ مع رومان.

– «كنتُ» مع رومان.

– ولكن ما الذي تأخذين عليه بالضبط؟

سحبت نفسًا عميقًا من دخان سيجارتها ثمّ قالت:

– لقد سبق أن قلتُ لكِ ذلك: أشعرُ بأنّه سوف يهجرني لكي يذهب مع امرأةٍ أخرى وحينئذٍ سأكون وحيدة، وإذا ما فعل هذا، وأنا متأكّدة من أنّه سيفعل، أفضّل ألا أنجب منه طفلًا.

آه، كنتُ قد نسيتُ ذلك.

– نحن النساء البشريات، لدينا حاسة سادسة حيال هذا الموضوع. حتى إذا كان رومان لم ينتقل بعد إلى مرحلة الإقدام على ذلك، فأنا أرى جيّدًا كلّ النساء الأمريكيات الشابّات والجميلات وهنّ يحمن حوله. لن يستطيع المقاومة لوقتٍ طويلٍ، بينما سأكون أنا حاملًا بطفله!

– ولكن لماذا تقولين طفله «هو»؟ إنّه طفلكِ «أنتِ». ولا ينبغي أن يرتبط تصرّفكِ بتصرّف الآخرين. اتّخذي خياراتكِ بنفسكِ، دون أن تتأثّري بأحدٍ.

نظرت إليّ، مدهوشةً:

– بماذا تنصحينني، يا باستيت؟

يجب أن أزِن كلّ كلمة من كلماتي حتى تكون فاعلة، أنا أدين لها بهذا.

– على الأرجح سوف نموت جميعًا عمّا قريب. في الحياة، ليس هناك سِوى خيارين: «الحبّ» أو «الخوف». اختاري الخيار الأوّل. كفّي عن غيرتكِ، وعودي إلى حياتكِ الزوجية مع رومان، واحتفظي بهذا الطفل. أحبّا بعضكما بعضًا.

– سيكون هذا صعبًا. لم نعد قط نتحاور بعضنا مع بعض.

– حسنًا، لا بأس، إذا ما سمحتِ لي، سوف أتحدّث، أنا، معه.

حدّقت إليّ كما لم يسبق لي أن رأيتها تنظر إليّ بهذه الطريقة. أعتقدُ أنّها للمرّة الأولى منذ أن عشنا معًا، بدأت تدرك الآن منْ أكون. لأننا، في النهاية، نحن أيضًا نعيش حياةً زوجية ونحن أيضًا نهتم بعضنا ببعض كثيرًا. أعتقدُ أنّها أصبحت تُدرك الآن أنّني أستطيع أن أكون مفيدة لها بفضل نصائحي.

– هل ستفعلين هذا من أجلي أنا؟

أجبتُ:

– حاليًّا جدول أعمالي مريحٌ جدًّا ولديّ الوقت الكافي. ولكن هل ترغبين في ذلك؟

رأيتُ أنّها اضطربت. لقد نجحتُ في خلق الشكّ في داخلها، والآن سوف يستطيع هذا الشكّ أن ينمو مثل الفطر.

وحينئذٍ، ولأنني لم أرغب في التفكير أكثر بفشل عملية «بولس»، ولا بالسياسة، ولا بابني، ولا في أن تغمرني من جديد شكوكي بنفسي، رحتُ أبحثُ عن رومان.

ووجدته في الطابق الخامس، وهو طابق قبيلة خبراء المعلوماتية. وجدته يلعب مع سيلفان إحدى ألعاب الفيديو. على الأرجح كان ذلك بهدف الاسترخاء بعد التوتّر الذي أحسّ به.

التقطتُ السمّاعة الأذنية وناولتها له لكي أُفهِمه أنني أريدُ التحدّث معه.

شعرتُ بأنني أزعجته.

– هل يمكنني التحدّث إليكَ، يا رومان؟

– عن بولس؟

– عن ناتالي.

– إنّها غاضبة منّي، ولا أعرف لماذا. على أيّ حال، لقد انتهى الأمر بيننا.

– أنا أعرف لماذا هي غاضبة منك، ولكن قبل أن أُكمِل، أودّ أن أتعرّف أكثر إليك، وأن أعرف حقيقتكَ. كيف كانت حياتك من قبل؟

كانت هذه نصيحة جيّدة من فيثاغورس: الطلب من الناس أن يرووا أسطورتهم الخاصّة.

بدا متفاجئًا بسؤالي.

– بماذا قد تثير قصّة حياة كائنٍ بشري اهتمام قطّةٍ؟

– أوّلًا: أنا لستُ أيّ قطّة عاديّة، أنا باستيت، وثانيًا: أنت لستَ أيّ كائنٍ بشريٍّ عاديّ، أنت رومان ويلز.

ابتسم. ثمّ قال:

– ليس في حياتي ما هو استثنائي أو غريب. أنا أنتمي إلى عائلة ويلز. حينما كنتُ طفلًا، كان والداي يحدّثانني دائمًا عن إدمون ويلز كحكيمٍ لا يُجارى، الرجل الذي ألمّ بكلّ شيء عن كلّ شيء، فقط من خلال مراقبة النمل. كانت له صور شخصية معلّقة في بيتنا. له رأسٌ مثلّث الشكل يشبه إلى حدٍّ ما رأس كافكا. يبدو كأنّه يسخر من كلّ شيء. ثمّ قرأتُ «عمله»، الموسوعة. لا بدّ أنّني كنتُ في الثالثة عشرة من عمري آنذاك، وقد وضعته في المرحاض وكنتُ أفتحه على صفحة بالمصادفة كلّما جلستُ في ذلك المكان الذي لا يزعجك فيه أحدٌ. كنتُ أستطيع البقاء لساعاتٍ طويلة على كرسي المرحاض وأنا أقرأ وأحاول فهم وجهات النظر التي يقدّمها كلُّ مقطع من مقاطع الكتاب. وبهذه الطريقة أصبحتُ متعطّشًا للمعارف. فقد قرأتُ وسافرتُ واكتسبتُ الخبرات. أصبحتُ على ديناميكية متّقدة في مراكمة المعرفة لا سيما أنّ أمّي بدأت تعاني من ثغرات وهفواتٍ في ذاكرتها. وقد شُخِّصَت حالتها: الزهايمر. كان ألويس آلزهايمر رجلًا شريرًا، وكان مرضها مرضًا قذرًا. وكلّما عانت أمّي صعوبة متزايدة في التذكّر، تحمّستُ أكثر لصياغة موسوعتي الخاصّة، موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق. وبعد ذلك، وقد اتّبعتُ بطبيعة الحال منهجًا دراسيًّا علميًّا، درستُ بالتزامن الفيزياء والبيولوجيا والكيمياء وعلم الاجتماع والتاريخ. لم تكن حياتي العاطفية ثرّة. لم أكن أخرج إلى علب الليل، ولم أكن أحتفلُ بالمناسبات كثيرًا، كنتُ باختصار ما يُدعى «عديم الحياة» سِوى ألعاب الفيديو، ولكنني كنتُ مدمنًا على مراكمة المعارف. ثمّ التحقتُ بجامعة أورسيه. وهناك، عرفتُ أخيرًا، وأنا في الحادية والعشرين من عمري، أوّل قصّة حبّ في حياتي. وقد انتهت نهاية سيّئة. ثمّ قصّتي الغرامية الثانية، التي انتهت هي الأخرى نهاية سيّئة.

أصبحتُ مدرّسًا للمادة التي اخترعتها، علم الموسوعات. فكّرتُ أن أعيشَ فقط من أجل حبّي للمعرفة وأن أقلع عن أيّ حياةٍ زوجية حتى آخر عمري...

- وثمّ جاءت ناتالي.

صبّ لنفسه كأسًا من الماء وشربه ببطءٍ.

- ولكنّها تتصرّف مثل الأخريات: لقد ابتعدت فجأةً بدون سببٍ وتنظر إليّ من بعيد نظراتٍ مليئة باللوم والعتب. ولا أعرف حتى لماذا.

قلتُ لرومان:

- إنّها حامل.

تشردق بجرعة الماء التي كان قد ارتشفها للتوّ وراح يسعل.

- ماذا!

- إنّها تنتظرُ طفلًا أنت والده.

- ولكن... ولكن... ولكن، في هذه الحالة، لماذا تهربُ منّي؟

- إنّها تعتقدُ أنّك سوف تهجرها من أجل امرأةٍ أخرى.

- ولكن هذا محال!

- أنت وحدكَ تستطيع أن تطمئنها.

- أطمئنها؟ ولكنّها تهذي!

- ومع ذلك، لا بدّ أن يكون هناك من يقوم بمبادرة نحو الآخر.

أطرق في التفكير وشعرتُ بأنّ العديد من الأفكار المتناقضة تتزاحم في ذهنه.

- كلا، ليس هناك ما أُعاتَبُ عليه، عليها هي أن تخطو الخطوة الأولى.

يا له من غبيّ.

- ربّما الوقت ليس مناسبًا لأن تُظهِر عزّة نفسك.

- أخبريها أن تأتي لكي نتكلّم بعضنا مع بعض.

عدتُ إلى ناتالي في طابقها ورويتُ لها النقاش الذي خضته مع رومان.

- ماذا؟ لا يُريد حتى أن يأتي إليّ! هذا ما كنتُ أعتقده تمامًا. إنّه حقًّا لا يحبّني. لا أفهم لماذا عليّ أن أعود إلى شخصٍ لا يستطيع حتى أن يبذل جهدًا في ظروف كهذه.

يا لها من غبيّة.

لقد بدأ هذان الشخصان يزعجانني بعزّة نفسيهما التي يُظهرانها في المكان غير المناسب.

إذا كان هذا هو الحبّ عند الزوجين البشريين، فأنا أفضّل سلاسة العلاقة الزوجية للقطط.

مررتُ إحدى قوائمي خلف أذني، ثمّ لعقتُ كلّ جسمي.

بشكلٍ عام، بدأ البشر يخلقون لي المتاعب.

حينما أفكّر أنّ ناتالي ورومان يُعَدّان من بين الأكثر ذكاءً بين بني جنسهما، حينئذٍ لا أستطيع تخيّل سير الأمور عند منْ هم أقلّ تقدّمًا.

وقد جعلني كلّ هذا أدرك أيضًا لماذا لا تستطيع جمعية القبائل المئة والاثنتين أن تتّفق أبدًا على رأيٍ واحدٍ. إنّهم يختلفون على كلّ شيء، فقط بسبب غرورهم. إنّهم يعرّفون بعضهم من خلال اختلافاتهم ولا يهتمون بقواسمهم المشتركة. عندما يكون هناك كائنان بشريان يتناقشان، تكون هناك... ثلاثة آراء.

نظرتُ إلى نفسي في المرآة.

حسنًا، ربّما أكون مصابة بجنون العظمة، ولكنني على الأقلّ لستُ مثل كلّ هؤلاء الأفراد «المحدودي الأفق».

أنا قادرة في بعض اللحظات على الخروج من أنانيتي لكي أوسّع منظوري للأمور.

34. الأناتمان في الفلسفة الهندوسية

الأناتمان هي «اللا - أنا». وهذا المفهوم أُنشِئ في الفلسفة البوذية لوضعه في مواجهة مبدأ الأتمان الذي هو النسخة البوذية من مفهوم الأنا.

أراد بوذا بهذا أن يعبّر عن حقيقة أنّ الذات الفردية ليست سِوى اصطلاح. إنّها ليست مؤكّدة ولا موحّدة بل مجرّد مجموعة من الظروف الانتقالية المؤقّتة. والحال أننا ننتهي بتعريف أنفسنا بهذه الحقيقة المطلقة للذات إلى درجة الاعتقاد بأنّها «الذات» الوحيدة.

ومن ثمّ، وبدل أن نضعها موضع التشكيك، نقدّسها ونسعى لإرضائها. وهذا يجعلنا عبيدًا لسيّدٍ نهمٍ لا يشبع. الأنا، أو الأتمان، هي مصدر الرغبة في الاستحواذ والغيرة والعنف.

مفهوم الأناتمان، على النقيض من ذلك، يعني أنّه لا توجد ذات فردية نهائية. وبالتالي ليس هناك أيّ شيء ينبغي خدمته أو إنقاذه أو الخوف منه لأنّه هناك هذا الاحتمال في أنّ النفس ليست لها لا بداية ولا نهاية، بل حتى ليست محدودة بهذا الفضاء.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

35. رحلة ثابتة

كانت أمّي تقول: «حينما لا يحدث أيّ شيء، فهذا يعني أنّ أمرًا رهيبًا على وَشْك الحدوث».

ظلّ المطر يهطل بغزارة.

ما الذي يخطّط له هذان المَلِكان الشريران بمساعدة العديد من جنودهما؟

داخل برج الحرية، لم يكن الجوّ باعثًا للتفاؤل.

كان العدد الأكبر من البشر في الطابق الثامن والستين، طابق قبيلة الهيبيين.

كانوا قد نصبوا فيه تمثالًا ضخمًا لرجلٍ ذي كرشٍ كبير وله رأس فيل. عرفتُ بفضل بحثي في موسوعتي للعلم النسبي والمطلق الشاملة أنّ هذا الرجل هو غانيشا، الإله الهندوسي الذي يقترن اسمه بالأعياد والاسترخاء عند الهندوس.

في هذا الطابق، كان هناك ديكورٌ غريب مصنوع من أعواد البخور والصور الملوّنة التي تمثّل أناسًا لهم شعرٌ طويلٌ يعزفون الموسيقى أو أزواجًا يتبادلون القُبَل.

كان كثيرون يتكئون على الوسائد الموضوعة مباشرةً على الأرض وهم

يدخّنون سجائر تفوح منها رائحة الزهور، ويسمعون موسيقى لم تعد تشبه موسيقى يوهان سيباستيان باخ.

وفي وسطهم، لمحتُ بذهول ابني، وهو يدخّن مع خطيبته الأمريكية. اندفعتُ نحوه.

- ماذا دهاك يا أنجيلو؟ ماذا تفعل؟!

- سوف نموت جميعًا، ولذلك أقضي وقتًا ممتعًا. يا أمّاه، فلتكن على الأقلّ ساعاتي الأخيرة في الحياة سعيدة. إنّنا ندخّن عشبة نَعْناع الهرّ الحقيقي. كيمبرلي هي التي جعلتني أكتشفها. إنّها تمنح الرغبة في الاسترخاء، وتجعلنا نشعر بخفّة كما لو أننا سحابة. والموسيقى تصبح أكثر رخامةً في آذاننا.

- تدخين عشبة نَعْناع الهرّ الحقيقي! ولكن هذه عشبة مخدِّرة!

- اهدئي يا أمّاه، لا تحكمي على ما لا تعرفينه. جرّبيها وسترين كيف هي.

ابني الأهبل، الذي سبق له أن أظهر في الماضي أنّه يتّخذ دائمًا أسوأ القرارات في اللحظة الأسوأ، يريدني صراحةً أن أتعاطى المخدِّرات! يجب أن أجد حجّةً مقنعة.

حاولتُ إقناعه وثنيه عمّا يفعل:

- أعتقدُ أنّه طالما هناك حياة، هناك أمل، وطالما أننا نفكّر، يمكننا أن نصمد. والحال أنني أشعر بأنّ عشبة نَعْناع الهرّ الحقيقي التي تدخّنها هي بالضبط ما يمنعك من التفكير.

- كلّما دخّنتُ أكثر، نسيتُ كلّ ما قد يحبطني ويزعجني. أستسلم للانسجام مع الموسيقى ومع كيمبرلي.

سحب جرعةً كبيرةً من دخان عشبة نَعْناع الهرّ الحقيقي وأخرجه من منخريه. وشرعت خطيبته تلعق كلّ فرائه، ورأيته ينتفض من اللذّة.

- لدى كيمبرلي عبارة حول هذا الأمر: «التخلّي»[1]. كما ترين، يا

1- التخلّي أو التنازل هو مفهوم من التقليد الهندوسي قائم على فكرة التخلّص من السيطرة غير الضرورية ومواجهة المشكلة أو التجربة من خلال التخلّي عنها. المترجم

أمّاه، لقد قاتلنا بأفضل ما استطعنا. وقد فعلتِ أكثر ممّا كان عليكِ فعله. لقد عرّضتِ نفسكِ للأخطار، وكدتِ تموتين، والآن لا جدوى من كلّ هذا. اتركي هذا الانفعال العبثي الدائم، واقبلي بالهزيمة.

أهذا أنجيلو، المناصر الشرش دائمًا للذهاب إلى الحرب، منْ يقول لي هذا؟ اسمعوا ما يقول.

– اتركي كلّ شيء ولا تبالي، دخّني وانسي كلّ شيء...

بدوره، لعق فراء كيمبرلي، التي خرخرت مع شعورٍ بالرضا.

– أنجيلو، أعتقدُ أنّك لم تدرك منْ كانت أمّك...

– كلا، يا أمّاه، أنتِ من لم تفهمي شيئًا. تُريدين أن تسيطري على كلّ شيء، فتعانين بسبب ذلك. تفضّلي انظري إلى هناك، حتى أسميرالدا تُدخّن.

وفي الحقيقة، لمحتُ منافستي السابقة مستلقية بالقرب من كائنٍ بشري يناولها مخروطًا لكي تستنشقه.

ولكن الأكثر إثارة للدهشة، رأيتُ أنّ هيلاري كلينتون تدخّن، هي الأخرى. كانت تسعل وتمزح وتضحك ببلاهة مع الجنرال غرانت.

لقد استسلم الجميع ولكنني لن أستسلم.

لقد قرأتُ في موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة أنّ مبدأ هذه المخدّرات هو طرح دفقةٍ من الدوبامين، الأمر الذي يُحدِثُ تأثيرًا مبهجًا على نحوٍ مؤقّت. ولكن ما إن ينتهي هذا التأثير، حتى يسبّب نقص الدوبامين مفعولًا عكسيًّا وتحدث حالةً من عدم الارتياح تستمر مدّة أطول من مدة الإحساس الأوّل بالبهجة.

لكلّ شيء ثمن. لذّةٌ لوقتٍ قصير تكلّف إحباطًا لزمنٍ طويل.

المخدِّرات تُفسِدُ أيضًا الذاكرة. بعد تعاطيها، لا يعود بوسع المرء أن يتذكّر التفاصيل. وعلاوة على ذلك، وأنا أقرّ بذلك: أنا في الحالة العاديّة مُصابة بجنون العظمة، وبالتالي إذا ما وضعتُ هذا النوع من المواد في دمي، فلا بدّ أنّ هذا سيفاقم الأمور بالنسبة إليّ.

لسوء الحظّ، كنتُ في مرحلةٍ من الشكّ، وبالتالي كنتُ ضعيفة. لقد

صدمني الفشل في مهمّة «بولس» جدًّا. أصبحتُ أشكّك في نفسي بالكامل. وحتى ثوابتي اليقينية بشأن المخدِّرات لم تعد راسخة.

وماذا لو كنتُ مخطئة بشأن هذا الأمر أيضًا؟

ربّما يكون ابني على حقّ، طالما أنني لم أجرّب، لا يمكنني أن أحكم.

– حسنًا، أنا موافقة، قل لي كيف أتصرّف.

– لا بدّ أنّ رومان يمكنه أن يدلّكِ.

في اللحظة نفسها، وصل رومان ويلز شخصيًّا.

حتى هو استسلم؟

شككتُ أنّ تعكّر علاقته مع ناتالي قد أثّر فيه، ولكنني كنتُ أتمنّى أن يمتلك الرغبة في المقاومة من أجل هذا الطفل الموشك على الولادة... ولكن هذا لم يحدث... لقد آثر الهروب من الواقع.

– رومان! هل ستدخّن؟

اعترف العالم الفرنسي:

– الأمر يشبه ما حدث خلال حرب فيتنام. في النهاية، حينما أدرك الجنود أنّ أمرهم قد انتهى، راحوا يتعاطون المخدِّرات لأنّهم لم يعودوا قادرين على مواجهة الحقيقة.

– ولكنّك سوف تصبح أبًا!

قال بلهجة ساخرة لم أعهدها لديه حتى تلك اللحظة:

– كلا، لا أعتقد... سوف نموت جميعًا، طعامًا للجرذان.

هكذا استسلم الجميع.

– هيّا يا أمّاه، هيّا اطلبي منه أن يلفّ لكِ سيجارةً.

ودون أن ينتظر جوابي، أعدّ لي رومان أنبوبًا ورقيًّا مليئًا بعشبة نَعْناع الهرّ الحقيقي المجفّفة.

– أنا أحذّركِ يا أمّاه، هذا يُسبّب بعض الدوخة.

قلتُ برباطة جأش:

- هذا لا يؤثّر عليّ، فقد سبق لي أن شربتُ الشامبانيا.

في تلك اللحظة، شعرتُ بأنّه لو استطاعت كيمبرلي أن تقهقه ضاحكةً، لفعلت، ولكنّها اكتفت بأن نظرت إليّ نظرة إشفاقٍ.

- في هذه الحالة، سترين، هذا يشبه «تقريبًا» الشامبانيا.

دلّني أنجيلو كيف أفعل، وهو يستنشق السيجارة، محتفظًا بالدخان في رئتيه لأطول وقتٍ ممكن ومن ثمّ ينفخه ببطءٍ من منخريه أو من فمه.

قال منتشيًا برؤية والدته تتعاطى المخدّرات معه:

- إذا أردتِ أن تكوني مثل كائنٍ بشري، عليكِ أن تجرّبي.

سحبتُ الدخان فأحرق حلقي، ولم أستطع الامتناع عن السعال.

قالت كيمبرلي:

- هذا هو، انتظري قليلًا قبل أن تأخذي سحبةً أخرى.

وسط دهشتي الكبيرة، بدت لي الموسيقى فجأةً أكثر... رخامةً.

سحبتُ جرعةً جديدة، وهذه المرّة، خفّ سعالي. ثمّ أخذتُ جرعة ثالثة.

لم يكن هذا الدخان مريحًا قط، فقد أحرق حلقي ورئتيّ.

قال أنجيلو بلهجة الخبير:

- بالنسبة إلى المرّة الأولى، من الأفضل أن تتوقّفي هنا، وإلّا فسوف تتقيّئين.

من جهتي، اتّخذتُ وضعية الجلوس واستمعتُ إلى الموسيقى مثلما لم أفعل من قبل.

سألتُ رومان:

- ما هذه الأغنية؟

- أغنية لفرقة ليد زيبلين. وهذه المقطوعة تُدعى «Stairway to Heaven»، وتعني «سلمٌ نحو السماء».

لا أدري إن كان هذا بسبب عشبة نَعْناع الهرّ الحقيقي، ولكنني أعتقدُ أنني في النهاية فضّلتُ فرقة ليد زيبلين حتى على كالاس أو باخ. أغمضتُ عينيّ.

برزت في ذهني أزهارٌ، المئات من الأزهار التي تفتّحت كلّما رنّت نغمة من المقطوعة الموسيقية. ومن الأزهار ولدت فراشات.

سأل أنجيلو:

– هل أنتِ على ما يُرام؟ هل بدأتِ تسترخين، يا أمّاه؟

سمعتُ مقطوعةً جديدة لفرقة ليد زيبلين.

– وهذه المقطوعة، ما اسمها؟

أجابني رومان:

– «كشمير»، وهذه مقطوعة هندية في نمطها. إنّه عزفٌ على آلة السيتار.

ألحّ أنجيلو بالسؤال:

– هل أعجبكِ هذا؟ هذا مريحٌ، أليس كذلك؟

آه! هذا، لكي أرتاح... أشعرُ بأنني نسيتُ كلّ توتّرات النهار وأنّ هذه هي المرّة الأولى التي أصل فيها إلى حالة «تخلٍّ» حقيقية، مثلما قالت كيمبرلي، مأخوذةً بهذه الموسيقى الغريبة، المكرّرة والصاخبة.

التفتُّ نحو رومان.

– من الضروري جدًّا أن تتحدّث مع ناتالي. يجب أن تحتفظا بهذا الطفل. أنا واثقة من أنّ اختلاط جيناتكما سيعطي كائنًا رائعًا. يجب أن يولَد.

– أنتِ لا تعرفينها حقّ المعرفة. ناتالي امرأة قاسية جدًّا. ثمّ إنني تحمّلتُ كثيرًا نوبات غيرتها.

قلتُ:

– إنّها خائفة، يجب فقط طمأنتها.

– لم أفعل غير هذا، ولكنّها مثل برميلٍ مثقوب، لا جدوى من وضع الماء فيه، لن يمتلئ أبدًا. يلزمها على الدوام المزيد من الحبّ، والمجاملات والمساندة، وقد قدّمتُ لها أقصى ما لديّ ووجود طفلٍ لن يمنحني القدرة على تغييرها. على العكس، أشعر بأنّها لهذا السبب بالضبط تصبح أكثر انغلاقًا على نفسها.

لقد بدأت آثار المخدّر تجعلني أدرك أنّني أخطأتُ في محاولة زجّ نفسي في القصص العاطفية للبشر، وبشكلٍ عامّ، بقصص الآخرين. سواء تفاهم

الناس أم لم يتفاهموا فهذا لأسباب غير منطقية ومن العبث الرغبة في إيجاد معنى في العلاقات الزوجية.

وعلاوة على ذلك، دار في خلدي أنّ طموحاتي الخاصّة نفسها ليس لها أيّ أساس، وبالتالي السعي إلى إنقاذ الآخرين هو محض ادّعاء. من أنا حتى أزجّ بنفسي في قصص الناس؟ فجأةً، لم أعد أهتمّ بأيّ شيء ولم تعد لديّ الرغبة في فعل أيّ شيء. أصبح كلّ شيء عندي سواء. رغبتُ فقط أن أسمع موسيقى، وأن أسترخي، وألا أعود أستوضحُ شيئًا.

ظلّ العنصر الإيجابي هو الموسيقى. لقد غيّرت عشبة نَعْناع الهرّ الحقيقي إدراكي السمعي. أحدثت كلّ مقطوعة موسيقية جديدة في داخلي بعض المشاعر التي غمرتني مثلما فعلت لوحات متحف اللوفر سابقًا.

شعرتُ تمامًا بمدى سعادة ابني أنجيلو مع خطيبته الأمريكية، وهما يتكوّران تحت تمثال غانيشا.

انضمّت أسميرالدا إليّ. ماءت تسألني:

– كيف حالكِ؟

– إنّه أقلّ قوّة بكثير مما كنتُ أخشى.

وأنا أقول هذا، فجأةً تقيّأت. ثمّ بعد ذلك، بدا لي كلّ شيء مختلفًا. تحوّل وجه كيمبرلي أمام ناظري ليصبح وجه قطّة صهباء، فتراجعتُ إلى الوراء فجأةً.

ألحّت عليّ أسميرالدا بالسؤال:

– هل أنتِ متأكّدة من ذلك؟

واقتربت وهي تردّد عليّ هذه الجملة. ولكنّ خطمها امتدّ وطال، وأذناها الحادّتان أصبحتا دائريتين وأصبح ناباها نابي جرذٍ.

كنتُ أعلم أنّه لا ينبغي لي أن أقرب المخدِّرات.

ماء أحدهم خلفي:

– إنّها ليست على ما يُرام.

التفتُّ إلى الخلف ورأيتُ أنجيلو بفرائه الأصهب الذي يكاد يكون بلون البرتقال. وقد تحوّل رأسه أيضًا إلى رأس جرذٍ.

ورأيتُ القطط المحيطة بي وقد تدوّرت أفخاذها واستطالت رؤوسها، وامتدت أذنابها المشعرة فأصبحت رفيعة ووردية اللون.

لقد تحوّلت جميعًا إلى جرذان.

أردتُ الفرار واللجوء إلى رومان. كان يدير لي ظهره ولم أر منه إلّا شعره، ولكن في اللحظة التي أدار فيها وجهه، أرعبني منظره، فقد كانت ملامح وجهه نفس ملامح تلك القوارض المرعبة.

كانت للجميع رؤوسُ جرذانٍ.

وتحوّل المواء وصوت البشر إلى صفيرٍ ساخرٍ مزعجٍ وكريه.

أنا الوحيدة التي لم أصبح جرذًا.

لقد حوصرتُ بالأعداء الذين يريدون إيذائي.

لجأتُ إلى ركنٍ من القاعة.

قال أنجيلو وهو يحرّك خطمه الجرذي:

– كأننا نخيفكِ، يا أمّاه.

– لا، لا تقترب مني!

بيد أنّهم اقتربوا منّي كثيرًا وأصبحتُ أرتجف بكلّ جسمي.

قالت أسميرالدا وهي تلوّح بطرف ذيلها الطويل والوردي مثل ذيل جرذٍ:

– لا تخافي، هؤلاء نحن.

– كلا! أنتم جرذان!!!

هربتُ عبر الدرج وصعدتُ الطوابق. تجاوزتُ دون توقّفٍ كلّ قبيلةٍ في كلّ طابقٍ حتى وصلتُ إلى القمّة، في الطابق الرابع بعد المئة.

ولكن هناك أيضًا، رأيتُ في كلّ مكانٍ قططًا وبشرًا لهم رؤوس الجرذان. فخرجتُ بكلّ ما فيّ من طاقة إلى الشرفة، ورغم المطر المتواصل في الهطول، تسلّقتُ البرج الهوائي.

أعتقدُ أنّني تذكّرتُ أنّ هذا الهوائي يُستخدَمُ أيضًا كمانعٍ للصواعق، ولكن في الحالة التي كنتُ عليها، كان الأمر بالنسبة إليّ سواء.

طالما أنّ حياتي سوف تنتهي، فمن الأفضل أن تنتهي بصاعقة بدل أن تنتهي تحت مئات الخطوم المليئة بالأنياب القاطعة.

لمّا وصلتُ إلى قمّة المنبر الصغير جدًّا، نظرتُ إلى الأسفل. كان المكان بالفعل عاليًا جدًّا. ولأنني لم أعانِ من الدوخة، كان التأمّل في نيويورك من هذا العلوّ الشاهق ممتعًا.

ما أقلقني هو أنني لم أعد أتحكّم بدماغي.

ما كان عليّ أن أتعاطى المخدّر.

هنا، أنا بعيدة عن البشر والقطط برؤوس الجرذان الذين جاؤوا للتوّ إلى البرج، وكذلك أبعد من الجرذان التي تزحف على السطح وفي أقبية نيويورك.

رغم المطر، نمتُ في هذا المكان غير الحميم على أمل أن يلفظ دماغي دخان عشبة نَعْناع الهرّ الحقيقي الذي سمّم دمي وذهني.

حلمتُ.

حلمتُ بعالمٍ للجرذان التي سوف تغزو في النهاية كلّ شيء.

رأيتُ حديقة حيواناتٍ.

رأيتُ بشرًا في أقفاص. كانوا عراة ومتّسخين. واستطعتُ أن أقرأ على لافتةٍ: «الأنواع القديمة المنقرضة».

وقد كُتبت، تحت العنوان، عبارة: «لا ترموا لهم الطعام، ولا تنقروا على القضبان لإثارتهم».

وأبعد من ذلك، رأيتُ قفصًا آخر.

«احذر، نوعٌ خطِرٌ. تستطيع القطط أن تعضّ. حافظوا على الأطفال بعيدًا عن مخالبها».

36. المخدِّرات عند الحيوانات

القطط حسّاسة بوجهٍ خاصّ حيال عشبة نَعْناع الهرّ الحقيقي (وهو يُسمى أيضًا القطرم الحقيقي أو نَعْناع القطط). تُطلق هذه العشبة جزيئًا يؤثّر على جهازها الهرموني. حينما تتعاطاها، تعاني من هلوسات وتبدأ بتقليد الطرائد وتتمطّى وتركض ويسيل لعابها.

يمضغ النمر المرقّط عشبةً تدخل بشكلٍ خاصّ في تركيبة جرعة من مشروب أياهواسكا المهلوِس، الذي يستخدمه السحرة الشامان في منطقة حوض الأمازون لتحصل لهم رؤية. تحتوي هذه العشبة على ثنائي ميثيل التريبتامين، وهو مؤثّرٌ عقلي قويّ.

يرعى الضأن البري الكندي بشكلٍ طبيعي نبتتين: نبتة الأستراغالوس (القتاد) والأوكستروبيس، ويتناول كميات كبيرة منها إلى درجة التسمّم بها.

وتستهلك أيائل الرنّة نوعًا من الفطور المهلوِسة، مثل أمانيت الذباب، التي تسبّب لها نوعًا من الثمالة وتجعلها تركض عشوائيًّا في أيّ اتجاهٍ. ويحدث أن تشرد بعض أيائل الرنّة وتضيع أثناء هجرتها لهذا السبب. والأنكى من ذلك هو أنّها تشرب بول الأيائل التي تستهلك هذه الفطور لكي تشعر بتأثيرات غير مباشرة.

في أفريقيا، ترعى الفيلة أوراق شُجيرة صغيرة تُدعى إيبوجا. وهي تمنحها الرغبة في تحريك خراطيمها يمينًا ويسارًا بقوّة تتزايدُ تدريجيًّا.

في أستراليا، تُغرَم حيوانات الوَلَّب، وهي من سلالة الكناغر، بأزهار شقائق النعمان (المستخدمة في صنع الأفيون). وحينما تتناوله، تدور حول نفسها دون توقّف. في مدغشقر، تمضغ حيوانات الليمور حمراء الجباه حريشًا عاضًّا سامًّا قبل أن تفرك فتحة شرجها بالعصير الناتج، الأمر الذي يتيح لها أن تتعالج من هجمات بعض الطفيليات. ولكن هذا الدواء يسبّب أيضًا السرطان. تلتقط بعض طيور الجواثم في كندا ثمارًا مخمّرة إلى حدّ الثمالة.

تلتهم الدلافين نوعًا من السمك يُدعى القراض وتعصره في فمها لكي تستخرج منه الذيفان الرباعي (وهو سمٌّ قاتل للبشر شديد الفاعليّة). ومن ثمّ تخرج لسطح الماء، مفتونةً بانعكاس صورتها.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

37. الهبوط

استيقظتُ بتأثير شعاعٍ دافئٍ من الشمس.

لاح الفجر في الأفق خلف العمارات الشاهقة.

رأيتُ أيضًا بشرًا يدخّنون السجائر فوق السطح؟

لم يكن هذا حلمًا، إذًا.

كنتُ لا أزال أعاني من جرّاء الرحلة السيّئة الناجمة عن عشبة نَعْناع الهرّ الحقيقي التي دخّنتها مساء اليوم الفائت.

ومن مكاني في الأعلى، تأمّلتُ هذه المدينة التي بدأت تُرعبني أكثر بكثير مما فعلت باريس في أي وقتٍ مضى.

شعرتُ بأنّه يجب عليّ أن أتذكّر شيئًا مهمًّا، ولكن ربّما بسبب العشبة، نسيتُ ما هو هذا الشيء المهمّ.

أهو شيءٌ يتعلّق بهذه المدينة؟

يا للهول. لقد أصبح الطقس جيّدًا، وهذا يعني أنّ الجرذان ستتمكّن من معاودة إيقاد النيران في البرج.

نزلتُ من الهوائي وانضممتُ إلى الآخرين من القطط والبشر، الذين استفادوا من الليل لكي يستعيدوا قواهم.

كان أنجيلو هو أوّل من يتوجّه إليّ بالحديث.

– ماما! لقد بحثتُ عنكِ في كلّ مكان. اعتقدتُ أنّ مكروهًا قد أصابكِ.

لم أكلّف نفسي حتى عناء الردّ على ابني، وواصلتُ سيري في طريقي لأذهب إلى الطابق الخامس، طابق خبراء المعلوماتية.

سأل أنجيلو الذي لحق بي:

– ولكنّكِ حصلتِ على قسطٍ من المتعة، أليس كذلك يا أمّاه؟ آملُ ألّا يكون هذا قد أشعرَكِ بالاشمئزاز.

لم أعد بحاجة إلى البحث عن مبرّرات حتى لا أرغب مرّة أخرى في تعاطي هذه العشبة المخدِّرة!

لقد أقلعتُ عن فكرة أن أجرّب تدخين أشياء غريبة، وقرّرتُ عدم الإصغاء إلى نصائح ابني بشكلٍ عامّ.

ظللتُ أشعر بالغرابة.

ظللتُ أعاني من الدوخة والشعور بالغثيان.

لن أعود أبدًا إلى تدخين عشبة نَعْناع الهرّ الحقيقي هذه.

لن ألمس أبدًا مادّةً مخدِّرة تُفسِدُ قدراتي الإدراكية.

لن أهرب أبدًا من الواقع.

نظّفتُ نفسي لكي أُزيل كلّ جزيئات هذا السمّ الذي التصق علاوة على ذلك بوبري.

لعقتُ نفسي بأقصى درجات الشراسة بحيثُ أردتُ أن أزيل ذكرى هذياني وذعري.

شعرتُ بوخزٍ في لساني وصداعٍ في رأسي.

مررتُ أمام الطابق الحادي والسبعين، الذي أسكنَ الجنرال غرانت قبيلتَه من الجنود فيه.

إنّه الطابق الأكثر نظافةً والأرقى تنظيمًا.

ثمّ ذهبتُ إلى الطابق التاسع والستين، طابق الفرنسيين. وجدتُ أنّ ناتالي لا تزال مستلقية.

ذهبتُ والتصقتُ بخادمتي. ولكي أباشر الحديث معها، قلتُ:

– والآن لم يعد هناك سِوى انتظار الموت.

أجابت ناتالي لكي تطمئنني:

– لا أعتقد أنّ بولس قد خاننا. أعتقدُ أنّه عاد ولأنّ جميع الجرذان رأت عينه الثالثة، قتلته.

– شكرًا لأنّكِ تحاولين أن ترفعي عنّي كلّ شعورٍ بالذنب.

ثمّ وجهّت إليّ ملاحظةً:

– نحن نفعل أفضل ما بوسعنا ولكن ليس لدينا أيّ ضمانٍ للنجاح.

تركتُ بضع ثوانٍ تمرّ، وأنا أراقب الفرنسيين. كان بعضهم يرقصون.

- لقد تحدّثتُ مع رومان، وهو يحبّكِ ويريد الإبقاء على الطفل.

- هل أخبرتِه بأنني حامل؟!

- أنّا أحبّكما، أنتما الاثنين، كثيرًا. لقد تبيّن لي أنّكما تعانيان من مشكلة في التواصل، ولذلك فكّرتُ في أنّه يجب عليّ أن أساعدكما في أن تتحاورا بعضكما مع بعض.

- ولكن لا شأن لكِ بهذا!

نهضت ودفعتني. فاجأني ردّ فعلها. لم يسبق لي قط أن رأيتها قاسية إلى هذه الدرجة معي.

هل هكذا يُكافأُ من يحاولون إصلاح ذات البين؟

- من تحسِبين نفسك؟! لستِ إلّا قطّة، ولا يحقّ لكِ أن تزجّي بنفسكِ في قصصنا نحن البشر!

- ولكن...

- قطّتي المسكينة باستيت! هل تريدين حقًّا أن تعرفي رأيي فيكِ؟ أنتِ قطّة على غطرسةٍ لا تُصدّق. لا شيء يعادل عجرفتكِ سِوى عجزكِ عن النجاح. أنتِ أمٌّ سيّئة، ورفيقة سيّئة، وقطّة سيّئة! ولكن من تظنّين نفسكِ؟ تريدين أن تقودي المجتمع ولا تفعلين سِوى إشاعة الفوضى والاضطراب!

نهضت وابتعدت، واضعةً حدًّا لحوارنا. تنهّدتُ بحسرة. عادت إلى أذهاني مقولة لأمّي: «المشكلة هي أنّه عندما نريد مساعدة الآخرين فهذا لأنّهم، في غالب الأحيان، يطلبون المساعدة ولكنّهم في الواقع لا يريدون أن نساعدهم مساعدة حقيقيّة. لماذا؟ لأنّهم يتماهون مع هذا الوضع ويعرّفون عن أنفسهم كأبطالٍ يواجهون المحنة. وإذا ما أَزَلتِ هذه المحنة من حياتهم، لن يعودوا أبطالًا لأسطورتهم الخاصّة. ولذلك فكّري قبل الرغبة في مساعدة الآخرين، واطرحي على نفسكِ السؤال التالي: هل سيكون بوسعهم أن يتسامحوا معكِ على محاولة مساعدتهم؟»

كانت أمّي ملمّة بكلّ شيء. وفضلًا عن ذلك، كانت تمارس معرفتها

عمليًا لكونها لم تكن تساعد أحدًا على الإطلاق. أنا شخصيًا، أتذكّر أنّه في طفولتي الباكرة كنتُ أعرف دائمًا أنني لن أستطيع الاعتماد على والديّ: لا أستطيع الاعتماد على والدي لأنّه رحل بعد أن حبلت أمّي منه، ولا أستطيع الاعتماد على أمّي لأنّها كانت بكلّ بساطة أنانيّة. وأنا تكوّنت شخصيتي بفضل هذا الواقع. الآن، وتحت التأثير السلبي للبشر، بدأتُ أصبح عاطفيّة. أشعر بألم الآخرين، وهو يمسّني ويزعجني، وباتت مساعدة الآخرين نوعًا من التحدّي بالنسبة إليّ.

بيد أنني اكتشفتُ حدود هذا النظام.

ليس من السهل أن يساعد المرءُ الشخصَ القريبَ منه.

فانزويتُ بنفسي وحيدة في ركنٍ من طابق الفرنسيين، ونسيتُ الموسيقى والناس الذين كانوا يرقصون، وبدأتُ آكل فخذ جرذٍ وأنا ساهيةٌ حالمة.

كما كان يقول المَلِك سليمان في الكتاب المقدّس: «باطِلُ الأباطيلِ، الكُلُّ باطِلٌ».

وبينما كنتُ أفكّر في الكتاب المقدّس عاد إلى أذهاني مشروع الكتاب المقدّس للقطط بروح سفر التكوين. يمكن للكتاب أن يُقلع بهذه العبارة:

«في البدء...»

وفي اللحظة نفسها، سمعتُ صوتًا من بعيد يصيح:

- باستيت!

إنّه البروفيسور رومان ويلز.

سيسألني عن أمرٍ ما، ولكنني فهمتُ الدرس: يجب أنّ يحلّ كلّ شخص مشكلاته بنفسه.

جاء إليّ.

سوف يحدّثني أيضًا عن طفله القادم. وسيطلب منّي على الأرجح أنّ ألحّ على ناتالي بهذا الشأن. ولكن لديّ كرامتي، وقد بذلتُ أقصى جهودي، ولم يعد بوسعي فعل أيّ شيء.

رأيتُه قلقًا ويلوّح بيده وقلتُ في نفسي ربّما سيكون عليّ أن أتّخذه كاتبًا خاصًّا لدي.

- باستيت! أين باستيت؟ أين باستيت؟

يبقى أكثر لطفًا من ناتالي. ربّما لن يطلبَ مني أن أتعلّم قبل كلّ شيء الكتابة. نعم، يمكنني أن أتّخذه كاتبًا لدي.

«في البدء كانت...»

رآني. لم أكلّف نفسي حتى عناء المواء.

- بسرعة، تعالي، يا باستيت! اتبعيني!

- ماذا هناك؟ إذا كان الأمر يتعلّق بناتالي، فقد سبق أن حاولتُ معها ولم يسفر ذلك عن شيءٍ يُذكَر.

- بولس!

بولس؟

هرولتُ عبر الدرج خلف رومان. ذهب إلى الطابق الخامس.

قال سيلفان الذي بدا في غاية الانفعال أمام شاشة حاسوبه:

- لا يريدُ التحدّث إلّا معكِ.

- ما الذي حدث؟

- في الواقع، بعد فرار بولس، استطعتُ أن أتابعه بفضل المرشد اللاسلكي المزروع في عينه الثالثة. وبالتالي، أبقيتُ على مسيّرة تحوم باستمرار فوق تلك المنطقة. كان المرشد اللاسلكي لعين بولس تُرسل إشارات انطلاقًا من قاعدة برج الحريّة. ومن ثمّ، تلقّيتُ هذا الصباح رسالةً مكتوبةً تُرجِمَت كالتالي: «أُريدُ التحدّث إلى باستيت». ولذلك طلبتُ من رومان أن يذهب للبحث عنكِ لكي تحضري إلى هنا.

جلستُ في أريكةٍ.

أوصل سيلفان مكبّر صوتٍ لكي يستطيع الأشخاص المحيطون بنا سماع الحديث.

- طاب نهارك يا بولس. هل أردتَ التحدّث إليّ؟

- باستيت، لدي ما هو جديد لأخبركِ به. لا بدّ في البداية أن أشرح لكِ ما حدث. حينما عدتُ إلى جماعتي، اشتبهوا في أنني جاسوسٌ لمصلحتكم. أرادوا أن يقتلوني. ولكنني اتّخذتُ تيمورلنك شاهدًا، وأقنعته بأنّ وجود

جرذٍ آخر مزوّدٍ بعين ثالثة له فائدة كبيرة لجماعة الجرذان. ثمّ أخبرتهم بأنني أستطيع أن أصبح عميلًا مزدوجًا. أي أنني أتظاهر بأنني معكم، ولكنني في الحقيقة سألعب لعبة مزدوجة. وهنا، أخبرتهم بأنني أستطيع الاتّصال بكِ وتزويدكِ بمعلومات خاطئة سوف تنشر الذعر في أوساطكم وتدفعكم للاستسلام. جرى نقاشُ بين آل كابوني وتيمورلنك حول وضعي. كان تيمورلنك في غاية السعادة بميزتي الجديدة، ويقول إنّني كنزٌ ثمين لأنّه إذا ما مات هو بعد الآن فسوف يكون هناك جرذٌ آخر يمكنه الاتصال بالإنترنت.

تبًّا. لقد نجح بولس.

– وبماذا أجبتَ؟

– قلتُ يمكنهم الاعتماد عليّ. رويتُ لهم كلّ ما رأيتُه في برجكم. كشفتُ لهم عدد البشر الموجودين في البرج ولكن أيضًا عدد القطط والكلاب.

شاركني رومان حماستي، ولكن الحال لم يكن كذلك لا بالنسبة إلى ناتالي ولا بالنسبة إلى الآخرين، الذين ظلّوا مرتابين في الأمر.

– نعم... وبالتالي ما هي المعلومة الخاطئة التي عليكَ أن تزوّدنا بها لكي تنشر الذعر وسطنا وتدفعنا إلى الاستسلام؟

– سوف يضعون متفجّرات في أقبية برجكم.

تلا ذلك صمتٌ استمرَّ لوقتٍ طويل.

– وهل هذا صحيح؟

– جزئيًّا نعم. في الواقع، بعد فشل الحرائق، التي أوقِدَت بالورق ومن ثمّ بالوقود، بحث تيمورلنك عن شيءٍ أكثر فاعليّةً وتذكّر تركيبة بارود المدافع التي رآها على الإنترنت عندما كانت هذه التركيبة لا تزال مستخدَمة: كربون + كبريت + ملح صخري.

تحلّق حولي ما يقرب من عشرين شخصًا بشريًّا من بينهم هيلاري كلينتون، والجنرال غرانت، وناتالي، وبعض ممثلي القبائل.

سألتُ:

– هل سيقومون بتفجير برجنا؟

أجاب بولس:

- نعم.

ولكنّك قلت أنّ هذه «معلومة خاطئة» لكي تثير الذعر فينا وتدفعنا للانهيار، أليس كذلك؟

- تمامًا.

قلتُ وأنا متمسّكة بالأمل:

- هذا ليس صحيحًا إذًا، أليس كذلك؟

- حسنًا... الحقيقة أنّهم وجدوا الكربون والكبريت وقد بدأوا بتخزينهما بكميات كبيرة. ولكن ينقصهم الملح الصخري.

لا أدري إن كان عليّ أن أفرح لهذه المعلومة.

- وبالتالي... هل هذا يعني أنّه ليس هناك ما نخشاه؟

- حتى الآن في الواقع، إذ ليس بوسعهم تفجير برجكم. ولكنّهم يبحثون عن الملح الصخري.

- وبالتالي، علينا نحن أن نُصاب بالذعر بسبب هذه «المعلومة الخاطئة». ما الذي يجب أن نفعله لإظهار ذلك؟

- الرحيل. ولكن حالما تجتازون العتبة، سوف يقتلونكم.

- شكرًا لأنّك أخبرتنا، يا بولس. ولكن إذا ما فهمتُ الأمر بشكلٍ صحيح، من أجل مواصلة تأمين الغطاء لك، يجب أن نتظاهر بالرحيل، هل هذا صحيح؟

- نعم، هذا صحيح.

قطعتُ الاتصال مع لاقط الصوت.

نظرتُ إلى رومان وسيلفان اللّذين فهما بدورهما الوضع.

قال الأوّل:

- لقد أوهمهم بأنّه عميلٌ مزدوج.

أضاف الثاني:

- لا شيء يضمن لنا أنّه ليس عميلًا «ثلاثيًّا».

تدخّل أنجيلو:

- بولس يخدعنا، إنّه معهم. إنّه جرذٌ.

وافقته أسميرالدا الرأي:

- ابنكِ على صواب. لا يمكن الوثوق بجرذٍ.

قالت ناتالي بدورها:

- يمكننا أن نقدّم لهم المعرفة، ولكن لا يمكننا أن نعرف كيف سيستخدمونها.

قلتُ:

- أنا أعتقد أنّ وصول أحدهم إلى المعرفة يجعله... أفضل.

سأل رومان:

- أفضل لمنْ؟ لنا أم لهم؟

- نحن من قدّمنا له هذه الهدية، عليه أن يكون ممتنًّا لنا على ذلك.

وفي اللحظة التي تفوّهتُ فيها بهذه الكلمات، تذكّرتُ أنّ هذا العالم ليس فيه غير الجحود وأنّ الذين يسدون الخدمة للآخرين لا تُحسنُ مكافأتهم على صنيعهم بشكلٍ عام.

سأل بولس:

- باستيت؟ هل ما زلتِ على الخطّ؟

- نعم، اعذرنا. إذًا، لقد وافق تيمورلنك على... تحوّلك، بل وهنّأكَ على ذلك. الآن وقد أخبرتنا بأنّك قد كشفتَ لهم ما عرفته عن داخل البرج لكسب ثقتهم... اممم... هل يمكنك أن تخبرنا بما يجري داخل قاعدة تمثال الحرية؟

- يُريدون قتلكم. لا يفكّرون بغير هذا الأمر.

- ولكنّك قلتَ لنا إنّه في الوقت الراهن طالما لم يعثروا على الملح الصخري، ليس بوسعهم أن يفعلوا شيئًا.

- في الواقع، يتوقّف مصيركم على ذاكرة تيمورلنك. لقد أخبرنا بأنّه قد قرأ أين يمكن العثور على الملح الصخري حينما اتّصل بالإنترنت، ولكنّه لم يعد يتذكّر المعلومة بالضبط.

- باختصار، مصيرنا معلّق بذكرى سوف تنجح في الانبعاث في ذاكرة جرذٍ أو تخفق في ذلك...

في قاعة الحواسيب، نظرنا جميعًا بعضنا إلى بعض، ونحن لا نعلم تمامًا إن كان علينا أن نهنّئ أنفسنا أو نقلق بشأن هذه المعلومة.

استأنفتُ الحديث.

- هل يمكننا أن نكلّفك بمهمّةٍ، يا بولس؟

- أنا أصغي إليكِ.

قلتُ على نحوٍ مباغت:

- هل تستطيع قتل تيمورلنك؟

أجاب الجرذ الجاسوس:

- الأمرُ ليس سهلًا. إنّه لا يثقُ حتى بي.

شعرتُ بأنّه يجب أن أجد فكرةً.

أنرني يا عقل فيثاغورس. ماذا كنتَ ستفعل لو أنّك في مكاني الآن؟ كيف يمكن استخدام هذا الجاسوس المدسوس لدى العدو؟

اقترحتُ عليه:

- وماذا لو ألّبتَ كلًّا من المَلِكين ضدّ الآخر؟ هل يمكنك أن تحاول ذلك، يا بولس؟

فكّر الجرذ لثوانٍ، ثمّ أجاب:

-نعم، يمكنني أن أحاول القيام بهذا. في الوقت الراهن، يسرد علاقتهما التفاهم وهما متّحدان ضدكم، ولكنّهما مع ذلك زعيمان مغروران جدًّا.

- نحن نعتمد عليك، يا بولس. ليس فقط مستقبلنا نحن، بل مستقبلُ الجميع بين قوائمكَ ورهنٌ بمواهبك الجاسوسية.

انقطع الاتصال.

قال الجنرال غرانت، الذي تابع حديثنا:

- بولس يخادعنا! ففي النهاية، ليس هناك أيّ سبب يجعله يساعدنا. على العكس تمامًا، لقد أخبرنا بنفسه بأنّه من خلال إخافته لنا يدفعنا إلى

محاولة البحث عن مخرجٍ من هنا. بسببه هو، ربّما سنعرّض أنفسنا إلى خطرٍ حقيقي لكي نهرب من تهديدٍ زائف.

ذكّرنا رومان:

– لقد كشف لنا أنّ لديهم الكربون والكبريت وينقصهم الملح الصخري.

تحدثّ البشر الآخرون فيما بينهم.

– لقد قال إنّه معنا.

– يلعب على ثلاثة حبال.

– يكذب.

– إنّه جرذ.

– شعرتُ بأنّ كلّ شيء يصبح أكثر تعقيدًا بسرعة كبيرة.

قالت هيلاري كلينتون:

– لا يمكننا أن نعرّض أنفسنا للخطر. علينا أن نخلي البرج قبل أن يحصلوا على الملح الصخري. سوف نستغلّ هبوط الليل لكي نفرّ من هنا. وفي حال اكتشفوا أمرنا، سوف ندافع عن أنفسنا بأسلحة الجنرال غرانت.

مؤتُ:

– هذا هو بالضبط ما يريدون أن نفعله، كما أخبرنا به بولس!

هزّ العسكري رأسه.

– الرئيسة كلينتون على صواب. سوف نتكبّد بعض الخسائر ولكن هذا أكثر منطقية من أن ننتظر إلى حين تفجير قاعدة البرج وبالتالي ينهار كلّ البناء دون أن نتمكّن حتى من القتال. لا تزال لديّ بعض الأسلحة الرشّاشة، وبعض قاذفات اللهب. والهنود لديهم الأقواس والنبال. يمكننا أن نقتل ما يكفي من الجرذان لكي نتيح الفرصة لبعضٍ بإخلاء البرج. أعتقدُ أنّنا نستطيع أن ننقذ عددًا معقولًا...

توقّف كما لو أنّه يجري تقديرًا للعدد.

–... لنقل... عشرين بالمئة من جماعتنا.

قال رومان ويلز مدهوشًا:

– وبالتالي سيكون لدينا خسائر بنسبة ثمانين بالمئة! وهذه نسبة كبيرة جدًّا.

ردّ الضابط:

- هذا أفضل من نسبة مئة بالمئة.

قلتُ:

- كلا، لا ينبغي إخلاء البرج. يجب أن نتظاهر بذلك، ولكن لا نقوم بذلك بالفعل... في كلّ الأحوال، ليس الآن.

سألت هيلاري كلينتون، التي ازدادت قلقًا لحظة بعد أخرى:

- ما الذي سنفعله إذًا؟

قلتُ:

- سنضع ثقتنا في بولس.

ولكن البشر لم يأخذوا توصيتي بالحسبان. تسارعت وتيرة حديثهم، وارتفعت نبرتهم، وفي النهاية قرّروا القيام بما هو الأكثر عبثيةً والأقلّ فاعليّةً: عقد اجتماع لجمعية القبائل المئة والاثنتين لإجراء نقاشٍ ديمقراطيٍّ.

بعد مضي عشر دقائق، في قاعة الجمعية، بلغ التوتّر ذروته. وكعادتهم، لم يكن لدى البشر سِوى ردٍّ واحدٍ في مواجهة الأخبار السيّئة، وهو التجادل فيما بينهم بدل التوحّد في سبيل إيجاد حلولٍ بفضل خيالهم.

أشرتُ إلى ناتالي لكي ترفعني إلى كتفها. تردّدت لأنها بدت لا تزال غاضبة منّي (بسبب محاولتي إنقاذ حياتها الزوجية!) ولكنّها قبلت في النهاية بأن أصعد على كتفها.

قلتُ لها:

- أعتقد أنني بدأتُ أتعب. ربّما يكون هذا بسبب تقدّمي في العمر.

- لستِ مسؤولة عن كلّ ما يحدث للعالم. في كلّ الأحوال، في الوقت الحالي، لا يمكن فعل شيء سِوى الانتظار والدعاء.

- أنا أعتمدُ على بولس.

- أنتِ تتوقّعين الكثير من جرذٍ.

- إنّه ليس جرذًا عاديًّا، إنّه جرذٌ قمتُ بتثقيفه شخصيًّا.

أجابت سيّدة من بين البشر:

- ولكنّه يبقى جرذًا.

نظرتُ إلى جمعية هؤلاء الممثّلين للقبائل المئة والاثنتين، الذين يكرهون بعضهم بعضًا ويعبّرون عن ذلك بوضوح.

– اعذريني يا باستيت على ما بدر منّي منذ قليل. لم أفكّر بما قلته. أنا أعرف أنّ نواياكِ طيّبة. أنتِ مثل طفلٍ يريدُ أن يُصالح والداه بعضهما بعضًا. في الماضي، عندما كنتُ صغيرة، كنتُ أعتقدُ أنّ المرء حينما يشيخ سوف يزداد فهمًا للأمور، ولكن هذا اعتقادٌ خاطئ. مع مرور الزمن، بدأتُ لا أبالي بأيّ شيء. قبلتُ بالعالم كما هو عليه، ولم أعد أريدُ تغييره.

– حسنًا، أنا لا أُشاركُكِ نزعتكِ القَدَرية، يا ناتالي. أعتقدُ أنّ أيّ شخصٍ عندما يقرّر تغيير العالم يستطيع النجاح في ذلك.

رغبتُ في أن أُضيف أنّ عليها أن تكلّف نفسها عناء التصالح مع رومان وأن تقبل بالطفل، ولكنني عدلتُ عن ذلك.

– من حقّكِ أن ترتاحي بعد كلّ ما أنجزته، يا باستيت.

راحت وجلبت القليل من الشامبانيا التي تركها الجنرال غرانت وسكبته في كأسٍ.

قالت:

– بصحّة القدريين!

فأجبتُها:

– بصحّة الناس الذين يحاولون وحدهم تغيير العالم!

– بصحّة الأنبياء!

– بصحّة بولس، جاسوسنا، الذي أتمنّى ألا يخوننا!

شربنا وأنا أسمع من بعيد صيحات البشر الذين بدأوا بالتهاوش حول القرار الصائب الذي ينبغي اتّخاذه.

بشرٌ مساكين.

كان هذا الوضع مضحكًا جدًا بحيثُ كاد يمنحني الرغبة في الضحك.

38. وباء الضحك في تنزانيا

في يوم 30 يناير/ كانون الثاني 1962، تفشّى وباءُ نوبات ضحكٍ

جنوني في مدرسة داخلية للبنات في قرية كاشاشا في تنزانيا. أصاب الضحك الجنوني ثلاث تلميذات قبل أن يتفشّى ويُصيب جميع تلميذات المدرسة الداخلية البالغ عددهنّ مئة وتسعًا وخمسين تلميذةً. على مدى ثلاثة عشر يومًا، استولت عليهنّ نوبات ضحكٍ هستيرية لم يتمكّنّ من كبتها أو السيطرة عليها. المعلّمون من جهتهم، وإن لم يُصابوا بذلك الداء، أقرّوا بأنّهم هم والتلميذات لم يعد بوسعهم العمل في هذه الظروف.

أخذت وزارة الصحّة التنزانية المسألة على محمل الجِدّ وأطلقت على داء الضحك هذا كلمة باللغة السواحلية: *أومونيبو*.

وتبيّن أنّ الظاهرة معدية، فقد أصابت مجمّعات مدرسية أخرى في المناطق المحيطة بالقرية. وفي مارس/ آذار من العام نفسه، بلغ عدد المصابين بداء *الأومونيبو* مئتين وسبعة عشر شخصًا، ولم يعد الداء مقتصرًا على المراهقين، بل أصاب البالغين أيضًا. وفي شهر مايو/ أيار، أصابت موجةٌ جديدة من الداء مدرستين وأرغمت السلطات على إغلاقهما. ثمّ في شهر يونيو/ حزيران، أصاب عدوى داء نوبات الضحك الجنوني أربع عشرة مدرسة جديدة، أُغلِقَت هي الأخرى.

استمرّ داء *أومونيبو* عدّة أشهرٍ، انفجر الناس خلالها بالضحك ولم يستطيعوا السيطرة على أنفسهم والتحكّم بضحكهم. وقد أُصيب أكثر من ألف شخصٍ بهذه الطريقة بنوبات ضحك جنوني متواصلة منعتهم من القدرة على التركيز على أيّ عملٍ يُطلَبُ منهم القيام به.

جاء العديد من العلماء الإنكليز والأمريكيين لدراسة هذه الظاهرة، وخاصّة أستاذ علم الاجتماع البروفيسور بيتر ماكجرو، ولم يجدوا أي تفسير لداء الضحك الجنوني هذا، ولكنّهم أشاروا مع ذلك إلى الضغط النفسي الشديد الناجم عن النظام التعليمي كسببٍ محتمل لهذا الداء.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

39. الواشي

قال بولس:

– لديّ خبرٌ سارّ وآخر سيّئ. بأيٍّ منهما تريدون أن أبدأ؟

بفضل برنامجٍ دقيق أُعدّ من قبل رومان، تُرجِمَ كلام الجرذ إلى لغة القطط وكذلك إلى لغة البشر. ومن ثمّ بُثّ الصوتُ مباشرةً في مكبّرات الصوت في قاعة الجمعية التي كنّا مجتمعين فيها.

هذه المرّة، كان لي الحقّ في مقعدٍ خاصّ وضعوه لي في القاعة لأكون على مستوى البشر.

صُـوِرتُ وعُرِضَت صورتي على شاشات التلفزيون الداخلي لبرج الحرية. نظر جميع بشر وقطط البرج إليّ وأصغوا إلى كلماتي. تحدّثتُ بلفظٍ واضحٍ لكي يكون كلامي مفهومًا.

– قبل كلّ شيء، أشكرك يا بولس على معاودة الاتصال بنا. وأتركُ لك الخيار للبدء بأيّ من الخبرين اللّذين تودّ الحديث عنهما.

– إذًا فلنبدأ بالخبر السارّ. وقد حدث البارحة مساءً. تشاجر تيمورلنك وآل كابوني. تشاجرا بشأني أنا. يعتقدُ تيمورلنك أنّه يمكن الوثوق بي بينما يعتقد آل كابوني عكس ذلك. ثمّ تحدّثا كثيرًا عنكِ... يا باستيت. سأل آل كابوني لماذا حينما تعارك، في ليلة هجوم القطط، مع قطّةٍ، لم يتدخّل تيمورلنك لمساعدته واكتفى بالنظر إليكِ أنتِ، يا باستيت. أجاب الجرذ الفرنسي بأنّكِ لم تكوني مجرّد قطّة عاديّة وأنّه اكتشف في الحال أنّكِ لم تكوني تحملين موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلقة الشاملة حول رقبتكِ، وبالتالي لم يشأ أن يقتلكِ دون أن يعرف مكان موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة. قال آل كابوني إنّه كاد يموت. واستمرّا في الحديث عنكِ يا باستيت.

يُعجبني عندما يوليني العدوّ أهميّةً.

– منذ أن رآكِ في الليل، يعتقد تيمورلنك أنّكِ قطّة موهوبة للغاية، وأكثر ذكاءً من كلّ البشر المجتمعين في برج الحرية.

أحبّ كثيرًا بولس هذا. لديه طريقة تفكير أجدها «عصريّة» للغاية.

ألقيتُ نظرةً خاطفة على هيلاري كلينتون لكي أجعلها تفهم أنّ هناك تعهّدًا مكتوبًا بيننا وإذا ما حققتُ نتيجةً إيجابية أريدُ أن تفي بوعدها.

تنهّدت وأبدت إيماءةً خفيفةً من ذقنها يمكنها أن تعني: «سوف تكونين الممثّلة الثالثة بعد المئة في الجمعية».

ردّدتُ بصوتٍ عالٍ لكي أتأكّد من أنّ الجميع قد سمع جيّدًا:

– إذًا لقد تشاجر المَلِكان بشأن الثقة التي يمكن أن تُمنَحَ لكَ وبشأن الخوف الذي أبثّه فيهما. ماذا حدث بعد ذلك؟

– أشار تيمورلنك إلى أهمية موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة. قال إذا نُسِفَ البرج مُبكّرًا سيكون من الصعب العثور على هذه الموسوعة النفيسة بين الأنقاض. فاستشاط آل كابوني غضبًا، وذكّر تيمورلنك أنّه ليس سِوى جرذٍ غريبٍ، يجري التساهل معه فقط بسبب امتلاكه للمعارف التقنية، وأنّ عليه بالخضوع والطاعة له. فردّ تيمورلنك بأنّ الحصول على المعرفة البشرية سيكون مفيدًا لكلّ الجرذان وأنّه لا ينبغي الخلط بين الكبرياء الشخصية والمصلحة العامّة. اتّهمه آل كابوني بالتواطؤ مع القطط. وفي تلك اللحظة شعرتُ بأنّ الوقت قد حان لكي أتدخّل وأنفّذ المهمّة التي كلّفتِني بها، يا باستيت.

من جديد، توقّف عن التكلّم للحظةٍ لجذب الانتباه إليه.

– قلتُ قبل كلّ شيء إنني أعرفكِ شخصيًّا، وأضفت أنّكِ قطّة مخيفة وأنّه لا بدّ من أن يخافوا منكِ أشدّ الخوف.

جيّد.

– ذكرتُ أنّكِ قمتِ بشنّ عملية ليلية خاصّة، ولكنّكِ على درجة من الفظاعة والقسوة بحيث يمكن توقّع مفاجآت أخرى منكِ.

إلى أين يريد أن يصل بهذا الحديث؟

– ثمّ قلتُ إنني أتفهّم عدم تصرّف تيمورلنك أثناء الهجوم لأنّ شخصية مثل باستيت يجب أن تؤسَر لا أن تُقتَل. لا سيما أنّها الوحيدة التي تعرف مكان موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة. وشرحتُ أنني قد وصلتُ إلى

هذه المكتبة التي تضمّ معارف لا حصر لها وأنّ هذه التجربة كانت بالنسبة إليّ أمرًا مثيرًا حقًّا. ومنذ تلك اللحظة، كسبتُ محبّة تيمورلنك ولكن عداوة آل كابوني. وقد طرح موضوع وضعي كعميل مزدوج والنظر في احتمال أن أكون جاسوسًا ثلاثيًّا يعمل لمصلحتكم.

أمرٌ منطقي.

– قلتُ إننا، نحن الجرذان، بفضل ميزة تفوّقنا العددي، لن ننهزم. وقلتُ إنّ السؤال الوحيد الذي يجب طرحه هو ليس وضعي الشخصي ولا وضع قطّةٍ، بل هو أن نعرف هل ستكون لنا بعد تحقيق الانتصار حكومةٌ بمَلِكين أم بمَلِكٍ واحدٍ؟

أعشقُ هذا الجرذ. عقلٌ ثاقبٌ في جسدِ قارضٍ.

– اكتفى آل كابوني بالإجابة التالية: «أنا الآن وسأبقى إلى الأبد المَلِك الوحيد. أنت يا تيمورلنك لست سِوى ضيفي وتابعي». فردّ تيمورلنك وقال إنّ حقيقة جلبه النار وإحداثه للتفجيرات عمّا قريب تبدو له سببًا كافيًّا لئلا يُعدَّ مجرّد تابعٍ. وختم بالقول إذا كان هناك من يحكم بعد الانتصار، فهو بالضبط من أتاح تحقيق هذا النصر ومن يمتلك المعارف الضرورية لإقامة مشروعٍ طموحٍ لكلّ الجرذان في المستقبل.

سألتُ بنفاد صبرٍ:

– وماذا حدث بعد ذلك؟

– قال آل كابوني إنّ غطرسة هذا الجرذ الأجنبي تثير غضبه وانزعاجه.

هذه المرّة، أصغى جميع الحضور من البشر والقطط بانتباهٍ شديدٍ إلى الجرذ. بدا أنّ بولس يستغلّ بخبثٍ ويستمتع بأخذ لحظاتٍ من التوقّف عن التكلّم ليزيد من درجة التشويق ويجذب انتباه المستمعين إليه.

– لم يعد المَلِكان على انسجامٍ قط. ودبّت خلافاتٌ وحدثت احتكاكاتٌ أثرتُها بنفسي بين العدد الكبير من البارونات الأمريكيين والعدد القليل من البارونات الفرنسيين الذين رفضوا الاستسلام للفزع. قال آل كابوني إنّ الجرذان الأمريكية أكبر حجمًا وأشدّ قوّةً وأكثر ذكاءً من الجرذان الفرنسية، وإنّ إناثها أكثر جمالًا وأطيبُ رائحةً. فأجاب تيمورلنك: «بالنسبة إلى الذكاء،

لستُ متأكّدًا من ذلك». فطلب منه آل كابوني أن يُعيد ما قاله. فقال تيمورلنك: «أنتم الأمريكيين، لستم أقوى، وإنّما فقط أكبر حجمًا». فتصاعدت حدّة التوتّر إلى أعلى درجاته بين البارونات المحيطين بنا. وأصبح البارونات الفرنسيون والأمريكيون على أهبة الاستعداد لخوض المعركة. فتقدّم آل كابوني ليحسم الأمر، واقترح على تيمورلنك: «تعال وقاتلني في مبارزةٍ وسنرى من هو الأقوى من بيننا نحن الاثنين».

توقّف للحظةٍ.

– تقاتلا. وتحلّق البارونات جميعهم من حولهما ليتابعوا نزال الملوك هذا.

– وماذا حدث...؟

إنّه يسيء استخدام سلطته كراوٍ. يستمتع بإحباطنا، هذا ما أشعر به.

– انقضّ آل كابوني بكلّ كتلته الضخمة على تيمورلنك، لكنّ هذا الأخير قام بحركة جانبية خاطفة، والتفّ عليه وضربه من الخلف. فكشّر تيمورلنك عن أنيابه وعضّ آل كابوني في وريده الوداجي. لم يستطع آل كابوني حتى أن يُصيبه بمخالبه. سدّد ضرباتٍ كالسوط بذيله السميك ولكنّ ذلك لم يجعل خصمه يفلته. زاد تيمورلنك من الضغط على فكّيه ومن ثمّ انبجس الدم غزيرًا. سقط آل كابوني على ركبه وانهار على الأرض. ثمّ نزف حتى فرغ من دمه تمامًا. اقترب البارونات الفرنسيون ومن ثمّ الأمريكيون ليلعقوا الدم.

خبرٌ مذهل.

– مات آل كابوني؟ هل أنت متأكّد من ذلك؟

– من غير المحتمل أن يتعافى من جراحه بحيث أجرى تيمورلنك إجراءات نقل السلطة من مَلِكٍ إلى مَلِكٍ آخر. هذا يعني أنّه قد فتح جمجمته وأكل دماغه لكي يشير إلى أنّه قد امتصّ الآن ذكاء سلفه.

هل يمكن أن يكون الأمر بهذه البساطة؟

– لم يكتفِ تيمورلنك بإعلان نفسه مَلِكًا للجرذان، بل نصّب نفسه إمبراطورًا. وطالب جميع البارونات بأن يؤدّوا له قسم الولاء. وقد خضعنا جميعًا لمشيئته. سجدنا جميعًا، قبل أن نكشف له عن مؤخّراتنا، ويتبوّل

علينا. ثمّ أعلن أنّ مشروعه هو أن يستثمر اتصاله بالإنترنت في سبيل توحيد ليس فقط جرذان القارة الأمريكية، بل جرذان العالم قاطبةً. وقد طلب منّا أن نعترف به **إمبراطورًا لكلّ جرذان العالم**.

كان من المفترض أن يُفرحني خبر موت أحد ألدّ عدوّين لنا، ولكنني شعرتُ بأنّ هناك شيئًا ما ليس على ما يُرام.

وماذا لو أنني من خلال رغبتي في القيام بعملٍ إيجابي، لم أفعل في الحقيقة سِوى تعزيز ومركزة سلطة خصومنا؟

لم يعد هناك سِوى زعيمٍ واحدٍ يُعادينا، ولكنني دفعتُ ثمنًا غاليًا جدًّا لكي أعرف أنّ هذا العدو هو الأسوأ.

صمتُّ لهنيهةٍ، ثمّ طرحتُ السؤال الذي كان يحيّرني:

- حسنًا، هذا هو إذًا الخبر السارّ. وما هو الخبر السيئ؟

- ما كاد تيمورلنك يُنتَخَب حتى تذكّر وسيلة العثور على الملح الصخري. بحسب ما قال، يكفي لذلك تجميع فضلات الخفافيش. ولحسن حظّه، فإنّ أنفاق المترو العديدة في نيويورك مليئة بالخفافيش. وقد طلب من جميع الجرذان الحاضرة بأن تذهب وتكحت سقف أنفاق المترو حيث تعيش هذه الخفافيش. وقال إنّ النسب المطلوبة هي 30% كربون، و30% كبريت، و40% ملح صخري. وينوي، بعد أن يحصل على الكميّة الكافية، إدخالها إلى أقبيتكم لتفجر أساسات برج الحرية.

- ولكنني كنتُ أعتقدُ أنّه يخشى من ألّا يعثر على فلاشة اليو اس بي التي تحتوي على موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة بين الأنقاض، أليس كذلك؟

- لقد غيّر رأيه. لقد قال إنّه قد تذكّر أنّ الفلاشة مضادة للصدمات وإنّه في النهاية لا بدّ من العثور عليها بين الأنقاض والركام في أعقاب التفجير. وبالتالي، فإنّ الخبر السيّئ هو أنّكم، على ما يبدو، سوف تموتون.

شعرتُ فجأةً بأنّ هناك ما يشبه حكّةٍ في عيني الثالثة. ربّما تلقّيتُ كميّة هائلة من المعلومات في دماغي، وبدأ هذا الأمر يُرهقني. ربّما كان عليّ أن أُنهي الحديث.

ماذا قال؟

40. البروفيسور ديلغادو والشرائح العصبية المزروعة

كان البروفيسور خوسيه ديلغادو عالم فيزياء الجهاز العصبي إسبانيًّا مغرمًا بوظائف الدماغ. بعد أن درس في إسبانيا والولايات المتّحدة الأمريكية، في قسم الفيزيولوجيا في جامعة ييل، أنشأ في عام 1950 نظامًا لتحفيز مختلف مناطق الدماغ باستخدام الأقطاب الكهربائية. (التحفيز الكهربائي في الدماغ). نجح في قراءة الإشارات المرسلة، ولكنه نجح أيضًا، بفضل نبضات كهربائية خفيفة، في إثارة انفعالات وهلوسات. في عام 1952، طوّر جهازه واخترع الستيموسيفر الذي أتاح له التخلّي عن الأسلاك الكهربائية وامتلاك القدرة على تحكّمٍ عن بعد عبر التحكّم الراديوي.

باستخدام جهاز الستيموسيفر هذا الموصول بالدماغ، نجح في التحكّم بقردٍ إلى درجة تحريك عينيه وجعله يعطس ويتثاءب ويشخر، ويعدّل نبضات قلبه بل يجعله ينام عن بعد.

جرّب ديلغادو جهازه على قطٍّ وجعله يلعق نفسه وهو نائم، أو جعله يرفع قائمة يختارها من بين قوائمه. واستطاع أن يعدّل في توسّع حدقة عين قطٍّ مثل عدسة آلة تصوير. وجرّب نفس الجهاز على فتاةٍ في الثلاثين من عمرها، ونجح في جعلها تُثني إصبعًا بالضدّ من إرادتها، ولكن أيضًا جعلها تضحك وتبكي وترى صورًا ملوّنة بل جعلها تشعرُ بعاطفة الحبّ إلى درجة أنّ هذه الفتاة باحت له بحبّها أثناء التجربة (وتراجعت عن شعورها حالما لم يعد دماغها محفَّزًا).

في عام 1963، زرع خوسيه ديلغادو أقطابه الكهربائية في دماغ ثورٍ. استقرّ في حلبة لمصارعة الثيران في مدينة قرطبة، وحينما دهمه الحيوان، أوقفه فورًا من خلال إرسال محفِّزٍ كهربائي بفضل ناقلٍ لاسلكي. توقّف قرنا الثور على بعدِ عشرات السنتمترات فقط من جسمه.

بيد أنّ نجاح هذه التجربة أثار بعض الريبة حول أعمال طبيب

الأعصاب هذا، الذي شكّ بعضهم أنّه يعدّ مجتمعًا بشريًّا من العبيد البلهاء الذين يمكن التحكّم بهم عن بعد. في عام 1980، تزايد عدد نقّاده الذين اتّهموه «بالانحراف الأورويلي» بما يكفي لقطع كلّ أنواع الدعم المادي عنه، واضطرّ خوسيه ديلغادو لإيقاف تجارِبه الغريبة على الأدمغة الموصولة.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

41. تعقّد الموقف

كانت أمِّي تقول: «أصعب ما في الموت هو أنّنا لا نستطيع التصرّف، والحال أننا نكتشف الأفكار الحسنة ونفهم كلّ شيء قبل بضع ثوانٍ من الموت».

ماتت والدتي معمّرةً، إذ كانت في العشرين من عمرها (وهو ما يعادل بالنسبة إلى البشر تسعين عامًا). ماتت نتيجة حادثٍ عجيبٍ. لقد قفزت من سطحٍ وأخطأت حساب المسافة وقوّة اندفاعها فأخفقت في الوصول إلى السطح المقابل. سقطت في الشارع وكان يمكن لها أن تنجو لولا وجود سيارةٍ مرّت في ذلك المكان بالضبط وفي تلك اللحظة بالذات.

لا أدري إن كانت قد فكّرت قبل أجزاءٍ من الثانية من سحق جمجمتها مثل هريسةٍ، وقالت في نفسها: «لقد تمّ الأمر، وأدركتُ أخيرًا معنى الحياة».

لا أعلم كيف تتصوّرون، أنتم، اللحظات الأخيرة قبل أن يتحوّل جسدكم إلى كتلةٍ من اللحم، ولكن بالنسبة إليّ، منذ موتها، أعتبرُ أنّ عليّ أن أكون جاهزة في كلّ لحظةٍ لأن أفقد كلّ شيء.

وهنا، وأكثر من أيّ وقتٍ مضى، شعرتُ بأنّ النهاية وشيكة.

سوف يفعل تيمورلنك، الحازم والفاعل، كلّ شيء لكي يحوّل إلى رمادٍ برجَنا الذي لجأنا إليه، وهو الملاذ الأخير لمقاومة غزو الجرذان.

وعليّ أن أعترف بأنّ ما سوف يحصل بعد ذلك لا يهمّني في شيء، حيث إنني لن أعود موجودة لأراه.

إلا إذا...

إلا إذا بقي أثرٌ مكتوب.

كتابٌ مقدّس للقطط، أو سيرتي الذاتية؟

كلّما فكّرتُ في الأمر أكثر، وجدتُ أنّ قصّتي الحقيقية أكثر أهميةً من نصٍّ خياليٍّ مع أساطير زائفة مستوحاة أو مستنسخة من نظرة جنسٍ آخر إلى الكون.

لا شيء أكثر تأثيرًا من الواقع.

حتى وإن كنتُ مدركة أنّ حكايةً قد تبدو أكثر تصديقًا من أسطورةٍ.

مرّ النهار على نحوٍ غريبٍ، لم أشعر خلاله بالجوع. صادفتُ ابني الذي بات يتعاطى المخدّرات على نحوٍ متزايد.

قابلتُ في الطابق التاسع والستين ناتالي ورومان اللّذين، بعد أن حاولا التحدّث بعضهما مع بعض، أنهكا نفسيهما باللوم والعتاب ثمّ أعقب ذلك شجارٌ قويّ أدى بهما من جديد إلى الانفصال.

دار في خلدي أن حملها يؤدّي على الأرجح إلى اضطرابٍ في هرموناتها ويعكّر مزاجها.

صعدتُ إلى سطح المبنى ورأيتُ هناك أسميرالدا التي كانت، تمامًا مثلما فعلتُ أنا في الليلة السابقة، تُراقب نيويورك من تلك الإطلالة المميّزة.

– بماذا تفكّرين؟

أجابت:

– أفكّر في بوكوفسكي.

– هل تعلمين أنّ اسمه هو اسم شاعر بشري مدمن على الكحول ومدمّر للذات؟

– كان في بعض الأحيان أخرقَ ولكنّه كان يُضحكني. أشتاقُ إليه.

– وأنا، أشتاقُ إلى فيثاغورس. أنتِ وأنا، كلانا «أرملة»، مثلما يُقال عند البشر.

قالت القطّة السوداء ذات العينين الصفراوين بتفلسفٍ:

– والآن، ننتظر حلول ساعتنا.

- لا بدّ للمرء أن يموت يومًا.

- أرى أننا قد عشنا حياة رائعة، وذلك لأنّه على الأقل قد حدثت لنا أمورٌ غير عاديّة، وأودّ أن أشكركِ، يا باستيت. من دونكِ، ربّما كنتُ سأبقى في غابة بولونيا أقضي حياتي في أكل الغربان.

- كلا، أنا منْ أشكركِ، يا أسميرالدا. لقد كنتُ جاحدة وقاسية بحقّكِ. لقد أنقذتِ بالفعل حياتي ولم أشأ أن أعترف بذلك، خشية من أن تسرقي منّي الأضواء. الآن، مع أفول نجم حياتي، أكتشفُ أنني كنتُ أشعرُ بغيرةٍ حمقاء كغيرة سيّدتي ناتالي مع رومان. نخشى أن نخسر ما نعتقده مُلكًا لنا. ولكن لا شيء مُلكٌ لنا.

- كان فقط الخوف من أن تشيخي ولا تعودي مرغوبة.

- كلا، إنّه الاعتقاد بأننا نمتلك الأشياء أو الناس. وحينما يترسّخ هذا الاعتقاد لدينا، نخشى من أن نفقدهم ونصبح تعساء. توصلتُ إلى قناعة بأنّني لستُ متأكّدة من أنّ هذا الجسد ملكي. ولن يكون موتي في هذه الحالة سِوى لحظة إعادة هذا الثوب من الفراء والدم الذي أُعير لي يوم ولادتي.

هزّت رأسها، وتحوّلت هذه الحركة إلى ارتجافٍ، ثمّ انتفضت.

أصبحنا في منتصف النهار، فسطعت الشمس ولمعت مانهاتن بكلّ أبراجها الزجاجية.

- كم من الوقت بقي أمامنا قبل أن يحصل تيمورلنك على ما يكفي من غائط الخفافيش لكي يضع مشاريعَه المشؤومة موضع التنفيذ؟

- أنا أعرفه، سوف يرغب في تسريع العملية.

تنهّدت أسميرالدا:

- أتمنى أن تُصاب الخفافيشُ بالإمساك...

شعرتُ بضغطٍ عارمٍ يصدر عن أنفي وحلقي. لم أستطع الامتناع عن الانفجار بالضحك حينما سمعتُ هذه الجملة، الأمر الذي جعلني أسعل وأعطس، وهو ما يعني بالنسبة إليّ سخرية كبيرة.

نظرتْ إليّ أسميرالدا، مدهوشةً، ثمّ راحت تقلّدني وتضحك بدورها.

ضحكة قططٍ.

ضحكنا على النكتة، ثمّ ضحكنا لأننا رأينا أنفسنا نضحك معًا مثل البشر.

نظرتُ إلى أسميرالدا وشعرتُ برغبة هائلة في أن أحبّها. لا بدّ أنّها شعرت بالشيء نفسه. ربّما هو مجرّد تعاطفٍ بين أنثيين فقدتا ذَكَريهما.

حدّقنا بعضنا إلى بعض، ثمّ اقترب وجهانا بعضهما من بعض تدريجيًّا. ما شعرتُ به كان جديدًا عليّ. كان أشبه بانجذابٍ إلى روحها بعيدًا عن جنسينا المتماثلين وعن جسدينا.

كان التقارب بين خطمينا بطيئًا جدًّا، ولكن من المستحيل إيقافه.

أغمضتُ عينيّ، في انتظار الملامسة.

وفي هذه اللحظة بالذات انطلقت صفّارة الإنذار.

فتحتُ عينيّ.

ولكنّ أسميرالدا هرولت قبلي لتذهب إلى الطابق الرابع بعد المئة، حيث سنعلم بما يحدث.

انتظرنا، وفي النهاية صرّ صوت بولس، مُتَرْجمًا إلى لغة البشر في مكبّرات الصوت.

– لقد نجح تيمورلنك في جمع ما يكفي من الملح الصخري لكي يبدأ بحشو أقبيتكم وتفخيخها. وهو ينوي تدمير برجكم هذه الليلة في الوقت الذي تكونون فيه نائمين.

وبطريقة مدهشة، حضرت في ذهني صورة أوراق التاروت التي كنتُ قد رأيتُها في موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة: بيت الله. نجد في هذه الورقة برجًا يُضربُ بالبرق، فتتحطّم قمّته ويتساقط كلّ سكّانه.

قال الجنرال غرانت:

– لن نستسلم، وسنحول دون حدوث ذلك. سوف نهاجمهم ونوقفهم مثلما فعلنا في المرّة التي حاولوا فيها سكب البنزين.

– لن تستطيعوا إيقافهم. يرافق حمّالي البارود الملايين من المحاربين لكي يحموا شحنتهم. لقد استقى تيمورلنك الدرس من فشل تجربة صفائح الوقود.

– وأنت يا بولس، هل يمكنك من موقعك أن تتصرّف لمنعهم من فعل ذلك؟

– منذ أن أعلن نفسه إمبراطورًا، لم يعد محاطًا إلّا بالبارونات الفرنسيين. لم يعد يثقُ بالبارونات الأمريكيين وقد بات في غاية الشكّ والارتياب بشأني. إنّه يتّخذ تدابير احترازية شديدة، فلا يأكل أيّ طعامٍ قبل أن يتذوّقه ذوّاقوه الفرنسيون، وقد عزّز كلّ أنظمة الدفاع عن القصر الواقع تحت قاعدة التمثال. وبالتوازي مع ذلك، أرسل فرقًا لتجنيد جنودٍ من خارج نيويورك. يُريدُ أن يبني ما يُسمّيه «أكبر حشدٍ من الجرذان في العالم وعلى مرّ الأزمان». ويسمّيه «حشد نهاية العالم». في الواقع، إنّها نهاية عالمكم أنتم. أنتم الجيب الأخير للمقاومة. ولهذا السبب ينوي التحرّك سريعًا والتصرّف بطريقةٍ مذهلة، وبأسلوبٍ يتركُ انطباعًا خالدًا في الأذهان ويُنسي كلّ الإخفاقات السابقة.

ثمّ سكتَ.

استأنفتُ الحديث:

– حسنًا، هذا هو الخبر السيئ. وكخبرٍ سار، ماذا هناك هذه المرّة؟

– همم... في اللحظة الراهنة لا شيء. أنا آسف. عليّ أيضًا أن أعترف لكم بأنّ التواصل معكم يزداد صعوبةً عليّ. أخشى أن يراني أحدٌ ويشكّ في تواصلي مع الطائرة المسيّرة التي تحوم فوق تمثال الحرية ويكشف أمري في يومٍ هادئ. حتى الآن، الشيء الوحيد الذي يحميني هو أنّهم جميعًا منهمكون في عملية تفجير برجكم. ولذلك، أفضّل أن أختصر هذه المحادثة.

وقطع الاتصال.

تلا ذلك صمتٌ طويل.

ثمّ اجتمعت جمعية ممثلي القبائل المئة والاثنتين، ومرّة أخرى، أدركتُ أنّهم يتجادلون لكي يجدوا أحدًا يحمّلوه مسؤولية ما آل إليه الوضع.

لأنّ هذا هو نظامهم. حينما يستشعر البشر الخطر، يجدون مذنبًا بين صفوفهم، وهنا يصبّون على هذا الفرد جام عدوانيتهم التي لا يستطيعون التعبير عنها حيال المصيبة المحدقة بهم.

وحينما يبلغون ذروة غضبهم، يقتلونه.

وهذه طريقة بالنسبة إليهم لكي يشعروا بأنّهم لا يخضعون بل يتصرّفون ويفعلون، حتى وإن كان هذا الفعل ضد أحد أفراد جماعتهم.

إنّه مبدأ كبش الفداء. أيّ يجب أن يدفع أحدهم الثمن.

أمّا أنا، فكنتُ بدل ذلك منهمكة في التعامل مع هذا الوضع، وكان شغلي الشاغل كيفية الخروج من هذا المأزق، دون أن يهمّني من هو المخطئ.

في تلك اللحظة، وفي هذه الحالة، تركّزت العدوانية بأكملها ضدّ هيلاري كلينتون. ومن خلال القليل الذي فهمته من حديثهم، كانوا يعاتبونها على ثقتها بقطّةٍ (والمقصودة هي أنا في هذه الحالة). طالب مسؤول الطائفة اللاتينية باستقالتها الفورية وإجراء انتخابات جديدة. أرادت الرئيسة أن تتحدّث لكي تدافع عن خياراتها، ولكن ممثّلين آخرين من ممثلي المئة والقبيلتين أسكتوها وأهانوها. اقترح بعضهم انتخاب الجنرال غرانت لأنّهم رأوا أنّ رجلًا عسكريّا وحده قادرٌ على إدارة أزمة على هذا القدر من الخطورة. وهو قال إنّه تحت تصرّف الجماعة، وإنّ لديه شخصيًّا حلّا جذريًا: القنبلة الذرية.

ولكن حينما سُئِل عن كيفية تنفيذ ذلك عمليًّا، قال إنّه لم يفكر في المسألة بعد، ولكنّه سوف يجد طريقةً إذا ما مُنِحَ بعض الوقت. فذكّره ممثل الجماعة الصينية بأنّه ليس لديهم وقتٌ بالتحديد.

وصعد شوفال فوغو بعد ذلك إلى المنبر وذكر أنّ الهنود هم الذين تجنّبوا الحريق بفضل سهامهم. وبالتالي يستحقّ عملهم الإيجابي بأن يُكافأ بتعيين زعيمهم رئيسًا.

لكنّ المتدينين من كلّ المشارب ذكروا فكرة أنّ الجرذان عقابٌ من السماء على ما ارتكبوه من ذنوب، وبالتالي آن الأوان لتعيين قسيسٍ للمهمّة في سبيل التصالح مع الله. واقترحوا إقامة الصلوات.

وأنا أشاهد مناقشاتهم، فهمتُ على نحوٍ أفضل كيف جرى انهيار حضارتهم.

لا يحبّون بعضهم بعضًا.

إنّهم يعرّفون أنفسهم باختلافاتهم لا بمشتركاتهم.

أشرتُ على ناتالي وهمستُ في أذنها:

- ربّما يكون لديّ حلّ، خذيني إلى المنصّة.

تسلّقتُ كتفها وحاولتْ خادمتي أن تشقّ طريقًا وسط الحشد الغاضب.

اضطرّت خادمتي لأن تدفع الآخرين جانبًا وفي النهاية استطاعت أن تضعني على المنبر.

انحنت نحو لاقط الصوت.

- أعتقدُ أنّ لدى باستيت فكرةً. ربّما يمكننا الإصغاء إليها.

أجاب قسيسٌ وهو يرسم إشارة كما لو أنّه يطرد شيطانًا:

- لقد رأينا إلى أين أوصلتنا هذه الأفكار، أفكار قطّتكِ هذه!

وصاح آخرٌ، ساخرًا:

- نعم! مهمّتها في قتل المَلِكين، وجهازها التجسسي!

لمرّة واحدة، أثارت هذه الملاحظة انتباه ممثلي القبائل، فانهالت عليّ شتائم أخرى من كلّ حدبٍ وصوب.

على الأقلّ، سوف أكون مفيدة في شيء. إنّهم في طريقهم إلى التوافق على هذه الفكرة: يجمعون على كرهي.

ومع ذلك، لم تستسلم ناتالي للإحباط.

قالت ببراغماتية:

- في الحالة التي وصلنا إليها، لا نخسر شيئًا إن أصغينا إليها... وبعد ذلك، نجري تصويتًا لاختيار رئيسٍ آخر أو رئيسة أخرى.

قالت هيلاري كلينتون، التي رأت فجأةً فرصةً في استعادة القليل من شعبيتها على حسابي:

- كلا، بعد كلّ ما ارتكبته من حماقات، لم نعد نرغب في الإصغاء إليها.

وفي تلك اللحظة، تدخّل الجنرال غرانت:

- دعونا نُصغي إلى هذه القطّة! نحن لا نخاف الأفكار، نحن نخاف فقط الأفكار السيّئة. ونحن من سنحكم فيما بعد على قيمة مقترحها.

هذه هي الحياة: يتخلّى عن المرء منْ كان يعدّهم حلفاءَه، ويلقى المساندةَ من أناسٍ كان يعدّهم أعداءَه.

أمر بصوته الأجشّ الذي يفرض حضوره:

- اسكتوا الآن!

ولأنّ الصالة لم تهدأ بعد إصداره الأمر، أخرج مسدّسه وأطلق ثلاث طَلَقات نارية نحو السقف.

وأخيرًا لفتُّ انتباههم.

مررتُ قائمتي خلف أذني لكي أنظّم أفكاري جيّدًا.

- أيّها الحضور من البشر نساءً ورجالًا، ومن القطط إناثًا وذكورًا. علينا أن نواجه معًا تهديدًا جديدًا: التفجيرات. أعتقد أنّ التدمير الكامل لهذا المبنى قد يحصل بين لحظة وأخرى. سوف يكون حلّ القنبلة النووية متأخّرًا للغاية ولا أعتقد أنّ انتخاب رئيسٍ جديدٍ أو رئيسة جديدة هو الذي سوف يغيّر في أمر التهديد الوشيك.

هذه المرّة، أصغوا إليّ إصغاءً حقيقيًّا.

سأل ممثّل قبيلة البانكيين، الذي كان له عرفٌ يشبه عرف صديقي الراحل شامبليون، ببغاء الكوكاتو:

- ما الذي تقترحينه إذًا، أيّتها القطّة؟

قطّة؟ يا له من اسمٍ مضحكٍ لمخاطبتي. لقد لفظ هذه الكلمة كشتيمةٍ. هل ستُسلَخ أفواههم جميعًا إن قيل لي «ملِكة»؟

ولكن لم تكن هذه هي اللحظة المناسبة لكي أتظاهر بالدقّة بشأن البروتوكول.

- أقترحُ استخدام السلاح الأكثر فاعليّةً، وهو أيضًا بالتحديد السلاح الذي أمتلك الموهبة في استخدامه.

- ما هو؟

-... التواصل.

سألت هيلاري كلينتون:

- التواصل بين منْ ومنْ؟

- بيني وبين وتيمورلنك.

بعد هنيهة أولى من الصمت، تصاعدت ضجّة ساخرة.

ولكنني استأنفتُ الحديث، رابطة الجأش:

- لقد سبق أن تحدّثتُ معه في الماضي. لقد استطعنا أن نتواصل مباشرةً بفضل العين الثالثة لكلينا. لقد ارتبطنا عبر وصلة يو إس بي وتحاورنا ذهنيًّا بشكلٍ مباشرٍ.

تابعت هيلاري كلينتون، ساخرةً:

- وماذا ستقولين لهذا الجرذ؟

- سوف أرتجل الحديث، ولكنني سوف أفعل كلّ شيء كي لا نموت؛ ويبدو لي أنّ هذا الأمر ليس سيّئًا. وبالطبع، إذا كان لدى أحدكم فكرة أفضل من فكرتي هذه، أنا مستعدة لأن أتخلى عن فكرتي.

هكذا هو حكم العالم: عدم العيش وسط الخوف، والتفكير بحلول عملية، وامتلاك المرء الجرأة في المخاطرة بحياته لمواجهة الأوضاع التي يعتقد الجميع أنّها مستعصية وغير قابلة للحلّ.

- هل هناك اقتراحات أخرى؟ أودّ أن أذكّركم بأنّه في هذه اللحظة التي أتحدّث فيها إليكم، ينهمك الألوف من الجرذان في تكديس البارود المتفجّر في أقبية هذا البرج.

قال شوفال فوغو:

- حالما تقتربين منهم، سيقتلونكِ.

- وهنا أرى فائدة استخدام جاسوسنا بولس. هو منْ سيقوم بترتيب اللقاء بيني وبين تيمورلنك.

قالت أسميرالدا، التي بدت فجأةً حريصة على الحفاظ على حياتي:

- وما الذي قد يمنعه عن قتلكِ؟

- لا شيء. ولكن إن لم أفعل شيئًا، سوف نموت جميعًا.

شعرتُ بأنّ الجنرال غرانت يريد أن يستأنف الحديث من جديد، ولذلك قبل أن يتمكّن من التفوّه بكلمة واحدة، قلتُ بلهجةٍ حاسمة:

– لم يعد لدينا الوقت للتسويف والمماطلة. ثقوا بي، وإن فشلتُ مرّة أخرى، في كلّ الأحوال لن أعود إليكم.

سادت لحظةٌ من التردّد راقبتُ خلالها الجميع، محدّقةً في أعينهم، الواحد تلو الآخر: الجنرال غرانت، وهيلاري كلينتون، ورومان، وناتالي، وسيلفان، وإديث، وجيسيكا، وشوفال فوغو، وأسمير الدا، وأنجيلو.

– أودّ أن أكشف لكم أنني قد طلبتُ من هيلاري كلينتون خدمةً: وهو أن أصبح ممثلة القبيلة الثالثة بعد المئة، قبيلة القطط. وقد وعدتني بذلك، ولكنّها، مثل الكثير من السياسيين، تميل إلى تقديم التنازلات خاصّة إذا كان ذلك يناسبها ولكن ما إن تُنتَخَب، حتى تنسى تعهّداتها. ولذلك أتّخذكم شهودًا على هذا الوعد، إذا أردتم أن أتحدّث باسمكم وأن أتفاوض نيابةً عنكم، يجب أن أحظى بوضعية رسمية كممثّلة للجماعة البشرية – القططية في برج الحرية.

ساد هرجٌ ومرجٌ وسط الحضور. سمعتُ اعتراضاتٍ وسخرياتٍ، بل وإهاناتٍ.

ابتسمت هيلاري، مدركةً أنّ الساخرين يقفون إلى جانبها أكثر. نظرتُ إلى ممثلي القبائل فردًا فردًا.

هم أيضًا، يعتقدون أنني حتى وإن أنقذتُ حياتهم لا أستحق عنوان المساواة بهم. يا لهم من أغبياء. إنّهم يقدّمون اعتزازهم بجنسهم على غريزتهم في البقاء.

وفي تلك اللحظة أمسكت ناتالي بلاقط الصوت.

– ولكن هل أنتم أغبياء أم ماذا؟ لم يعد هناك من خيار، إمّا باستيت أو لا شيء!

هذا ما أعتقده أنا أيضًا...

قالت بهدوء:

– بالنسبة إليّ، أنا حامل وأنتظرُ طفلًا، وأريد أن يولَدَ في عالمٍ صالحٍ للحياة. وبالتالي يجب أن أنجو في هذه الليلة المحفوفة بالتهديد. أمّا السخرية، فيمكننا أن نسمح لأنفسنا بممارستها في الجدالات السياسية التي لا أهمية لها، ولكن هنا في الوضع الذي نحن فيه، ليست فقط حيواتنا جميعًا

على المحكّ بل مستقبل البشرية جمعاء. يجب أن نتصرّف في الحال وإلّا لن يعود بوسعنا فعل أيّ شيء على الإطلاق.

تلا مداخلتها صمتٌ طويل.

– تطلب باستيت منكم بلطف إجراء تصويتٍ لإقرار مهمّتها، التي دعونا نعترف بأنّها في غاية الخطورة. وأنتم، تتردّدون في قبول ذلك؟ منْ تحسِبون أنفسكم؟ هل ستكونون، أنتم، قادرين على الذهاب إلى معقل الجرذان لكي تتفاوضوا مع زعيمها؟ منْ منكم لا يريدها مفاوضةً باسمه فليذهب بنفسه للتفاوض بدلًا عنها!

انخفضت عيون الحاضرين إلى الأسفل.

– إذًا، منْ يُريدُ الذهاب إلى جزيرة الحرية للتفاوض مع تيمورلنك؟ منْ؟

لم يجرؤ أحدٌ على التحرّك.

– ممتاز، في هذه الحالة أعدُّ تصويت المصادقة الذي يربط مهمّة باستيت الخاصّة بحصولها على الوضع الرسمي كممثلة لقبيلة القطط التي تضمّ في الحقيقة ثمانية آلاف فرد في هذا البرج، أي ما يعادل أكثر من غالبية القبائل المئة والاثنتين، مجرّد مسألة شكلية. دعونا نجري هذا التصويت بسرعة وبلا تلكّؤ.

أعشق هذه الكائنة البشرية. أعتقدُ لو أنني كنتُ كائنة بشرية، لتمنّيتُ أن أكون هي، أقصد أن أكون مثلما أصبحت عليه من خلال احتكاكها معي. يا له من تطوّر، ويا لها من شجاعة، ويا لها من عزيمة وإصرار.

غمزت لي أسميرالدا على طريقة البشر. وهمست في أذني بلغة المواء:

– لقد أحسنتِ ترويض خادمتكِ، أليس كذلك؟

– هيّا، دعونا نصوّت! منْ يقف ضدّ الحلّ الوحيد الذي بيدنا في الوقت الحالي: وهو إرسال باستيت إلى التفاوض مع العدو، ونحن نعلم أنّ هذه المهمّة مشروطة بموافقتنا على منح باستيت هذه نفسها مركز ممثّلة القبيلة الثالثة بعد المئة؟

رُفِعَت يدٌ وحيدة، يدُ هيلاري كلينتون.

قالت ناتالي:

- ممتاز، بنتيجة مئة وصوتٍ واحدٍ مقابل صوتٍ وحيد، أُعدُّ أنّ مهمّة «التفاوض مع تيمورلنك» قد أُقرّت، ومن هنا أيضًا، تنال باستيت وضع ممثّلة القبيلة الثالثة بعد المئة في هذه الجمعية النبيلة. وسوف يكون بوسعها من الآن فصاعدًا التحدّث باسم قبيلتها والتصويت على قدم المساواة مع جميع الأعضاء الحاضرين هنا.

لقد فزتُ.

سبقت ناتالي الجميع في التصفيق لنتيجة التصويت، تلاها رومان، ثمّ إديث وسيلفان وجيسيكا. بعد وقتٍ بدا لي طويلًا جدًّا، صفّق أخيرًا جميع أعضاء الجمعية، ومن ثمّ الجمهور الحاضر، لي شخصيًّا، ولأفكاري، وشجاعتي.

حسنًا، ليست هذه هي الحماسة التي كنتُ أتمنّاها، ولكنني مع ذلك أوّل قطّة تنال وضعًا سياسيًّا فاعلًا حتى وإن كان ذلك في حالة أزمة.

أمسكت ناتالي بي ورفعتني على أطراف أصابع يدها عاليًا جدًّا.

لقد فزتُ.

عندئذٍ، وأخيرًا، نهض بعض الأشخاص من الحاضرين لكي يحتفوا بي حفاوة بالغة. ومن ثمّ بدأت أصوات المواء تُسمع في الأرجاء.

أبناء جنسي هؤلاء يُدركون التحدّيات والأهمية الخاصّة التي اكتسبتها. لم يفت الأوان بعد. كنتُ أشعر بأنّ القطط الأمريكية تعاملني كقطّة عاديّة، بل كقطّة غريبة.

تواصل التصفيق، ولكنني كنتُ أركّزُ على الهدف المقبل: التفاوض مع الإمبراطور تيمورلنك.

في الدقائق التي تلت عملية التصويت، أرسل سيلفان مسيّرة فوق جزيرة الحرية واستأنف الاتصال مع بولس.

أُطلِع هذا الأخير على مقترحي، فنقله إلى تيمورلنك وأخبرنا بأنّ إمبراطور الجرذان على استعدادٍ لاستقبالي، ولكن على أن أكون وحدي، في قاعدة تمثال الحرية. وبالتالي في مقرّ إقامته، دون إمكانية الفرار.

وافقتُ على شروطه.

عقدنا جلسة مغلقة ووجدتُ نفسي مع ناتالي ورومان وأسميرالدا وأنجيلو وكيمبرلي في قاعة المعلوماتية.

- بوركتِ، يا أمّاه. هذه خطّة رائعة وحينما تصبحين بالقرب منه سيمكنكِ قتله!

سألني رومان:

- هل تريدين المزيد من النصائح؟

- نصائح منكَ، نعم.

- حافظي على هدوئكِ مهما حصل. كلّما تكلّم، احسبي ثانيتين قبل الردّ عليه.

- وماذا أيضًا؟

تدخّلت ناتالي، وأردفت:

- تنفّسي بعمق. تنفّسكِ العميق سوف يساعدكِ في السيطرة على انفعالاتكِ.

عرضت أسميرالدا عليّ:

- هل تريدين أن أرافقكِ إلى هناك؟

كلا، في المرّة الأخيرة، أربكنا بعضنا.

- لقد اشترط تيمورلنك أن أكون وحدي، ومع ذلك شكرًا لكِ على عرضكِ هذا.

سألت ناتالي، البراغماتية:

- وماذا لو حصل لكِ مكروهٌ؟

- أُريدُ أن يحصل ابني أنجيلو على عينٍ ثالثة، وأن تُسلّم موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة له. وبهذه الطريقة سوف يكون بوسعه أن يواصل مشروعي في ظهور حضارةٍ قططية. أمّا بالنسبة إليكِ، يا أسميرالدا، فأطلبُ منكِ أن تساعدي ابني على النجاح. لأنّه في بعض الأحيان يكون... متهوّرًا بعض الشيء. يحتاج إلى التوجيه. ثمّ سيكون عليكِ أن تشرحي له أنّ العنف وسيلة لا نلجأ إليها إلا بعد اختبار جميع الوسائل الأخرى والتأكّد من أنّها غير ناجعة.

- يمكنكِ الاعتماد عليّ، يا باستيت.

– حسنًا، هيّا، لقد أضعنا الكثير من الوقت، يجب أن أنجح في منع وقوع الأسوأ هذه الليلة.

وهكذا بعد مضي ساعة من الوقت، وجدتُ نفسي أطير من جديد على متن مسيّرتي باتجاه معسكر العدو.

بينما ضربت الريح فرائي الأبيض المبقّع بالأسود من الخلف، انبهرتُ بشجاعتي.

سأراه مرّة أخرى. لا ينبغي أن أقلّل من شأنه، حتى وإن كان جرذًا، فهو جرذٌ ذكيٌّ جدًّا. وبالتالي، لا ينبغي لي التصرّف تحت تأثير العاطفة، ولا أن أشعر بأنّ الأمر يخصّني شخصيًّا، وإنّما أجيب فقط على كلّ جملة بطريقة متعمّقة وبترو.

تقدّمت مركبتي الطائرة فوق الأمواج الفاصلة بين مانهاتن وجزيرة الحرية. وأخيرًا رأيتُ للمرّة الأولى عن قرب وفي وضح النهار النصب البالغ ارتفاعه ثلاثة وتسعين مترًا مع قاعدته الغرانيتية الوردية وتمثاله المصنوع من النحاس الأخضر.

منذ الزمن الذي أردتُ فيه أن يعدّني الجميع مَلِكَةً، سيكون علي أن أظهر في الدقائق القادمة أنني فعلًا مَلِكة.

ألقيتُ نظرةً أخيرةً إلى الخلف ورأيتُ مانهاتن مع برج الحرية الذي يعلو بكثير كلّ الأبراج الأخرى.

إذا ما فشلتُ، سوف يموت الجميع، ومن ضمنهم ابني، ومن ضمنهم ناتالي. حتى موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة سوف تضيع بين ركام هكذا مبنى ولن يعثر عليها أحدٌ. سوف تكون هذه نهاية كلّ شيء. سيكون هذا عهد سيادة الجرذان، دون أن تكون هناك حتى ذكرى المعارف البشرية.

ولكي أمنح نفسي الشجاعة الكافية لمواصلة المهمّة، استفدتُ من ملحقٍ صغيرٍ كان سيلفان قد ركّبه بناءً على طلبي: الموسيقى. بدأ جهاز الاستقبال الخاصّ بي يبثّ مقطوعة *التوكاتا والفوغا* في سلم *ري الصغير* للموسيقار باخ.

وهكذا حلّقتُ فوق المياه على متن مسيّرتي ورأسي مليءٌ بهذه الموسيقى القويّة التي تمنحني طاقةً.

ربّما هذه هي لحظاتي الأخيرة في الحياة. يا له من حظٍّ أن أمتلك هذا الجهاز المزروع في رأسي. أنا فعلًا فريدة واستثنائية.

أنا رائعة.

أنا أحبّ نفسي.

يبقى السؤال المطروح: هل سأكون على مستوى هذه المواجهة التاريخية؟

42. لقاء ميدان قماشة الذهب

في عام 1520، قرّر المَلِك فرانسوا الأوّل مَلِك فرنسا والمَلِك هنري الثامن مَلِك إنكلترا، المَلِكان الأكثر أهمية في أوروبا في ذلك العصر، إرساء السلام وطرح خطّة للاتحاد الاقتصادي والعسكري لجميع البلدان الأوروبية. جاءت هذه الفكرة باقتراحٍ من توماس وولسي، المستشار الأوّل للمَلِك هنري الثامن، وكان هذا المشروع على نحوٍ ما أوّل مشروع لبناء اتحادٍ أوروبي سياسي. وبغرض تحقيق هذا التحالف، اقترح المَلِك فرانسوا الأوّل عقد لقاءٍ في معسكرٍ يقع في بالينهيم، بالقرب من بالي كاليه، في شمال فرنسا. بعد سنتين من المفاوضات، توصّل المَلِكان المتنافسان أخيرًا إلى اتفاقٍ. وكان المَلِك فرانسوا الأوّل آنذاك في الخامسة والعشرين من العمر، في حين كان المَلِك هنري الثامن في الثامنة والعشرين من عمره.

وقد مُنِح الحدثُ اسم «ميدان قماشة الذهب» بسبب مظاهر الأبّهة والبذخ غير المسبوقة التي عرضها المَلِكان. كانت الخيام الخشبية مغطّاة بأقمشة مطرّزة بخيوطٍ ذهبية. وكان كلّ ملكٍ قد جلب معه ثلاثة آلاف شخصٍ كان يجب تأمين الرفاهية والتسلية لهم: فكانت هناك الموسيقى والرقصات، والألعاب النارية، والألعاب التقليدية والولائم. كان الفرنسيون والإنكليز قد أحضروا خيرة حرفييهم وفنانيهم وطبّاخيهم لكي يُبهروا المعسكر المنافس.

جرى الحديث عن اتفاقيات تجارية وعسكرية. وأُعلِن الابن البكر لمَلِك فرنسا، البالغ ثلاث سنوات، خطيبًا لابنة مَلِك إنكلترا، ماري تيودر، التي كانت في الرابعة من عمرها. بيد أنّه، وبينما كانت المفاوضات بين الجانبين تحرز تقدّمًا، كانت هناك حفلة عشاء بدأ خلالها المَلِكان، اللّذان أفرطا في الشراب، باستفزاز بعضهما بعضًا. قال فرانسوا الأوّل إنّ الفنانين الفرنسيين هم الأفضل، والفرنسيات هنّ الأجمل والجنود الفرنسيين هم الأقوى في الألعاب التي جرت خلال الحدث. فتحدّى هنري الثامن منافسه في معركة. تعارك المَلِكان بالأيدي المجرّدة أمام حاشيتهما الملتئمة حولهما. انتصر فرانسوا الأوّل وطالب هنري الثامن بالثأر لهزيمته، لكنّ نبلاءَه نصحوه بعدم خوض معركةٍ جديدة. قرّر هنري الثامن، المحبط والغاضب، الرحيل مبكّرًا، ولم توقّع اتفاقيات السلام والتفاهمات الاقتصادية، وأُبطِلَ عقد الزواج.

تحالف هنري الثامن مع ألدّ أعداء فرانسوا الأوّل، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدّسة شارلكان. في عام 1525، أدّى تحالف الإنكليز والإمبراطورية ضدّ فرنسا إلى نشوب معركة بافيا، التي أُسِرَ فيها المَلِك الفرنسي المهزوم. ومع ذلك، في ميدان قماشة الذهب، لو لم يُقدِم المَلِكان على التعارك، كان من الممكن ليس تجنّب هذه الحرب فحسب، بل ربّما كان من الممكن أن تولَد أوروبّا الموحّدة، مثلما كان توماس وولسي يتمنّى غاية التمنّي.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

43. مبارزة الأذهان

أحاطت بي الجرذان من البارونات ذات الوبر الأحمر أو الرمادي التي حدّقت إليّ بنظرات غير ودّية. كانت رائحتها شنيعة ولكنني حاولت التغاضي عنها.

أصبحنا في المنتزه أسفل تمثال الحرية، الذي تتوسّطه منصّة يتربّع عليها الجرذ الأبيض ذو العينين الحمراوين.

لا تخافي. تنفّسي بعمق.

هبطتُ ولاحظتُ تفصيلًا أشعرني بالتوتّر: كديكور لمكان لقائنا، كان تيمورلنك قد وضع... قططًا مصلوبة.

تقدّمتُ نحو المنصّة.

لا تخافي. تنفّسي بعمق.

أخذتُ نفسًا عميقًا جدًّا، خلف الرائحة الكريهة للجرذان الحيّة، والرائحة الكريهة للجثث المتفسّخة للقطط المنحوسة المصلوبة.

لا ينبغي أن أنظر إليها.

ثمّ صعدتُ إلى المنصّة التي يعتليها ألدّ أعدائي.

كان قد أوصل مسبقًا دماغه بوصلة يو إس بي بيضاء مدّها نحوي بيديه الصغيرتين ذات الأصابع الأربع الشبيهة بأصابع البشر.

رفعتُ بمخالبي الكرة التي استخدمها كبلوتوث وأوصلتُ الوصلة البيضاء. ثمّ أغمضتُ عينيّ لكي أتلقّى أفكاره بأوضح ما يُمكن.

– سعيدٌ بلقائكِ، يا باستيت.

جيّد، إنّه يخاطبني بصيغة المفرد ويرفع الكلفة بيننا.

عاملته بالمثل.

– سعيدةٌ بلقائِكَ «أنتَ»، يا تيمورلنك.

تفحّصنا بعضنا بعضًا، وحرّك كلٌّ منّا خطمه للحصول على معلومات شميّة عن الآخر.

أنا ندمانةٌ على تدخين عشبة نَعْناع الهرّ الحقيقي، ربّما يكون ذلك قد أدّى إلى إتلاف بعض الخلايا العصبية في دماغي التي كان من الممكن أن تكون مفيدة لي في هذه اللحظة بالذات.

لن أتعاطى أبدًا بعد الآن مادّة تؤثّر على دماغي. وسوف أكتفي فقط بشرب الشامبانيا للاحتفال بالنجاحات.

– أنتِ من طلبتِ عقد هذا اللقاء، ما الذي تعرضينه عليّ، يا باستيت؟

– جئتُ لكي أتفاوض حول استسلامنا، يا تيمورلنك. مقابل حقّنا في الفرار، أنا مستعدة لمنحك أكثر ما ترغب في الحصول عليه، بحسب ما أعتقد: موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة.

أومأ بإشارةٍ من رأسه.

– أرى أنّكِ لم تعودي تحملينها حول رقبتكِ. ما الذي يمنعني أن أقتلكِ أوّلًا، وثانيًا أقتل كلّ الذين في برج الحرية، وثالثًا أستخرج من بين الأنقاض موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة، المحفوظة، على ما أتذكّر، في حافظةٍ مقاومة للنار وللانفجارات؟

– ما يمنعكَ من فعل ذلك هو أنني أعطيتُ أوامري لمن في البرج بإتلاف موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة في حال لم أعد إليهم أو لم أحصل على موافقتكَ. ورغم أنّ الفلاشة محفوظة في غلافٍ واقٍ شديد المقاومة، فإنّ رومان، الخبير في المعلوماتية، أكّد لي أنّه يعرف كيف يفكّكها لإتلافها. وبالتالي، سوف نخسرها نحن، وتخسرونها أنتم وفي الحقيقة يخسرها الجميع.

– أنتِ تخادعين.

– وهل أنتَ مستعدٌّ للمخاطرة بخسارتها؟

هذه المرّة، شعرتُ بأنّ خصمي متجاوبٌ مع حججي.

– هذا هو مقترحكِ إذًا، يا باستيت؟ تريدين أن تقايضي المعرفة بالنجاة؟

– كلّ المعارف مقابل بعض الحيوات. أعتقدُ أنّ هذه مقايضة مربحة بالنسبة إليك، ثمّ إنني لا أعتقدُ أنّ موتي سيجلب لك شيئًا سِوى الاستمتاع البدائي جدًّا برؤية عدوٍّ يُفنى. وأعتقد أنّك سوف توافقني الرأي على أنّ هذا الاستمتاع أمرٌ مؤقّت وعابر ومثيرٌ للسخرية بعض الشيء.

من حولنا، لم تفهم الجرذان المرتابة شيئًا من هذا الوضع الغريب: زعيمهم الكبير يتباحث مع عدوٍّ.

بالنسبة إليها، أنا قطّة، وبالتالي حتمًا كائنٌ ينبغي القضاء عليه.

– كما ترى، يا تيمورلنك، أنا أقرّ بانتصاركَ وبهزيمتي. لقد فكّرتُ في الأمر مليًّا. كان لا بدّ من أن تنتصروا لكي تخلفوا البشر، أن تنتصروا أنتم لا نحن، وهل تعرف لماذا؟

- أخبريني، فأنا أصغي إليكِ.

- لأنّكم أنتم الجرذان... حيوانات قارتة تتغذّى على النباتات واللحوم معًا.

بدا أنّه وجد الحجّة وجيهة. فتابعتُ حديثي.

- نحن القطط، نحن من الحيوانات اللاحمة، وبالتالي مصادر غذائنا محدودة، علينا أن نعثر على الفئران والطيور والأسماك لكي نأكلها. بالمقابل، أنتم... يمكنكم البقاء على قيد الحياة من خلال تناول الفاكهة والخضراوات والحبوب وحتى بعض الأطعمة الغريبة مثل البوليستيرين أو إسفنج الوسائد. أنا أعرف ذلك، وقد رأيتكم في الماضي وأنتم تأكلون منها، ولم تتأذّوا بها.

- الخنازيرُ أيضًا من الحيوانات القارتة.

- نعم، ولكن ليست لديها رغبتكم في السيطرة على العالم. إنّها حيوانات مسالمة، ولا تريدُ سِوى أن تعيش بسلامٍ ووفاقٍ مع جيرانها. ليست لديها ذهنية الغزاة التي تتّسمون بها.

الإطراء، إنّه يفعل فعله دائمًا.

- لم أشأ أن أقبل بذلك في البداية، ولكن من الآن فصاعدًا لا بدّ أن يكون المرء أعمى حتى لا يفهم ذلك. هذا هو معنى التطوّر. وأنت، يا تيمورلنك، شخصٌ فائق الموهبة وسط جنسٍ هو نفسه موهوبٌ بالأساس. لأنّك تلقّيت دفعة اصطناعيّة صغيرة من البشر.

أصغى إليّ بانتباهٍ. فكان عليّ أن أواصل حديثي في هذا الاتجاه.

- ستؤول الأرض إلى الجرذان، ونحن القطط، نطلبُ فقط أن نبقى بعيدين عن المدن، في الأقاصي الأكثر جفافًا، والأكثر برودةً، والأقلّ وفرةً بالطرائد. سوف نعيش كحيوانات بريّة. سوف نفرّ من وجودكم. وأنتم، سوف تستفيدون بفضل موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة من العلم والثقافة البشريين. وبهذه الطريقة، سوف تستفيدون على نحوٍ أفضل من المدن الكبرى التي بناها البشر وذلك ربّما من خلال الاستفادة من آلاتهم، وكهربائهم، وإلكترونياتهم، وفنّهم.

لا أعتقد أنّه مهتمٌّ بالفكاهة والحبّ...

فكّر الجرذ الأبيض ذو العينين الحمراوين ثمّ صرّح:

– لقد نسيتِ شيئًا، يا باستيت: لديّ ثأرٌ لا بدّ من الأخذ به من البشر الذين أذاقوني العذاب حينما كنتُ مجرّد جرذ مختبرات. لا أمانعُ في فرار القطط، ولكن ليس البشر. حينما أغرقوني في حوض التجارِب، قطعتُ وعدًا على نفسي بأن أجتثّ من الكوكب هذه الطفيليات الضارّة التي سبق أن ألحقت الكثير من الأضرار وتسبّبت بالكثير من الآلام لمن حولها.

خمّنت أنّه يجب الاتفاق مع رأيه، بيد أنني لم أشأ أن أستسلم بسهولة بالغة.

قلتُ:

– ربّما يمكنكَ أن تسامحهم، أليس كذلك؟

– أنتِ لا تفهمين موقفي، يا باستيت. ليس هناك فقط حقدي الشخصي. هناك أمرٌ آخر: من خلال اتّصالي بالإنترنت، استطعتُ أن أرى نتائج فعل البشر على الكوكب. في اللحظة التي حصل فيها الانهيار الكبير لحضارتهم، كانوا قد صنعوا واستهلكوا عددًا هستيريًّا من الأشياء غير المفيدة، وكانوا قد التهموا الطعام إلى درجة شنيعة، وأهدروا الكثير، واستخدم عددٌ هائلٌ منهم الطائرات والبواخر والسيارات دون سببٍ، بحيث تسبّب كلّ هذا بتشكّل سحابة دائمة من التلوّث الذي أحدث ارتفاعًا في درجات الحرارة. فذابت الكتل الجليدية في القطبين الشمالي والجنوبي، واحترقت الغابات، وانقرضت الأنواع البريّة. وقد استعبدوا ما أسموها «الأنواع المدجّنة»: الأبقار والحملان والدجاج والخنازير، وسواها، لكي يأكلوا لحومها كما لو أنّها مواد أوّلية. نحن الجرذان، استُخدمنا في التجارِب داخل مختبراتهم، ولكن أيضًا للتشريح في مدارسهم حيث كان أطفالٌ خُرقٌ يقتلوننا باستخدام مباضع حتى قبل أن يبدأ مفعول المخدِّر تمامًا.

حسنًا، هذا صحيح، فلطالما وجدتُ أنّ هذا ليس مقبولًا .

– ولكنّكم أنتم أيضًا، الكلاب والقطط، كنتم ضحاياهم. تذكّري أنّهم كانوا يجرون عمليات استئصال الأعضاء التناسلية للذكور والإناث بشكلٍ

منتظم حتى لا تكونوا مزعجين برغباتكم الطبيعية في التكاثر. وكانوا يحبسونكم في شقق كنتم في الواقع سجناء فيها، فقط لأنّ وجودكم كان يسليّهم.

إنّه ليس على خطأ بالكامل. أتذكّرُ مقابض الأبواب التي كانت تحدّد المنطقة التي أستطيع التحرّك ضمنها في الشقّة. وبعد ذلك كنتُ أُحجَز! لم أفهم قطّ كيف كانت ناتالي تجرؤ على أن توجّه لي هذه الإهانة.

– وكانوا يزعمون أنّهم يفعلون هذا بدافع الحبّ الذي يكنّونه لحيواناتهم الأليفة العزيزة.

هذه أيضًا نقطة مهمّة.

– صدّقيني، يا باستيت، أيًّا كان الأساس الذي تنظرين من خلاله إلى «المشكلة البشرية»، فلن تجدي أيّ شيء يجعل بقاءَهم على قيد الحياة شرعيًّا. إنّهم بالفعل جنسٌ طفيلي مضرٌّ لكلّ الأشكال الأخرى من الحياة على الكوكب.

أعتقدُ أنني سمعتُ المدّعي العام للخنازير أثناء الدعوى التي رفعتها الخنازير عليهم.

أجبتُ:

– نحن جميعًا لدينا «بعض السخط» عليهم، ولكن هل عليّ أن أذكّرك بأننا أيضًا ندين لهم بوجودنا؟ هل تعتقد أنّك كنتَ ستولَد لو لم يشأ البشر أن يجروا عليك هذه التجارِب الشهيرة؟ أنا بنفسي، ذات يوم، قالت لي أمّي إنّني ولدتُ وبقيتُ على قيد الحياة لأنّ بشرًا قرّروا ذلك. حتى الخنازير أدركت في النهاية أنّها تولَد بالتأكيد لكي تُقدِّم اللحم، ولكنّها لا تولَد إلّا بإرادة البشر.

– كنتُ أفضّل أن أولَد حرًّا في طبيعةٍ خالية من البشر وهذا ما أُريدُ أن أقدّمه ليس فقط للأجيال المقبلة من الجرذان، بل أيضًا لكلّ الحيوانات، بما في ذلك القطط، التي، وعليّ أن أعترف بذلك، يمكنني في النهاية أن أتفاهم معها شريطة أن تقبل بسيادتنا.

– أتذكّر أنّك سبق أن عرضتَ خضوعًا كهذا على القطّ سفينكس في برج المياه. وأتذكّر أنّ هذا لم يجلب له الحظّ حقًّا...

– لم يكن القطّ سفينكس يحظى بالكاريزما التي تحظين بها أنتِ. إنّ خيانته لكِ جعله موضع الشبهة والريبة عندي. إذا كان قادرًا على خيانة أحد أبناء جنسه، فهذا يعني أنّه يستطيع خيانة أيّ كائن آخر، فما بالكِ بجرذٍ. وضعته في فئة المتقلّبين. تستطيعين أن تفهمي هذا، يا باستيت، أنتِ التي على الأرجح قد اضطُرِرتِ لقيادة مرؤوسين ضعيفي النفس.

بكلّ تأكيد.

– حتى إذا كنّا قد تجابهنا، يا باستيت، عليكِ أن تعلمي أنني أكنّ لكِ احترامًا رفيعًا. أنا أعدّكِ خصمًا بمستواي. وفي الحقيقة لهذا السبب بالذات وافقتُ على عقد هذا اللقاء.

– شكرًا، عليّ أن أعترف لك بأنّ هذا هو موقفي أنا أيضًا منكَ، يا تيمورلنك.

نظرتُ إليه بتركيزٍ أكبر. رأيتُ نفس العينين الحمراوين اللتين لا بدّ أن أعترف بأنّهما كانتا تخيفانني. وكان له نفس الذيل الطويل والرفيع الوردي اللون الذي يثير اشمئزازي. تذكّرتُ عندما انهال به كالسوط على وجهي لكي يُعميني.

ألححتُ عليه:

– إذًا، هل أنت موافقٌ على العرض الذي أعرضه عليك؟

– يمكنني أن أقبل به بالنسبة إلى القطط، وليس بالنسبة إلى البشر. أنا أكرههم للغاية بحيث لا يمكنني أن أتركهم يغادرون.

اللعنة! لم ينجح الأمر.

قلتُ:

– لا يستحقون كلّ هذا الحقد.

– بلى.

– لماذا؟

– أنا أطرحُ عيكِ أنتِ هذا السؤال، يا باستيت: ما هو الشيء الموجود عند البشر ويمكنه أن يُثير أدنى إعجاب؟

لا بدّ من المراوغة هنا.

– ربّما لم أعش معهم بما فيه الكفاية لكي أُجيب على سؤالك، وهذا هو أيضًا السبب الذي من أجله أرغب في البقاء برفقتهم.

– يجب أن ينقرضوا مثل الديناصورات. أنتِ وأنا، يمكننا أن نتفاهم، أمّا هم، فلا يمكن التفاهم معهم أبدًا. وكما ترين، لم تستطيعي الردّ على سؤالي.

ما هو الشيء الموجود عند البشر ويمكنه أن يُثير أدنى إعجاب؟

خطرت عدّة إجابات في بالي، ولكنني شعرتُ بأنّها ليست كافية، وسوف يدحض حجّتي بسهولة. حاولتُ أن أغيّر الموضوع لكي أستهدفه هو شخصيًّا كفرد.

– أن يكون المرء إمبراطورًا يجب عليه أن يتحكّم بعواطفه. الحقد سهلٌ، على العكس من الغفران، وهو شعورٌ يتطلّب الكثير من الجهد.

– الغفران؟ إنّه شأن الضعفاء والجبناء. وبالتالي، يبقى ردّي سلبيًّا فيما يخصّ احتمال أن أغفر لهم وأدعهم يغادرون.

لم أستطع الامتناع عن النظر حولي إلى القطط المصلوبة التي عرضها لكي يخيفني وتساءلتُ في نفسي إن كنتُ أستطيع أن أغفر له هذا.

وجاءني الجواب صريحًا وواضحًا: كلا. ولكن لمجرّد أنني لا أستطيع أن أسامح لا يعني أنّه لا ينبغي لي الترويج لهذا الموقف الإيجابي.

– كانت أمّي تقول إنّ التفاوض الحقيقي يُجرى دائمًا بصعوبة. وإذا كان التفاوض يسيرًا وسهلًا للغاية، فهذا يعني أن أحد الفريقين يخدع الآخر.

– كانت أمّكِ حكيمة. لم أحظَ بسعادة معرفة أمّي لأنني، كما تعلمين، ولدتُ في المختبر. ولكنني أُصغي إليكِ، ما الذي تقترحينه أكثر مما عرضتِ حتى الآن؟

– مركبتي: وهي مسيّرة يجري التحكّم بها بواسطة فلاشة يو إس بي مع نظام البلوتوث. وبهذه الطريقة، سوف يمكنك أن تطير مثلما فعلتُ أنا اليوم لكي أصل إليك. سوف أقدّمها لك إذا ما عفوت ليس عن كلّ البشر، وإنّما فقط عن أولئك الموجودين في برج الحرية. يمكنك أن تقتل جميع الآخرين إن كان هذا يُرضيك.

فكّر لهنيهةٍ ثمّ قال:

– كم عدد البشر الموجودين في برجكِ؟

– أربعون ألفًا، بالإضافة إلى ثمانية آلاف قطٍّ وقطّة وخمسة آلاف كلبٍ.

– وإلى أين سوف تذهبون؟

– لا أعرفُ بعد. ولكن بعيدًا من هنا. وبذلك سوف تستطيع أن تقيم إمبراطوريتك وتعزّز أركانها. وسوف تكون مانهاتن عاصمتك. ويمكنك أن تقيم في البرج الأعلى، برج الحرية، بدل أن تقوم بتدميره. ومن هناك، يمكنك الاتّصال بالحواسيب وسوف تتمكّن من توحيد الشعوب الأخرى لجرذان البلدان الأخرى. وبذلك ستكون سلطتك غير قابلة للجدل.

– وبعد ذلك؟

– بعد ذلك، لن يعود لديّ خيارٌ، ولا البشر أيضًا، سوف نصبحُ شعوبًا تابعة تعمل فقط في سبيل مجدك. والبشر سوف يقدمون لك تقنياتهم المتطوّرة.

فكّر تيمورلنك ثمّ صرّح:

– لدي اختبارٌ أقترحه عليكِ. إذا نجحتِ فيه، سوف أواصل هذا النقاش معكِ برغبة كبيرة في إرضائكِ وسوف يكون بوسعي البدء بتصوّر الحفاظ على حياة جماعتكِ من البشر.

لقد أحكم السيطرة على المفاوضات.

– وإذا فشلتُ في الاختبار؟

– سوف تموتين وسوف أتدبّر أمري في إقامة إمبراطورية من دون تقنيات البشر المتطوّرة. فليكن: سوف أتخلّى عن موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة. ففي نهاية المطاف، لا بدّ أن تكفيني معرفة النار والبارود لكي أفرض هيمنتي.

حاولتُ أن أستعيد المبادرة.

– بدل الاختبار، ألا يمكننا أن نلعب لعبةً؟ لعبة شطرنجٍ على سبيل المثال؟ لقد تعلّمتُ هذه اللعبة خلال رحلة عبور الأطلسي. إذا كنتَ ترغب في ذلك، يمكننا أن نتجابه بهذه الطريقة.

هزّ رأسه رافضًا.

– لسوء الحظّ، لا أُجيد لعبة الشطرنج.

– هل تُريد أن أعلّمكَ إيّاها؟

– كلا.

– هل تريد أن تقاتل مرّة أخرى؟

– كلا، سأتغلّب عليكِ بسهولة بالغة، فأنتِ بطيئة جدًّا.

تذكّرتُ أنّه بالفعل كان يتّسم بردود فعل سريعة ومرونة رائعة وأنني لم أنجُ إلّا بوصول الببغاء شامبليون الذي رفعه إلى السماء.

– على أيّ حال، لم أتحدّث عن لعبةٍ، بل عن اختبارٍ. لقد حدّثتُكِ عن طفولتي، وأنتِ تتذكّرين ذلك. وبالتالي، لكي نتناقش ندًّا لندّ، أريدُ أن تخضعي للتجربة نفسها التي خضعتُ لها. إذا نجوتِ، سوف أعدّكِ شريكةً في تفاوضٍ مقبول.

نبشتُ في قاع ذاكرتي وتذكّرتُ في الواقع حكايته المروّعة. خلال شبابه كجرذ مختبر، أُخضِعَ إلى تجربة مرعبة تتمثّل في إغراقه في الماء داخل وعاءٍ شفّاف لا يستطيع تسلّق جدرانه. وقبل أن يستسلم بالضبط، أُنقِذَ. على الأقلّ، أُخرِجَ من الماء لبضع دقائق ليروا إن كان إنقاذه في اللحظة الأخيرة قد وهبه قدرة أكبر على المقاومة للبقاء على قيد الحياة إذا ما أُعيدَ مرّة أخرى إلى الوعاء المليء بالماء. كانت تلك التجربة عبارة عن دراسة لعلماء بشريين أجروها على قدرة التفاؤل. بحسب ما تذكّرت، كان تيمورلنك قد سجّل بذلك رقمًا قياسيًّا ولأنّه نجح في الاختبار، أبقوه على قيد الحياة.

قلتُ، مستسلمةً:

– أوافق على الخضوع للاختبار.

صفّر الجرذ الأبيض ذو العينين الحمراوين فنقلت أربعة جرذان على أطراف قوائمها حوضًا زجاجيًّا مليئًا بالماء. وأحضر خامسٌ شيئًا لم أعرفه في الحال، ولكن تبيّن لي لاحقًا أنّه عبارة عن موقِّت.

ما كان عليّ أن آتي إلى هنا. إذا ركضتُ سريعًا، ربّما أتمكّن من الصعود إلى المسيّرة.

ألقيتُ نظرة على مركبتي الطائرة، ولكنني وجدتُها محاطة بالجرذان.

– ها هو الاختبار. إذا ما صمدتِ لوقتٍ طويل، سوف أستطيع أن أنظر في الردّ على اقتراحاتكِ ردًّا إيجابيًّا.

بحثتُ مرّة أخرى عن إمكانية التهرّب من هذا الاختبار والفرار من المكان. ولكن لم أجد أي فرصة. لم يُرحني مشهد القطط المصلوبة.

جادلتُ:

– هذا يعني أنني سأتحسّس من الماء. كما تعلم، نحن القطط لدينا شعرٌ طويلٌ يُثقلنا ويمنعنا من السباحة.

– لقد سبق لي أن رأيتُ قططًا تسبح.

– إذًا دعنا نقول إنني، *أنا شخصيًا*، أعاني من رهاب الماء. حينما أرادت سيّدتي أن تغسلني تحت مرشّ الحمام، خرمشتُها.

– لقد أخبرتني الجرذان الأمريكية بأنكِ قفزتِ من السفينة لكي تقاتلي الجرذان السابحة في البحر.

– أوه، هناك مبالغة كبيرة في هذه الحادثة. لم أفعل ذلك عمدًا، بل سقطتُ بالمصادفة. ومرّة أخرى، لحسن الحظّ أنقذت صديقةٌ حياتي، وإلّا كنتُ غرقت.

– يبدو أنّكِ بعد ذلك صعدتِ إلى السفينة، وأنّكِ قاتلتِ من جديد رغم أنّكِ كنتِ مبلّلة بالكامل.

حسنًا، هذه هي مشكلة الأساطير الإيجابية التي تُنسَجُ حول المرء، يمكنها رغم كلّ شيء أن تأتي بنتائج عكسية عليه.

قال بافتخار:

– مدّة الصمود: إحدى وعشرون دقيقة. هذا هو رقمي القياسي الأوّل الذي سجّلته. لا ينبغي أن يكون هذا صعبًا بالنسبة إليكِ. ففي النهاية، لديكِ رئتان أكبر حجمًا وسعةً من رئتيّ أنا.

سحب وصلة اليو إس بي وانفصل عنّي، وهبّ أربعة بارونات لدفعي لكي أذهب وأصل إلى ما يشبه لوح غطسٍ مصنوعٍ من الخشب.

عرفتُ الجرذ الذي ضغط على زرّ الموقّت: إنّه بولس. بدأ الوقت يمّر: عشر ثوانٍ.

دفعني جرذٌ إلى حافة لوح الغطس وسقطتُ في الحوض.

وبعد ذلك، تبلّلت وانتظرت.

راقبني تيمورلنك ليرى كيف أتصرّف حيال تعذيبه «هو» لي أنا.

حسنًا، كما تتذكّرون، أنا أكره الماء، ولم أقفز إلى نهرٍ إلّا حينما اضطررتُ للفرار، تلحق بي مجموعةٌ من القطط الخائنة والعدوانية. وحينئذٍ، وبعد أن تجاوزتُ خوفي الأوّل، اكتشفتُ أنني ليس فقط لا أغرق، بل إنني من خلال تحريك قوائمي أستطيع أن أسبح.

وتعلمتُ آنذاك أن لا أعود أتخبّط في الماء، بل فقط أنسّق بين حركات قوائمي لكي أصمد.

بيد أنني لا أستطيع الصمود إلى ما لا نهاية. وأنا لا أدرك ما تمثّله هذه المدّة البالغة إحدى وعشرين دقيقة. كانت المشاعر الأولى مزعجة جدّا.

تغلّبي على الهلع، وتنفّسي بعمق.

أغمضتُ عينيّ.

تنفّسي ببطءٍ أكثر فأكثر.

وهنا نسيتُ أين أكون.

يجبَ أن أهدّئ نبضات قلبي وأجعلها أبطأ.

كان علي أن أستطيع تشغيل أعضاء جسمي بطريقة بطيئة.

تمّ الأمر، لقد نجحتُ. يجب أن أفكّر بأمرٍ إيجابي.

ماذا قال لي فيثاغورس، من قبل؟ آه، لقد تذكّرت:

«كلّ ما يحدثُ لكِ هو خيرٌ لكِ. هذا الزمكان هو البعد الذي اختارته روحكِ لكي تتجسّد. يتيحُ لكِ أحباؤكِ وأصدقاؤكِ معرفة قدرتكِ على الحبّ. إنّ أعداءكِ والعراقيل التي تنتصب في وجهكِ يتيحون لكِ أن تعرفي مقاومتكِ وصمودكِ. تتيحُ لكِ مشكلاتكِ معرفةَ نفسكِ على نحوٍ أفضل».

لم أكن أدري إن كان تيمورلنك وعذاب الغرق الذي خضعتُ له يخدمانني في شيءٍ ما. راودني شكٌّ جدّي.

كان فيثاغورس يعاني من رهاب الأمكنة العالية وقد سقط.

أمّا أنا، فأعاني من رهاب الماء وأنا على وَشْك أن أغرق. في النهاية، لستُ متأكّدَة من أنّ المحن تتيح لنا أن نعرف أنفسنا أكثر، إنّها تتيح لنا أن نعرف أنّه ما كان يجب أن نذهب إلى مكانٍ بعدما يفوت الأوان...

إذًا، منْ غيره يمكنه أن يساعد روحي التي تواجه هذا الاختبار الرهيب؟

أمّي.

وهي الأخرى قد ماتت، ولكنّها أعطتني درسًا. ماذا قالت لي آنذاك؟

«عقلكِ ليس حبيس جسدكِ. يمكن لذهنكِ بكلّ بساطة، إن شاء ذلك، أن يخرج من هذا السجن الجسدي ليحلّق مثل عصفورٍ يغادر قفصًا. وحينئذٍ لا يعود له حدودٌ».

إذا أردتُ التغلّب على هذه المحنة، يجب أن أنسى نفسي. أنا لستُ مجرّد باستيت. أنا لستُ مجرّد قطّة. أنا لستُ مجرّد كائنٍ حيٍّ بقلبٍ ودماغٍ وأحشاءٍ ورئتين.

أنا أيضًا روحٌ نقية يمكنها التفوّق على المادة.

تراءت لي صورتي مثل غلافٍ شفّافٍ، شبيهٍ بي، يخرج من أعلى جمجمتي ورأيتُ نفسي من الخارج. وجدتُ نفسي قطّة منبطحة على بطنها فوق الماء في حوضٍ شفّافٍ بجانبه جرذٌ صغيرٌ أبيض بعينين حمراوين يراقبني. وهنا رأيتُ بولس مع موقّته وتساءلتُ منْ يكون.

أهو عميلٌ مزدوج أم عميلٌ ثلاثي؟

حام ذهني فوق مسرح الأحداث.

باستيت معرّضة لخطر الموت. يجب أن أساعدها.

من الخارج، عليّ أن أرسل إليها موجة مفيدة تدفعها إلى إبطاء عملية الأيض لديها أكثر.

يمكن لتنفّسها أن يكون أبطأ.

يمكن لدقّات قلبها أن تكون أكثر تباعدًا.

وماذا لو انقلبت هذه القطّة على ظهرها؟ تبًّا، كيف لم أفكّر بهذا الأمر مبكّرًا؟ إذا ما انقلبت «هي» على ظهرها وتسطّحت، فسوف تحظى بقدرة أفضل على التحمّل.

عدتُ لهنيهةٍ إلى جسد باستيت لكي أقترح عليها أن تنقلب على ظهرها، وبالفعل حينما أصبحت مستلقية على ظهرها، متباعدة القوائم، ومرفوعة الرأس نحو السماء، بدا لي أنّ عملية إبطاء تنفّسها ودقّات قلبها أصبحت أسهل.

رأيتُ تيمورلنك الذي كان يراقب القطّة في الحوض.

ربّما يستطيع ذهني أن يفهم ذهنه بطريقة مختلفة من الخارج.

اقتربتُ منه وفهمت.

أدركتُ أنّه يستمدّ قوّته من الآلام التي عانى منها في الماضي.

هناك كمٌّ هائلٌ من الغضب يعتملُ في صدره ضدّ البشر. هناك إرادة هائلة تدفعه إلى تدمير كلّ ما لا يشبهه.

ومع ذلك شعرتُ بأنّه لا يكنّ أيّ عداءٍ لي شخصيًّا، وأنّه سوف يفي بوعده لي إذا ما نجحتُ في الاختبار.

يجب أن أفوز.

رأيتُ الموقّت وهو يشير إلى سبع عشرة دقيقة وسبع وثلاثين ثانية.

عدتُ نحو جسدي ونظرتُ إلى نفسي من الخارج.

كبحني أمران عن سيطرتي على نفسي:

1) الخوف من الموت. فأنا لم أكتب بعد مذكّراتي.

2) الحقد. أنا أحقدُ شخصيًّا على تيمورلنك. لقد قتل الكثير من القطط!

ولهذا السبب ظلّ تنفّسي مضطربًا ولم يهدأ قلبي أكثر.

عليّ أن أنجح في تجاوز هاتين العقبتين.

لا ينبغي أن أخاف الموت.

يجب أن أكفّ عن الشعور بالعدوانية تجاه تيمورلنك. هو يعتقد أنّ ما يفعله أمرٌ جيّد. ربّما لو كنتُ جرذًا لكنتُ مثله.

ربّما علي النجاح في أن... أحبّه.

كلا، لا ينبغي أن أبالغ في الأمر، هذا هو حدّ ذهني، ولكن يجب أن أكفّ عن الحقد عليه.

وأخيرًا هدأ تنفّسي.

ثماني عشرة دقيقة وخمس وأربعون ثانية.

هذا هو - الوصول إلى حالة من اللامبالاة حيال باستيت وتيمورلنك اللّذين أراهما في الأسفل.

يجب أن أتمكّن من إيجاد «تخلّ» حقيقيّ.

ليس للفوز أو الخسارة أيّ أهمية.

هدأ إيقاع تنفّسي وقلبي أكثر من ذي قبل.

أنا الآن قطعة خشبٍ طافية على وجه الماء. أستطيع الصمود لوقتٍ طويلٍ جدًّا.

عشرون دقيقة وخمس ثوانٍ.

تبًّا، لقد تمّ الأمر، سأنجح. أنا أكثر من باستيت، أنا أكثر منها بكثير.

نظرتُ إلى جسدي السابق كقطّة الذي كان يطفو على الماء وأنا لم أعد في داخله.

لا ينبغي أن أفكّر في نفسي.

أنا لستُ في هذا الجسد. أنا في الأعلى، أنا...

ولكن فجّأةً، عاد ذهني إلى جسدي، وأدركتُ أنني قد أُنهكتُ في الماء وانقلبتُ على بطني.

شعرتُ بكلّ جسدي الذي أرسل إليّ علامات تشنّجٍ وارتعاش.

أنا أتألّم.

تخبّطتُ في الماء ونثرته من حولي. وكلّما قاومتُ أكثر، تعبتُ أكثر وضعفتْ قدرتي على التنفّس. اختنقتُ.

عشرون دقيقة وخمس وعشرون ثانية.

يجب أن أصمد.

رأيتُ بولس بالقرب من الموقّت.

عشرون دقيقة وثلاث وأربعون ثانية.

بدأ كلّ هذا الماء المحيط بي يصبح غير قابلٍ للتحمّل.

اختنقتُ. تسارعت وتيرة تنفّسي ودقّ قلبي بقوّة شديدة بحيث أصبحتُ أشعر بحرقةٍ في قفصي الصدري.

عشرون دقيقة وخمسون ثانية.

تورّمت رئتاي. لم أعد أقوى على التفكير.

الصمود!!! الصمود!!!

عشرون دقيقة وثمانٍ وخمسون ثانية.

و... إحدى وعشرون دقيقة بالتمام والكمال!

أطلقتُ مواءً هو صرخة غضب.

فليخرجوني من هنا!

وأخيرًا جاءت بعض الجرذان وانتشلتني وفقط حينما أصبحتُ خارج الحوض تمامًا سمحتُ لهذه الفكرة أن تراود ذهني:

لقد نجحتُ في الاختبار!

انتفضت وتنفّستُ بعمقٍ متزايد. ظلّت الارتعاشات تسري في كلّ جسمي.

لكنّ شعوري بالنجاح بثّ فيّ إندروفين اللذّة بما يفوق أدرينالين الألم الذي خفّ سريعًا في دمي.

هدأتُ.

لقد فزتُ!

استعدتُ تدريجيًّا السيطرة على جسدي حتى نهاية أطرافه وخاصة رأس ذيلي.

لم أرفع عينيّ عن تيمورلنك قط.

لعقتُ جسمي. وأخيرًا، عندما حسَبتُ نفسي حسنة المظهر، أنا منْ قمتُ بتوصيل قابس اليو إس بي وأنا منْ ناولته قابسه.

عاودنا الاتصال بعضنا ببعض.

قال، معترفًا:

– لم أكن أعتقد أنّكِ قويّة إلى هذه الدرجة.

ولا أنا.

– إذًا، هل يمكننا أن نغادر؟

– نعم.

– مع البشر؟

– نعم.

إنّه معجبٌ بي. إنّه غير مصدّقٍ أنني نجحت.

– ولكنني تحدّثتُ عن اختبارٍ يفتح باب التفاوض. وافقتُ على أن تبذلي جهدًا لإنقاذ حياة «جماعتكِ» من البشر، ولكن بالمقابل، أريدُ علاوة على ذلك موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة، والمسيّرة المزوّدة بنظام بلوتوث للإرسال والاستقبال للاتّصال بموسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة لاسلكيًّا.

– ممتاز، وبهذه الطريقة يمكننا أن نتواصل، نحن الاثنين، أيضًا لاسلكيًّا إذا دعت الضرورة ذلك. وسوف تستطيع أيضًا أن تقود المسيّرة. ولكن عليّ أن أنبّهك إلى أنّها تحتاجُ إلى شيفرة إقلاع لكي تعمل. نوعٌ من مفتاح الأمان.

– حسنًا، ولكي أوجز لكِ مطالبي، أريدُ أوّلًا وقبل كلّ شيء فلاشة اليو إس بي التي تحتوي موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة، والتي تحتوي على كلّ كتب البشر وأفلامهم وموسيقاهم وصورهم. ثانيًا، الكرة الصغيرة للعين الثالثة في إصدار بلوتوث التي تتيح الاتصال لاسلكيًّا. ثالثًا، تعهّد البشر بعدم العودة أبدًا أو محاولة إلحاق الأذى والضرر بي أو بالجرذان عمومًا.

جيّد، نحن نحقّق تقدّمًا.

– بكلّ تأكيد، إذا سمحتَ لنا بالرحيل، أتعهّد بالامتناع عن القيام بأيّ شيءٍ ضدّك.

قال تيمورلنك:

– هل تعلمين لماذا لا أقتلكِ، يا باستيت؟ أنتِ الوحيدة القادرة على فهم ألمي.

نظر إليّ وتنفّس نفسًا عميقًا. ثمّ أضاف:

– أتمنى أن تكتبي لاحقًا ما حصل لنا، حتى يعلم العالم كيف نجحتُ في بناء الحضارة الجرذية. وسوف تصبحين حينئذٍ مؤرّختي الوحيدة من غير الجرذان وسوف يكون بوسعكِ أن تنشري هذه المعلومات بين الأنواع الأخرى، أليس كذلك؟

– أنا موافقة، إذا سمحتَ لي بالمغادرة وإذا التزمتَ بوعدكَ في أن يرحل معي قاطنو البرج، حينها سوف يكون بوسعي أن أصبح شاهدةً على قيمتكَ. وأتعهّد بألا أحاول أبدًا إلحاق الأذى والضرر بك.

شعرتُ بأنّه لا يزال متردّدًا. بدر تشنّجٌ ينمّ عن غضبٍ من عينه اليسرى.

شعرتُ بأنّه هو الآخر يعيش في هذه اللحظة أكثر ما أكرهه: الشكّ.

أكثر من أيّ وقتٍ مضى، شعرتُ بأنّ مستقبل العالم سوف يتوقّف على اللحظات التالية لهذا اللقاء. وأنّ هذا المستقبل لن يتغيّر إلّا إذا امتلكتُ القدرة على الإقناع بما فيه الكفاية.

44. قصّة أستير

تُعدُ أستير واحدة من أوائل النساء اللواتي خضن عملًا سياسيًّا مؤثّرًا وحاسمًا. جرت قصّتها في عام 480 قبل الميلاد، حينما كان الفرس قد غزوا كامل الشرق الأوسط من مصر إلى تركيا وصولًا إلى الهند.

وإذ لم يكن مَلِك الفرس، خشايارشا الأول، راضيًا عن زوجته الأولى فاشتي، عزلها وبحث عن زوجةٍ جديدة. والحال أنّ شخصًا يُدعى مردخاي، كان قد أنقذ المَلِك من مؤامرةٍ، قدّم له ابنة عمّه: أستير.

وفي الحال وقع خشايارشا الأول في غرامها وتزوّجها.

أخفت استير هويّتها اليهودية. كانت في الحقيقة تنتمي إلى قبيلة

بنيامين، وهي إحدى القبيلتين اللتين نجتا وأسّستا مملكة يهودا قبل أن تُحتلَّ هي الأخرى وتُنفى طبقتها الأرستقراطية قسرًا إلى بلاد فارس.

كان هامان وزيرًا محابيًا للمَلِك. فأصبح رئيسًا للوزراء. وإذ غضب من مردخاي، الذي كان يعلم أنّه يهودي، والذي رفض الانحناء أمامه، نشر هامان مرسومًا باسم المَلِك يقضي بإبادة جميع اليهود المقيمين في مئة وسبعة وعشرين إقليمًا في الإمبراطورية.

فقرّرت أستير في تلك اللحظة أن تتصرّف. دعت إلى العشاء الوزير هامان، بحضور المَلِك خشايارشا. وأثناء المأدبة، كشفت أنّ مردخاي، الرجل الذي أنقذ المَلِك من مؤامرةٍ، كان يهوديًّا وأنّها هي نفسها يهودية أيضًا.

أعلمت المَلِك بأنّ هامان قد اتّخذ قرارًا بشن عملية إبادة لجميع يهود المملكة. ولأنّ الأمر كان قد صدر، سمح المَلِك خشايارشا لليهود بالدفاع عن أنفسهم. استمرّت المعارك يومين وقُتِل الألوف.

وعندما انتهت هذه الفترة من الاضطرابات، استطاع اليهود العيش بسلامٍ، وشُنِقَ الوزير هامان مع أبنائه العشرة في أعقاب ذلك.

ونجحت أستير بهذه الطريقة في إنقاذ شعبها. هذه الحادثة المذكورة في العهد القديم هي أساس الاحتفال بعيد الفور (بوريم)، وهو أيضًا أحد أوائل الكرنفالات.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

45. الهجرة

مشيتُ وأنا أضع قوائمي مباشرةً على الإسفلت.

امتدّ أمامي شارعٌ عريضٌ من شوارع نيويورك خال تمامًا.

وخلفي:

أربعون ألف بشريّ.

ثمانية آلاف قطّ وقطّة.

خمسة آلاف كلبٍ.

إنّه شعبي الذي يتبعني.

وعلى كلّ جانبٍ من الشارع، هناك سياجان من مئات آلاف الجرذان التي تفوح رائحتها قويّةً.

كانت أمّي ستعشق رؤية هذا المنظر.

راقبتنا القوارض بحنق ولكنّها نجحت في تمالك نفسها وامتنعت عن الانقضاض علينا.

وحدها أصوات أطراف أذنابها الوردية التي حرّكتها بنفاد صبر كشفت عن خيبة أملها في عدم الانقضاض علينا.

إنّها تطيع أوامر إمبراطورها.

لمحتُ جرذانًا رمادية بين تلك البنّية، التي كانت بلا أدنى شكّ جرذانًا فرنسية بين الجرذان الأمريكية.

ولكي أتحاشى إرهاق نفسي، تسلّقتُ كتف خادمتي ناتالي.

أمرتها:

– تقدّمي إلى الأمام بخطٍّ مستقيم.

يجب دائمًا إعطاء أوامر واضحة وحازمة للبشر وإلّا فسوف يُماطلون.

جاء ابني أنجيلو، الجاهز دائمًا لتقليد أمّه، واستقرّ على كتف رومان ويلز. وهرولت أسميرالدا غير بعيدٍ عنّا.

من مدخل برج الحرية، سلكنا جادة ويست ستريت حتى وصلنا إلى شمال مانهاتن.

كان عدد الجرذان المحيطة بنا بالفعل كبيرًا جدًّا.

أكثر من أيّ وقتٍ مضى، استطعتُ أن أقدّر أنه لم تكن لدينا أيّ فرصة للنجاح ضدّ هكذا خصم، الذي علاوة على ذلك يتمتّع بقيادة زعيمٍ ذكيٍّ جدًّا.

لم ننتصر ولكننا لم ننهزم أيضًا هزيمة ساحقة. والأهمّ من كلّ شيء، هو أننا لا نزال أحياء. وطالما أننا أحياء، يمكننا أن نتصرّف.

استغرقت هجرة جماعتنا القططية والبشرية إلى شمال جزيرة مانهاتن، نحو ما يسمّونه «جسر هنري هودسون»، عدّة ساعات من وقتنا.

ما وراء هذا الجسر، بحسب اتفاقنا، لم تعد هناك جرذانٌ. ولكن رغمّ كلّ شيء، وخشية أن يكون بعضها مختبئًا خلف العمارات، انتظرتُ إلى أن يمرّ كلّ فوجِنا لكي أنتقل إلى المرحلة التالية من خطّتي.

ولما عبر كلّ «شعبي» جسر هنري هودسون، صعدتُ إلى المسيّرة. ربطتُ الحزام، وضغطتُ بمخالبي لكي أُدخِلَ في لوحة المفاتيح الرقمية الرمز «103683» وارتفعت مركبتي الطائرة.

توجّهتُ نحو الجنوب، وطرتُ فوق الماء.

وصلتُ إلى جزيرة الحرية.

وجدتُ حلقة من البارونات الرماديين تحيط بالمنصّة التي يتربّع عليها الإمبراطور.

هبطتُ، ونزعتُ حزام الأمان ووقفتُ أمامه.

فناولته كرة صغيرة في طرفها فلاشة إلكترونية.

إنّها فلاشة يو إس بي مع نظام البلوتوث.

دسّه في عينه الثالثة ونجحنا أخيرًا في التحاور دون شريطٍ واصل.

وبدل أن يلقي عليّ تحيّة الصباح، قال:

– جيّد، لم يعد هناك سِوى تنفيذ آخر بندٍ رسميٍّ من اتّفاقنا.

فمددتُ رقبتي نحو الجرذ، الذي نجحت أياديه البارعة في فكّ عقدة قلادتي التي تتدلّى منها فلاشة اليو إس بي التي تحتوي على واحد زيتا بايت، أي ألف مليار مليار بايت، من المعارف البشرية.

لا شكّ أنّ رؤية موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة بين هذه الأيادي، بعد كلّ ما عانيته، قد أثارت شيئًا ما في داخلي، وفي قرارة نفسي، عرفتُ أنني اتخذّتُ الخيار الأقلّ سوءًا.

بدا الحيوان القارض متحمّسًا لتداول القطعة. وفي تلك اللحظة، وكما لو أنّ الأمر يتعلّق برمزٍ للسلطة، وضع قلادتي «أنا» حول رقبته «هو».

قلتُ:

– ها هي موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة كما وعدتكَ. لفتحها، سيكون عليك استخدام رمزٍ.

– ما هو؟

– «ويلز 103683». والأحرف كلّها صغيرة.

أغمض عينيه، وأعلن:

– في الواقع، تسير الأمور بطريقة مثالية. هذا ممتاز. لقد وفيتِ بوعدكِ. كنتُ سأُصاب بخيبة أمل لو أنّكِ أعطيتِني فلاشة فارغة.

– وماذا ستفعل الآن؟

– بفضل موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة، سوف أتثقّف وأفهم على نحوٍ أفضلٍ العالم كما هو على حقيقته. حينها، وحينها فقط، سوف أنظّم حكمي لكي يعيش كلّ كائنات هذا الكوكب تدريجيًّا تحت راية السلام الذي سوف أنشره «أنا» بنفسي.

– وماذا بالنسبة إلينا نحن القطط والكلاب والبشر؟

– الأنواع من غير الجرذان بشكلٍ عام سوف تُعدّ «أقليات تحظى بالتسامح». سوف تكون خاضعة، وهذا يعني أنّها سوف تكون مضطرّة لدفع ضريبة خاصّة لكي تعيش بأمان.

– مهلًا، أتذكّر أنني قرأتُ في موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة السيرة الذاتية للزعيم الذي حملتَ اسمَه، تيمورلنك، ووجدتُ أنّ هناك اسمًا لهذه الأقليات التي سُمِحَ لها استثنائيًّا بالعيش في كنف الإمبراطورية التي أقامها. كانوا يسمّونهم ذمّيين. كان *للذمّيين* وضعية المواطنين من الدرجة الثانية. كان عليهم أن يدفعوا ضريبة أعلى من الآخرين. لم يكن لهم الحقّ في التربية والتعليم ولا في ممارسة المهن العالية الأجر. ولم يكن قتلهم يُعدّ جريمة.

– ذمّيون؟ شكرًا على هذه المعلومة. في الحقيقة أفكّر بمنح وضعية شبيهة بهذه الوضعية للشعوب من غير الجرذان.

قال هذا كما لو أنّه يتحدّث عن أمرٍ بديهي.

– وهل نحن متّفقان على أنّك سوف تعفو عن البشر «من جماعتي»؟

– الذين هربوا معكِ نحو الشمال؟ طالما أنّهم لن يحاولوا فعل أيّ شيء لإعاقة صعودي، سوف يحظون هم أيضًا، في المرحلة الأولى، بالتسامح حيالهم على غرار *الذميين*.

– وفي المرحلة الثانية؟

– منذ البارحة، فكّرتُ في هذا الأمر. لكي نتذكّر جدارتنا في تجاوز النوع السائد السابق، الذي كان في عصرٍ ما كلّي القدرة، سوف أُنشئ «محمية طبيعية للبشر»، ربّما هنا في أمريكا. وبذلك، سوف تستطيع الأجيال القادمة من الجرذان أن تراهم على قيد الحياة. وسوف أضع في المحمية تعليقًا حتى يتذكّر الجميع أنّ الجرذان هي التي عومِلَت كنوعٍ منحط (وعومِلت معاملة أسوأ من معاملة الذمّيين) من قبل هؤلاء البشر أنفسهم. ولكنني مقتنع مثلكِ بأنّه مهما كان نوع الأذى الذي سوف نلحقه بالبشر، لن يكون بوسعنا أبدًا أن نكون بالقسوة التي كانوا عليها معنا.

لا يستطيع أن يسامح البشر.

لن يستطيع مسامحتهم أبدًا.

هذه هي *نقطة ضعفه: الكراهية.*

أمّا أنا، فأجيدُ التسامحَ، ولهذا السبب، إذا ما نجحتُ ذات يوم في إطاحته، فسوف أكون مَلِكةً أفضل منه. حرّك تيمورلنك طرف خطمه كما لو أنّه يشمّ الهواء المحيط به.

– الآن تعالي لتري، يا باستيت، فلا يزال لديّ شيءٌ أُريكِ إياه.

أشار بإصبعه إلى قمّة التمثال.

– نعم، أنا أعرف، هذا تمثال الحرية.

– هذا «كان» تمثال الحرية.

في تلك اللحظة بالذات، انتصب على قائمتيه الخلفيتين، كما رأيته يفعل في فيرساي. أطلق صفيرًا حادًّا، وعندئذٍ حصل شيءٌ لا يُصدّق.

وقع انفجارٌ في رأس التمثال، ناسفًا الوجه الأنثوي.

لم يبقَ سِوى فتحة فاغرة يتصاعد منها الدخان في المكان الذي كان فيه عينان وأنفٌ وفمٌ يشبه فم ناتالي.

- هل تدمّرون تماثيلهم؟

- كلا، أستبدل وجهًا جديدًا بوجه النوع القديم السائد.

ثمّ قادني إلى منطقة توجد فيها جرذانٌ منشغلة حول كتلةٍ مغطّاةٍ بقماشٍ أبيض اللون. حينما وصلنا إلى المكان، سحبت الجرذان الرداء وكشفت عن تمثالٍ منحوتٍ في كتلة من الراتنج.

لقد نحتت بأنيابها قناعًا له وجه تيمورلنك!

صفّر الجرذ الأبيض من جديد فأرخت جرذانٌ رمادية تقف على قمّة التمثال حبالًا.

علّقت بها القناع ورفعته إلى الأعلى.

تناولت الجرذان، التي ظهرت من الفتحة الفاغرة للوجه السابق للتمثال، القناع لكي تضعه في المكان المناسب وتثبّته تمامًا.

ثمّ أطلق تيمورلنك صفيرًا ثالثًا فانبعث وميض ألسنة من النار في الكريات الشفّافة لعيني القناع الحمراوين.

أصبحنا الآن أمام تيمورلنك عملاقٍ بجسدٍ بشري وعينين متوهجتين.

- لقد طلبتُ من الجرذان أن توقد النيران على مستوى عيني القناع المحفور لكي تكون له باستمرار نظرةٌ فيها وميضٌ يذكّر بنظرتي الخاصّة.

حسنًا، يجب أن أعترف بأنّه قويّ. بل يجب عليّ أن أعترف بأنّ المنظر سيكون جميلًا في الليل، تمثال الحرية بوجه جرذٍ ذي عينين محمرّتين.

حينما شعرتُ بأنّ أفكارًا عدوانية تنمو في داخلي يمكنه أن يشعر بها، سألته:

- هل يمكنني المغادرة والانضمام إلى شعبي؟

- يجب أيضًا، مثلما وعدتِني، أن تتركي لي هذه المسيّرة وأن تشرحي لي كيف يمكنني أن أقودها.

علّمته أساسيات استخدام المركبة الطائرة وأخبرته بأنّ عليه النقر على لوحة الأبجدية الرقمية نفس الرمز «103683»، وأنّ هذا سيشغّل المحرّك الكهربائي.

- وكيف يُعادُ شحنها؟

- من خلال هذه الألواح الشمسية المركبّة في الخلف. يكفي أن يكون هناك ضوءٌ وسيمكنك الطيران. في الليل، ليس لديك مجال للتحليق الذاتي سِوى لنصف ساعة.

- فصل اتصاله بي، ثمّ قام بتنفيذ الخطوات مثلما شرحتها له، فاستطاع أن يُقلِعَ بمسيّرته.

بدأ يحوم حول تمثاله.

ربّما قدّمتُ له هديّة جميلة.

حوّم ودار في السماء أمام شعبه المبهور ثمّ عاد وهبط بالقرب منّي.

- كم هو الوزن الذي يمكن لهذه المسيّرة أن ترفعه؟

- أربعة كيلوغرامات. أعتقد أنّ جرذًا فرنسيًّا يزن وسطيًّا مئتين وخمسين غرامًا. وبالتالي، يمكنك أن تنقل بها ما يقرب من عشرين جرذًا. وبالنسبة إلى الجرذان الأمريكية، ونظرًا لكونها أضخم حجمًا، يمكنك نقل ما يقرب من عشرة جرذانٍ...

قال:

- أفضّل أن أُسافر بمفردي. ولكنني أعترفُ بأنّ تأثيرها مبهجٌ للغاية. أشكركِ.

- و، هممم... كيف سأعود أنا؟

- أنتِ تجيدين السباحة، كما يبدو لي يا باستيت، فقد صمدتِ إحدى وعشرين دقيقة داخل الماء. وأعتقد أنّ عبور مجرى البحر بين جزيرة الحرية ومانهاتن لن يخلق مشكلة.

يا إلهي! هذا غير ممكن! أنا مَلِكة، ولا أسبح لكي أتنقّل. يجب أن أجد فكرةً.

- هناك تيارات مائية. وأنا مؤرختكَ لدى الشعوب من غير الجرذان، سيكون غرقي في البحر خسارة فادحة. الشعوب من غير الجرذان تجهل تتويجكَ إمبراطورًا.

شمّني. خشيتُ للحظة بأن يقتلني الآن بضربةٍ على الرأس بعد أن حصل على ما كان يرغب فيه، ولكنّه لم يفعل، بل اقترح عليّ أن أصعد إلى المسيّرة وتركني أشدّ حزام الأمان بطريقة تحافظ على توازننا نحن الاثنين.

طرنا معًا فوق المياه أمام أنظار الجرذان المذهولة. في لحظة من اللحظات، فقدتُ توازني قليلًا فمال بالمركبة لكي أستعيد توازني.

إنّه يحرصُ عليّ.

كما كانت أمّي تقول: «يحرصُ المرءُ على الأشخاص الذين يعرفون تاريخه بالتفصيل لأنّه يعتقدُ أنّهم يستطيعون تخليده من خلال رواية تاريخه للآخرين».

ثمّ ذهبنا إلى مقدّمة موكب البشر، والقطط والكلاب الذي واصل التقدّم ببطءٍ نحو الشمال.

هبطنا بنجاح أمام المجموعة. اعتقدتُ أنّه لم يشأ أن يُجازف بتعرّضه للهجوم من قبل البشر والقطط لكونه بعيدًا عن جماعته.

تحرّرتُ من حزام الأمان.

قال إمبراطور الجرذان كما لو أنّه أراد أن يبرّر لنفسه كلّ صنوف الفظائع التي رأيته يرتكبها:

– أنا فقط أريدُ السلام.

أجبتُ:

– وأنا أيضًا. فقط المعنى الذي نعطيه لهذه الكلمة لا بدّ أنّه يختلفُ اختلافًا طفيفًا.

هزّ رأسه.

– إذا تحدّثتِ عني فيما بعد، على أيّ حال، أريدُكِ أن تعلمي، عدا البشر، ليس لديّ أيّ شيء ضدّ الأنواع الأخرى. هل تصدّقينني؟

– نعم.

– أنتِ وأنا، يا باستيت، تجمعنا وحدة الحال، نحن زعيمان. وأن يكون أحدنا زعيمًا، يعني أن يمتلك رؤيةً لمستقبلٍ مثالي.

أكملتُ:

– الفرق الوحيد هو أنّ لكلٍّ منّا نظرة مختلفة إلى المستقبل المثالي.

– سوف يكشف لنا المستقبل منْ منّا أكثر مواكبةً للتطور. أعتقدُ أننا لن نرى بعضنا بعضًا مرّة أخرى أبدًا، ولكن اعلمي، يا عزيزتي باستيت، أنني

استمتعتُ كثيرًا بالحديث والتفاوض معكِ. أنتِ قطّة ساحرة والأرجح، لو أنني كنتُ قطًّا ذكرًا، لرغبتُ فيكِ.

هل سمعتُ بشكلٍ صحيح؟ أهو يغازلني؟

هل يجدني «مثيرة للرغبة»؟

إنّ سماع هذا الكلام يسعدني دائمًا.

حتى إذا كان صادرًا عن ألدّ أعدائي.

ومع ذلك، لا يمكنني أن أقول له شيئًا بالمقابل.

جرذٌ صغيرٌ أبيض ذو عينين حمراوين... كلا، لا يمكن لهذا أن يكون «مثيرًا جنسيًّا».

وكوداعٍ، قلتُ له:

– فلينتصر الأكثر تطوّرًا من بيننا.

تكرّم عليّ بإشارة ودّية خفيفة من يده.

من جهتي، قمتُ بحركةٍ نحوه، كانت ناتالي قد علّمتني إيّاها. إنّها تشبه التحيّة ولكن مع تحرير الإصبع الوسطى. وهي تعني: «سُحقًا لك».

لأنني، أنا شخصيًا، لم أعدّ نفسي مهزومة بعد، ويلزمني فقط بعض الوقت لكي أباشر بالانتقام لنفسي.

أقلع تيمورلنك على متن مسيّرته لكي يعود إلى جنوب نيويورك. سرتُ لكي أتقدّم الموكب.

سألتني أسميرالدا، التي التقيتُها قبل الجميع:

– ماذا قلتما بعضكما لبعض؟

قلتُ، ضاحكةً:

– قال لي تيمورلنك إنّه يرغبُ فيّ. وأجبتُه بأنّه ليس النموذج الذي يعجبني.

ثمّ انتظرتُ ناتالي وصعدتُ إلى كتفها.

سألتُ خادمتي:

– إلى أين سنذهب، الآن؟

- إلى الشمال.

- وعلى نحوٍ أدقّ؟ ما هي النقطة التي من المتصوّر الوصول إليها؟

- آه صحيح، أنتِ لم تستطيعي حضور الاجتماع الذي عُقِدَ خلال محادثاتكِ مع تيمورلنك، ولكننا وجدنا مقصدًا ينبغي الوصول إليه قد يكون مثيرًا للاهتمام.

- ما هو؟

- بوسطن.

- لماذا؟

- تواصلت جيسيكا مع مصنع بوسطن داياميكس، وهي نفسها متخرجة من معهد ماساتشوستس للتقانة (إم آي تي) العريقة. تذكّري أنّهم ردّوا على ندائنا على الإنترنت. إنّه ليس مصنعًا عاديًّا، بل منشأة صمّمت الروبوتات الأكثر تطوّرًا. إنّهم ينتظروننا.

نظرتُ إلى الضاحية الشمالية من مدينة نيويورك. كانت العمارات تنخفض على نحوٍ متزايد مع ابتعادنا عنها، ولم نعد نشعر بأنّ الأبراج تجثم على صدورنا.

- هل ستكون الرحلة طويلة؟

- تبعد بوسطن عن نيويورك مسافة ثلاثمئة وخمسين كيلومترًا. إذا ما سرنا وسطيًّا بسرعة خمسة كيلومترات في الساعة، وإذا ما مشينا يوميًّا قرابة سبع ساعات، فسوف نقطع مسافة خمسة وثلاثين كيلومترًا في اليوم. وبالتالي، سوف نصل إلى المدينة بعد عشرة أيام.

نظرتُ ورائي إلى الموكب الضخم الذي يشكّله سكّان برج الحرية في هجرتهم.

سألتُ ناتالي:

- ما هو المستقبل الذي ينتظرنا من الآن فصاعدًا؟

قالت:

- دعونا نعيشُ اللحظة. نحن على قيد الحياة، وأنا أعيشُ حبًّا عظيمًا.

- مع رومان؟ هل تمّ الأمر، وتصالحتما؟

– كلا، مع شوفال فوغو. بينما كنتِ تتفاوضين مع تيمورلنك، بدأنا نتغزّل بعضنا ببعض.

لمرّة واحدة، تسير بسرعة. أحسنتِ.

– لقد أخبرته بالطفل الذي أحمله. وشوفال فوغو مستعدّ لتبنّيه كما لو أنّه هو الأب الحقيقي. ولذلك سأحتفظ به وأبقى مع شوفال فوغو.

بدل أن تتصالح مع رومان، اعتمدت هذا الخيار الغريب. جاء الأمريكي الهندي في تلك اللحظة بالضبط وأمسك بيدها.

قالت:

– إنّه الحبّ الشهير مع المشاعر الذي حدّثتكِ عنه. لا يمكنكِ فهم هذا الأمر.

– «الحبّ مع المشاعر»، هو طرد الأب الحقيقي للطفل لأنّكِ تخافين من أن يهجركِ والارتباط بشخصٍ لا تعرفينه سِوى منذ بضعة أيام؟

ردّت عليّ ناتالي:

– لقد أصبحتِ مضحكة لأنّكِ تعانين بسبب فقدانكِ فيثاغورس.

نزلتُ عن كتف خادمتي ورحتُ أبحثُ عن ابني. رأيته يسير وحده.

– ألم تعد مع كيمبرلي؟

– هوم! بالأحرى هي لم تعد معي. لا بدّ أنني فعلتُ شيئًا لم يعجبها. لا أعرف حتى ما هو هذا الشيء.

لقد دلّني في الواقع على القطّة الأمريكية التي كانت تهرول مع ذكرٍ آخر بعيدًا عن المكان بعض الشيء.

– ماما، أنتِ تعلمين، بالنسبة إليّ، العلاقة الزوجية هي فقط من أجل الجنس. ما يستهويني حقّا هو الحرب. آمل أننا، رغم السلام الذي تفاوضتِ من أجله، سنواصل قتل الجرذان.

لم أرغب في النقاش معه هو أيضًا.

ناتالي كانت على حقّ، فأنا اشتقتُ إلى فيثاغورس.

ما الذي تجنينه من النجاح إذا وجدتِ نفسكِ وحيدةً محاطة بأناسٍ لا يفهمونكِ؟

اعتليتُ كتف رومان الذي سار مع حقيبة ظهرٍ كبيرة خمّنتُ أنّها مليئة بمعدّات إلكترونية.

سألتُه:

– هل يمكنني الحصول على «ما تعرفُه»؟

نبش رومان جيوبه.

– أنتِ تحبّين هذا، أليس كذلك؟

– أحسَبُ أنّ هذا «يكمّلني».

عثر في النهاية على ما كان يبحثُ عنه ولوّح بقلادةٍ في طرفها فلاشة يو إس بي.

– النسخة الأصلية التي أعطيتِها لتيمورلنك مصابة بفيروس. وهي مبرمجة لكي تتلف كلّ المِلفّات بعد ثلاثين يومًا. من الآن وحتى يحين ذلك الوقت، سنكون قد ابتعدنا عنه. ومثلما اتّفقنا، هذه نسخةٌ على فلاشة يو إس بي أخرى. وهي متطابقة تمامًا من كلّ الجوانب.

مرّر الطوق مع القلادة حول رقبتي.

– إذًا سأكون دائمًا أنا التي أحمل النسخة الوحيدة التي تحتوي على مليار مليار بايت من الأفلام والتسجيلات المرئيّة والصور والنصوص والموسيقى.

قال رومان ويلز:

– اعتني بها جيّدًا.

داعبتُ قلادتي.

أنا حارسة المعرفة.

كنتُ أشعرُ بأنني عارية تمامًا عندما لم أعد أحمل مجموع معارف البشر حول رقبتي. والآن هأنذي أستعيدُها.

46. سرداب الذاكرة

في عام 1936، اعتقد ثورنويل جاكوبس، رئيس جامعة أوغليثورب في أتلانتا، في الولايات المتّحدة الأمريكية، أنّ الناس يجهلون الكثير من الأشياء عن الحضارات السابقة المندثرة لأنّ أبناء هذه الحضارات لم يفكّروا في ترك أثرٍ راسخٍ وواضح.

كان جاكوبس حائرًا على نحوٍ خاصّ في أمر المقابر المصرية في وادي الملوك، التي لم يكن مدلولها الدقيق معروفًا.

ولذلك أراد ترك عناصر صناعية عن حضارتنا لمؤرخي المستقبل.

فأنشأ سردابًا في حجرة مسبح قديم لحفظ ذاكرة عالمنا. كانت عبارة عن حجرة محكمة بطول ستة أمتار وعرض ثلاثة أمتار، مزوّدة بباب فولاذي مضادٍ للصدأ بسماكة قابلة لمقاومة أي عبث.

سُميّت الحُجرة «سرداب الحضارة». خلال ثلاثة أعوامٍ، ملأ جاكوبس هذا السرداب بأشياء متعلّقة بالحياة اليومية، وكُتب، وأسطوانات، وصور، ونصوص محفوظة على أفلام مصغّرة.

في عام **1940**، خُتِم باب السرداب وحُفِرت عليه عبارة تطلب من الناس الذين سيأتون لاحقًا عدم الدخول إليه قبل عام **8113**.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

الفصل الثالث

برج بابل

47. على درب الشمال

حوّمت الغربان في السماء فوقنا.

هذه الطيور اللعينة تتمنّى موتنا.

لقد مضى أربعون يومًا ونحن نسير، ولكن مصنع بوسطن داينامِيكس لم يظهر في الأفق بعد.

لقد أنهَكَنا هذا السير الطويل.

كان تقدير ناتالي للمسافة والوقت المطلوب لقطعها متفائلًا، ولم تأخذ في الحسبان كلّ المعطيات المؤثّرة، بدءًا من هطول الأمطار. لقد أبطأ الطقسُ السيئ تقدّمَنا. خضنا في الأوحال ونال منّا البرد.

ثمّ كانت هناك قطعان الجرذان التي لم تصبح بعد تحت سيطرة تيمورلنك وبالتالي لم تكن على علمٍ باتفاقية السلام المعقودة بيننا.

في الليل، حينما يتوقّف المطر عن الهطول، تهاجمنا الجرذان، وكان ذلك مصدر قلقٍ كبيرٍ بالنسبة إلينا. بيد أننا، بعددنا البالغ أربعين ألف بشريٍّ وثمانية آلاف قطٍّ وقطّة، وخمسة آلاف كلبٍ، شكّلنا قوّات فاعلة بما فيه الكفاية لمقاومة المعتدين. وقد أسهَم احتفاظنا ببعض قاذفات اللهب والمدافع الرشّاشة في تأمين السلامة والأمان لنا أثناء الليل.

لم نفقد خلال الأيام الأربعين سِوى ما يقرب من مئة فردٍ من جماعتنا. وبالنظر إلى عددنا الكبير، يُعدُّ هذا الرقم مقبولًا.

أخيرًا، المعطى الثالث الذي لم تأخذه ناتالي في الحسبان كان هذه العادة السيّئة عند البشر وهي إثارة الجدل حول كلّ شيء وفي كلّ وقت.

لم أعد أطيقُ سياسييهم.

يتجادلون في كلّ شيء، ثمّ يتخاصمون ويتهاوشون وينتهي بهم الأمر بالغضب من أمور تافهة. بل يحدث أن يتقاتلوا فيما بينهم، بهذه الطريقة، بسبب خلافات تافهة حول توزيع الطعام أو مواقع التخييم.

ورغم كلّ شيء، تقدّمنا في مسيرتنا.

باتجاه مصنع بوسطن داينامكس.

سرنا على الطرق السريعة المليئة بهياكل السيارات وجثث البشر المتفسّخة على فترات متباينة. وكانت الجرذان والغربان والذباب قد أسهَمت في تسريع تحويلها إلى هياكل عظمية مجرّدة من اللحم.

رأينا النباتات وقد غزت كلّ ما كانت الحضارة البشرية قد استغرقت الكثير من الوقت في بنائه.

ورأينا نباتات الأكاسيا وقد شقّت الإسفلتَ وغمرته، وتغطّت السيارات بالأشواك وبرزت السراخس من بين أنقاض الأبنية المهدّمة، وظهرتْ حزمٌ من الأعشاب من تشقّقات الإسمنت المسلّح.

هكذا تنتهي أعمال البشر، تلتهمها الحيوانات الكاسرة والطيور الجارحة، وتغطّيها أوراق الشجر وخيوط العنكبوت والأغبرة.

في بعض الأحيان، كانت مجموعات من الكلاب والقطط الجائعة تجرؤ على الخروج من مخابئها للتوسّل إلينا من أجل الحصول على كميات زهيدة من الطعام. كنّا نطعمها بما نمتلك من أطعمة ونضمّها إلى فرقتنا.

ولكي نجدّد مصادرنا الغذائية، أكلنا الجرذان المهزومة، ولكن تناولنا أيضًا لحوم الأرانب والقنافذ. لا أدري إن كنتم قد أكلتم لحم القنافذ من قبل، ولكن هذا يتطلّب الكثير من المهارة والبراعة.

واصلنا السير.

أصبحت بواطن قوائمي أكثر سماكةً وراحت تَسْخن.

ذات يوم، رأينا رتلًا من مئات حيوانات البيسون يظهر أمامنا. أخبرني رومان ويلز بأنّ هذا جنسٌ سبق أن أُبيد وانقرض عمليًّا. يبدو أنّها قد تكاثرت من جديد بعد انهيار الحضارة البشرية.

أو ربّما كانت قد اختبأت بانتظار اللحظة المناسبة للخروج.

اصطادها البشر من مجموعتنا ببنادقهم أو بنبالهم. وقد قتلوا منها ما يكفي لإطعام كلّ موكبنا.

وقد ضايقني بعض الشيء أن أتناول قطعًا من لحم هذه الحيوانات الضخمة بعد أن علمتُ أنّ هذا نوعٌ على وَشْك الانقراض وأنّه قد شهد انبعاثًا جديدًا، ولكن عليّ أن أعترف بأنّ مذاق لحمها كان لذيذًا، ونظرًا إلى حجم قطعانها الكبير، بدا عددها كافيًا من أجل إعادة نموّها وتكاثرها.

واصلنا طريقنا دائمًا نحو الشمال.

لمحتُ بعض الخفافيش تحوم فوقنا. شككتُ في أمر هذه الخفافيش. في فرنسا، كان إمبراطور الجرذان قد أصبح صديقًا للحمائم، وهنا تبدو الخفافيش أفضل حلفائه من بين الكائنات الطائرة.

لقد أتاحت له الحصول على الملح الصخري الذي استخدمه بارودًا متفجّرًا والآن جاءت ربّما لكي تتجسّس علينا.

بالنسبة إليّ، هذان الجنسان، الحمام والخفافيش، ليسا سِوى «جرذان طائرة».

واصلنا السير.

بعد المطر، كانت الرياح التي تهبّ في وجهنا هي التي أبطأت تقدّمنا. أصبحت كلّ خطوة أصعب من التي قبلها. من جديد، سمعتُ البشر يتجادلون ويتخاصمون بسبب رفضهم الوجود في الصفوف الأمامية في مواجهة أنفاس السماء.

بعد كلّ ما عانيته، لن يخيفني تيارٌ هوائي.

تقدّمت ضدّ العواصف الهوائية التي مسحت فرائي إلى الخلف. ضممتُ أذني إلى الوراء حتى لا تدخلهما الرياح.

وأنا أسير في المقدّمة، تذكّرتُ أعزائي الذين فقدتهم.

تذكّرتُ قبل كلّ شيء صغاري الخمسة الذين أغرقهم توماس؛ ثمّ جارتي في حي مونمارتر، صوفي، خادمة فيثاغورس، التي قُتِلَت على يد توماس هذا نفسه. تذكّرتُ أيضًا فولفغانغ، قطّ الرئيس، وهانيبال، أسد سيرك غابة بولونيا، اللّذين صلبهما تيمورلنك.

تذكّرتُ القط سفينكس الذي سعى إلى التحالف مع الجرذان. ثمّ، عادت إلى أذهاني المعركة التي خضناها على متن سفينة **الأمل الأخير** والتي فقدتُ فيها صديقي الكلب نابليون وصديقي الخِنْزير بادينتر.

ثمّ وصلت إلى ذهني صورة فيثاغورس، عشيقي، الذي مات إثر سقوطه من على متن بكرة الانزلاق بالحبل الناقل التي كانت ستوصلنا إلى أمريكا. وكذلك صورة شامبليون الذي بالغ في الثقة بقدراته التفاوضية. وأخيرًا صورة بوكوفسكي، خطيب أسميرالدا البائس.

لا أعتقدُ أنني جلبتُ لهم الحظّ.

لقد فعلتُ كلّ ما في وسعي لكي أساعدهم أو أنقذهم، ولكنّ الأمر كان في كلّ مرّة فوق طاقتي.

كما تذكّرتُ الذين نجوا وظلّوا على قيد الحياة: أنجيلو، الابن الذي لم أحببه كثيرًا، وأسميرالدا، القطّة السوداء التي كانت تسخر منّي.

مثلما يُقال عند البشر، «الطيّبون يرحلون أوّلًا».

كان المقرّبون إليّ من بينهم ناتالي ورومان وإديث وجيسيكا وسيلفان وهيلاري كلينتون والآن شوفال فوغو.

هل سيكون بوسعي أن أعيدَ بناء عالمٍ متحضّرٍ مع هؤلاء؟

آه! وقد نسيتُ الجنرال غرانت، الرجل الذي اعتقد أنّه باستخدام الدبابات يمكن دحر الجرذان والذي يدعو من الآن فصاعدًا إلى اللجوء إلى استخدام القنبلة الذرية.

أعتقدُ أنه على الأقلّ أدرك أنّه يجب عدم الاستهانة بالخصم والتقليل من شأنه.

اعتليتُ الكتف اليسرى لخادمتي.

– كيف ترين المستقبل، يا ناتالي؟

– أعتقدُ أنّه علينا أن نجد أرضًا موعودة ونتحصّن فيها. ثمّ إنني أثقُ بجيسيكا. مع المعدات الإلكترونية المتطوّرة التي سوف نجدها في مصنع بوسطن داياميكس، سوف نستطيع أن نبني من جديد جامعة، من طراز جامعة أورسيه، أكثر أمانًا. سوف نكون حينئذٍ في جيبٍ محصّنٍ يقاوم هجمات الجرذان.

– ولكن لِكَمْ من الوقت؟ لقد أنشأ آل كابوني، ونحن نعرف ذلك الآن، مزارعَ إنجابٍ لإنتاج جنودٍ إلى ما لا نهاية. كانوا يستخدمونهم كانتحاريين فقط من أجل إنهاك الخصم. الآن، يستفيد تيمورلنك من النظام الذي كان سلفه قد أنشأه. منْ سوف يستطيع منعه من إقامة جسور من الجثث لكي يعبر الدفاعات الحامية لجيبنا الصغير؟

– هل تعتقدين يا باستيت أنّ تيمورلنك سوف يهاجمنا في بوسطن؟

يعجبني عندما تطرحُ عليّ أسئلة سياسية. هذا يدلّ على أنّها باتت تُدرك أنني الآن قطّة مثقّفة، وربّما نبيّة، وأنني أفهم في كلّ شيء. آمل ألا أخيّب أملها.

– سوف يفعل ذلك بعد أن يكون قد أقام «سلام الجرذان» خاصّته. مبدئيًّا، سوف يُنهي كلّ مقاومة. هذه هي مشكلة الأنظمة الشمولية، فهي بحاجة إلى التوسّع الخارجي المستمرّ لكي تعبّئ قواتها. وما إن تهزم كلّ خصومها الخارجيين، حتى تبدأ بممارسة الضغط والقمع في الداخل.

– يبدو أنّكِ تعرفين جيّدًا هذه المسألة. أين تعلّمتِ كلّ هذا؟

– في موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة. وبوسعي أن أذكر على سبيل المثال الدكتاتور ماو تسي تونغ وثورته الثقافية.

قالت بهدوء:

– حسنًا، ولكن دعينا لا نبني أوهامًا. مقابل ملايين الجرذان، لا يمكن لأيّ تكنولوجيا حالية، مهما كانت متطوّرة، أن تكون كافية للمواجهة وتحقيق التوازن.

- لا أحبّ فكرة مواجهة هجمات الخصم بمحاولة الدفاع عن النفس فقط. أعتقدُ أنّه سيكون علينا الأخذ بزمام المبادرة.

- كيف؟

لفتُّ انتباهها إلى ملاحظة:

- ألستِ أنتِ من أخبرتني بأنّ الخيال يستطيع حلّ كلّ المشكلات؟

- ولكننا نواجه هنا خصمًا صعب الاحتواء.

فكّرتُ وأنا أسيرُ مع التيار.

كانت أمّي تقول: «لا تواجهنا من المصاعب غير تلك التي يكون بوسعنا التغلّب عليها». شعرتُ بأنّ هناك حلًّا وشيكًا جدًّا، في متناول الذهن. يجب أن أتذكّر كلّ ما حدث وأن أفكّر. راودني الإحساس بأنني أغفل عن شيءٍ ما قد يكون هو الحلّ. شيءٌ ما «ماثلٌ أمام الأعين» كما يقول البشر.

ولكنني لا أراه.

آنذاك، على ذلك الدرب الطويل نحو الشمال، مرّة أخرى، استرجعتُ كلَّ تفصيل من تفاصيل حياتي الخاصّة. المعارك والانتصارات والهزائم والأسفار والمحادثات مع تيمورلنك...

هناك شيءٌ ما لم أفهمه قد يمكنه فكّ كلّ شيء. شيءٌ ما بسيط، شيءٌ غير تكنولوجي. شيءٌ ما في متناول ذهني، ولكنني لا أراه لأنني أطرح السؤال على نفسي بطريقة خاطئة.

بدأ المطر بالهطول مرّة أخرى.

لم يعد الكوكب يحبّنا.

على أيّ حال، أنا أيضًا لا أحبّه حينما يفعل بي هذا.

لا أحبّ المطر.

لا أحبّ الريح.

لا أحبّ الجرذان.

لا أحبّ عدم إيجاد الحلول.

وكنتُ أعلم أنّه ما لم أجد الفكرة العظيمة، فسوف نزول، نحن القطط وهم البشر. سوف نزول ببطء ولكن على نحوٍ مؤكّدٍ ومحتوم.

48. ما الذي قد يحدث إذا ما انقرض الإنسان؟

ما الذي قد يحدث إذا ما انقرضت البشرية فجأةً؟

بعد انقضاء عشرة أيام: سوف تموت الحيوانات الداجنة بسبب انقطاع الغذاء عنها. بعد انقضاء شهر: سوف تتوقّف أنظمة التبريد في المفاعلات النووية عن العمل، وسوف يسخن قلب المفاعلات إلى حدّ الانفجار، الأمر الذي سوف يُحدِث سلسلة من الكوارث الشبيهة بكارثة تشيرنوبل النووية. وسوف تقتل الإشعاعات الأنواع الأكثر هشاشةً.

بعد انقضاء ستّة أشهر: سوف تخرج الأقمار الاصطناعيّة عن مداراتها وتبدأ بالسقوط.

بعد انقضاء سنة: في المناطق المعتدلة مُنَاخيًّا، سوف تغطّي النباتات من جديد الإنشاءات البشرية والطرق والعمارات والمنازل والحقول والحدائق. وستبدأ الغابات بالنمو من جديد، وسوف يُمتَصُّ غاز ثنائي أكسيد الكربون على نحوٍ أسرع. بعد انقضاء خمسة أعوام: سوف تنخفض درجات الحرارة وتصبح فصول الشتاء أكثر قسوةً. والأنواع الطريدة مثل الخنازير البرية والأرانب والغزلان والذئاب والدببة سوف تتكاثر من جديد في أوروبا. وفي بقية الأنظمة الإيكولوجية، سوف يستعيد التنوّع الحيوي حقوقه.

بعد انقضاء ثلاثين سنة: سوف تنتهي جميع الأبنية الخرسانية بالانهيار. وسوف تتحوّل الأنقاض إلى أوكارٍ وأعشاشٍ للحيوانات. وفي المحيطات، سوف تتجدّد الشعب المرجانية. والأسماك، بما فيها بعض الأنواع التي تعرّضت للصيد الجائر، سوف تتمكّن من التكاثر من جديد. وبشكلٍ خاصّ، سوف تصبح أسماك التونة وأسماك القرش والدلافين والحيتان وقناديل البحر أقلّ عددًا بالمقابل.

بعد انقضاء مئتي سنة: سوف يصبح الهواء خاليًا تمامًا من غاز ثنائي أكسيد الكربون الذي ينتجه البشر. وسوف تنهار السدود، وتسمح بذلك بعودة الجداول والأنهار إلى جريانها الطبيعي. بعد انقضاء ثلاثمئة سنة: سوف تنهار الإنشاءات المعدنية مثل الجسور المعلّقة أو برج إيفل من جراء تآكلها بسبب الصدأ.

بعد انقضاء خمسمئة سنة: سوف تستعيد جميع الغابات حياتها البرية كما كانت عليه قبل عشرة آلاف عام.

بعد انقضاء خمسة وعشرين ألف عامٍ: سوف تصبح النفايات النووية غير نشيطة.

بعد انقضاء خمسين مليون سنة: ستكون النصب والتماثيل الحجرية قد تلاشت تمامًا، ومع ذلك سوف تبقى المواد البلاستيكية.

بعد انقضاء مئة مليون سنة: حتى المواد البلاستيكية سوف تتلاشى ولن يبقى أيّ أثر لمرور البشر على الأرض.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

49. أرض الميعاد

مضت ثلاثة وأربعون يومًا الآن على مغادرتنا لبرج الحرية.

أصابنا الإنهاك والإعياء ولكننا رغم ذلك واصلنا مَسيرنا نحو الشمال. من حولنا، لم يكن هناك سِوى الأنقاض وبقايا الحضارة البشرية القديمة.

كانت أمريكا المدمّرة تشبه فرنسا المدمّرة.

كنتُ قد راجعتُ موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة قبل الوصول إلى هذه القارة وشاهدتُ فيلمًا وثائقيًّا، عنوانه: *الموتى السائرون*. المشاهد التي شاهدتها في الفيلم الوثائقي كانت تشبه كثيرًا ما أكتشفه الآن على أرض الواقع.

على الرغم من أنّه، إن لم تخنّي الذّاكرة، ربّما لم يكن فيلمًا وثائقيًا بل مجرّد فيلم خيالي.. ولكن التهديد، هنا في حالتنا، لا يكمن في أمواتٍ أحياء متخيّلين وإنما في جرذانٍ حقيقية.

وأخيرًا، وبعد ظهيرة يومٍ مشمسٍ، لمحنا من بعيد مصنع بوسطن داينامكس.

على الأقلّ رأينا أوّلًا خطّ دفاعهم الخارجي. هذه المرّة، كان هذا الخطّ الدفاعي عبارة عن مئة قطٍّ آلي بلونٍ فضّي وأعين زرقاء برّاقة. كانت جالسة، ثابتة بلا حراك كما لو أنّها تنتظر الإشارة للتحرّك.

في اللحظة التي ظهرنا فيها، نهضت القطط المئة وأقبلت نحونا كما لو أنّها أرادت أن تشمّنا.

نظرتُ إليها بإمعانٍ.

تبيّن لنا أنّ كاملَ جسمها من المعدن اللامع. ومفاصلها بالكاد مرئية. تنبّهتُ فجأةً إلى أنّها تحمل في وسط جبينها، في المكان الذي أحمل فيه عيني الثالثة، آلةَ تصويرٍ، وتبرز من أفواهها، المسلّحة بأسنانٍ حادّة، سبطانة سلاحٍ ناريّ.

شعراتُ شواربها عبارة عن سويقات معدنية رفيعة. وأعينها تدور حول محاورها. كما لاحظتُ أنّها قادرة على مدّ وسحب مخالبها الفولاذية.

تفحّصتنا هذه القطط الآلية وخشيتُ للحظة أن تهاجمنا.

ولكنّها أخذت مكانها أمام رتلنا وقادتنا في الطريق.

أبهرتني جدًّا خطواتها الرشيقة التي لم تختلف كثيرًا عن خطوات القطط الحقيقية، وأذيالها المهتزّة مثل أذيال القطط الطبيعية.

قادتنا نحو سورٍ.

وهناك، وجدنا أنّ البشر قد أقاموا في مكان القراميد أو الإسمنت أو الخرسانة، جدرانًا زجاجية ملساءَ وشفّافةً. وفي الزوايا، بُنيت أبراجٌ صغيرة تمتدّ منها فوّهات أسلحة رشّاشة. ينطلق من كلّ فوهة منها شعاعٌ ليزري.

كلا! ليس هذا! ليست النقطة الحمراء التي تجذبني!

شعرتُ بالهلع يتصاعدُ داخلي. أبهرتني النقطة الليزرية ومنحتني الرغبة في ترك كلّ شيء والانصراف إلى اللعب معها، ولكنّ أسميرالدا همست لي:

- أعرفُ فيما تفكّرين، أنا أيضًا أفكّر في ذلك، ولكن عليكِ أن تكوني قادرة على ضبط نفسكِ.

ولكي تمنحني دافعًا لصرف النظر عن الشعاع الليزري، أرتني جثثَ جرذانٍ متراكمة في كلّ مكانٍ تقريبًا. وفي نفس اللحظة، اندفعت بعض القطط من مجموعتنا، التي لم تستطع ضبط نفسها، نحو الدوائر الحمراء.

وقدحت الأسلحة الرشّاشة في الحال شررًا.

إنّ الإدمان على النقطة الحمراء الساطعة تتسبّب أيضًا بوقوع بعض الضحايا الأبرياء.

نظرتُ إلى أسميرالدا.

كيف عرفتْ ذلك؟

توقّف إطلاق النار. تبيّن لي أنّ القطط الأصغر حجمًا هي وحدها التي أُصيبت. قلتُ في نفسي لا بدّ أنّ هناك برمجةً معيّنة لتحديد الحيوانات الشبيهة بالجرذان.

انطفأت كلّ الأشعّة الليزرية دفعة واحدة.

تذكّرتُ حكاية *الخنازير الثلاثة الصغيرة*: بعد البيت المبني من القشّ والبيت المبنيّ من الخشب، لجأت الخنازير الثلاثة إلى البيت المبني من القرميد. نحن أيضًا، وجدنا أمكنة تزداد متانةً وتحصينًا لمقاومة الجرذان الكبيرة الشرّيرة: البيت ذو الجدران الملبّسة بالأسلاك الشائكة المكهربة لجامعة أورسيه، وخرسانة فايننشال تاور، والخرسانة العالية الجودة والفائقة المقاومة لبرج الحرية، والآن هذا المصنع - القلعة بجدرانه الزجاجية، المحمية بقططٍ آلية وبأبراجٍ صغيرة مزوّدة بالأسلحة الرشّاشة الآلية.

نحن نحرزُ تقدّمًا.

كانت بوابة المدخل هي المنطقة الوحيدة الكتيمة، فقد كانت مغطاة بسطح مرآة قمّته مليئة بكاميرات المراقبة. لدى اقترابنا من الباب، انفرج مصراعاه ليُتاح لنا المرور.

كان الجنرال غرانت، متبوعًا بهيلاري كلينتون، أوّل من دخل. ودخلنا، ناتالي ورومان وأنا، خلفهما مباشرةً.

ما إن عبرت فرقتنا السور، حتى اكتشفنا المصنع بالمعنى الحقيقي للكلمة. في ما يتعلّق بالمصنع، كان السور الزجاجي الذي يحمي المكان يحصرُ أرضًا واسعة تفوق مساحة مدينة بشرية. وجدنا هناك العديد من الحدائق العامّة والحقول والحدائق المنزلية الخاصّة والمساحات الغابية الشاسعة، ولكن وجدنا أيضًا عمارات ضخمة تتكوّن على الأقلّ من خمسة طوابق مدهونة باللون الأصفر.

قادتنا القطط الآلية نحو المبنى الأكبر. عبرنا أوّل مدخلٍ زجاجي، ثمّ مدخلًا ثانيًّا ووصلنا إلى داخل عمارة فائقة الحداثة، دافئة جدًّا.

وجدنا أمامنا مجموعة من البشر حليقي الرؤوس، يضعون نظّاراتٍ، ويرتدون قمصانًا صيفية مزهّرة. بدا عليهم أنّهم كبارٌ جدًّا في السنّ. قدّرتُ أنّهم يبلغون الثمانين من العمر. خاضت هيلاري كلينتون والجنرال غرانت النقاش معهم.

استمعتُ إلى الحديث بفضل لاقط الصوت الخاصّ بخادمتي ناتالي التي ظلّت بالقرب منهم.

قالت الرئيسة:

– لقد طُردنا من نيويورك من قبل الجرذان.

سأل الضابط:

– نحن نحتاج إلى ملاذٍ لجماعتنا، هل يمكنكم تقديم المأوى لنا؟

قدّم الرجل المسنّ الأكثر قربًا منّا نفسه، قائلًا:

– أنا أُدعى مارك رايبيرت. أنا مؤسّس ورئيس بوسطن داياميكس. نحن هنا جماعة مكوّنة من ألفي بشريّ وما يقرب من خمسمئة قطٍّ ومئتي كلبٍ. أخبرتني جيسيكا نيلسون بوصولكم وقد اتّخذنا كلّ التدابير لاستقبالكم.

قادنا نحو فسحة وسط غابة كانت قد نُصِبَت فيها خيَم مشتركة كبيرة بيضاء اللون.

- هذا المخيّم مخصّص لكم. يستطيع كلّ عشرين شخصًا من بينكم الإقامة في خيمة واحدة. في داخل الخيمة، لا توجد فقط أسرّة بل أيضًا خزائن وغرف استحمام ومراحيض.

أقامت ناتالي وشوفال فوغو في خيمة تبلغ مساحتها مساحة منزلٍ صغيرٍ، أقامت فيها أيضًا هيلاري كلينتون والجنرال غرانت. انضممتُ إليهم مع أنجيلو وكذلك أسميرالدا.

أقام رومان وسيلفان وجيسيكا وإديث في خيمة أخرى قريبة من خيمتنا. ما إن أخذنا جميعًا أمكنتنا واستقررنا فيها، حتى جاء مارك رايبيرت إلينا.

اقترح على كلينتون، قائلًا:

- الرئيسة العزيزة، يمكنني أن أصحبكِ في جولة صغيرة خاصّة إن رغبتِ في ذلك.

لم تدعه كلينتون وغرانت يكرّر اقتراحه وخرجا معه. استغلّت ناتالي الفرصة لكي تنضمّ هي الأخرى إليهم. أخذتُ مكاني على كتف خادمتي كي لا أفوّت أي تفصيل.

جعلنا مارك رايبيرت نعبر فسحة الخيم.

سألته الرئيسة:

- كيف تصمدون أمام الجرذان؟

فرقع بأصابعه فقفز أحد القطط الآلية واستقرّ في توازنٍ على كتفه مثلما أحبّ أنا نفسي الوقوف على كتف ناتالي.

- بفضل الروبوتات. عملنا في الماضي لمصلحة الجيش، ثمّ من أجل الصناعة. وقد صنعنا لهم روبوتات سبوت وكلاب آلية مزوّدة بذكاء اصطناعيّ يمكنها أن تفعل عمليًّا كلّ شيء تمامًا مثل الكلاب الحقيقية. بعد الانهيار الكبير، طلب الجيش منّا روبوتات سبوت من الجيل الجديد، أكثر تطوّرًا. فأنتجنا القطط الآلية التي أسميناها **كاتز**.

أشار إلى القطّ الآلي المستقرّ على كتفه.

- هذه هي نسختنا الأكثر تطوّرًا. كاتز 007. تستطيع أنيابه أن تحقن السمّ أو المخدّر. وفقًا للنماذج، في فم روبوتات كاتز 007 فوهةُ بندقية أو سلاحٌ

رشّاش أو قاذفةُ لهب أو قاذفةُ قنابل يدوية. وهي مزوّدة على مستوى العينين بكاميرا للرؤية بالأشعة تحت الحمراء. وشعيرات شواربها عبارة عن قرون استشعار كالرادارات. ولديها لواقط أمواج في خطمها ولواقط صوت في أذنيها. ويتيح لها نظامٌ للذكاء الاصطناعيّ أن تتصرّف من تلقائها. إنّها سريعة وشرسة جدًّا. وهي تنجح في إلحاق الدمار بالجرذان، المشكلة الوحيدة تكمن في أننا لا نملك العدد الكافي منها.

- كم عددها؟

- لدينا فقط ثلاثة آلاف. بفضل هذه الآلاف الثلاثة من القطط الآلية، وبفضل الأبراج الصغيرة ذات الإطلاق الآلي، نستطيع الدفاع عن أنفسنا في مواجهة كلّ هجمات قطعان الجرذان، ولكننا لا نستطيع مغادرة أسوار هذا المصنع.

- لماذا لا تصنعون المزيد منها؟

- نفتقر إلى المواد الأوّلية الضرورية لصنعها، وفي الوقت الراهن، لسنا قادرين على إطلاق مهمّة تتيحُ إحضار المواد المعدنية والبلاستيكية الضرورية لإنتاجها الصناعي.

وأضاف مارك رايبيرت وهو يشير إلى الأراضي المحروثة:

- هنا، نظّمنا أنفسنا لكي نبقى على قيد الحياة براحة نسبية ويمكننا أن ندعكم تتمتّعون بها. في الواقع، لا ينقصنا أيّ شيء. لدينا حقولنا ومزروعاتنا الخاصّة لإنتاج الخضار والحبوب والفاكهة.

سأل غرانت:

- وماذا بشأن الجانب الدفاعي؟

- لدينا أسلحة. ولدينا قمرنا الاصطناعيّ الخاصّ الذي يتيح لنا مراقبة أيّ بقعة من الأرض. ولدينا أيضًا مسيّرات. ولكن هناك أيضًا بعض الأشياء الصغيرة التي قد تهمّكم. اتبعوني.

قادنا نحو مصنعٍ مخصّصٍ ليس للتقنيات المتطوّرة بل للصناعات الغذائية.

- هنا نصنع أجباننا. وقد عدّلنا بعض الآلات لهذا الاستخدام. في هذه البراميل، نخزّن نبيذنا. وهنا، بفضل هذه المعاصر، نحصل على زيتنا من الزيتون. وهذا هو المخبز.

تذوّق الأشخاص الثلاثة من البشر كأسًا من النبيذ وبعض الشطائر الصغيرة المعدّة بزيت الزيتون والجبن التي قدّمها لهم مارك رايبيرت، وبدوا في قمّة السعادة.

انتقلنا إلى صالات أخرى وتجوّلنا فيها.

- لقد عدّلنا كلّ بنانا التحتية لكي نتكيّف مع نتائج الانهيار الكبير. هنا أيضًا ننتج الصابون الخاصّ بنا.

بدا فخورًا للغاية بمنشآته.

- بفضل الخبز والجبنة والنبيذ وزيت الزيتون والصابون، نحافظ على مدنيتنا. قد لا يبدو هذا بالشيء الكثير، ولكن أن نكون نظيفين ونحظى بالتغذية السليمة يتيح لنا الحفاظ على كرامتنا وعلى افتخارنا بكوننا بشرًا. ما سأُريكم إياه الآن سوف يُفرحكم أيضًا، أعتقدُ أنّ...

أشار إلى آلة كبيرة.

سألت هيلاري:

- هل هذه فرّامة لحم؟

- نعم، إنّها تحوّل لحم الجرذان إلى لحمٍ مفرومٍ لإعداد الهامبرغر!

انتابت ناتالي مشاعر استشعرتُها عن بعد.

- وهذه الآلة تُضيفُ أيضًا نكهة اصطناعيّة بطعم «لحمٍ مشويٍّ على المشواة».

وكان هذا الاكتشاف بالذات هو ما بدا مبهرًا للبشر الموجودين.

ثمّ قادنا مارك رايبيرت نحو صالونٍ مزيّنٍ بالروبوتات. أشار إلى رجلٍ كان يشبهه. فأحضر هذا الأخير صندوقًا صغيرًا أخرج منه قطعًا من الهامبرغر المغلّفة بأوراقِ جريدة.

قال وهو يناولهم قطع الهامبرغر:

– هذه هي الوجبات التي أُعدّت مسبقًا لكي تأكلوا منها ونحن نستقبلكم بيننا.

تلقّاها البشر وهم يرتعشون. شمّوا شطائرهم، ثمّ تناولوها بسرور.

أمّا بالنسبة إليّ، فقد قلّدتهم. بذلتُ جهدًا لكي أتناول ذلك الطعام الذي يحتوي على لحمٍ مطبوخٍ جيّدًا وخبزٍ محمّص، وجبنة ذائبة، وشرائح من الطماطم وكتشبٍ، وبصلٍ مقليٍّ وقطعٍ من الخيار المخلّل.

إذا كان شرط تحوّلنا إلى سادة للعالم هو أن نصبح كائنات قارتة، فيجب أن أكون أوّل منْ تقوم بهذا التحوّل.

بفضل الهامبرغر، كنقطة بداية.

علاوة على ذلك، أصبحتُ أحبّ اللحم المطبوخ على نحوٍ متزايد.

ربّما هذا جزءٌ من عملية أنسنتي.

ثمّ قادنا مارك رايبيرت إلى مختبرٍ فائق الحداثة فيه شاشات وروبوتات من مختلف الأنواع التي لا بدّ أنّها تدلّ على تطوّرهم.

لديهم حتى روبوتات ثنائية الأقدام الشبيهة بالبشر!

من خلال القليل الذي رأيته، تبيّن لي أنّهم قد توصّلوا في الحقيقة إلى تطوير النماذج الأولى للحصول على نماذج أخفّ وزنًا.

ما وراء الكوّات الواسعة المزجّجة الجانبية، لمحتُ بعض المزروعات والبساتين وألواح الطاقة الشمسية.

سوف يُرغِم الانهيارُ الكبير البشرَ على أن يصبحوا أصدقاء للبيئة.

رنّ الجرس ودُعي البشر والقطط إلى تناول العشاء في القاعة الفسيحة لندوة المصنع. كانت هذه لحظة ممتعة بالنسبة إلى كلّ أفراد فرقتنا المنهكين والجائعين، الذين استطاعوا أخيرًا أن يتناولوا أطعمة أفضل بكثير من كلّ ما تناولوه مؤخّرًا. بثّ ما قُدِّم لهم من النبيذ والخبز واللحم المطبوخ قُشَعْريرات اللذّة في أجسادهم. ضحك بعضهم ودندن آخرون بالغناء.

بعد كلّ الجهد المضني الذي بذلناه تأتي الراحة.

ومع ذلك بقيتُ مسكونة بالشكّ والارتياب. تفحّصتُ المكان بدقّة، وشممتُ وأصغيتُ بتركيز.

تُرى ما المشكلة الخفيّة هنا؟
حرّكتُ شعيرات شواربي المهتزّة.
انضمّ إليّ أنجيلو.
همس لي:
– أعشقُ هذه القطط المعدنية. لا بدّ أنّها تعيثُ قتلًا وتدميرًا في وسط الجرذان.
سألتُ خادمتي:
– ما رأيكِ بهؤلاء البوسطنيين؟
أجابت ناتالي، البراغماتية على الدوام:
– رأيي بهم هو أننا أصبحنا أخيرًا في مكانٍ آمن وأنّ هذا الأمر جاء لمصلحتنا لأنني تعبتُ كثيرًا من السير على القدمين.
– ما الذي سنفعله إذًا؟ هل سنبقى هنا في انتظار أن يسقط العالم برمّته في قبضة تيمورلنك على أمل ألّا يهتمّ بأمر هذا الجيب الصغير ذي التقنية العالية؟
– وما الذي لديكِ أفضل من هذا، يا باستيت، أنتِ التي تملكين دائمًا أفكارًا جديدة؟
شعرتُ بنبرةٍ من السخرية في سؤالها.
حاولتُ أن أجد الوسيلة لكي أعبّر بأوضح ما يمكنني عن فكرتي. قلتُ:
– يجب أن نفكّر في ثأرنا. يجب أن نُعِدّ لغزوةٍ على مانهاتن.
أجابت خادمتي:
– ولكنكِ تعرفين أنّ هذا مستحيل. عدد الجرذان كبيرٌ للغاية والآن، بفضل موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة، سوف يُمكنها أن تصنع أسلحةً أكثر فتكًا وتدميرًا.
– بالضبط؟ ولذلك يجب علينا أن نتحرّك قبل أن تذهب الجرذان بعيدًا في هذا الأمر. هل تُريدين أن ننتظر إلى حين أن تصنع المدافع وتنصبها في المرابض؟
فجأةً، سمعنا صوتَ ضجيجٍ قادمٍ من خارج ندوة المصنع. خرجنا

واتّجهنا باتجاه مصدر الأصوات. في وسط تجمّع الخيم، وجدنا أنّ البشر قد أوقدوا نارًا ضخمة. عزف بعضهم على القيثارة ورقص كثيرون من بينهم.

لن أفهم طبيعة هؤلاء البشر أبدًا. يحتفلون في اللحظة التي يوشك فيها العالم برمّته على الانهيار. لقد قرأتُ في موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة أنّه في لحظات غرق سفينة *التيتانيك*، كانت الأوركسترا المكوّنة من ثمانية موسيقيين الخاصّة بالسفينة تعزف على متنها نشيدًا تقليديًّا «Nearer, My God, to Thee»، وهو العنوان الذي يمكننا أن نترجمه بعبارة، «الأقرب إليكَ، يا إلهي». أعتقد أنّ البشر يقلّلون من شأن قدرة الموسيقى على بثّ الراحة والطمأنينة.

من جهتي، كنتُ أرغبُ بدل ذلك في التفكير بكلّ ما حدث وكلّ ما قد يحدثُ لاحقًا.

بالنسبة إليّ، تأتي الحلول عندما أنام. فعدتُ إلى الخيمة وحدي، في حين ظلّ صخب الموسيقى يتصاعد من بعيد، فنمتُ وأنا أطلب من ذهني أن يجدَ جوابًا لهذا الوضع.

سقطْتُ في عالم الأحلام الذي أستعيدُ فيه طاقتي. وهنا، رأيتُ أمِّي تظهر أمامي.

قلتُ:

– ساعديني يا أمّاه. اشرحي لي ما الذي عليّ فعله.

قهقهتْ.

– لماذا تضحكين؟

– لأنّه لم يعد هناك أيّ شيء يمكن فعله! فقط الانتظار إلى حين أن ينهار العالم بالكامل. اشربي، دخّني، غنّي، ارقصي، اضحكي وتخلّي عن كلّ أمل.

– لقد اعتبرتُ على الدوام أنّكِ كنتِ تملكين الإجابات الصحيحة لكلّ شيء، ولكنكِ هنا على خطأ، يا أمّاه. لا بدّ أن يكون هناك شيءٌ ما يمكن فعله لإنقاذ العالم. سوف أجدُ حلًّا. أنا أعرف ذلك بكلّ تأكيد.

ظهرت حينئذٍ في حُلمي شخصية ثانية. إنّه فيثاغورس.

– أمّكِ على حقّ، فهذه المرّة العدوّ قويٌّ للغاية. مهما كنتِ موهوبة ومتحمّسة، فلن تتمكّني من التغلّب عليه.

أجبتُ بصرامة:

- لن أستسلم أبدًا.

وصل، بالطريقة نفسها، هانيبال، الأسد المصلوب من قبل تيمورلنك. قال:

- عدد الجرذان كبيرٌ للغاية ونحن لسنا سِوى حفنة من الأفراد. حتى لو امتلكنا القوّة والشجاعة، فلن نتمكّن من الصمود أمامها ومقاومتها.

ثمّ تتالى وصول أصدقائي، الواحد تلو الآخر، الذين هلكوا في مواجهة تيمورلنك.

تنهّد فولفغانغ، قائلًا:

- لن نتمكّن من المقاومة.

قال بوكوفسكي بنبرة ساخرة:

- لقد انتهينا.

خلصت أمّي إلى القول:

- لم يبق لنا سِوى أن نعيش بعيدين عن تلك الجرذان لأطول وقتٍ ممكن. ومن الأفضل أن نعيش وقتنا هذا ونقضيه بالسُكرِ واللهو حتى لا نعود نفكّر بها. لقد حان الوقت، يا ابنتي، لكي نتخلّى عن فكرة الرغبة في إنقاذ العالم. تخلّي عن كلّ شيء. تخلّي عن كلّ مشروع. استمتعي بكلّ لحظة من الحياة قبل أن تحين لحظة انضمامكِ إلينا. نحن في انتظاركِ.

قال فيثاغورس:

- نحن في انتظاركِ.

وردّد جميع الآخرين بصوتٍ واحدٍ كرجع الصدى لصوته:

- نحن في انتظاركِ.

50. بوسطن داينميكس

أُسِّسَت شركة بوسطن داينميكس في عام 1992 من قبل مارك رايبيرت، الذي كان باحثًا في معهد ماساتشوستس للتقانة (إم آي تي) في بوسطن.

في عام 2013، اشترتها شركة جوجل، ولكن بما أنّ شركة بوسطن داينامیكس كانت تصنع روبوتات ذات استخدام عسكري، خشيت الشركة من أن ترتبط صورتها بصورة تاجر أسلحة وفضّلت أن تعود وتبيعها إلى شركة قابضة يابانية: سوفت بانك. في البداية، عُرِفت شركة بوسطن داينامیكس بنماذجها من الروبوتات بشكلٍ بشري من طراز بيتمان، ثمّ أطلس.

يبلغ طول روبوت أطلس مترًا وثمانين سنتمترًا، أي بطول كائنٍ بشري، ويسير على ساقيه، ولكنّه يستطيع السير أيضًا على أربع قوائم فوق أرضٍ وعرة. ليده خمس أصابع مزوّدة بحاسة اللمس، ويحمل رأسه كاميرات وجهازًا ليزريًّا لتحديد المدى.

في عام 2016، قدّمت شركة بوسطن داينامیكس نموذجًا من روبوت أطلس أكثر تطوّرًا من سابقه، من خلال تمتّعه بطاقة ذاتية، وقادرًا على النهوض إذا ما سقط أرضًا، الأمر الذي كان غير ممكنٍ قبل ظهور نسخته المطوّرة هذه.

كما تمتلك الشركة مجموعة كاملة من روبوتات على شكل حيوانات: بيغ دوغ، وهو روبوت له أربعة أطراف، وراكس، وهو روبوت له ستّة أطراف. وهذا النموذج الأخير، لكونه محكم العزل، يمكنه السير في الأراضي الطينية أو وسط الثلوج أو في المستنقعات.

وأخيرًا، في عام 2019، أنتجت شركة بوسطن داينامیكس روبوت سبوت، وهو عبارة عن كلب آلي بارتفاع مترٍ ويزن اثنين وثلاثين كيلوغرامًا، بطاقة شحن ذاتي تمتدّ لتسعين دقيقة، وهو، لكونه محكم العزل، قادرٌ على صعود السلالم وحمل حمولةٍ تزن أربعة عشر كيلوغرامًا.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

51. في الملجأ

حينما استيقظتُ، رأيتُ الشمسَ تسطع فوق مصنع بوسطن دايناميكس. أثناء تجوّلي في المخيّم، لاحظتُ بعض الاضطراب والحركة غير الطبيعية.

وجدتُ الكثير من البشر وقد تجمّعوا في المدرّج الواسع الذي يُستخدَم قاعةً للمؤتمرات.

إنّه اجتماع القبائل، ونَسُوا أن يدعوني إليه!

هرولتُ لكي أنضمّ إليهم كممثّلة للقبيلة الثالثة بعد المئة، قبيلة القطط. وصلتُ في الوقت المناسب، فقد كانت الجلسة على وَشْك أن تبدأ.

كانت للقاعة جدرانٌ بيضاء ومفروشة بأرائكَ بيضاء مع سقفٍ على شكل سماء مرصّعة بالنجوم.

نُقِلَت المناقشات على شاشة وبُثّت في المصنع وعلى الإنترنت لدى الجماعات البشرية المتّصلة من خلاله.

وجدتُ مكانًا شاغرًا في المقدّمة، فجلستُ فيه.

بهذه المناسبة، كانت هيلاري كلينتون قد ارتدت فستانًا أزرق اللون وسرّحت شعرها تسريحةً معقّدة بخصلاتٍ وردية اللون. كما كانت تتزيّن بجواهر ملوّنة. ربّما كانت تأمل في إثارة إعجاب علماء الروبوتات بهذه الطريقة. رأتني ناتالي وانضمّت إليّ، موفّرة لي فرصة فهم ما يُقال.

قالت هيلاري:

– في البداية، أودّ أن أرحّب بالقبيلةالرابعة بعد المئة، قبيلة البوسطنيين. لقد بدا لي أنّ أقلّ ما يمكن فعله هو أن نمنحهم تمثيلًا رسميًّا، طالما أنّنا في ديارهم. والتزامًا بالإجراءات الشكليّة فحسب، أدعوكم للتصويت على ذلك، ولكنني لا أدري كيف يمكننا رفض منحهم مكانًا في مجلسنا.

جرى التصويتُ واكتفيتُ برفع قائمتي مثل كلّ الآخرين.

– حسنًا، لقد تحقّق الإجماع وأرحّب أطيب ترحيب بممثل قبيلة البوسطنيين، وهو في هذه الحالة مارك رايبيرت. هلّا تودّ، يا عزيزي مارك، أن تلقي كلمة؟

وقف مؤسس بوسطن دايناميكس أمام المنبر. كان أيضًا يرتدي قميصًا مزهّرًا، ولكن إذا كان القميص الأوّل برتقاليّ اللون، فهذا يميل إلى اللون البنفسجي.

- الأصدقاء النيويوركيون الأعزّاء، الأعزّاء القادمون من دولٍ أخرى، ولكن أيضًا: العزيزة باستيت (فقد قيل لي إنّها تحمل تمثيل القطط!).

مؤتُ لكي ألفت انتباه الحضور جيّدًا إليّ.

- أودّ في البداية أن أرحبّ بكم أطيب ترحيب في مصنعنا. أنا أعلم أنّكم عشتم أوقاتًا عصيبة. هنا، لا بدّ أنّ الأسوار الزجاجية وروبوتات الكاتز ستؤمّن لكم الهدوء والأمان. ارتاحوا، واستريحوا ومن ثمّ سوف نرى كيف يمكننا أن نستفيد من عددنا الكبير لكي نجرّب عمليات خروج إلى خارج الأسوار سعيًا إلى تجديد مخزوناتنا من المواد الأوّلية. وهو الأمر الذي لا بدّ أن يحقّق أحدَ مشاريعي ألا وهو تأسيس جيش من القطط الآلية (الكاتز) قادرٍ على هزيمة الجرذان العضوية.

استخدم جهاز تحكّمٍ وظهرت خارطة على الشاشة المثبّتة خلفه.

- هذه الصور واردة من قمرنا الاصطناعيّ الذي يقوم بمهمّة المراقبة. يمكننا أن نرى سطح الكوكب في المكان الذي نُريد. هنا في هذه البقعة توجد المواد الأوّلية التي سوف تتيح لنا أن نصنع بكميّات كافية روبوتات كاتز 007 بهدف تشكيل جيشٍ من القطط الآلية.

أشار إلى النقاط المحدّدة بمؤشرٍ ليزري أحمر اللون. صررتُ على فكّي كي لا أركض خلف هذا الشعاع الجذّاب للغاية.

يمكنني *أن أتمالك نفسي*. يمكنني *أن أتمالك نفسي*.

- هنا، الحديد. وهنا، الألمنيوم. وهنا، النفط. وهنا، النحاس. أعتقدُ أنّه سيكون علينا تجهيز بعثات لجلب هذه المواد الضرورية. حتى الآن لم تعد أيّ بعثة أرسلناها.

نهض شوفال فوغو لكي يطرحَ سؤالًا.

- لقد قلتَ إنّكم تملكون قمرًا اصطناعيّا للمراقبة. هل يُتيحُ لكم هذا

الجهاز إحصاء عدد الجرذان؟ على سبيل المثال، هل يمكنكم إخبارنا كم هو عددها في نيويورك؟

– بحسب التقديرات المتصوّرة للسطح والمقترنة بنظام الحساب باستخدام الذكاء الاصطناعيّ: يبلغ عددها ثلاثين مليونًا في جزيرة مانهاتن وحدها.

طلب ممثلُ الجماعة الصينية أيضًا التحدّث.

– هل تتوفّر لديكم أرقامٌ بالنسبة إلى ما تبقّى من الكوكب؟

– على المستوى العالمي، يمكننا أن نقدّر أنّ هناك الآن عشرة جرذانٍ مقابل كلّ كائنٍ بشري. وإذا اعتمدنا هذه النسبة معيارًا، وإذا ما قدّرنا أنّه في السابق كانت هناك ثمانية مليارات من الكائنات البشرية، يمكننا أن نقدّر عدد الجرذان الآن بثمانين مليار جرذٍ.

رفعتُ قائمتي وسألت:

– وكم هو عدد القطط؟

ترجمت خادمتي سؤالي.

– كان هناك، قبل الانهيار الكبير، قطٌّ واحد مقابل كلّ عشرين كائنًا بشريًا. أي أربعمئة مليون قطّ.

– وكم هو عدد الكلاب؟

– عددها أقلّ بكثير، وفق آخر إحصاء: كلبٌ واحد مقابل كلّ أربعين كائنًا بشريًا. أي مئتا مليون كلب.

كنتُ أجهل هذه الأرقام التي أعطت فكرةً عن عديد القوات المتواجهة.

– وبعد الانهيار الكبير؟

أخرج مارك هاتفه المحمول ونظر إلى الشاشة.

– انخفض عدد البشر من ثمانية مليارات إلى مليارٍ واحدٍ. وانخفض عدد القطط من أربعمئة مليون إلى خمسين مليونًا. وانخفض عدد الكلاب من مئتي مليون إلى عشرين مليونًا.

– والجرذان؟

– حسنًا، من المؤكّد أنّ الجرذان استفادت من الانهيار الكبير. بحسب

التقديرات المتوفّرة، وصلت الآن إلى أربعة أضعاف عددها السابق. وبالتالي نعتقد أنّ عددها الحالي يصل إلى ثلاثمئة وعشرين مليارًا. وبالطبع مع كثافة أكبر بكثير للأفراد في المدن الكبرى المجهّزة بأنفاق المترو والمجارير مثل بكين وشنغهاي ونيويورك ونيودلهي وموسكو والقاهرة واسطنبول وطوكيو وريو وباريس ولندن.

ردّدت هيلاري كلينتون، مرتابةً:

– ثلاثمئة وعشرون مليارًا! حتى إذا أطلقنا عملية صنع القطط الآلية، هل تتصوّرون كم من الوقت سوف يلزمنا لإنتاج عددٍ كافٍ من الروبوتات التي تواجه هذا العدد الكبير من الحيوانات اللعينة؟

طلب شوفال فوغو الحديث.

– أقترح أن نتخلّى عن فكرة محاربتها.

ردّت هيلاري بغضب:

– حقًّا؟ وماذا سنفعل إذًا؟

– سوف نبني هنا معقلًا محميًّا نكون فيه في أمانٍ ونعيش فيه بسلام، في اكتفاءٍ ذاتي كامل، مقطوعين عن بقية العالم. لدينا هنا الزراعة ومصادر البروتين، والمساحة الكافية، والنظام البيئي الصالح للحياة.

سألت الرئيسة بسخريةٍ:

– وسوف نترك بقية العالم للجرذان؟

– ليس لدينا خيارٌ آخر. يجب أن نبقى على قيد الحياة. هنا، سنكون في منطقة آمنة. يبلغ عددنا اثنين وأربعين ألف نسمة. وهذا العدد يكفي لبناء مدينة صغيرة مستقلّة ومحمية، تُدار من قبل حكومتنا، التي ستخضع هي نفسها لسيطرة ممثلي مئة وأربع قبائل.

تدخّل الجنرال غرانت بدوره:

– أنا لا أوافق على هذا المقترح. لدينا خيارٌ آخر. أنا أقترح استخدام سلاحٍ سوف يعيد توازن القوى. السلاح الأكثر فاعليّةً من جميع الأسلحة الأخرى. القنبلة الذرّية.

دبّت ضجّة وسط الجمهور.

– سوف أشرح فكرتي. بما أنّه لم يعد هناك بشر في مانهاتن وأنّها واحدة من أكثر البقاع كثافةً بالأعداء (ثلاثون مليونًا، كما عرفنا ذلك الآن)، وعلاوة على ذلك، هناك في مانهاتن زعيمٌ يتمتّع بمعرفة فريدة بتقنياتنا، أعتقدُ أنّه هذا هو المكان الذي يجب ضربه. ضربة قويّة وبطريقة موجّهة بدقّة.

سألت هيلاري كلينتون:

– ولكن هل لديكَ هذه القنبلة الذرّية؟

مثلي أنا، بدت أنّها تعتقد أنّ الكلام سهلٌ ولكن يجب أن يعقبه أفعال. وإلا فلن يكون هذا سِوى جعجعة بلا طحن.

أخذ الجنرال غرانت وقته قبل أن يجيب.

– كنتُ أحتاج إلى الحصول على تأكيد بعض المعلومات التي كنتُ لا أزال أحمل شكوكًا حولها، واستطعتُ أن أفعل ذلك هذه الليلة بفضل حواسيب بوسطن داينامكس. ها هو إذًا الخبر السارّ الذي أعلنه لكم: في الواقع، أصبحتُ الآن أعرف كيف يمكننا، من الناحية العملية، إرسال قنبلة ذرّية إلى سماء نيويورك وإسقاطها هناك.

هذه المرّة، أصغى الجميع إليه بانتباهٍ.

– سأعرض لكم سريعًا خطّتي: المحطّة دلتا 09 هي مكان في داكوتا، في الجنوب، بالقرب من قرية وول. يضمّ هذا الموقع منصّات إطلاق مزوّدة بصواريخ بالستية عابرة للقارات من طراز مينتمان 3. إنّها أسلحة من الجيل الأحدث. رؤوسها الحربية مزوّدة بقنبلة نووية حرارية.

أُبهِرنا جميعًا بهذه التفاصيل. توقّف الجنرال للحظةٍ عن الكلام لإحداث الإثارة والإبقاء على انجذاب الجمهور إلى حديثه.

– من الناحية الرسمية، عُطِّلَ الموقع في عام 1994، مع بدء سريان تنفيذ اتّفاقية ستارت الموقّعة في عام 1991 من قبل ميخائيل غورباتشوف والرئيس جورج بوش. وتحوّل المكان إلى متحفٍ. بيد أنّ المكان ليس «مجرّد» متحف. قبل فترة قصيرة من تسلّم مهامي في الموقع العسكري قرب كوبا،

أخبرني أحد زملائي بأنّهم قد احتفظوا بصاروخ «فعّالٍ»، في حال لم يحترم الروس الاتّفاقية. أي الاحتفاظ به كنوعٍ من صِمَام أمان.

سألت ممثّلة للجماعة السلافية، مدهوشةً:

- هل تعني أنّ زوار الموقع سيرون فيه صاروخًا يحمل رأسًا نوويًّا جاهزًا للاستخدام؟

- يا له من تمويهٍ رائعٍ، أليس كذلك؟ إنّها سخرية الموقف.

سأل شوفال فوغو الذي تعيش قبيلته بالتحديد في داكوتا:

- وكيف ستتصرّف؟

- لقد سبق أن تحدّثتُ في هذا الأمر مع مارك رايبيرت. لديه طائرة مروحية. ولذلك سوف أغادر إلى المكان برفقة خبيرٍ في الصواريخ البالستية والهندسة العسكرية لإطلاق هذا الصاروخ من طراز مينتمان على نيويورك.

طلبتُ الإذن بالحديث.

حملتني ناتالي إلى المنصّة وأوصلتِ الجهاز لكي يفهم الجميع كلامي مباشرةً.

- طاب نهاركم. للذين لا يعرفونني بعد، أنا أُدعى باستيت، على اسم الإلهة المصرية. أنا من قدْتُ البشر والقطط إلى أمريكا. كما أنني الوحيدة التي أحظى بامتياز التحدّث إلى ألدّ أعدائنا، تيمورلنك الشهير الذي ذكره الجنرال غرانت. أنا قطّة، ولكن بفضل فلاشة يو إس بي مزروعة في جبيني كعينٍ ثالثة، يمكنني تصفّح الإنترنت والحصول على المعارف، وخاصّة حول تاريخكم. أودّ أن أشير إلى أنني لستُ مؤيّدة على الإطلاق لاستخدام القنبلة الذرّية ضدّ نيويورك. أعتقدُ أنّ بوسعه إيجاد وسيلة أقّل تدميرًا لكسب هذه المعركة. بصراحة تامّة، أطرح عليكم جميعًا السؤال التالي: ما الذي نجنيه من تدمير مدينة استثنائية إلى هذه الدرجة تدميرًا كاملًا طالما لن يعود بوسعنا العودة إليها بسبب الإشعاعات؟ ستكون هذه مجرّد مضيعة للوقت والتسبّب بخسائرٍ لا أكثر!

استغرب الجميع أن تعرف قطّة بسيطة مثلي مبدأ القنبلة الذرّية

والإشعاعات ولكنني لم أشأ أن أضيّع وقتي في تفسير معارفي التي اكتسبتها خلال الشهر المنصرم عند عبور الأطلسي.

لم يبدُ الجنرال غرانت مرتاحًا لمداخلتي. قال:

– أعتقدُ أنّكِ، لكونكِ «قطّة»، لا تستطيعين بالفعل أن تفهمي أبعاد المشكلة. تدمير نيويورك هو عبارة عن تضحية «صغيرة» ضرورية لضمان عالمٍ قابلٍ للعيش لكلّ أبنائه.

صفّق له بعض أعضاء الجمعية. فاستغلّ هذا التأييد والتفتَ نحوي ونظرَ إليّ بتعالٍ.

– مع ذلك، يجب أن تعلمي أنني لستُ عنصريًّا وليس لديّ أيّ شيء ضدّ القطط. واعلمي أيضًا، يا عزيزتي باستيت، أنني على علمٍ بتميّزكِ وإنجازاتكِ السابقة.

بدأ هذا الرجل يغيظني.

رددتُ عليه:

– وأنا، لستُ عنصرية حيال البشر، ولكنني على علمٍ بإخفاقاتكم السابقة، أيّها الجنرال غرانت. إنّ إلقاء قنبلة ذرّية على مانهاتن فكرةٌ سيّئة جدًّا، وأنا أؤكّدُ لك ذلك.

– اسمعي يا باستيت، إنّ إعجابكِ بمدينة نيويورك شيءٌ يستحقّ الثناء والتقدير، ولكنّنا نتحدّثُ هنا عن حربٍ شاملة. إذا لم ننتصر فيها، قد تكون العاقبة مأساوية على البشر كما على القطط. أنا أوافقكِ الرأيَ على أنّ النووي حلٌّ سيّئ، ولكننا لا نمتلك في الوقت الراهن حلًّا سواه. وحتى مشروع مارك الهادف إلى إيجاد مصادر للمواد الأوّلية لصناعة قطط آلية فائقة التطوّر سوف يتطلّب الكثير من الوقت لتحقيق نتيجة غير مؤكّدة.

تابعتُ حديثي:

– وبعد القنبلة الذرّية، ما الذي سوف يحدث؟

– القلّة القليلة من الجرذان التي ستنجو من الضربة سوف تنقل الخبر إلى الجرذان الأخرى. وبالتالي سوف تخاف الجرذان كلّها من قدراتنا التدميريّة. وهذا ما نسمّيه «القوّة الرادعة». وبعد هذه الضربة، لن تعود هناك حاجة لاستخدام السلاح النووي، فالعدو سوف يعلم ما الذي بوسعنا فعله.

– هل أنت متأكّد من ذلك؟ بالنسبة إليّ، لا أعتقد أنّ هذه القنبلة سوف ترهب الجرذان.

يجب أن أجد نبرةً أكثر إيحاءً بالثقة. لقد بدأتُ أفقد السيطرة على الموقف.

قال بثقة:

– يبدو لي أنّكِ لا تقترحين شيئًا بديلًا عن مقترحي.

حسنًا، ما كان عليّ أن أتقدّم في مواجهته قبل أن أعدّ حججي على نحوٍ محكم. لقد فكّر غرانت طيلة الليل في مداخلته وناقشها مع رايبيرت، وأنا أبدو كما لو أنني أريدُ فقط أن أعرقل مشروعه دون أن أقدّم أيّ مقترحٍ ملموسٍ قابلٍ للتطبيق. لا بدّ من الإسراع في إيجاد فكرة.

فكرة «باستيتية».

شعرتُ بنظرات ممثلي القبائل الذين نظروا إليّ نظرة إشفاقٍ. اعتقدوا أنني خسرتُ المواجهة لأنني أعدمُ مقترحًا أقابل به مقترح استخدام السلاح النووي. بحثتُ بين الوجوه عن حلفاء محتملين. رأيتُ بين الجمهور ناتالي وأنجيلو على كتفها، وأبعد منهما بقليل لمحتُ رومان مع أسميرالدا، التي كانت تقف هي الأخرى على كتفه.

يجب أن أكسب القليل من الوقت الإضافي. يجب أن أجد شيئًا.

– بكلّ تأكيد، لديّ فكرة مختلفة.

يجب أن أتذكّر من أكون، أتذكّر اختلافي عن الآخرين، أتذكّر كلّ الأفكار التي وجدتها وحدي حتى الآن.

– أقترح أن نُقيم اتّحادًا مقدّسًا بين كلّ الأنواع ضدّ الجرذان. ولكي نعوّض نقصنا العددي، سوف نضيف الطيور والضفدعيات والحشرات.

– تُريدين كسب المعركة بمساعدة الغربان وضفادع الطين والصراصير؟

– ليس فقط بمساعدة هذه، بل أيضًا بمساعدة الصقور والنسور والضفادع والسلامندر، والعقارب، والعناكب والنمل الأبيض والدبابير والنحل، والنمل. لقد سبق أن أنقذ صقرٌ حياتي ذات مرّة.

سألتني هيلاري كلينتون:

– وكيف تنوين تحقيق هكذا معجزة؟

– سوف نحتاج إلى إيجاد وسيلة للتواصل مع هذه الأنواع. إذا كنتُ، أنا القطّة البسيطة، أستطيع أن أتحاور معكم، فهذا يعني أنّ الأمر ممكن. وعندما نبني هذا التحالف، لن تتمكّن الجرذان، مهما بلغ عددها، أن تصمد أمامنا. ليس علينا سِوى العثور على ممثّلي الأنواع الأخرى وتزويدهم بعينٍ ثالثة. أودّ أن أذكّركم بأننا مدينون في بقائنا على قيد الحياة لحقيقة أنني قد قدّمتُ بنفسي عينًا ثالثة إلى جرذٍ تجسّس لمصلحتنا على العدوّ وأتاح لنا بهذه الطريقة أن نقابل زعيم الجرذان. من دون التواصل، كنّا، نحن سكّان برج الحرية، سنُبادُ جميعًا من قبل الجرذان أو نُدفنُ تحت الأنقاض التي يخلّفها تفجيرٌ.

بعد مداخلتي، شرع الناس يتحدّثون جميعًا في نفس الوقت. وارتفعت نبرة أصواتهم.

اقترحت هيلاري تصويتًا على الاقتراحات الثلاثة.

– منْ يصوّت على مقترح باستيت، ممثّلة جماعة القطط، وهو المقترح الذي يتضمّن... إذا ما أحسنتُ الفهم... التواصل مع كلّ الأنواع الأخرى من خلال... عينٍ ثالثة مزروعة في دماغ ممثلين آخرين لحيواناتٍ أخرى. والتوصّل بذلك إلى تشكيل جيشٍ كبيرٍ متحالفٍ، سوف يضمّ أيضًا طيورًا وضفدعيات وحشرات.

رأيتُ بين الحضور نظرات متردّدة.

لا بدّ أنهم يتساءلون عن كيفية إيجاد مكان في دماغ النملة لزرع فلاشة يو إس بي فيه...

رفع ثمانية أشخاص أيديهم.

قالت الرئيسة:

– حسنًا. أنا أحصي إذًا ثمانية أصوات. دعونا ننتقل الآن إلى المقترح الثاني، المقدّم من قبل شوفال فوغو، ممثّل جماعة الأمريكيين الهنود. وهو يتضمّن، على ما أذكر، تحصين هذه المدينة – المصنع لنجعل منها جيبًا محصّنًا، ومكانًا آمنًا.

هذه المرّة، كانت هناك قرابة ثلاثين يدًا مرفوعة.

أعلنت هيلاري كلينتون:

- أحصي ثلاثة وثلاثين صوتًا. حسنًا، والآن، منْ يصوّت لمصلحة المقترح الثالث، مقترح الجنرال غرانت، ممثّل جماعة العسكر: إطلاق صاروخ ذي رأسٍ نوويٍّ على نيويورك حيث يوجد ثلاثون مليون جرذٍ مع زعيمها الموهوب؟

رُفِعت ما يقرب من ستّين يدًا.

أحصت هيلاري الأيدي المرفوعة، وأعلنت:

- ثلاثة وستون صوتًا، بينها صوتي الذي يُحسَب بصوتين. أُقرّت مهمّة إلقاء «قنبلة ذرّية على مانهاتن» من قبل الجمعية.

بدأ أنصار الرجل العسكري بالتصفيق، ثمّ انضمّ معظم ممثلي القبائل إليهم، فإذا كان البشر يختلفون على كلّ شيء في لحظة أولى، فإنّ غريزة القطيع لديهم، ويجب أن أعترف بهذا، هي التي تسود في النهاية.

أعتقدُ أنّ البشر وعلى نحوٍ أخصّ الأمريكيين يفضّلون الحلول السريعة والجذرية على الحلول الهادئة التي تكون من كلّ بدّ أكثر بطئًا في التنفيذ.

بعد الخلافات والانقسامات الحادّة في صفوفهم، انهمكوا الآن في الحماسة الفائقة لهذا الحلّ القاسي.

اقترب رومان ويلز منّي.

- سوف يمكنكِ أن تقولي فيما بعد إنّكِ قد حاولتِ إنقاذ نيويورك. ونحن شهودٌ على ذلك.

هزّت ناتالي كتفيها.

- على أيّ حال، في الوضع الذي نحن فيه الآن، لا أعتقد أنّ هذا سيغيّر في الأمر الشيء الكثير.

ماءَ أنجيلو:

- أنتِ على خطأ، يا أمّاه، هذه الجرذان شنيعة، لا ينبغي توفيرها، يجب القضاء على عليها على بكرة أبيها.

لم أكلّف نفسي حتى عناء الردّ عليه.

أقبلت أسميرالدا هي الأخرى نحوي.

– من القسوة أن نُعامَل كحيواناتٍ دنيا، أليس كذلك؟ من حينٍ لآخر، أسألُ نفسي إن كان البشر يحبّوننا بالفعل بقدر ما يدّعون. قد يكون هذا مفاجئًا لكِ، ولكنني شخصيًّا أثقُ بكِ. أنا أعرفُ فيكِ قائدة حقيقية.

ثمّ أضافت:

– لعلمكِ، أنا أيضًا تألّمتُ كثيرًا لفقدان فيثاغورس.

– في أيّ ساعة قالوا إنّ الطائرة المروحية ستنطلق نحو المحطّة دلتا 09؟

– أعتقد أنّهم يريدون الإسراع في الذهاب. من المحتمل أن يغادروا بعد ساعة من الآن.

فكّرتُ.

– وهل هذا يعني أنّكِ ستتبعينني في مهمّة جديدة خطرة، وقد تبدو جنونية للوهلة الأولى.

رمشت بعينيها ولكنّها لم تبدُ معترضة بشدّة على هذا العرض.

– أتساءلُ عمّا تفكّرين فيه. ما هو الأمر «الجنوني» الذي تريدين القيام به بالضبط؟

تنفّستُ بعمق وتنهّدت.

– إنقاذ نيويورك.

وفي اللحظة التي تفوّهتُ فيها بهذه الكلمات، دار في خلدي أنني بصفتي ممثّلة رسمية للقبيلة الثالثة بعد المئة في الجمعية، تقع على عاتقي الآن مسؤوليات سياسية أعتزمُ تحمّلها بالكامل والعمل على أدائها.

52. وظيفة رسمية لقطٍّ

في إنكلترا حيوانٌ وحيد يحظى بلقبٍ رسمي وميزانية موظّف، إنّه القطّ الذي يحمل لقب الرئيس موسر، والذي يمكننا أن نترجمه بعبارة «كبير صائدي الفئران».

اعتُمِدَ هذا اللقب من قبل المَلِك هنري الثامن عام 1530، ولكنّ الوظيفة الرسمية لم تحدث إلّا منذ الثالث من يونيو/ حزيران عام 1929 وقد ارتبطت براتبٍ يومي مقداره فلسٌ واحدٌ لقاء الطعام والرعاية. في عام 1932، رُفِعَ هذا المبلغ إلى شلن وستّة بنسات في الأسبوع. وفي عام 2010، وصل راتب كبير صائدي الفئران إلى مئة جنيه في العام. ولا تعود ملكية القطّ المعيّن كموظّف إلى رئيس الوزراء وإنّما إلى 10 داونينغ ستريت، مقرّ الإقامة الرسمية ومكتب رئيس وزراء بريطانيا.

في عام 2019، لفت كبير صائدي الفئران، المسمّى لاري، اهتمام وسائل الإعـلام من خلال وقوفه تحت سيارة الليموزين للرئيس الأمريكي ترامب ورفض التحرّك من مكانه، وهو ما أدّى إلى منع السيارة من الإقلاع وأحدث خللًا في برنامج اللقاء برئيس الوزراء البريطاني. منذ تلك الحادثة، انتشرت صور القطّ لاري، الذي بات نجمًا، على شبكات التواصل الاجتماعي، التي نال عليها دعم ومساندة الكثير من المعجبين.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

53. مهمّة في داكوتا

علي أن أقرّ بأنّ مَنْ لا يعرفني جيّدًا قد يعتقد في بعض اللحظات أنني غريبة الأطوار.

أنا بنفسي، في بعض الأحيان، أنظر إلى نفسي في المرآة وأقول في نفسي: «هذه القطّة ليست طبيعية».

من جانبٍ آخر، يبدو لي أن الناس الطبيعيين لا يفعلون «بحكم التحديد» أيّ شيء استثنائي. إنّهم يكتفون بمتابعة الناس غير العاديين مثلي... بالتحديد.

أقلعت الطائرة المروحية. استطعنا، أنا وأسميرالدا، الاختباء وراء المقعد الخلفي. لم أتحدّث عن الخطّة لأيّ شخصٍ وخاصّة لابني، الذي

كان سيطالب بالمجيء معنا وكان سيتسّبب، بحسب معرفتي به، بالكوارث ليس إلّا.

أنا أعلم أنّه ليس من اللطف كثيرًا أن أقول هذا، ولكن لا ينبغي لي أن أفقد رؤيتي الموضوعية بشأنه فقط لأنني أمّه.

إذًا، لقد طرنا على متن المروحية باتجاه قرية وول.

تبعد القرية عن بوسطن مسافة تزيد على ثلاثة آلاف كيلومترٍ. ولأنّ هذه المروحية التي تُعدّ من الجيل الأحدث تطير بسرعة ثلاثمئة كيلومترٍ في الساعة وسطيًّا، استغرقت رحلتنا عشر ساعات للوصول إلى مقصدنا.

كلمّا عرفتُ الأرقام الكبيرة أكثر، أحببتُ أن أكون دقيقة أكثر معها لأنني عندما كنتُ «غير مثقّفة»، لم أكن أعدّ الأرقام إلا على مخالبي، وإلى العدد ثمانية كحدّ أقصى، وكان كلّ ما يزيد على هذا العدد يُعَدُّ بالنسبة إليّ «كثيرًا».

بدت لي الرحلة طويلة، ولكنّ التحدّي كان مهمًّا للغاية بحيث يستحقّ أن أخضع له. ثمّ إنّني لم أشأ أن أُظهِرَ توتّرًا أمام أسميرالدا.

على المقاعد الأمامية، جلس الجنرال غرانت ومرافقه الخبير في الصواريخ النووية. والجنرال هو من قاد المروحية. اعتمر كلّ واحد منهما خوذة على أذنيه، وكان ضجيج شفرات مروحة الحوّامة قويًّا جدًّا بحيث لم ننعم بالهدوء في جحرنا الصغير.

استثمرتُ وقت الرحلة لكي اتّصل بموسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة. كان يجب أن أفهم بأكثر ما يمكن من التفصيل كيف تعمل منصّة إطلاق الصاروخ النووي مينتمان 3.

سألتْ أسميرالدا:

– ما الذي تنوين فعله؟

– أنوي تعطيل الصاروخ وإبقاءه على الأرض.

– إذا لم ينطلق الصاروخ سوف يقومون بإصلاحه حتى يعمل المحرّك.

– إذًا في هذه الحالة، يجب أن ينطلق الصاروخ، ولكن لا ينبغي له أن ينفجر.

بحثتُ على الإنترنت عن «مينتمان 3» ثمّ عن «إطلاق صاروخ». وبذلك تعلّمتُ طريقة الاستخدام.

بيد أنني، وإن كنتُ ذكيّة وقويّة العزيمة، لقيتُ صعوبةً في فهم كيفية سير عملية الإطلاق بالفعل. واضطررتُ لأن أعيد مرارًا وتكرارًا لكي أفهم أنّ هناك، في قاعدة وقلب الصاروخ، نظامَ دفعٍ؛ وفي الرأس الحربي، نظامًا للتوجيه الإلكتروني؛ وفوق الرأس الحربي، صاعقًا مفجِّرًا.

وبدا لي أنّ نظام التفجير هذا هو بالتحديد ما ينبغي لي التدخّل فيه.

أدركتُ أنّ هناك جهازَ تحكّمٍ بالإطلاق عن بعد وجهازَ تحكّمٍ بالإطلاق يدويًّا مباشرةً على الصاروخ...

شرحتُ الوضع لأسميرالدا.

قالت:

– هل تعتقدين أنّ علينا الدخول إلى داخل الصاروخ نفسه لكي نعطّل فاعليته؟ هذا الأمر يتجاوز حدود شجاعتي. اذهبي وحدكِ في هذه المهمّة، لن أتبعكِ بعد الآن.

لهنيهةٍ، تخيّلتُ نفسي على متن الصاروخ، متشبّثةً به بمخالبي، وهو يرتفع في السماء.

لا أعتقد أنني سوف أصمدُ كثيرًا.

واصلتُ الاطّلاع على تفاصيل دليل تشغيل منصّة الإطلاق والصاروخ.

لحسن الحظّ، يعشق دماغي التعلّم، وكلّما اهتممتُ أكثر بتفاصيل نظام التوجيه، وجدتُه مبهرًا.

مرّة أخرى، لم أستطع الامتناع عن الإعجاب بمستوى الدقّة التي بلغتها التقنية البشرية.

لقد ذهبوا بالفعل بعيدًا جدًّا في التحكّم بالأدوات وبالآلات الفائقة التعقيد. وهذا فقط بفضل دماغهم ذي القشرة الفائقة التطوّر، وأصابعهم العشر ذات المفاصل المرنة وإبهامهم المتقابل مع الأصابع الأخرى!

واصلت الطائرة المروحية التقدّم في مسارها نحو الغرب بسرعة فائقة.

أشارت إليّ أسميرالدا بأن أنظر إلى الخارج من خلال الخلفية الزجاجية الشفّافة. وقد رأيتُ شيئًا مدهشًا: جبلٌ منحوتٌ بأربعة وجوهٍ بشرية عملاقة. كان هذا النصب أكثر إثارةً حتى من تمثال الحرية.

إذا ما كنتُ أتذكّرُ جيّدًا ما قرأتُه في الموسوعة، يتعلّق الأمر بجبل راشمور وهو نصب تَذْكاري لأوجه أربعة رؤساء، يبلغ ارتفاعُ كلّ منهم ثمانية عشر مترًا.

بعد ساعات طويلة من الطيران، وصلنا أخيرًا إلى الساحة المقابلة لمتحف مينتمان الوطني التاريخي. فهبطت المروحية. خلع البشريان خوذتي الأمان خاصّتهما. خرجا، فلحقنا بهما خُلْسَة. كان البناء بنفسه قبيحًا جدًّا. يشبه خزانةَ أحذية كبيرة كستنائية اللون مع غطاءٍ أبيض اللون. لم يُضيّع الجنرال غرانت والخبير المرافق له وقتًا في التساؤل عمّا إذا كان البناء جميلًا أم لا، وعبرا المدخل مباشرةً.

أشارت إليّ أسميرالدا لكي أرى شيئًا: رأيتُ آذانَ جرذانٍ تبرزُ من بين الشجيرات.

قالت:

- إنّها تراقبنا.

رأينا طيف أربعة أو خمسة جرذان، ثمّ بضع مئاتٍ منها.

إنّها ليست بالعدد الكبير لكي تهاجمنا. إنّها تكتفي بمراقبتنا عن بعد.

لم يرَها الجنرال غرانت والخبير المرافق له. استعجلا تنفيذ مهمّتهما. جلسا في قمرة القيادة والسيطرة بعد خلع أحد الأبواب الداخلية بمواد متفجرة. تسلّلنا خلفهما. في الداخل، كانت هناك أبوابٌ أخرى أيضًا نجح الرجلان في فتحها بنفس الوسيلة.

جلسا على أريكتين كبيرتين من الجلد الأحمر أمام لوحات خضراء تحمل أزرارًا بيضاء تحتها كتابات. شغّلا الآلات. وَمَضَتْ العشرات من المصابيح الصغيرة الحمراء والخضراء، في نفس اللحظة التي سُمِعَ فيه هديرُ نظامِ تهويةٍ خلف الأسيجة. انهمك العسكريان في العمل.

بالنسبة إليّ، لم أهتمّ إلّا بمنطقة واحدة، وهي منطقة صاعق تفجير الذخيرة النووية. ولكون الصاروخ قديمًا، لم أستطع التصرّف باستخدام البلوتوث، واضطررتُ بالفعل للذهاب والضغط على الأزرار لكي أُبرمجَ بدوري الرأس الحربي بغية تعطيله. ولكن كيف السبيل إلى تخريب صاروخ نوويٍّ في حين ينهمك كائنان بشريان بالتحديد في فعل كلّ شيء لكي يعمل؟

لا أعلم إن كان قد سبق لكم أن وجدتم أنفسكم في موقفٍ كهذا، ولا أدري كيف كنتم ستتصرّفون معه، ولكن بالنسبة إليّ، شعرتُ بأنني قد وصلتُ إلى منتهى قدراتي وإمكاناتي في العمل.

أشارت إليّ أسميرالدا، التي من المفروض أنّها تمتلك موهبة التخاطر الذهني، بأن أتبعها. ذهبت إلى الغرفة المجاورة وقلبت عمدًا كوبًا مليئًا بالأقلام، فتبعثرت مصدرةً ضجّة حادّة.

توقّف الكائنان البشريان في الحال. تشاورا فيما بينهما ونهضا معًا ليذهبا ويتحرّيا عن مصدر هذه الضجّة. نجحت بعض الجرذان في الدخول ولكنّها وقعت ضحيّةً لحيلة الإلهاء التي قمنا بها. سحب العسكريان مسدّسيهما وشرعا في إطلاق النار، ولأنّ عدد الجرذان كان كبيرًا استغرقت العملية بعض الوقت، فأُتيحت لي فرصةٌ ثمينةٌ لكي أواصل مهمّتي في إعطاب نظام التفجير.

اسميرالدا الشجاعة، نؤدّي مهمّتنا على نحوٍ أفضل ونحن معًا.

أصبحتُ بالقرب من لوحة المفاتيح التي تركها العسكريان. ضغطتُ على زرّ «تمرير»، والآن وقد أصبحتُ أجيد القراءة، وجدتُ مقطّعًا يذكرُ ضوابط إطلاق النار. عدّلتُ بعض الكلمات عشوائيًّا في الأسطر التي تلت.

ولكن إطلاق الرصاص توقّف. وانتهى مفعول حيلة الإلهاء. وكان علينا أن نختبئ سريعًا قبل أن يعود الكائنان البشريان. قفزنا أنا وأسميرالدا إلى سطح خزانةٍ لكي نتابع الأحداث من الأعلى.

استأنف غرانت وخبيره عملهما ولم يبدُ أنّهما قد انتبها إلى تدخّلي.

حينما انتهيا من عملهما، شرعا بعملية إطلاق الصاروخ فعليًّا. أظهرت شاشات كاميرات المراقبة أنّ غطاء منصّة الإطلاق بدأ يرتفع. خرجت سحابةٌ

كثيفةٌ وضخمة من الدخان الأبيض من فوهة المنصّة وأخيرًا انطلق الصاروخ وسط توهّج المفاعلات. ارتفع في السماء، ثمّ اختفى عابرًا سحابةً.

بدت على الجنرال ومعاونه علامات الرضا.

على شاشةٍ تعرضُ خارطة العالم، ظهر مسار تقدّم آلة الموت. بدا أنّ الصاروخ مينتمان 3 يلتزم تمامًا السير في المسار المُبرمَج له. قطع الصاروخ الذي يطير مسافة سبعة كيلومترات في الثانية مسافة ثلاثة آلاف كيلومتر بين داكوتا ونيويورك في ثماني دقائق، قبل أن يسقط فوق هدفه.

على الشاشة، أُصيبَ الهدَف. وصل الصاروخ بدقّة إلى مركز جزيرة مانهاتن.

ولكن لم تظهر صورُ الانفجار.

كيف يمكننا معرفة ما حدث هناك؟

هل يمكن أن يكون تيمورلنك قد قُتِلَ في هذه اللحظة؟

خطرت في ذهني صور التفجيرات النووية التي كنتُ قد شاهدتُها في التسجيلات المرئيّة لموسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة.

حاول الجنرال غرانت الاتصال مع بوسطن، ولكن لم ينجح في ذلك. استسلم الكائنان البشريان للإحباط، فأوقفا كلّ الآلات، وانطفأت المصابيح، وصمتَ نظام التهوية.

ثمّ غادرا قمرة المراقبة والتحكّم. في الخارج، رأينا الآلاف من الجرذان. اقتربتْ متوعِّدةً ولكنّها لم تصل في جرأتها إلى حدّ مهاجمتنا.

ربّما يكون هناك وعيٌ جماعي للنوع وحتى على بعد آلاف الكيلومترات شعرت هذه الجرذان بأنّ الكثير من بني جلدتها قد انتقل للتوّ من الحياة إلى الموت.

لم يأخذ العسكريان ذلك التهديد بعين الاعتبار وجلسا على مقعديهما في الطائرة المروحية. لم نحظَ إلّا بالوقت الكافي للتسلّل لكي نأخذ مكاننا في مؤخّرة الطائرة.

ثمّ أقلعنا.

بقي الآن هذا السؤال المُقلق: هل انفجرت القنبلة الذرّية؟

54. كيف أوشكت الحرب العالمية الثالثة على الاندلاع

في منتصف ليلة السادس والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1983، دوّت صفّارة الإنذار في سيربوخوف 15، وهو مركزٌ سريّ للإنذار المبكّر قرب موسكو، وهو ينسّق المعلومات من جميع محطّات الرادار في الاتحاد السوفيتي. رأى اللفتنانت - كولونيل ستانيسلاف بيتروف على الشاشات أنّ خمسة صواريخ بالستية يُحتَمل أنّها تحمل رؤوسًا نوويّة تعبر المجال الجوي الروسي. كنّا في عزّ الحرب الباردة والتوتّر في أقصى درجاته بين الرئيس الأمريكي رونالد ريغان ونظيره الروسي يوري أندروبوف.

أطلق الرئيس الأمريكي برنامجًا أسماه «حرب النجوم» مكلّفًا بالردّ على أيّ هجومٍ سوفياتي. ومن جهته، أنشأ أندروبوف، وهو زعيمٌ في غاية الغطرسة، نظامًا للمخابئ السرّية التي تراقب المجال الجوّي عبر قمرٍ اصطناعيّ للمراقبة العسكرية ويُتيح ردًّا سريعًا في حال وقوع أي هجوم أمريكي.

وقد تلقّى ستانيسلاف بيتروف أوامر واضحة بالتصرّف في هكذا موقف. عليه فقط أن يضغط على زرٍّ أحمر. ويمكنه بذلك شنّ هجومٍ مضاد فوري بفضله سوف تنطلق صواريخ روسية ذات رؤوسٍ نوويةٍ لتضرب المدن الأكثر اكتظاظًا بالسكان في الولايات المتّحدة الأمريكية.

وكان السوفياتيون قد أسقطوا، قبل ذلك ببضعة أيام، طائرة كورية جنوبية، وأوقعوا مئتين وتسعًا وستين ضحيّة، بينهم اثنان وستون أمريكيًّا.

وكان الجميع ينتظرُ ردًّا على هذا الهجوم.

وفي ذلك المساء، ومضت رسالةٌ حمراء على الشاشة. إذًا، لقد اكتشف النظام الإلكتروني للإنذار المضاد للصواريخ (كروكوس) صاروخًا، متبوعًا بأربعة صواريخ أخرى. كان بيتروف محاطًا بما يقرب من أربعين ضابطًا آخرين، ولكنّه هو الأعلى رتبةً ومن ينبغي أن يتّخذ القرار في النهاية. كان يعلم أنه يستطيع بحركةٍ واحدة إطلاق الحرب العالمية

الثالثة. فتردّد. كان في الرابعة والأربعين من عمره ومرّت الدقائق. قيّم الموقف، وقال في نفسه إنّ خمسة صواريخ عددٌ شحيحٌ جدًّا لشنّ هجومٍ حاسمٍ. واستنتج أنّ الأمر لا بدّ أنه يتعلّق بشيءٍ مختلف عن صاروخ. ولم يفعل شيئًا. وأصبح الجميع في مركز سيربوخوف 15 يترقّبون ليروا إن كان شيءٌ ما سيحدث. ولكن مرّت عشرون دقيقة دون أن يحدث أيّ انفجار. وفي الحقيقة، تبيّن أنّ المسألة كانت عبارة عن انعكاس الشمس على السُحب، وهو فُسِّر على أنّه انبعاث الطاقة من الصواريخ. بعد مضي خمسة عشر عامًا على تلك الحادثة، في عام 1998، رُفِعَت السرّية عنها. وفي عام 2004، نال بيتروف جائزة المواطن العالمي، وهي جائزة تكريمية تُمنَح للأشخاص الذين تصرّفوا تصرّفًا بطوليًّا.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

55. عن صعوبة الاتفاق والتفاهم

مرّت الساعات العشر التي أمضيناها في طريق الإياب أسرع من ساعات الذهاب. انسحبنا، أنا وأسميرالدا، إلى مؤخّرة الطائرة المروحية، حيث غامرنا بخوض نقاشٍ.

شعرتُ بأنّ هذه القطّة أكثر دهاءً بكثير ممّا استطعتُ أن أعتقد حتى هذه اللحظة.

عليّ أن أعترف بأنني قد أسأتُ الحكم عليها لأنني لم أكن أرغب في الاهتمام بها.

وكلّما حكمنا على الآخرين بنظرة سلبية، منحنا أنفسنا شعورًا بأننا نسيطر على الموضوع.

تتّسم أسميرالدا بعقلٍ نافذ ورهيفٍ ومُحتَرم. إنّها تتصرّف وفق شُرعةٍ أخلاقيّةٍ خاصّةٍ بها.

في الواقع، هي تكرّس نفسها لخدمة الآخرين.

لقد كرّست نفسها منذ البداية لخدمتي.

وأنا التي كنتُ أعدّها متبجّحة تُريد أن تسرق منّي موقع الأم والعاشقة، بل والمَلِكة، اكتشفتُ أنّها فقط... صديقة جديرة بالثقة وشجاعة بما فيه الكفاية لكي ترافقني في المهمّات الأكثر خطورةً.

الآن ألوم نفسي بعض الشيء على تقليلي من شأنها منذ البداية، وعلى تعاميّ حينما ساعدتني. من دون أن تملك عينًا ثالثة، تعرف الكثير من الأشياء، وخاصّة عن الموسيقى.

من المؤكّد أنّ هذا يعود إلى واقع أنّ سيّدتها كانت مغنّية وعازفة بيانو.

حطّت الطائرة المروحيّة أخيرًا في المهبط.

وجدنا الجوّ متوتّرًا في مصنع بوسطن داياناميكس. كان المدرج الذي يُستخدَم لاجتماعات جمعية القبائل المئة والأربع في حالة غليان.

انضممتُ إلى ناتالي، التي لاحظتُ وجودها بين الجمهور الغفير.

– ماذا؟

– كلا.

– ماذا، كلّا؟

– القنبلة الذرّية لم تنفجر. استطعنا هنا أن نراقب مدينة نيويورك بفضل القمر الاصطناعيّ الخاصّ بالمراقبة. سقط الصاروخ على رأسه، ولكنّه لم ينفجر الانفجار لم يحدث. لا ندري لماذا.

لقد نجحتُ!

لقد أنقذتُ نيويورك.

غمزتني أسمير الدا.

مؤتُ لها:

– لا يعلم بالأمر سوانا، نحن الاثنتين. أعتمدُ على كتمانكِ للسرّ.

– حتى لو أردتُ أن أخونكِ، أذكّركِ بأنني لا أتحدّثُ لغة البشر، ولا أملكُ عينًا ثالثة.

كان الجوّ من حولنا متوتّرًا ومكهرَبًا. انهمك ممثلو القبائل المئة والثلاث في المناقشات.

سألتني ناتالي:

- أين كنتِ؟ لم أرَكِ منذ البارحة، يا باستيت.

- لقد انعزلتُ في ركنٍ من الحديقة لكي أتناقش مع أسميرالدا. لقد قرّرنا أن نمضي وقتًا معًا، وألّا يكون معنا أحدٌ حتى نتناقش في كلّ ما تأخذه الواحدة منّا على الأخرى. لم يكن الأمر سهلًا، ولكننا تصالحنا الآن تمامًا ولم يعد هناك ما يعكّر صفو علاقتنا. وعليّ أن أعترف بأنني كنتُ أنا المخطئة حول العديد من النقاط الحاسمة.

وأنا ألفظ هذه الجملة، تصاعدت حدّة النبرة بين البشر.

أمّا هم، فعلى العكس، من الواضح أنهم يسيرون في طريق الانقسام لا الوحدة.

انخرط البشر المئة والثلاثة الذين يمثّلون القبائل في أحاديث ثنائية أو ثلاثية فيما بينهم، وهم قريبون جدًّا بعضهم من بعض ومنفعلون للغاية بدرجة أنّ لعابهم تناثر على وجوه بعضهم.

يبدو أنهم منزعجون للغاية من عدم انفجار القنبلة.

الآن كان الجنرال غرانت هو الذي يقف أمام المنبر ومن خلفه تُبثُّ على نحوٍ متواصل المشاهد التي صوّرها القمر الاصطناعيّ للصاروخ الذي أنهى مساره بالسقوط على رأسه مثل سهمٍ في سنترال بارك. قال:

- موادُ هذا الصاروخ قديمة وتعود إلى سبعينات القرن العشرين. ربّما يكمن الخلل في عنصرٍ إلكترونيٍّ أصابه الصدأ، أوّ أنّ خطأً بسيطًا قد وقع في نظام الاتصال. ومع ذلك، لا ينبغي أن نفقد الأمل: يمكن للذخيرة النووية أن تنفجر بين لحظةٍ وأخرى.

وردّ المجلس برمّته على هذا التصريح بصراخٍ عارمٍ.

صاح ممثّل الهيبيين:

- **الذين يفشلون يجدون الأعذار والذين ينجحون يجدون الوسائل!**

تضاعفت أصوات الصفير وأُلقيتْ أشياء نحو العسكري.

استغلّت هيلاري كلينتون الفرصة لتكسب شعبيةً متزايدة.

- أنا آسفة، أيّها الجنرال، لقد فشلت في مهمّتك مثلما أخفقتَ أثناء إنزالك بدبّاباتك. أنت مخطّطٌ استراتيجي لا يمكنك أن تكون مفيدًا بالنسبة إلينا.

انطلقت صفعةٌ تركت أثرًا أحمر اللون على خدّ الرئيسة.

- وعلاوة على فشلك تضربني! ولا تحترم في ذلك لا سنّي ولا جنسي!

فانقضّت عليه وهي في ذروة غضبها وغرزت أظافرها في وجهه ومزّقت بشرته، خادشة جفونه وأنفه وشفتيه.

هكذا هم البشر: غير قادرين على التحكّم بغرائزهم البدائية.

أطلق الجنرال غرانت صرخةً وأخرج، مغمض العينين، سلاحه وأطلق النار باتجاه هيلاري، ولكن هذه الأخيرة تنحّت، وأصابت الرصاصة مارك رايبيرت في بطنه.

نظر الرجل إلى جرحه، مذهولًا، دون أن يفهم ما حصل، ثمّ سقط على وجهه.

وفي الحال، فتح روبوتٌ من طراز كاتز 007 فمه وحرّر السلاح الواقع في عمق حلقه. أطلق النار على الجنرال غرانت، الذي لم يحظَ سِوى بالوقت الكافي للارتماء أرضًا لكي يتجنّب بشقّ الأنفس الطلقة. استلّ عسكريٌّ آخر سلاحه وأطلق النار بدوره على القطّ الآلي ولكنّه اضطرّ لأن يُطلق عليه النار مرّات عديدة قبل أن يحيّده. تصرّفت روبوتات أخرى من طراز كاتز 007 وأطلقت النار ليس فقط باتّجاه الجنرال غرانت، بل أيضًا على العساكر المسلّحين الآخرين الذين حاولوا نجدته. تدهور الوضع سريعًا جدًّا. استهدفت القطط الآلية البشر. ارتمى الجميع على الأرض.

سألتُ رومان، الذي انبطح بجانبي:

- ماذا يحدث؟

- لا بدّ أنّ ذكاءَها الاصطناعيّ مبرمَجٌ على حماية قائدها. ولأنّ هذا الأخير تعرّض للخطر، فقط اتّخذت تلقائيًّا وضعية «القتال» ضدّ كلّ منْ يمكن أن يكون السبب لهذا الاعتداء.

أطلقت روبوتات الكاتز النار على كلّ الأشخاص الحاضرين. وعندما لم تستخدم أسلحتها النارية، أطلقت أنيابها أو مخالبها القاطعة مثل شفرات الحلاقة.

تذكّرتُ أنني قرأتُ القوانين الروبوتية الثلاثة التي تُدعى قوانين أسيموف.

القانون رقم 1: لا يجوز للروبوت أن يُلحق الأذى بكائنٍ بشري، ولا أن يبقى لامباليًا حيال تعرّض كائنٍ بشريٍّ للخطر؛ القانون رقم 2: يجب على الروبوت أن يخضع للأوامر التي يتلقّاها من كائنٍ بشريٍّ إلّا إذا تعارضت هذه الأوامر مع القانون الأوّل؛ القانون رقم 3: على الروبوت أن يحافظ على بقائه ويحمي نفسه طالما أنّ هذه الحماية لا تتعارض مع القانون الأوّل أو القانون الثاني.

من الواضح أنّ هذه القوانين قد تُطبّق في روايات الخيال العلمي ولكن ليس في الواقع...

أزّ الرصاصُ أزيـزًا ووقعت انفجارات وارتفعت أصوات الصراخ والصياح وارتفعت أعمدة الدخان.

اختبأتُ خلف أحد أعمدة قاعة الاجتماعات. وتمنّيتُ ألا تكتشفني روبوتات الكاتز. انضمّت أسميرالدا إليّ. سألتني:

- لماذا يفعلون هذا؟

- لطالما قالت لي أمّي إنّنا في الحياة، حينما نكون في مواجهة خطرٍ ما، ليس أمامنا سِوى ثلاثة مواقف محتملة: المقاومة أو الامتناع عن فعل أيّ شيء أو الفرار. ولأنّهم لا يستطيعون الفرار ولا قتال الجرذان، ولأنّهم أيضًا لا يريدون الامتناع عن فعل أيّ شيء، فهم بحاجة إلى التنفيس عن توتّرهم ولو كان ذلك ضدّ بني جنسهم.

من خلال الكوّة المزجّجة، تبيّن لي أنّ البشر يقاتلون القطط الآلية خارج الصالة أيضًا.

أكثر من أيّ وقتٍ مضى، دار في خلدي أنّ البشر، مهما بلغت درجة ذكائهم، لم يعودوا جديرين بحكم هذا الكوكب.

تضاعفت حدّة الصرخات من حولي.

الجنس البشري في بلوغه ذروة تطوّره ما من حافزٍ له سِوى التدمير الذاتي.

- لم أكن أتوقّع أن تتوسّع هذه المشاجرة إلى هذه الدرجة وبهذه السرعة الفائقة.

سألت القطّة السوداء:

– ونحن، ما الذي سنفعله؟

قلتُ:

– سوف نبقى مختبئتين هنا وننتظر إلى أن تهدأ الأمور.

فجأةً ظهر أمامنا روبوتٌ من طراز كاتز.

لا أدري كيف بُرمِج الذكاء الاصطناعيّ لهذا القطّ الآلي ولكن يبدو واضحًا أنّ روبوتات الكاتز لا تفرّق بين القطط العضوية والبشر.

فتح القطّ الآلي خطمه واستدار لكي يسدّد فوهة بندقيته مباشرة على وجهي.

إنّه يستهدفني!

أغمضتُ عينيّ. حدث انفجارٌ.

حينما فتحتُ عينيّ، اكتشفتُ أسميرالدا ترقد أمام قوائمي.

لقد قفزت لكي تتلقّى الرصاصة التي كانت تقصدني.

أراد الكاتز أن يواصل إطلاق النار عليّ، ولكنّ مخزن سلاحه فرغ من الذخيرة، وسُمِع فقط صوت نقرة القادح.

قفزتُ في الحال وحاولتُ عبثًا أن أغرز مخالبي في الفولاذ. فعضَضْتُ وأنا في لجّة غضبي إحدى عينيه الزرقاوين، وسحبتُها بكلّ ما أوتيتُ من قوّة ونجحتُ في انتزاع كريّةٍ موصولةٍ بسلكٍ كهربائي في داخل التجويف المعدني الذي يُعدُّ محجرَ عينه. ثمّ دسستُ قائمتي في عمق الجمجمة المعدنية وانتزعتُ أسلاكًا أخرى قدحت زخاتٍ من الشرر.

وأخيرًا توقّف الحيوان الميكانيكي وانقلب على جانبه.

عدتُ نحو أسميرالدا لكي أضمّها بين قوائمي.

أمرتُها:

– لا تموتي!

شعرتُ بطاقة الحياة التي تغادرها.

أجابت:

- لا تقلقي، سأكون بخير.

ولكن الدم سال من فمها.

- لا أسمح لكِ بأن تموتي!

- لقد فات الأوان، يا باستيت! أنتِ من يجب أن تنجو وتنقذ العالم. أنتِ وأنتِ وحدكِ. اعلمي أنني أحببتُكِ.

مثل فيثاغورس.

ثمّ، وبحسب طقوس القطط، انحدرت وراحت تختبئ كي لا يُشاهِد أحدٌ احتضارها.

لم أتبِعها، فهذا أفضل لها. ظهر قطٌّ آليٌّ آخر. وهذه المرّة، مثلما رآني، من بعيد، كيف أتصرّف، تصرّف ابني بالطريقة نفسها. انتزع عينًا زرقاء، وغرز قائمته في عمق الجمجمة وانتزع الأسلاك.

لم أعد أقوى على التفكير.

أسمير الدا!!!

لم يعد هناك شكٌّ في الأمر: أنا أجلب النحس لمن يحبونني.

انفجرت قنبلة يدوية ألقى بها عسكريٌّ بالقرب منّي. ضرب الانفجار غشاء الطبل في أذنيّ.

وفجأةً فقدتُ حاسّة السمع، وحلّ طنينٌ متواصل في محلّها. لم أعد أسمع أزيز الأسلحة النارية، ولم أعد أسمع الصيحات، ولم أعد أسمع صوت الانفجارات.

أصبحتُ أشاهد الصور من دون صوت.

فانتابتني، أنا نفسي، غريزة انتحارية، فخرجتُ إلى الساحة قبالة مدخل المصنع وسط فوضى الدخان والانفجارات والذعر.

ها أنا أتخلّى عن كلّ مشاريعي.

شعرتُ بأنني أمشي بطريقة طبيعية، ولكن كلّ شيء من حولي يتحرّك في حركة بطيئة.

فكّرتُ من جديد في أصدقائي الذين ماتوا. فيثاغورس وشامبليون والآن أسمير الدا.

لقد سئمتُ القتال. فليكن، لن أصبح مَلِكة. سوف تسود الجرذان على هذا الكوكب وسيكون هذا أمرًا مثاليًا لأنّ البشر لم يعودوا يستحقون أن يكونوا سادته. ولم يعد أمر الدفاع عنهم يقع على عاتق القطط.

وما أثار دهشتي هو أنّ تقدّمي وسط المعارك المثيرة للغضب بدا كأنّه لا يُثير اهتمام أحدٍ. تابعتُ سيري مثل شبحٍ وسط هذا الغضب العارم. أزّ الرصاص بالقرب من أذنيّ أو لامس فرائي.

لم أعد حتى أعير انتباهًا له.

صعدتُ إلى سطح المصنع. ومن هناك، تسلّقتُ المدخنة وتأمّلتُ في المشهد من الأعلى. ولأنّ الطنين في أذنيّ توقّف، ركّزتُ تفكيري لكي أتّصل عبر الإنترنت بموسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة، التي كنتُ أحملها في عنقي، ومنها اخترتُ سيمفونية **قدّاس الموت** للموسيقار موتسارت.

استعاد العالم من حولي سرعة حركته الطبيعية، وتناقضت الموسيقى الهادئة والبطيئة والحزينة مع الصخب المحيط بي.

هل كان لهذا الشقاق أن يحدث لو أنّني لم أُخرّب قنبلتهم الذرّية ولو أنّها انفجرت؟

ومن داخل نفسي، جاء الجواب:

البشر لديهم اندفاعٌ لاإرادي نحو الموت كامنٌ في أعماق جيناتهم. وإذا لم يُعبّروا عن هذا الاندفاع اللاإرادي ضدّ عدّوٍ خارجي، يُديرونه نحو أنفسهم.

ولهذا السبب علينا نحن القطط، غير الانتحاريين، أن نخلفهم.

منذ البداية، كان هذا الحدس بضرورة سيادتي صحيحًا. يجب أن أستلم الراية.

من أجل فيثاغورس.

من أجل شامبليون.

من أجل أسميرالدا.

من أجل رفاقنا الذين لم يعودوا على قيد الحياة.

فغادرتُ مرصدي في أعلى المدخنة وانعزلتُ في ركنٍ من السطح.

ولكن فجأةً، توقّفت كلّ عمليات إطلاق الرصاص. وساد صمتٌ طويل بالكاد قطعته حشرجات الاحتضار.

هل تعبوا؟

هل نفدت ذخيرتهم؟

أقلقني هذا الهدوء.

نزلتُ عن السطح. ظهر أنجيلو أمامي. صرخ:

– ماما، ماما، تعالي بسرعة! يحدثُ الآن شيءٌ جديد.

هل يمكن للأمور أن تزداد سوءًا.

خائبة الأمل، سرتُ في إثر ابني.

رأيتُ مارك رايبيرت جريحًا ولكنّه كان مسنودًا باثنين من زملائه البوسطنيين. رأيتُ ضمادًا على جرحه والعبوسَ على الوجه.

لا بدّ أنّه قد عولِج والتقط أنفاسه واستجمع شِتات أفكاره وأوقفَ روبوتات الكاتز.

توقّفت جميع القطط الآلية جامدة في مكانها. كانت قوائم بعضها لا تزال مرفوعة في الهواء وأفواه أخرى فاغرة.

سادت لحظةٌ عابرة أدرك فيها فجأةً كلٌّ من الحاضرين الوضع. أُطفِئت الحرائق وأُسعِف الجرحى، وأُجليت جثث القتلى. والمصنع الذي كان من المفروض أن يكون حصنًا آمنًا بات الآن مكانًا للفوضى العارمة يرقدُ فيه مزيجٌ من جثث البشر وحطام الروبوتات المتضرّرة بنسبٍ متفاوتة.

حوِّلت خيمةٌ إلى مستشفى ميداني، وحوِّلَت أخرى إلى مشرحة.

لا أستطيع تصديق ما حدث: لقد تدهور الوضع سريعًا جدًّا من دون أيّ هجومٍ للجرذان.

جُهِّزَ فريقٌ لتقديم الخدمات الطبية، في حين لم يعد أحدٌ يجرؤ على التعليق على الأحداث التي جرت للتوّ.

بحثتُ عن خادمتي. وجدتُها تعالج جراح رومان في الخيمة البيضاء التي تُستخدمُ غرفة إسعافٍ.

هل يتصالحان؟

احتُجِزَت روبوتات الكاتز جميعها في حظيرةٍ وانتُزِعَت بطارياتها.

بدت هذه العقوبة باعثة على الارتياح لدى البشر الحاضرين. ولكنّهم باتوا يتوجّسون من هذه الروبوتات بعد ما حدث.

في ذلك المساء، نام رومان وناتالي جنبًا إلى جنب. تركتهما وحدهما وذهبتُ إلى النوم وحدي مع أنجيلو فوق السطح.

– أخبريني، يا أمّاه، هل تعتقدين أننا سوف ننجو من كلّ هذا؟

– أعتقدُ أنّه من العبث أن نطرح الأسئلة على أنفسنا. علينا فقط أن نحافظ على برودة أعصابنا ورباطة جأشنا وأن نتصرّف حالما تواجهنا التحدّيات.

وفكّرتُ في أسميرالدا.

لقد كانت بالفعل قطّة استثنائية.

تهيّأتُ لإغماض عينيّ على أمل أنّ يخفّف النوم كلّ التوتّرات، توتّراتي أنا وكذلك التوتّرات التي تعصف بجماعتنا، حينما دوّت صفّارة الإنذار.

أوه كلا، لن ينتهي هذا الأمر إذًا على الإطلاق!

نزلتُ من السطح وذهبتُ إلى قاعة الاجتماعات. كان الليل قد حلّ ونال الإنهاكُ منّي، ولكنّ الفضول أبقاني يقظةً. كانت ناتالي هي الأخرى موجودة في القاعة.

سألتها:

– ماذا يحدث؟ لماذا هذا الإنذار، في هذا الوقت المتأخّر؟

وهيلاري كلينتون هي من أعلنت الخبر.

– السيّدات والسادة، يؤسفني أنني دعوتكم في وقتٍ كنتم منهكين بعد نهارٍ مرعبٍ عشناه ولكن وقع حادثٌ مقلقٌ بما فيه الكفاية كي لا ننتظر حتى الغدّ لأخبركم به.

صمتت لهنيهةٍ ثمّ أعلنت، والحزن على وجهها:

– لقد تلقّينا رسالةً.

أمسكت بهاتفها الذكي وقرأت من شاشته:

«أنا بولس. استطاع تيمورلنك أن يعترض محادثاتكم. إنّه على علمٍ بقراركم إرسال صاروخٍ ذي رأسٍ نووي وضرب مانهاتن به. وقد رأى

الصاروخ وهو يسقط في سنترال بارك. لقد سمع النقاشات التي جرت في أعقاب سقوط الصاروخ وسمع الجنرال غرانت يقول إنّه يجب الإبقاء على الأمل لأنّ مجرّد هبّة ريحٍ قد يكون من شأنها تعديل إعدادات القنبلة التي قد تنفجر حينئذٍ. هو يعرف ماذا تعني قنبلة ذرّية. وإذ خشي أن يحدث هذا بالفعل، قرّر تيمورلنك مغادرة نيويورك مع كلّ سكّانها من الجرذان».

تنهّدت هيلاري كلينتون، وتوقّفت عن التكلّم لهنيهةٍ ثمّ أردفت:

«يعرف تيمورلنك أيضًا أنّكم موجودون في مصنع بوسطن داياميكس. لقد قرّر التوجّه نحو الشمال لكي يهاجمكم بهدف إزالة أيّ خطرٍ مستقبلي. كما أنّه يرغب في استرداد موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة لأنّ موسوعته تَلِفَت من تلقاء نفسها».

أنهت هيلاري كلامها بتأثّرٍ بالغٍ لم تحسن أن تخفيه في صوتها:

- الجرذان قادمةٌ إلينا!

بدأ الجميع بالحديث في نفس الوقت.

ثمّ صعد سيلفان إلى المنصّة.

- بفضل القمر الاصطناعيّ الخاصّ بالمراقبة، استطعنا أن نرى تقدّم تلك الكتلة من الجرذان.

عرض القمر الاصطناعيّ الصور ورأينا ما يشبه سائلًا رماديًّا يتدفّق في الشارع الرئيسي في مانهاتن، مثل حممٍ سوداء، ليخرج من شمال المدينة.

- بحسب تقديرات أنظمتنا لحساب الصور، سيكون عددها أكثر من ثلاثين مليون جرذٍ.

الحشد الجديد لتيمورلنك...

سأل شوفال فوغو:

- ونحن، كم عددنا، الآن؟

- يبلغ عددنا اثنين وأربعين ألفًا، أعتقدُ أنّنا خسرنا في اشتباكات اليوم ما يقرب من ألف بشريٍّ، وبالتالي يبلغ عددنا الآن في الواقع واحدًا وأربعين ألفًا دون الحديث عن القطط الآلية التي تعرّضت هي الأخرى للكثير من الخسائر.

أبدى شوفال فوغو ملاحظةً:

- نحن لا نشكّل بالفعل الثقل الكافي لمواجهة هذا العدو.

قالت هيلاري:

- لقد استغرق منّا الوصول إلى هنا أربعين يومًا، وبالتالي لا بدّ أن يستغرق وصول الجرذان نفس المدّة. وهذا يمنحنا مهلةً لكي نفكّر في كيفية تنظيم دفاعٍ في مواجهتها.

بدا سيلفان متشكّكًا، وقال:

- بحسب الصور الواردة من القمر الاصطناعيّ، يبدو أنّها تتقدّم بسرعة تفوق السرعة التي تقدّمنا بها. أعتقد أنّه من الأفضل لنا أن نتصرّف ونخطّط للأمر آخذين في الحسبان أنّها قد تصل إلى هنا خلال ثلاثين يومًا.

أعقبَ صمتٌ طويل مداخلته.

من جهتي، لم أنتظر إلى حين استئناف النقاشات، وعدتُ إلى الخيمة واستلقيتُ في دفءٍ على سريرٍ بالقرب من جهاز التدفئة لكي أستريح. كان لا بدّ لي من أن أتخلّص من كلّ هذه الانفعالات المتراكمة.

استفدتُ من عودة الهدوء لكي أنام.

وهنا، بدأتُ أحلم. النوم هو وسيلتي في التفكير.

وأحلامي هي ومضاتي الذهنية.

أثناء نومي، استعدتُ على شكلِ ومضاتٍ لحظاتٍ من الماضي: عملية تركيب عيني الثالثة، وتأمّلي في كوكب الأرض، وحديثي الأوّل مع تيمورلنك في روان. استعدتُ في ذهني المعارك التي خضتُها، وتيمورلنك وهو يُطلق صفيره والجرذان الأخرى التي تُطيعُ أوامره. واستذكرتُ بعض الجمل من نقاشنا الأخير: «ما هو الشيء الموجود عند البشر ويمكنه أن يُثير أدنى إعجاب؟»، «إنّهم مخيّبون للأمل»، «يجب أن ينقرضوا مثل الديناصورات. أنتِ وأنا، يمكننا أن نتفاهم، أمّا هم، فلا يمكن التفاهم معهم أبدًا».

استذكرتُ الرحلة إلى داكوتا، وهجوم روبوتات الكاتز، وموتَ أسميرالدا، والمشاجرات بين هيلاري والجنرال غرانت، وبين رومان وناتالي.

رأيتُ كلّ هذه الشخصيات التي أثارت الضجيج بأفواهها والتي لا تفهم بعضها بعضًا. ولأنّها لا تفهم بعضها بعضًا، تُريد أن تدمّر نفسها.

ومن ثمّ فجأةً وجدتُ الحلّ، في حُلْمي.

كيف لم أفكّر في هذا من قبل؟ منذ البداية، كان هذا الحلّ ماثلًا أمام ذهني ولم أكن أراه. كما لو أنّ كلّ ما حدث مؤخّرًا لم يحصل إلّا لكي يكرّر عليّ هذا الحلّ.

عاد مقطعٌ من الموسوعة إلى ذهني، مقطعٌ يستشهدُ باقتباسٍ من الكتاب المقدّس ويبدو لي أنّه يتلاءم تمامًا مع الحلّ الذي وجدته والذي بدأتُ بتفصيل مراحل تنفيذه. هذه المرّة، اعتقدتُ أنّ الحلّ الذي وجدته سوف ينجح، لأنني بالفعل بلورتُ، مرّة أخرى، فكرة عبقرية لم يفكّر فيها أحدٌ حتى الآن.

56. كيف نكذب على أنفسنا؟

زعمت ربّة منزل من شيكاغو، تُدعى ماريان كيش، ذات يوم في صحيفة محلية أنّها قد تلقّت رسالةً من كائنات فضائية من خلال كتابة آلية. قال كتّاب هذه الرسالة إنّهم يعيشون على كوكب كلاريون ويحذّرون من أنّ العالم سوف يغرق في فيضانٍ هائل في تاريخٍ محدّد وهو يوم الحادي والعشرين من شهر ديسمبر / كانون الأوّل من عام 1954. بعد هذا الإعلان، تجمّعت مجموعة من الأتباع حول ماريان كيش التي أسّست ما يشبه طائفة.

وقد كانت قناعة أفراد المجموعة كبيرة للغاية بأهمية رسالة الكائنات الفضائية إلى درجة أنّهم هجروا زوجاتهم أو أزواجهم ووزّعوا أموالهم وثرواتهم وأعدّوا حقائبهم استعدادًا للسفر على متن الأطباق الطائرة. فقد كانت مارين كينيث قد زعمت في الواقع أنّه لن ينجو من هذا الفيضان سِوى الذين سيقفون في ذلك اليوم إلى جانبها ويكونون على استعدادٍ للسفر معها إلى الفضاء.

إلا أنّه لم يحدث أيّ شيء غير اعتيادي في ذلك التاريخ المشؤوم

المحدّد في الحادي والعشرين من ديسمبر / كانون الأوّل من عام **1954**. ومنذ ذلك اليوم، كان من المفروض، في الحالة الطبيعية، أن تتفكّك الطائفة وأن يتبعثر أفرادها، ولكن هذا لم يحدث. فقد برّرت ماريان كيش الأمر، في اليوم التالي، بأنّها قد تلقّت رسالةً أخرى من خلال الكتابة الآلية واردة من الكائنات الفضائية في كوكب كلاريون تقول: لقد أُلغي الفيضان لأنّ المجموعة الصغيرة المحيطة بها قد نشرت الكثير من نور الحبّ إلى درجة أنّها قرّرت في النهاية الإبقاء على الكوكب.

بعد هذا الحادث الغريب، استقال عضوان فقط من الجماعة، فيما قبل الآخرون بالتبرير الذي قدّمته ماريان وضاعفوا من حماستهم لها، مقتنعين بأنّهم هم منْ أنقذوا العالم. وما كان من شأنه أن يكون كارثة على ماريان كيش تحوّل على العكس من ذلك إلى انتصارٍ لها. وتعزّزت النزعة التبشيرية عند الأفراد المتبقين في الجماعة، وفي المحصّلة زاد عدد أتباعها.

درس البروفيسور في علم النفس ليون فيستنجر هذه المغامرة بالتفصيل في كتابه (فشل نبوءة) واستخلص منها مفهوم «التنافر المعرفي». بحسب قوله، «إذا ما اقتنع عددٌ كبير من الناس أنّ قناعتهم سليمة، لا يكفي تعارض الواقع مع هذه القناعة لوضعها موضع التشكيك». باختصار، حينما يكون هناك تناقض بين إيماننا والوقائع الموضوعية، نكذب على أنفسنا حتى لا نضطرّ لمواجهة هذا التناقض.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

57. صعوبة إقناع الأغبياء

أنضجتُ خطّتي طيلة الليل، وفي صباح اليوم التالي، اتّصلتُ بناتالي، التي استيقظت في أحضان رومان.

– هيّا، انهضي! لا وقت لدينا نضيّعه!

- ماذا يحدث؟

ظهر وجهها من بين شعرها الكثيف الأسود.

فركت عينيها.

- لقد وجدتُ طريقةً لخروجنا من هذا المأزق، ولكن قبل كلّ شيء يجب أن يُعقَدَ اجتماعٌ لممثلي القبائل لأنّه يجب أن أتحدّث إليهم لكي أعرضَ عليهم هذه الخطّة التي ستنقذنا.

كانت ناتالي لا تزال تحتفظ في ذاكرتها ببعض اقتراحاتي الباهرة ونتائجها الإيجابية عمومًا. فلم تتوانَ عن الخروج من بين ذراعي حبيبها، ونهضت، وتمطّت وارتدت ثيابها.

حثثتها على الإسراع:

- هيّا، كفّي عن إضاعة الوقت!

هذه هي المشكلة مع الخدم من البشر، إنّهم غالبًا أنانيّون بعض الشيء وفي بعض الأحيان يكونون بكلّ بساطة كسولين.

عضضتُ ربلتي ساقيها لكي أحفّزها على الإسراع.

لأنّ الجميع خائفون، سوف يكون من الأسهل التعامل معهم.

وهكذا، حضر ممثلو القبائل أمامي في الساعة الثامنة صباحًا.

شرعتُ في الحديث وأنا أنتقي كلماتي بأقصى ما يمكن من الدقّة.

- أيّها البشر، ذكورًا وإناثًا، أيّتها القِططَة والقِطَط، نحن نمرّ بأوقاتٍ حرجة: تُقبلُ الجرذان بعشرات الملايين لكي تُبيدنا على بكرة أبينا. يجب أن نجد حلًّا بأيّ ثمن وبأسرع ما يمكن.

انتظرتُ لهنيهةٍ، ثمّ قلتُ:

- إذا ما واصلنا العيش في حالة انقسام، فلن يعود هناك قريبًا أحدٌ ليحاول مقاومتها، وسوف تصل مباشرةً على أنقاضنا وجثثنا حتى من دون أن تقاتلنا. لقد فكّرتُ في الأمرِ مليًّا. يجب علينا أكثر من أيّ وقتٍ مضى إيجاد مُناخٍ «أخويٍّ» لكي نتصرّف جماعيًّا. أنا قطّةٌ ويمكنني أن أشعرَ بالتعاطف معكم، وبالتالي يمكنكم أنتم أيضًا أن تشعروا بنفس الطريقة بنفس الشعور حيال بني جنسكم وتاليًا حيالنا نحن القطط.

قاطعني الجنرال غرانت:

- لقد تكلّمتِ بما فيه الكفاية، ما هي خطّتكِ، يا باستيت؟

تلهّف الجميع لسماعي وأنا أوجزُ حديثي في كلمة واحدة:

- التواصل.

وبّخني العسكري، قائلًا:

- ماذا؟ التواصل؟

واصلتُ حديثي بتمهّلٍ:

- في الموسوعة، وجدتُ قصيدة شعرية لجَدّ رومان، إدمون ويلز. ها هي. أصْغوا جيّدًا:

« بين
ما أفكّرُ فيه
وما أُريدُ قوله
وما أعتقدُ أنني أقوله
وما أقوله
وما ترغبون في سماعه
وما تعتقدون أنّكم تسمعونه
وما تسمعونه
وما ترغبون في فهمه
وما تعتقدون أنّكم فهمتموه
وما تفهمونه
هناك عشرة احتمالات لأن نواجه صعوباتٍ في التواصل.
ولكن مع ذلك فلنحاول».

توقّفتُ لهنيهةٍ بعد قراءتي تلك القصيدة، ثمّ علّقتُ عليها:

- كم هذه العبارات تشاؤمية وواقعية في نفس الوقت! ومع ذلك تبدو لي أنّها تضمر بذرة الحلّ لمشكلتنا.

شعرتُ بنظرات الشكّ والارتياب التي تركّزت عليّ ولكنني تابعتُ حديثي:

- حينما كنتُ أصغرُ سنًّا، كنتُ أعتقدُ أنّ الذهن يستطيع الخروج من

الجمجمة لكي يتّصل بأذهانِ أجناسٍ غريبة. أردتُ أن أتحدّث مع الفئران والطيور والأسماك من خلال اتّصالي مباشرةً بدماغها. ولكنني لم أنجح في ذلك. فيما بعد، نجحتُ في التواصل مع البشر بفضل زرع أداةٍ إلكترونية، وهي عيني الثالثة الشهيرة مع فلاشة يو إس بي خاصّتها. هنا، حيث تكون القدرات الذهنية محدودة، يمكن للتكنولوجيا أن تتولّى الأمر. كان هذا التطوّر اكتشافًا. بفضل هذا الملحق الإلكتروني، استطعتُ أخيرًا أن أنزع ستار الجهل. بيد أنني لم أتخلّ عن مشروعي الأوّل: أريد أن تنتهي جميع الحيوانات الناطقة بلغاتٍ مختلفة إلى فهم بعضها بعضًا بلغة وحيدة، ألا وهي لغة العقل.

تدخّلت هيلاري كلينتون:

- إلى أين تريدين الوصول، أيّتها القطّة؟ ليس لدينا من الوقت ما نضيّعه.

- إذا كان التواصل بالنسبة إليّ العلاج الأمثل لجميع الأمراض، فعلى العكس من ذلك، يُمكن لغياب التواصل أن يكون السمّ الأمثل. منذ البداية، كان الحلّ ماثلًا أمام عينيّ. كنتُ أعرفه من خلال الحدس. البارحة، وأنا أراكم تتقاتلون، غمرني في البداية اليأس والإحباط. ومن ثمّ انتابني الحزن لفقدان صديقتي أسميرالدا. ومن ثمّ شعرتُ بالإحباط من خلال إدراكي أنّ الأمور لا يمكن لها أن تُحلّ أبدًا بين أناسٍ على هذا المستوى من الوعي المتدني. ومن ثمّ انتابني الإحساس الأكثر أهميةً: الغضب. كنتُ غاضبة على نفسي لعجزي عن إيجاد الحلّ. كنتُ أعلمُ أنني قادرة على إنقاذ العالم. لم تكن المسألة سِوى مشكلة خيال. فنمتُ وحلمتُ. لقد حلمتُ بكلّ ما حدث وتذكّرتُ أنّ كلّ هذه المشكلات لم تكن سِوى مشكلات التواصل.

أصبحت النظراتُ أكثر تركيزًا عليّ.

- لقد حصلتُ على تأكيدٍ لصحّة حدسي في الكتاب المقدّس. لقد أخبرتني ناتالي بأنّه عليّ أن أقرأه لكي أكتب كتابي المقدّس الخاصّ للقطط. وقد قرأته بالفعل، ولكنني نسيته ولذلك عدتُ إلى قراءته من جديد وقد وجدتُ الحلّ. ما كان ينقصني هو أن أركّز انتباهي.

ضغطت عليّ الرئيسة التي عيل صبرها:

– كفّي عن إطالة انتظارنا، ما هي خطّتكِ؟

أردتُ أن أتوقّف عن الحديث لهنيهةٍ لإحداث الإثارة والتأكّد من أنّهم يُصغون إليّ ويفهمون ما أقوله.

سأل إنجيليٌّ:

– أي مقطعٍ تقصدين؟

– برج بابل. إذا كنتم تتذكّرون جيّدًا، كانت هناك مجموعة من البشر الذين يبنون برجًا عاليًا جدًّا لكي يصلوا إلى السماء ويروا بذلك اللهَ فوق الغيوم.

قال قسّيسٌ:

– نعم، نعرف كلّ هذا. وماذا بعد؟

– فجعلهم الله، لكي يوقفهم، يعجزون عن فهم بعضهم بعضًا من خلال منحِ كلٍّ منهم لغة مختلفة. ولأنّهم لم يعودوا قادرين على فهم بعضهم بعضًا، تقاتلوا، مثلما تقاتلتُم البارحة مساءً. وانهار برج بابل.

ألحّ القسّيس في سؤاله:

– وإلى أين يقودنا كلُّ هذا؟

– ما أُريدُ الوصول إليه هو فكرة أنّنا لن نُقهِر الجرذان من خلال مجابهتها على نحوٍ مباشرٍ. سوف تبقى على الدوّام أقوى منّا. ولكن إذا دفعناها إلى أن تقتل بعضها بعضًا مثلما رأيتُكم تفعلون، عندئذٍ سوف تنهار إمبراطوريتها مثل برج بابل.

هذه المرّة، أثار خطابي فضولهم.

أعتقدُ أنّهم بدأوا يفهمون.

سأل الجنرال غرانت:

– ولكن ما الذي بوسعنا فعله حتى نجعل الجرذان لا تعود تتفاهم فيما بينها؟

– حسنًا، هنا بالضبط ينبغي أن تتدخّل إديث كولدستاين. إديث، هل يمكنكِ الانضمام إليّ؟

أخذت عالمة الأحياء مكانها إلى جانبي.

- لقد شرحتِ لي أنّكِ تستخدمين تقنية جينية تُدعى كريسبر (التكرارات العنقودية المتناظرة القصيرة المنتظمة التباعد) لإعادة برمجة الحمض النووي DNA لجنسٍ ما وأنّه بعد ذلك يكفي نشر هذه الجينات لكي يصبح هذا التحوير في الحمض النووي فيروسًا مثله مثل فيروسٍ بسيطٍ للإنفلونزا، أليس كذلك؟

- نعم، من الناحية النظرية، هذا صحيح. لقد نشرتُ من خلال تقنية كريسبر فيروسًا كان يدمّر أكبادها. كان هذا مشروع بروميثيوس. لكنّ الجرذان تحوّلت لتتأقلم مع هذا الفيروس.

- لأنّها شخّصت الأفراد المصابين به. ولكن دعونا نتخيّل أنّها لن تستطيع حتى أن تعلم أنّها مصابة.

سألت إديث:

- ماذا تعنين؟

- أعتقدُ أنني أعرف أنّ مكان اللغة في الدفاع هو منطقة محدّدة يسمّيها علماء الأحياء العصبية باحة بروكا.

أعشقُ أن أُبهرهم من خلال إعطاء معلومات دقيقة حتى هم أنفسهم يجهلونها في بعض الأحيان...

- بالتأكيد، ولكن...

- إذًا، ثمّةَ منطقة خاصّة من الدماغ تتيح لنا التواصل من خلال الكلام أو المواء. حينما ننطق الكلمات بشكلٍ سيّئ، نفهم بعضنا بعضًا، ولكننا لا ندرك أنّ الآخرين لا يفهموننا، أليس كذلك؟ نعتقدُ أنّهم هم لا يصغون أو لا يسمعون. دعونا نتخيّل فيروسًا ينقل تحوّرًا في الحمض النووي يؤثّر على باحة بروكا. منذ تلك اللحظة، سوف يصبح الأفراد المصابون غير مفهومين من قبل المحيطين بهم، ولكنهم لن يُدركوا لماذا لا يستطيع الآخرون الإصغاء إليهم أو فهمهم. الدماغ هو الذي يعمل على قياس الحالة العامّة لأعضاء الجسم، ولكن إذا ما أُصيب هو نفسه، فلن يشعر بذلك. وهكذا لن تكتشف الجرذان حتى أنّها قد أصبحت غير مفهومة ولن تفهم ما يقوله الآخرون لها.

وسوف تعدّ نفسها سليمة وتعتقدُ أنّ الآخرين هم منْ يعانون من مشكلة.

سأل الجنرال غرانت، ساخرًا:

– فيروس يؤثّر على التواصل؟ تُريدين إيقاف ثلاثين مليون جرذٍ بفيروسٍ سيجعلها غير قادرة على فهم بعضها بعضًا دون حتى أن تعلم ذلك، أليس هذا ما تقصدين؟

إنّ هذا المنتقص من قيمتي هو أفضل من لخّص مشروعي.

شعرتُ بأنّ بعض النظرات إليّ قد تغيّرت.

ها قد نجحت، وها هم الآن يقدّرون قوّة أفكاري. أنا أحكم من خلال الرؤى التي أمتلكها ومن خلال خيالي. أنا أفكّر أسرع منهم مستخدمةً أدواتهم الخاصّة ولكن بطريقة مختلفة.

نظر الجميع إليّ، متعجّبين.

حتى إديث وورومان وناتالي أُبهِروا بما طرحتُه.

في الواقع، حتى أنا نفسي مبهورة بنفسي.

رومان هو أوّل من نهض من مكانه وبدأ بالتصفيق، ثمّ تبعه الجميع في ذلك وحظيتُ بحفاوة بالغة من لدن الحضور. كما تخلّلت التصفيق والتهليل أصواتُ مواءٍ ونُباحٍ. أدرك الجميع في تلك اللحظة أنني حقًّا استثنائية.

لقد انتظرتُ منذ زمنٍ طويلٍ هذه اللحظة.

كانت حماستهم ملحوظة للغاية بحيث، حتى قبل أن أتكلّم، اعتقدوا أنّهم جميعًا محكومون بأن يُلتهَموا من قبل ثلاثين مليون جرذٍ غاضبٍ لأنّهم حاولوا تدميرها على بكرة أبيها باستخدام قنبلة ذرّية.

واصلتُ حديثي:

– ها هي إذًا مراحل تنفيذ خطّتي بالتفصيل الدقيق. المرحلة الأولى: تسحب إديث عيّنة من الحمض النووي لجرذٍ. وتكتشف الشيفرة التي تعمل على باحة بروكا. وتُعيدُ برمجتها بهدف إحداث خللٍ في وظيفتها. ثمّ تستخدم هذا الجرذ المتحوّر في إنتاج خلايا تحمل جميعها الحمض النووي الجديد المسبّب للخلل الوظيفي لباحة بروكا. المرحلة الثانية: تستخدم إديث فيروسًا من طراز الإنفلونزا الذي يعمل على الجرذان وهذا الفيروس

سوف ينقل الحمض النووي المتحوّر إلى جرذانٍ أخرى. ويجب إجراء الأبحاث والتجارِب المتواصلة إلى حين تحقيق نجاح هذه العملية. ولكن لدينا ثلاثون يومًا فقط. إذا ما نجحت هذه العملية، سوف يفهم كلّ جرذٍ نفسه فقط ولكنّه سوف يصبح في حالةٍ لا تعود الجرذان الأخرى تفهمه.

ردّدت ناتالي:

– الجرذان التي تفهم نفسها ولكنّها لا تفهم الآخرين...

سأل رومان:

– ولكن كيف سننشر فيروس الإنفلونزا وسط الحشد القادم لمهاجمتنا؟

استأنفتُ الحديث:

– والآن إليكم تفاصيل المرحلة الثالثة. هذه المرّة، سنُشركُ مارك رابيبرت في العملية. لقد أخبرتنا بأنّ روبوتاتكم من طراز كاتز لديها القدرة على المقاومة مدّة ساعة تقريبًا، وبعد ذلك تتمكّن الجرذان من التغلّب عليها من خلال تجمّعها ومهاجمتها في الوقت نفسه. أليس كذلك؟

– هذا صحيح.

– يكفينا أن تقاوم مدّة نصف ساعة. كم عدد الروبوتات المتبقّيّة؟

– بعد اشتباكات البارحة، فقدنا خمسمئة روبوتٍ. وبالتالي بقي ما يقارب ألفين وخمسمئة منها.

– يجب أن يكون الأمر على ما يُرام. إذًا، سوف تنتشر القطط الآلية الألفان والخمسمئة وسط القوات المعادية وتصمدُ لأطولِ وقتٍ ممكنٍ بغية نشر فيروس بابل. سيتم حقن هذا الحمض النووي بفضل أسنان روبوتات الكاتز التي سوف تعضّ الجرذان وتحقن الحمض، كما لو أنّها تستخدم محاقن، تحت جلدها بهدف نقل الفيروس إليها.

– هل سيكون هذا كافيًا؟

– ربّما لا يكون كافيًا في البداية. ولهذا السبب أعددتُ خطّةً لمرحلةٍ رابعة. سيكون علينا تحصين جميع الدفاعات في انتظار أن يسري مفعول فيروس بابل. إذًا، فقط في المرحلة الخامسة سوف نجعل الجنرال غرانت يتدخّل. سيكون عليه شنّ هجوم تقليدي بقواتنا الحالية. بيد أنّه سوف يواجه جرذانًا ضعيفة لم تعد تفهم بعضها بعضًا ولم تعد قادرة على تنسيق هجماتها.

شعرتُ بأنّهم مبهورون بخطّتي.
إنّه «تأثيري أنا»: الخيال والقوّة واللّطف.
ختمتُ القول:
– أصدقائي البشر الأعزّاء، أصدقائي القطط، أعتقدُ أنّه ليس لدينا متّسعٌ من الوقت لنضيّعه، علينا جميعًا أن ننخرط منذ الآن في هذه المهمّة.

58. مقصّ شريط الحمض النووي «كريسبر»

في عام 2012، حدثت ثورة حقيقية في علم الأحياء. طوّرت الفرنسية إيمانويل شاربنتييه والأمريكية جنيفر داودنا نظام كريسبر (كاس ناين) 1، الذي أتاح تعديل سلاسل الحمض النووي مثل ما يحدث في معالجة النصوص من خلال إجراء عملية نسخ / لصق أو نسخ / استبدال.

الحمض النووي الريبوزي منقوص الأكسجين DNA هو الشريط الموجود داخل نواة خلايانا الذي يُبرمج كلّ خصائصنا الجينية، وبالتالي كلّ ما نحن عليه. واسم تقنية كريسبر CRISPR هو اختصار للاسم الكامل «Clustered Regularly Interspaced Short Palindromic Repeats». ويمكننا ترجمته بـ: «التكرارات العنقودية المتناظرة القصيرة المنتظمة التباعد». أمّا كاس ناين Cas 9 فهو إنزيم متخصّص في القطع الجيني، مثل مقصٍّ يمكنه قطع شريط الحمض النووي المنقوص الأكسجين الثنائي في مكانين.

قالت إيمانويل شاربينتييه إنّه يمكن، من خلال إعادة كتابة الحمض النووي الريبوزي المنقوص الأكسجين، القضاء على بعض الأمراض الجينية البشرية (خاصّة داء السكّري والسرطان والزهايمر)، أو حتى تعديل الأبقار لكي تلد من دون قرون (التي تُخاطر بأن تجرح بعضها بعضًا إن تقاتلت)، أو أيضًا إجراء تحوّلٍ في البعوض بحيث لا يعود قادرًا على نقل الملاريا.

في أعقاب نشر هذه الأعمال، نالت العالمة الفرنسية العديد من الجوائز الرفيعة.

وقد كانت هذه التقنية قويّة جدًّا وتفتح الكثير من الآفاق أمام استخدامات ممكنة بحيث سارعت مختلف لجان الأخلاقيات إلى دقّ جرس الإنذار ولفتت الانتباه إلى مخاطر سوء استخدامٍ لهذه المعالجة لبنية الجينوم. وقد ذكرت هذه اللجان محاولة استخدام تقنية كريسبر لأغراض غير مستساغة أخلاقيًا، خاصّة في مسألة تحسين النسل (خلق أطفال لا تشوبهم شائبة). كما أشارت اللجان إلى العواقب الوخيمة على النظام البيئي (إذ من غير المعلوم إن كان تغيير الحمض النووي المنقوص الأكسجين الثنائي للخلايا الحيّة يُجازف بخلخلة كائنات أخرى تستهلكها أو تعيش معها).

وقد دعت هاتان العالمتان، إيمانويل شاربينتييه وجنيفر داودنا، بنفسيهما إلى الانتظار قبل البدء في تطبيق تقنية كريسبر كاس ناين بطريقة عشوائية. ورغم ذلك، كسر عالم الأحياء الصيني هي جيانكوي، الأستاذ في جامعة شنجن، في عام 2018، الحظر المفروض من قبل العالمتين. لقد استخدم مقصّ الحمض النووي المنقوص الأكسجين الثنائي على جنينين بشريين توأمين لجعلهما قادرين على مقاومة فيروس السيدا (كان والدهما مصابًا بفيروس نقص المناعة البشرية المكتسبة). وُلِد الطفلان، ولكن التجربة أحدثت ضجّة وسط المجتمع العلمي. أوقفت السلطات أعماله، ومن ثمّ أدانت محكمةٌ صينية العالم هي جيانكوي.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

59. ثلاثون مليون عدوٍّ

دوّت صفّارة الإنذار.

تغطّى الأفق بالعديد من الأجسام المعادية.

إنّها الثلاثون مليون جرذٍ المكوّنة لحشد تيمورلنك...

كنّا قد أوشكنا على إنهاء استعداداتنا للمواجهة، وكنّا بحاجةٍ إلى أسبوعٍ إضافيٍّ فقط لتكون الاستعدادات على أكمل وجه، ولكن لا بأس.

مرّت خمسة وثلاثون يومًا مذ ألقيتُ خطابي وعمل جميع مَنْ في المصنع بحماسة واندفاع على مشروعي الذي أطلقتُ عليه اسم «عملية بابل».

استطعنا أن نجرّب الوباء الاصطناعي على نحوٍ فاعلٍ على قرابة عشرة جرذانٍ.

ثمّ عدّل علماء الروبوتات في فريق مارك رايبيرت روبوتات الكاتز 007 لكي تستطيع أنيابها حقن الفيروس.

الآن سنعرف.

وصلت رائحة هذا العدد الكبير من القوارض إلى منخريّ، مدفوعةً بالرياح.

رائحةٌ واخزة وحادّة.

هزّت رجفةٌ غير مريحة جسمي.

صعدنا إلى الشرفة الواسعة لسطح المبنى الرئيسي لمصنع بوسطن داينميكس. وهناك، خلف جدارٍ من أكياس الرمل وأسلحةٍ رشّاشة، نصّبنا مناظير مقرّبة على قوائم وكذلك نصّبنا شاشات عرضٍ.

سُمِح لممثلي القبائل بالبقاء جانبًا، في حين اكتفى البشر الآخرون بمتابعة المواجهة من خلال الشاشات المثبّتة في الخلف.

صوّرت كاميرات الطائرات المسيّرة المشاهد ونقلتها إلينا من زوايا مختلفة.

كان مارك رايبيرت، وهو لا يزال في فترة نقاهة، جالسًا في كرسيٍّ متحرّك. ارتدى الجنرال غرانت زيّه العسكري الرسمي واعتمر طاقيته ووضع نظّاراته الشمسية. وعثرت ناتالي على بزّة عسكرية مموّهة خضراء اللون ناسبتها تمامًا. وارتدى رومان بدوره بزّة عسكرية.

تقدّم حشد تيمورلنك دون هوادة. صعدتُ إلى كتف ناتالي، مرتفعي المفضّل.

نظر الجميع إليّ.

مؤثٌ:

– ليس بعد.

شكّلت ملايين الجرذان المقبلة نحونا غطاءً بنيًا أعتم التلّة.

قلتُ:

– انتظروا.

شعرتُ بأنّ رفاقي في المغامرة متحمّسون ومستعجلون على التحرّك، ولكنني كنتُ أعلم أنّه كلّما أصبح المهاجمون أقرب إلينا، أصبحت استراتيجيتي أكثر نجاعةً.

ثمّ أعطيتُ الإشارة:

– الآن!

ضغط مارك رابيرت على زرٍّ في هاتفه الذكيّ. انفتح باب المدخل العاكس وانطلق حشد من ألفين وخمسمئة روبوتٍ من طراز كاتز 007 هرولةً لملاقاة ثلاثين مليونًا من الجرذان.

كانت الأعين الزرقاء للقطط الآلية مضاءة بنورٍ مبهرٍ، وآذانها مدفوعة للخلف لتخفيف ضغط الهواء عليها.

الآن، لم يعد بوسعنا الرجوع إلى الخلف.

من بعيد، رأينا القطط الآلية تعبر خطّ دفاعنا، وتتوغّل وتصل إلى خطّ الهجوم الأوّل للجرذان. هناك، مثلما برمجناها، بدأت روبوتات الكاتز بعضّ الجرذان لحقن فيروس بابل في أجسامها. لم تقتلها بل اكتفت بغرز أسنانها في هدفها ثمّ الانتقال مباشرةً إلى جرذٍ آخر.

جرت المعارك سريعةً وخاطفةً. لم تستطع القطط الآلية مواجهة العدد الهائل للخصوم. ما كادت دقائق معدودة تمرّ، حتى حُيِّدَت روبوتات الكاتز بعددها البالغ ألفين وخمسمئة روبوتٍ.

أتمنّى أن تكون قد حظيت بالوقت المطلوب لحقن الفيروس في جسم عددٍ كافٍ من أفراد الجرذان.

تذكّرتُ أنني قرأتُ في الموسوعة أنّ الحرب البكتريولوجية الأولى كانت خلال حصار الجيش المغولي لمدينة كَفَة، وهي مستوطنة جنوية في

شبه جزيرة القرم، في عام 1346. كان الجيش المغولي قد ألقى بالمجانيق جثثًا لموتى قضوا بالطاعون على أسوار المدينة المحاصرة. وكانت السفن الجنوية هي التي نشرت فيما بعد الطاعون الأسود في أوروبا، الذي قتل نصف سكّان القارة في ذلك الوقت.

تُلهمني معرفة تاريخ البشر.

بعد توقّفٍ قصيرٍ مرتبطٍ بإدارة هجوم القطط الآلية، واصل الحشد المهاجم تقدّمه، مهيبًا، مخيفًا، موحّدًا.

عددُها هائلٌ.

توقّفت الجرذان المهاجمة أمام الخندق الأوّل.

أثناء الأيام التي استغرقتها الاستعدادات، استطعنا بالتوازي مع خطّتي التي أسميتها عملية بابل أن نقيم بعض خطوط الدفاع الإضافية.

ومن ضمن تلك الخطوط الدفاعية خندقٌ مليءٌ بالوقود، وخلفه مباشرةً أنشأنا سياجًا من الأسلاك الشائكة المكهربة.

تقدّم جرذٌ ضخمٌ بنّي اللون بمفرده، يحمل في فمه كيسًا صغيرًا.

عبر الخندق سابحًا وسط الوقود، ثمّ اقترب من منطقة سياج الأسلاك الشائكة ووضع كيسه.

بفضل كاميرات التصوير، استطعنا أن نقرّب الصورة ورأينا أنّ الأمر يتعلّق بكيسٍ قماشيٍّ باللونين الأبيض والأحمر.

قلتُ:

– احذروا قد يكون هذا مسحوقًا متفجّرًا.

ولكننا لم نلاحظ وجود فتيلٍ مشتعلٍ.

فخرج، بناءً على أوامري، أحد آخر روبوتات الكاتز الذي كان لا يزال فاعلًا عبر بابٍ مصفّح، ومرّ من منطقة الأبواب الأوتوماتيكية التي كنّا قد ركّبناها على سياج الأسلاك الشائكة، وأمسك بالكيس الصغير ثمّ سلك الطريق المعاكس لكي يجلبه لنا.

اقترب الجنرال غرانت من الكيس الصغير ليتفحّص محتواه.

بدرت منه حركة انكفاء إلى الوراء.

اقتربتُ بدافع الفضول.

في الكيس، رأيتُ رأس جرذٍ تعرّفتُ إليه في الحال لأنّه كان مزوّدًا بعينٍ ثالثة على جبينه.

بولس!

لقد أُعدِم بقطع رأسه، تمامًا مثل البشري الذي كان يحمل اسمه.

علّق الجنرال غرانت:

– تسعى الجرذان إلى زعزعة استقرارنا وزرع البلبلة في صفوفنا.

علّقتُ، بتحسّرٍ:

– على أيّ حال، لن تعود بحوزتنا معلومات حول ما تفعله.

يجب *أن نُظهر لها أنّها لا تخيفنا.*

فبدأتُ أموء بأعلى صوتي وماءت معي القطط ثمانية الآلاف، ثمّ نبحت الكلاب خمسة الآلاف. ثمّ صاح البشر بعددهم البالغ واحدًا وأربعين ألفًا صيحةً بالنبرة نفسها.

وكردٍّ علينا، أطلقت الجرذان بملايينها الثلاثين صفيرًا موحّدًا. وبفضل عددها الكبير، ملأ صفيرها المصمّ للآذان كلّ الأرجاء.

رأيتُ على الشاشة نقطة فوق صفوفها. طلبتُ من رومان أن يقرّب الصورة ورأيتُه «هو».

كان تيمورلنك المستقرّ فوق طائرتي المسيّرة المحلّقة يقود قواته.

تبعت ذلك لحظة من الصمت بدت دهرًا ثمّ فجأةً انتصب تيمورلنك وأطلق صيحةً حادّة واندفع حشده هرولة نحونا.

هذه المرّة، حان دورنا.

حالما اقتربت الجرذان من الخندق المليء بالوقود، وفي اللحظة التي عبره بعضها، صحتُ:

– الآن!

فضغط مارك رايبيرت على زرٍّ في هاتفه الذكيّ حرّر زنادًا أطلق شررًا، فتحوّل خندقنا المليء بالوقود إلى جدارٍ ناريٍّ.

اشتعلت النيران في كلّ الصفّ الأوّل للجرذان التي بدأت بالاحتراق.

كان تيمورلنك يعرف ذلك ومع ذلك لم يتردّد.

وفهمت سبب عدم تردّده في الاقتحام. ففي الواقع، كان عدد الجرذان كبيرًا للغاية بحيث استطاعت أن تخمد ألسنة النيران بأجسادها المجرّدة.

بعد ذلك، شنّ الصفّ الثاني الهجوم وعبر الجدار الناريّ.

حسنًا، يبدو أنّ النار وحدها لا تكفي لإيقافها...

وصلت حشود الجرذان إلى سياج الأسلاك الشائكة، وهنا، حوصِرَتْ بالأشواك المعدنية.

مؤتُ مرّة أخرى، وأمرتُ:

- الآن!

أُرسِل التيار الكهربائي عبر أسلاك السياج، وصعق كلّ الجرذان العالقة فيه. وتلقّت الجرذان التي حاولت الاقتراب صعقات عنيفة بما يكفي لصدّها.

بحسب خطّتي المرسومة، كان من المفروض أنّها ستتراجع عن الهجوم.

كان الرهان كلّه يتوقّف على هذه اللحظة لأنّ المشكلة الصغيرة المرتبطة بفيروس الإنفلونزا المتحوّر تكمن في أنّه يستغرق وقتًا حتى يبدأ مفعوله. ثمّ إنّ الفيروس لا يمكنه أن يكون فاعلًا إلّا إذا حاولت الجرذان التحدّث فيما بينها.

وهذا هو السبب الذي جعلني أتوقّع حرب حصارٍ طويلة الأمد. فمن شأن هجومٍ جبهوي أن يقضي بضربة واحدة على قواتنا.

تابعنا على الشاشات تطوّر الأوضاع.

أتمنى أن يستمرّ هذا الصمود.

غيّرت الجرذان، بعد شنّ هجومٍ واسعٍ، خطّتها. في سبيل الموجة الثالثة من هجومها على الأسلاك الشائكة، ركّزت عملها على مكانٍ محدّدٍ من سياج الأسلاك الشائكة.

لقد ماتت ولكن بدا أنّ هذا جزءٌ من خطّتها.

لا تزال تسعى إلى تشييد جسرٍ من الجثث.

لحسن الحظّ، كانت الشحنات الكهربائية قويّة بما يكفي لقتل الكثير منها وصدّها ودفعها إلى الخلف.

استغرق هذا الأمر هنيهةً ولكن الشكّ خالجني في أنّ دفاعنا لن يستطيع المقاومة إلى ما لا نهاية.

ومثلما خشيت، بدأت منطقة الأسلاك الشائكة تتشبّع بالجثث، إلى درجة أنّها لم تعد فاعلة.

ازداد الضغط على النقطة المحدّدة المستهدَفَة.

إذا ما نجحت الجرذان في فتحِ معبرٍ، فسوف نصبح مكشوفين. بدأتْ بالضغط على الأسلاك الشائكة.

من جديد، وجدتُ نفسي فجأةً أصلّي وأرفع الدعوات.

أيها الكون، ساعدني. إذا كنت تفضّل سيادة الجرذان على هذا العالم، دعها تتقدّم، وإلّا هبني دعمك. ولا تتباطأ في ذلك.

ولكنّ الكون أبطأ حتى من خدمي البشريين. اضطررتُ لأن أعيد وأكرّر مرّات عديدة صلاتي قبل أن يُنيرَ أخيرًا برقٌ السماء.

حسنًا، *لقد تأخّرت، ولكن مع ذلك شكرًا.*

هطل مطرٌ وزاد من فاعليّة التيار الكهربائي.

خفّت تدريجيًّا شراسة الجرذان التي لا بدّ أنّ الإنهاك كان قد نال منها أصلًا بسبب مَسيرها الشاقّ من مانهاتن إلى هنا. إلّا أنّها نجحت رغم كلّ شيء في إقامة جسرٍ من الجثث يمكن استخدامه ونظّمت رتلًا من صفوفها وعبرت سياج الأسلاك الشائكة وتقدّمت لتصل إلى جدار الحماية الزجاجي. وهنا، بدأت الأسلحة الرشّاشة ذات الإطلاق الأوتوماتيكي وقاذفات اللهب بالعمل وحصدت الجرذان الأقرب.

لكنّ سيل المهاجمين واصل تدفّقه نحو قلعتنا مثل حممٍ بركانيّة بنّية اللون.

وصلت الجرذان إلى الجدار الشفّاف، وحاولت تسلّق الزجاج، ولكنّ مخالبها انزلقت عليه. لم تعثر على أيّ منفذ. وجعل المطر السطح زلقًا أكثر من ذي قبل.

ولكنّها لم تستسلم.

بفضل جبلٍ من الأجسام، صعدت طلائع المقاتلين إلى أعلى الجدار.

شرع بشرٌ مسلّحون بالمناجل في تمزيق الجرذان التي وصلت إلى هناك. ولكن رغم ذلك نجحت بضعة آلافٍ منها في العبور. جاء بشرٌ آخرون لمساعدة بني جلدتهم، متسلّحين بالبنادق والأسلحة الأوتوماتيكية، بل وحتى بالسكاكين. وقد اضطرّوا إلى القتال في بعض الأحيان بالاشتباك المباشر. هبّت القطط والكلاب لتقديم المساندة. وفُجعنا بقتلانا الأوائل.

وواصلت كتلة الجرذان تدفّقها دون انقطاع كما لو أنّ جميع دفاعاتنا ليست موجودة. في تلك اللحظة، تحوّلت الأمطار إلى حبّات بردٍ ضخمة بحجم حبّات البرقوق. أعدنا مسيّراتنا ولم يعد بوسعنا متابعة سير الأحداث. لم يعد بوسع الجرذان الدفع بتعزيزاتها لمساندة القوات المنتشرة على طول الجدار الزجاجي. وانخفض تدريجيًّا عدد الجرذان التي نجحت في عبور الجدار الشفّاف. وظلّ البَرَدُ مدمّرًا للمهاجمين. لجأنا إلى قاعة الاجتماعات في حين ظلّ المحاصِرون عرضةً لرمايات السماء المتواصلة بعنف. من داخل المبنى، سمعنا حبّات البرد وهي تضرب الألواح الزجاجية، ولكننا بقينا بمنجى عنها وبأمانٍ في الداخل. لم يعد هناك أيّ جرذ في محيط جدار السور. لا بدّ أنّها وجدت ملاذًا لتعدّ نفسها لهجوم اليوم التالي. استثمرتُ هذه المهلة لكي أنام في ركنٍ من المبنى، فقد كنتُ أعلم أنني سأحتاج في اليوم التالي إلى كامل قواي.

60. معركة حصن آلامو

في حصن آلامو، واجهت قوّة مؤلّفة من بضع مئاتٍ من المقاتلين جيشًا مكوّنًا من عدّة آلاف من الجنود. في عام 1836، كانت تكساس جزءًا من المكسيك. ومع ذلك، قَدِم المزيد من المستوطنين من أمريكا الشمالية للاستقرار فيها، مصحوبين بعبيدهم السود.

بمبادرة من أحد هؤلاء المستوطنين، وهو سام هوستن، قرّروا، متيقّنين من أنّ عددهم كبيرٌ بما فيه الكفاية، الإعلان عن استقلالهم الذاتي عن الحكومة المكسيكية (التي كانت تُريد بشكلٍ خاصّ إلغاء العبودية – وكان هذا قبل الحرب الأهلية الأمريكية عام 1861).

كان القائد المكسيكي في ذلك العصر هو الجنرال أنطونيو لوبيز دي سانتا آنا، الذي كان يعرّف نفسه على أنّه «نابليون العالم الجديد». فقرّر توحيد جيشٍ قوامه خمسة آلاف جنديٍّ لإخضاع المتمردين الاستقلاليين الأمريكيين الشماليين.

فباشر مستوطنان أمريكيان، هما جيمس بوي ووليلم ترافيس، بتحصين حامية قديمة بالقرب من سان أنطونيو، تُسمى حصن آلامو، لكي يقطعوا عليه الطريق. بمساعدة رجل غاباتٍ وصيّادٍ شهير، هو دافي كروكيت، شكّلوا جيشًا صغيرًا يتكوّن من مئة وسبعة وثمانين جنديًا ونظّموا دفاعًا لمقاومة المكسيكيين في هذا الحصن.

بدأ الحصار في يوم 24 فبراير / شباط 1836 واستمرّ ثلاثة عشر يومًا. تمكّنت القوات المدافعة من صدّ الهجومين الأوّلين.

في الهجوم الثالث، نجح المكسيكيون في الصعود إلى جدار السور، وأرغموا التيكسيين على الانكفاء والتقهقر إلى مبنى داخل الحصن.

في صباح السادس من مارس / أذار، نجح المكسيكيون في الدخول إلى هذا الحصن خلال هجومٍ ليلي، لكنّ الإنذار أعطي للمقاتلين، وقاتل المستوطنون حتى النهاية. قُتِلَ الجميع.

ولكن مع ذلك عملت تضحيتهم على إبطاء هجوم سانتا آنا.

حينما انتهت معركة حصن آلامو، وسلك الجيش المكسيكي الطريق نحو الشمال، كان الأوان قد فات. فخلال فترة الحصار، في الثاني من شهر مارس / أذار، كانت تكساس قد أعلنت استقلالها وعيّنت سام هوستن رئيسًا لها. واصل سانتا آنا تقدّمه مع جيشه، ولكن بعد بضعة أيامٍ من المسير، هاجم تسعمئة تكسيٍّ في موقعة سان جاسينتو جيشه بغتةً وهم يهتفون بأعلى صوتهم: «الانتقام لآلامو!». قتلوا ستمئة مكسيكي وأسروا ستمئة آخرين. فرّ الجنرال سانتا آنا واعترف باستقلال تكساس.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

61. هرمجدون: أمّ المعارك

أشرقت الشمس ولا تزال ملايين الجرذان في مكانها.

مرّت مسيّراتنا من فوقها، وبدا عددها أقلّ بقليل من ذي قبل ولكن بدا لنا أيضًا أنّها قد استفادت من الليل لكي تستردّ قواها.

إنّها لا تموت.

هذا الصباح، على العكس من سابقه، ليس هناك مطرٌ ولا برَد.

سجّلت لواقط الصوت في المسيّرات بعض أصوات العطس والسعال بين الجرذان، ولكنني لم أعلم إن كان ذلك بفعل فيروس بابل «خاصّتي» أو فقط بسبب المطر والبرد.

ومن ثمّ سمعنا صفيرًا، ومن جديد انطلقت موجةٌ من الجرذان في الهجوم.

ومثل اليوم الذي سبق، بفضل عددها الكبير، نجحت القوات في عبور الدفاعات الأولى، ثمّ أُبيدت الجرذان الأكثر تقدّمًا بالأسلحة الآلية. هنا أيضًا، نجح بعضها في العبور رغم كلّ شيء وسار فوق الجدار الزجاجي.

عبر الزجاج الشفّاف، رأينا الجرذان تحاول بناء جبالٍ من الأجساد لكي تصل إلى القمّة.

بدت أقلّ حذرًا والتي وصلت إلى الأعلى أوقِفَت بسهولة من قبل قناصينا.

ورغم كلّ شيء مرّ بعضها وأطلق البشر عليها النيران من كلّ أسلحتهم. كان الدفاعُ فاعلًا، ولكن ما إن تُقتَل مجموعة من الأعداء حتى تحلّ مجموعة أخرى محلّها في الحال.

اشتدّت المعارك وأصبحت أكثر ضراوةً.

أمسكت ناتالي ببندقية آلية تعاملت معها بمهارة إلى حدّ ما، في حين أطلق رومان الواقف إلى جانبها النار من مسدّسه. واستخدمت هيلاري كلينتون قاذفة بازوكا واستهدفت من بعيد رتل الجرذان المتدفّق في حين قدّم لها مارك رايبيرت، الجالس في كرسيه المتحرّك، الذخيرة. واستخدم الجنرال غرانت قاذفة لهب وأعمل في الجرذان قتلًا دون أن يترك غليونه العالق في زاوية شفتيه، مطلقًا الشتائم.

حتى القطط والكلاب شاركت في المعركة.

ووقف أنجيلو بالطبع في الخطّ الأمامي.

حسنًا، سيكون عليّ أن أذهب أنا أيضًا. لا يمكنني أن أتنحّى جانبًا.

ما يجعل الحرب صعبةً هو أنّه علاوة على المشكلة الأخلاقية (لا أحبّ إطفاء طاقة حياة الآخرين، أيًا كانوا)، هناك مشكلة عضلية ناجمة عن الإرهاق.

القتل عملٌ شاقّ.

استخدمنا مخالبنا وأسناننا وغضبنا الشديد.

ولكنّ عددها كان كبيرًا جدًّا. لم أكد أقتلُ جرذًا حتى تظهر عشرة جرذانٍ أخرى لتحلّ محلّ القتيل.

اقتربتُ من ابني لكي أحميه، ولكن بدا أنّه لا يحتاج إلى ذلك. حافظ على إيقاعٍ منتظمٍ في قتاله. ضربةٌ من القائمة اليمنى، وضربةٌ من القائمة اليسرى، وعضّةٌ من الفم، ثمّ ينتقل إلى الجرذ التالي.

أمّا أنا، فقد تعاملتُ مع كلّ حالة على حدة.

ما أزعجني هو أنّ فرائي قد تلطّخ بالكامل بدماء الجرذان، وأنا مثلما تعرفونني لدي وسواس من البقع والقذارة.

لا أدري كيف تتصرّفون أثناء الحرب، ولكن بالنسبة إليّ، أعتقدُ أنّه يبقى من الأفضل ألّا ننخرط فيها كثيرًا من الناحية العاطفية.

لا خوف ولا غضب. ليس هناك أيّ جانب شخصي في كلّ حركة من حركاتي، وإنّما أتصّرف فقط بحكم الضرورة لكي أنجو من الموت.

ومع ذلك، لم أرَ كيف يمكن للأمور أن تصل إلى خواتيمها.

قاتلتُ دون أن يحدوني الكثير من الأمل، وفجأةً، حدث شيءٌ جديد.

تقاتلَ جرذان فيما بينهما.

يا للهول، ها هي القوارض الأولى تقاتلُ قوارضَ أخرى. تُرى هل بدأ فيروس بابل يفعل فعله؟

في البداية، لم يكن هناك سِوى عدد قليلٍ من الجرذان، ثمّ سرعان ما ازداد العدد.

ومن جرّاء ذلك، خفّ الضغطُ على خطّ دفاعنا.

وتزايد باطراد عدد الجرذان التي تقاتلت فيما بينها.

والجرذان التي هاجمتني اعترِضتْ في بعض الأحيان من قبل جرذان أخرى جاءت تُدافعُ عنّي.

تحوّلت حرب الجدار إلى فوضى عارمة واجه فيها البشرُ والقططُ الجرذانَ في حين أنّ هذه الأخيرة ضربت في الوقت نفسه بني جنسها.

غادرتُ ميدان المعركة وصعدتُ إلى السطح لأرى المشهد من الأعلى.

تذكّرتُ أنني قرأتُ في موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة أنّه في عام 1515، أثناء معركة مارينيانو الشهيرة، لم يستطع الفرنسيون والسويسريون، وسط الليل والثلج، التعرّف بعضهم على بعض. فقتلَ فرنسيون فرنسيينَ وفعل سويسريون الأمر ذاته مع مواطنيهم. حصل ذلك خطأ ومن جرّاء ضعف الرؤية وانعدام التواصل.

في صباح اليوم التالي، وصلت قوات جمهورية البندقية وقدّمت مساندة حاسمة للفرنسيين ومنحوهم بذلك الانتصار.

لقد تبيّن لي أنّ اهتمامي بمعارك البشر ورؤيتها مخزّنة في ذاكرتي كنزٌ ثمين.

راقبتُ المعركة الصاخبة من حولي كما لو أنّها لوحة جدارية. وجعلني هذا أفكّرُ في بعض تفاصيل اللوحة المدهشة للرسّام جيروم بوش والمسماة *الجحيم*.

أنا في الجحيم. الجرذان هي الشياطين.

وعلى نحوٍ غريبٍ، وسط كلّ هذا العنف وهذه الصرخات والدماء، أردتُ أن أستمع إلى الموسيقى عبر الإنترنت. استفدتُ من الوجود الدائم لموسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة في رقبتي لكي أختار مقطوعة موسيقية للفنّانة كالاس.

أغنية «أفي ماريا» للمؤلّف الموسيقي غونو.

هكذا هو العالم الذي أعيش فيه. عالمٌ صاخب ومتنوّع. كلٌّ يختلف عن الآخر، كلٌّ يعيشُ الخوف وإغواء تدمير الآخرين.

كلّ هذه الكائنات الشرسة المحيطة بي تُلهمني أكثر من أيّ وقتٍ مضى بتعطّشٍ كبيرٍ إلى السلام، والوداعة والصداقة.

كم يمنح الجحيم الرغبة في معرفة الفردوس.

كم يمنح الظلام الرغبة في النور.

ثمّ لمحتُ من بعيد شيئًا يطير وأثار اهتمامي.

يُهاجَمُ تيمورلنك على متن مسيّرته من قبل جرذانه التي قفزت للحاق به.

يُريدُ باروناته إنزاله إلى الأرض.

فغادرتُ مرقبي العالي، وذهبتُ بأقصى سرعتي إلى رومان.

– هل يمكنكَ أن تجهّز لي مسيّرة أقودها؟

– ليست متوفّرة لدي الآن، سيكون عليّ أن أصنع واحدة من المواد الموجودة في مصنع بوسطن دايناميكس، ولكن الوقت بالفعل ليس مثاليًّا من أجل...

– من الأرجح أنّ هذه المسيّرة ستكون مفتاح المعركة. أستطيع التغلّب على تيمورلنك إذا ما قدّمتَ لي واحدة من هذه المركبات الطائرة.

شعرتُ بأنّه لا يُريد تركَ ناتالي وحدها. ولكنّه كان يعلم أنني في بعض اللحظات أمتلك حدسًا سرعان ما يتكشّف على أنّه رابحٌ، ولذلك وافق على مساعدتي والذهاب إلى الورشة. اختار ما يلزمه من أجل تلبية طلبي.

بدأ يعمل على صنع المسيّرة باضطرابٍ.

فقلتُ له:

– لا تفكّر في ما يحدث في الخارج، وركّز على المهمّة الجديدة التي أسندتُها إليك.

في الخارج، توسّعت باطراد دائرة الصراخ ومزيج الصيحات والانفجارات. نجح رومان في تجاهل الضجيج القريب منه جدًّا. ركّب العديد من الأجهزة واستخدم حاسوبًا لبرمجة لوحة إلكترونية.

وأخيرًا أعلن خادمي:

– المسيّرة جاهزة الآن.

أصعدني إلى المسيّرة وثبّتني عليها ثمّ أدار محرّكها. وبدأت شفرات المروحة الأربع بالدوران والأزيز.

الآن يا تيمورلنك لدينا أسلحة متكافئة.

أخذتُ نفسًا عميقًا وأوصلتُ ذهني بجهاز التحكّم. فعّلتُ دقّة التوجيه وأقلعتُ.

توقّف المطر عن الهطول واستطعتُ التحليق بلا صعوبة. لمحتُ من بعيد المسيّرة البيضاء التي كنتُ قد قدّمتُها لإمبراطور الجرذان. اندفعتُ نحوه. ولمّا رآني لاذ بالفرار بدل أن يواجهني.

إنّه يخافُ منّي!

اتّجه نحو الجنوب. لحقتُ به. كانت مسيّرتي أقوى من مسيّرته بعض الشيء ولكنّ وزنه الخفيف منحه أفضلية. لم أستطع اللحاق به. طِرنا الواحد خلف الآخر نحو الجنوب، تاركين خلفنا بعيدًا ميدان المعركة.

هذه المرّة، سوف أنال منك. ومن ثمّ سوف أستولي على السلطة لكي أُقيم عالمًا يسوده السلام والحكمة.

62. الإمبراطور ماركوس أوريليوس

كان ماركوس أوريليوس يشكّل الحالة الفريدة كإمبراطورٍ فيلسوف.

ولِد في عام 121 قبل الميلاد في روما، ووصل إلى السلطة وهو في الأربعين من عمره وقد أثبت أنّه سياسيّ بارع واستراتيجيّ ماهر، ولكنّه أيضًا كاتب ورجل حكمة. تحت سلطته، عرفت الإمبراطورية الرومانية ذروتها، ممتدّة من شمال إنكلترا إلى جنوب مصر، ومن إسبانيا إلى إيران الحالية.

ما كاد يصل إلى السلطة حتى اضطرّ لمقاومة غزوِ البارثيين عبر الجبهة الغربية. وقد خرج منها منتصرًا، ولكنّه اضطرّ لمواجهة وباء الطاعون المتفشّي في روما، ومن ثمّ فيضان نهر التيبر وزلزالٍ في تركيا.

ثمّ حاول الجرمان غزو الإمبراطورية الرومانية من الشمال. وقد حارب مدّة خمس سنوات لكي يحتوي هذا الغزو. وقد أمضى جلّ حياته في خوض الحروب في سبيل حماية الإمبراطورية.

ونحن مدينون له بعبارات شهيرة:

- «اللهم امنحني قوّة تحمّل ما لا يمكن تغييره وشجاعة تغيير ما يمكن تغييره، ولكن أيضًا حكمة تمييز أحدهما من الآخر»؛

- «هذا هو الكمال الأخلاقي: أن نعيش كلّ يوم كما لو كان الأخير»؛

- «أكمل انتقام هو عدم تقليد المعتدي»؛

- «الإنسان العادي صارم مع الآخرين، والإنسان الاستثنائي صارمٌ مع نفسه»؛

- «يمكنك، في اللحظة التي تشاء، أن تلوذ بذاتك، فلا يمكن للمرءِ أن يجدَ مأوى أهدأ وأكثر سكونًا من روحه».

كان الإمبراطور ماركوس أوريليوس محبوبًا جدًّا من شعبه ومحطّ إعجابه الشديد، ومع ذلك كانت لديه نقطة ضعفٍ: زوجته فوستين. حينما بقيت وحيدة في روما بينما كان زوجها يخوض الحرب على حدود الإمبراطورية، تردّدت كثيرًا على المصارعين. رُزِقَت ولدًا، هو كومودوس، الذي بحسب رواية المؤرّخ لوسيوس كاسيوس ديو كوكايانوس، حبس والده خلال حملة جرمانيا. كان كومودوس، الذي عيّن وريثًا للعرش، أحد أسوأ الأباطرة الرومانيين، مولعًا بالبذخ والفجور وعراك المصارعين.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

63. سيمفونية للطائرة المسيّرة والمخالب والأسنان

ما أكرهه في المطاردات هو عندما تطول كثيرًا.

وهذه المطاردة الجارية الآن طالت بالفعل كثيرًا بالنسبة إليّ. ولأنّ المسيّرتين كانتا تتغذّيان من طاقة الشمس، ولأنّ الطقس كان صحوًا، لم تتباطأ حركة المركبتين الطائرتين. وأنا في ذروة السرعة، شعرتُ بأنّ سرعة مسيّرتي بلغت مئتي كيلومترٍ في الساعة، ومع ذلك ظلّ تيمورلنك متقدّمًا عليّ.

لقد حافظتُ على حياتك مرّة واحدة، ولكنني لن أحافظ عليها مرّة ثانية.

ولذلك لم أستسلم.

مرّت الدقائق. مرّت دقيقتان. مرّت ثلاثون دقيقة. مرّت ساعةٌ كاملة. وواصل الطيران نحو الجنوب.

هذا غير ممكن. ألن يذهب إلى نيويورك؟

بهذه السرعة، قطعنا المسافة البالغة ثلاثمئة كيلومترٍ الفاصلة بين بوسطن ونيويورك في غضون ما يقرب من ساعتين. ومثلما كنتُ أخشى، سرعان ما رأينا ناطحة السحاب في مانهاتن تظهر أمامنا.

يُريدُ أن يقودني إلى هناك. ولكن لماذا؟

حلّق تيمورلنك بطائرته المسيّرة على علوٍّ منخفض في الشوارع الواسعة والخالية من كلّ مظاهر الحياة.

انخفض بتحليقه تدريجيًّا.

ثمّ حطّ على مرجٍ أخضر وسط المدينة.

أصبحنا في سنترال بارك.

شاهدتُ هناك الصاروخ الذي انغرز حتّى منتصفه في المرج بحيث لم يكن يظهر منه سِوى زعانفه الخلفية.

هذا ما كان يريده إذًا: أن نكون بجانب قنبلة ذرّية يمكن لها أن تنفجر بين لحظة وأخرى.

حتى إذا كنتُ أنا من عطّلته، بقيتُ مدركة أنّ ماسًا عرضيًّا قد يؤدّي إلى انفجار القنبلة.

انتصب تيمورلنك على قائمتيه الخلفيتين.

هبطتُ بالقرب منه. صعد إلى قمّة الصاروخ بمساعدة مخالبه لكي يتسلّق الأنبوب.

انضممتُ إليه.

هل من المعقول أن نتقاتل جاثمين على صاروخٍ نوويٍّ جاهزٍ للانفجار؟

ينبغي لي ألّا آخذ هذا العنصر بالحسبان. ويجب عليّ ألّا أفكّر سوى بتسديد ضرباتي بشكلٍ محكم وتجنّب ضرباته.

ها قد أصبحنا الآن وحدنا، أنا وهو. خطرت في ذهني ذكرى المبارزة السابقة، حيث قهرتني سرعته.

هل سأكون هذه المرّة أفضل أداءً؟

دوّم الجرذ ذيله.

نفشتُ فرائي لكي أبدو أسمن وأضخم من حجمي الطبيعي، ودفعتُ أذنيّ إلى الوراء وألصقتهما بجمجمتي كي لا تكونا في متناول أسنانه أو سوطه.

كشّر عن أنيابه.

أخرجتُ مخالبي.

وتقدّمتُ ببطءٍ.

نفخَ وصفّرَ؟

نفختُ بدوري.

يجب أن أكون بالفعل منتبهة إلى أدنى حركة من حركاته.

اقتربتُ. منحتني حقيقة أنّه فرّ أمامي حينما كنتُ أُطارده بالمسيّرة الأمل بأن يخاف منّي.

ربّما كان متعبًا.

ربّما جرحه أحد باروناته المصابين بفيروس بابل.

قلتُ:

- يا تيمورلنك! لقد انتهى أمرك.

لم يُجبني.

أعرف أنّه سمعني بفضل اتّصال بلوتوث عينه الثالثة التي نتحدّث بعضنا مع بعض خلالها مباشرةً من ذهنٍ إلى ذهن.

- يا تيمورلنك! استسلم!

ظلّ لا يجاوبني.

يجب أن أنجح في قتله، فحاولتُ الاتصال بذهنه لكي أتوقّع ضرباته وأتجنّبها. لا بدّ أن أعرف أين سيضرب قبل أن يفعل ذلك.

بدا لي أنني رأيتُ فيه الكثير من الغضب والارتباك. وهذا الاستنتاج طمأنني بشأن فرصي في الانتصار.
تقدّمتُ نحوه.
أستطيع النيل منه.
وبغتةً رميتُ عليه قائمتي، ناشرة مخالبي، ولكنني قاربته دون أن أُصيبه.
وألحقتُ ضربتي في الحال بضربة من مخالب قائمتي الأخرى، ولكنّها أيضًا لم تحقّق نتيجةً. جربّتُ محاولة أخرى، لكنّ الجرذ اللعين تحاشاها بسهولة.
عاجلني بالمقابل بجلدةٍ قويّة من ذيله مباشرةً على خطمي، الحسّاس جدًّا بالنسبة إليّ.
أُصبتُ بالذهول.
بذيله الرفيع الوردي جلد عينيّ وأذنيّ وانهال على خطمي إلى حين جعلني الألم أسقط عن أسطوانة الصاروخ.
ما إن أصبحتُ على الأرض، حتى قفز إلى الأسفل بدوره وواصل هجومه. ذهبت ضربات قائمتي في الفراغ، ولم أستطع حتى أن ألمسه.
يبدو كأنّه يسبقني على الدوام بجزءٍ من ثانية.
حدث تمامًا مثلما حدث في المرّة الأولى التي قاتلته فيها؛ فقد كان بالفعل أقوى منّي وأسرع وأكثر دقّة، ولا يمكن المساس به.
لم يبدُ أنّ متاعب الرحلة ولا العداوات الأخيرة قد أثّرت عليه في شيء.
لماذا فرّ أمامي إذا كان يعلم أنه الأقوى؟
فجأةً فهمتُ السبب.
قبل أن يقتلني، أراد أن يُريني الصاروخ المزروع نصفيًا في الأرض كدليلٍ على أنني لم ألتزم بوعدي له.
قفزتُ على مسيّرتي وانطلقتُ بها في محاولة للنجاة بجلدي.
هذه المرّة، هو يُطاردني.
لم أفهم جيّدًا ما يحدث.
ناورتُ بين عمارات مانهاتن، ولكن كلّما أردتُ الذهاب إلى اليسار أو إلى اليمين، سدّ عليّ الطريق.

لم أستطع الذهاب إلّا نحو الجنوب.
من بعيد، لاح لي تمثال الحرّية، عرينه.
يُريدُ أن يقودني إلى هناك.
ما إن وصلنا إلى هناك، حتى زاد من سرعته وصدمني بعنف، فسقطتُ في أسفل قاعدة التمثال. خرجت مسيّرتي عن الخدمة، في حين ظلّت مسيّرته سليمة.
في الواقع، جرّني إلى هنا لأنّه أراد أن يقتلني في هذا المكان بالتحديد. تحت التمثال العملاق، الذي عُدِّل بحيث أصبح يشبهه.
تقدّم نحوي.
وأخيرًا رضي بأن يتكلّم معي.
– لماذا تدافعين عن البشر؟ لم تذكري لي الأسباب بعد، يا باستيت.
أجبتُه:
– لقد وجدتُ فيهم ما هو مثيرٌ للإعجاب.
– وما هو؟
– الجهل.
– ماذا؟
– البشر هم الحيوانات الوحيدة التي أدركت جهلها وحاولت أن تتخلّص من هذا الجهل. وهذا هو مكمن قوّتهم. كلّ الأنواع الأخرى تعدُّ نفسها مُدركة مسبقًا لكلّ ما هو ضروريٌّ لها للعيش، إلا البشر الذين يقرّون بجهلهم. هذا الاكتشاف هو هدستهم للأنواع الأخرى: فنحن لسنا مكتفين ذاتيًّا ولا بدّ أن نعوّض هذا النقص الذي نعانيه من خلال التعلّم.
حارَ في أمر حجّتي، فاستغللتُ هذه الفرصة.
– لقد أدركتُ أنني كنتُ جاهلة من خلال وصولي إلى المعرفة بفضل العين الثالثة. هذا هو السبب الذي يجعلني معجبَةً بهم وممتنّة لهم. لو لم يكن البشر موجودين، لما أصبحتُ راضيةً عن حياتي كقطّة ليست لديها أيّ رغبة في تعلّم أيّ شيءٍ.
– أنتِ لستِ مثلهم يا باستيت.
– لا أحد كاملٌ.

- باستيت، لقد اعتمدتُ عليكِ كثيرًا. لقد تمنّيتُ بصدق أن تصبحي مؤرّختي، وكاتبة سيرتي. لقد خاب أملي بكِ كثيرًا.

تقدّم نحوي أكثر.

- باستيت، لم تلتزمي بوعدكِ لي، لقد خنتِني. إذًا، طالما أنّكِ تحبّين البشر كثيرًا، فسوف تموتين من أجلهم.

قفز ومن جديد تعاركنا في اشتباكٍ مباشر بين جسمينا. في حركة رشيقة، حاولتُ أن أضرب خطمه، ولكنني لم أنجح سِوى في خدش خدّه. تحاشى ضربتي ونجح في التشبّث بي من الخلف مثلما فعل في المرّة الأولى. غرز جانبيًّا أنيابه في المنطقة الأكثر هشاشةً من رقبتي. لم أستطع تجنّب الضربة. ضغط ببطء على شرياني السباتي وبدأ قليلٌ من دمي يسيل.

إنّه يتعمّد التصرّف ببطء لكي يتذوّق طعم انتصاره. لقد انتهى الأمر.

سأموت. هذا مؤسف، في الحقيقة كنتُ أفضّل أن أعيش لفترة طويلة. كنتُ سأرى نفسي قطّة طاعنة في السنّ تُراكم الكثير من التجارِب والخبرات المتنوّعة في الحياة. ولكن هنا، طويت صفحتي إلى الأبد، وسيكون عليّ الاكتفاء بماضيّ لأنني لن أشيخ.

أغمضتُ عينيّ، مستسلمةً لقدري المحتوم. بدأتُ أرى سلسلة حياتي تتكرّر متسارعة.

وفي تلك اللحظة بالضبط، ارتخى الضغط فجأةً.

فتحتُ عينيّ لأفهم من الذي ينقذني.

لم أستطع تصديق ما رأت عيناي.

64. عمر القطط

يكبرُ القطّ سريعًا جدًّا في بداية ونهاية الحياة، ولكن يبقى مستقرًّا بين الفترتين.

في الشهر السادس من عمره، يكون للقطّ نفس قدرة كائنٍ بشريٍّ في الثامنة عشرة من عمره. إنّه سنُ رشده، بطريقة ما.

وحينما يبلغ الثانية من عمره، يمتلك ملكات شابٍّ في الرابعة والعشرين من عمره. يكون في كامل لياقته.

وفي العاشرة من عمره، يكون بمنزلة رجلٍ كهلٍ في الستين من عمره. وهنا تبدأ شيخوخته.

وفي العشرين من عمره، يُناظرُ إنسانًا يبلغ مئة عامٍ.

تعيش القطط وسطيًّا ثلاثة عشر عامًا.

تكون القطط الأصيلة أكثر عرضةً للإصابة بالأمراض، في حين أنّ القطط الشاردة تكون عرضة للمزيد من الحوادث.

والقطط المنزلية التي لا نسب لها ومخصية، هي التي تحظى بأفضل متوسّط عمرٍ متوقّع.

القطّة التي عاشت لأطول عمرٍ بحسب موسوعة غينيس للأرقام القياسية هي قطّة أمريكية، تُدعى كريم بوف، ولِدَت في أوستن في ولاية تكساس في الثالث من شهر أغسطس / آب 1967 وماتت في نفس المدينة في السادس من أغسطس / آب 2005.

لقد عاشت إذًا ثمانية وثلاثين عامًا وثلاثة أيام.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

65. هو

هل أنا في حُلمٍ؟

يا إلهي، كيف يمكن هذا؟

كانت أمّي تقول إنّ الفرق بين الحُلم والواقع هو أنّ الواقع لديه خيال أوسع من الأحلام.

ظللتُ أحدّق فيه، غير مصدّقة عينيّ.

هو؟ على قيد الحياة؟

كنتُ مصعوقة جدًّا إلى درجة أنّني لم أبدِ ردّ فعلٍ حينما آثر تيمورلنك، الذي لا بدّ أنّه أُبعِد بضربة قائمة ولم يعد قادرًا على مواجهة خصمين في الوقت نفسه، الصعود إلى مسيّرته.

إنّه يستسلم. لقد انهزم.

تردّدتُ لهنيهةٍ في مطاردته.

في هذه الظروف المستجدّة، كنتُ بالطبع أحظى بالأفضلية عليه ولكنني لم أعد أرغب في استثمار ذلك.

تأخّر الجرذ الأمهق ذو العينين الحمراوين في الإقلاع بمركبته الطائرة.

أستطيعُ النيل منه.

لكنّ معلومة أخرى شغلت ذهني واستولت عليّ تمامًا بحيث أنّ كلّ جسمي شُلّ عن الحركة.

من جديد، أواجه هذا الاختيار بين الحبّ والخوف.

كنتُ قد قرأتُ في الموسوعة الجملة التالية: «المحارب هو الذي ينشغل بأعدائه أكثر ممّا ينشغل بأصدقائه».

أنا لستُ محاربة إلى هذه الدرجة.

تجلّت الحيرة في داخلي من زوايا عديدة، فاخترتُ أن أدير رأسي نحو اليسار، لكي أهتمّ بمنْ أنقذني بدل اهتمامي بمن أُريدُ القضاء عليه. سمعتُ صخب مراوحٍ على يميني. وعلمتُ أنّ ألدّ أعدائي قد نجح في تشغيل محرّك مسيّرته. ارتفعت مركبته سريعًا وابتعد طنينها.

نظرتُ أمامي، غير مصدّقة.

غمغمت:

- أنت؟

قال فيثاغورس:

- يجب اللحاق به. هيّا اصعدي إلى مسيّرتكِ، طيري والحقي به.

لا يهمّني أمر تيمورلنك. ليس هناك سواك منْ يهمّني. لقد سئمتُ خوض الحرب.

فيثاغورس.

«حبيبي» فيثاغورس، حيّ!!!

أردف:

- يجب عدم تركه يغادر!

- لا.

- أخبريني إذًا كيف تعمل هذه المركبة وأنا سألحقُ به.

- لم تعد مسيّرتي صالحة للطيران وتيمورلنك ابتعد كثيرًا.

- إذًا لقد انهار كلّ شيء وسوف نضطرّ لقتاله مرّة أخرى! سوف ينجو في حين كنّا قاب قوسين أو أدنى من الإجهاز عليه.

وأخيرًا أدرتُ رأسي ورأيتُ بالفعل الجرذ الأبيض الصغير جاثمًا على المركبة الطائرة التي كنتُ قد قدّمتها له في نفس هذا المكان وهي تتّجه بسرعة فائقة نحو الغرب.

بعد أن تجاوزتُ المفاجأة، رغبتُ في فهم تدخّل فيثاغورس.

عانيتُ صعوبةً في التعبير. بدأتُ أُردّد كما لو أنني أُريدُ إقناع نفسي:

- أنت! أنت! أنت حيّ!

وأخيرًا رضي أن يكفّ عن النظر إلى تيمورلنك الذي لم يعد سِوى نقطة صغيرة في الأفق البعيد والتفت لكي يحدّق إليّ. ماءَ:

- باستيت.

- فيثاغورس!

أخذتُ القطّ السياميّ بين قوائمي مثلما رأيتُ ناتالي ورومان يفعلان بأذرعهما.

ضممته بشدّة ومطوّلًا إلى قلبي.

فيثاغورس! شكرًا للكون على هذه الهديّة.

تراجعتُ قليلًا إلى الوراء لأراه على نحوٍ أفضل. تأمّلتُ ذاك القناع من الشعر الأسود المحيط بالعينين، وفراءه الفضّي، وأذنيه، والحول الخفيف في عينيه الذي يميّز القطط السيامية. رأيتُه جميلًا بالفعل.

- فيثاغورس... كيف استطعت...؟

تحت تأثير الانفعال العاطفي، لم أستطع إكمال جملتي.

قال بمرح:

- ألم أقل لكِ أنّ للقطط تسع حيوات؟

هزّ أذنيه. قادني نحو قاعدة التمثال وجلسنا على الحجر الدافئ بفعل الشمس. من هناك، رأينا نيويورك بأكملها مهجورة لا أثر للكائنات الحيّة فيها سِوى الطيور.

- حينما كنّا على بكرة الانزلاق بالحبل الناقل، سقطتُ في الماء. خفّفت مياه البحر من وقع سقوطي. سبحتُ لكي أصل إلى الشاطئ واختبأتُ في أحد رافعات الميناء. كنتُ أعلم أنّ الجرذان سوف تعثر في النهاية عليّ. ولذلك، وأنا مختبئ داخل الرافعة، طرحتُ على نفسي السؤال التالي: ما هو المكان الذي لن تفكّر الجرذان في البحث عنّي فيه؟

- هل صعدتَ إلى مبنى مهجور؟

- كلّا، كنتُ أعلم أنّ الجرذان تجوب على الدوام جميع العمارات. تذكّرتُ جملةً كنتُ قد قرأتُها في الموسوعة: «نكون أكثر أمانًا حينما نكون في قلب الخطر». ولذلك، مستفيدًا من المطر والليل، أقمتُ في تمثال الحرية.

- ولكنّه كان مقرّ قيادة الجرذان!

- لقد وجدتُ مكانًا خاصًّا.

- رأس التمثال؟

- بالضبط.

- ولكنّه عالٍ جدًّا وأنت تعاني من الدوّار في الأمكنة العالية!

- إلّا إذا كان المكان مثبّتًا على الأرض.

- وكيف كنتَ تتغذّى؟

- كنتُ آكلُ الحمام والعصافير التي كانت تأتي لتضع بيضها. كما كنتُ أتغذّى على بيضها. منذ أن خُلِعَت النوافذ تحوّل رأس التمثال في الواقع إلى وكرٍ لمختلف الطيور.

- ولكنني رأيتُ الجرذان وهي تصعد إلى الأعلى لتحطيم الوجه البشري وتنصيب وجه تيمورلنك.

- حينما جاءت، صعدتُ أكثر إلى الأعلى وأقمتُ داخل لهب الشعلة في طرف الذراع الممدودة.

- يا إلهي! لقد كنتَ هناك في الأعلى عندما كنتُ أنا في الأسفل أراقب الجرذان التي تنصب قناع تيمورلنك.

- لقد شاهدتكِ. ولكن بالطبع لم أستطع الكشف عن نفسي.

- وبعد ذلك؟

- في اليوم التالي، رأيتكم تغادرون في موكبٍ نحو الشمال وأردتُ أن أنضمّ إليكم، ولكن كانت هناك جرذانٌ كثيرة على الطريق. كنتُ سأُقتَل قبل أن أصل إلى رتلكم. فبقيتُ أنتظرُ هنا. ثمّ ذات يوم، من مرقبي العالي، رأيتُ الصاروخ يصل وينغرز في سنترال بارك. بعد ذلك، غادرت الجرذان جميعًا المدينة سالكةً نفس الطريق الذي سلكتموه أثناء رحيلكم.

شرحتُ له:

- كانت تخشى أن ينفجر الصاروخ.

- تردّدتُ في اللحاق بها. ثمّ قلتُ لنفسي إنّكم في مواجهة هذا العدد الهائل من الجرذان لن تحظوا بأيّ فرصة في الانتصار، ولذلك قرّرت أن أعيش بمفردي في جزيرة الحرية وأنتظر. وفي النهاية نجوتُ من الجرذان بسبب خوفها من انفجار القنبلة. كنتُ أفكّر في أن أعيش هنا وحدي بقيّة أيام حياتي، إلى حين وصول مسيّرتيكما. رأيتكما تتقاتلان، فخرجتُ من مخبأي وتصرّفت.

- لقد أنقذتَ حياتي.

تلامسنا بخطمينا، وقبّلني بلسانه وعلى طريقة البشر. لطالما وجدتُ ذلك مثيرًا للاشمئزاز، ولكن بعد هنيهة، وربّما من جرّاء تأثّري بالبشر، استسلمتُ لذلك وانتهى بي الأمر إلى أن وجدتُ في ذلك شيئًا من اللذّة غير المعتادة. ولأننا كنّا وحدنا تحت تمثال الحرية، تعانقنا وقبّلنا بعضنا بعضًا لوقتٍ طويل.

ثمّ التقطنا أنفاسنا.

قال فيثاغورس بتذمّر:

- لقد فرّ تيمورلنك إذًا وسيتمكّن من إعادة تشكيل جيشٍ من الجرذان.

أجبته:

– كلا، لن يستطيع فعل ذلك، لأنّه يجهل المصيبة التي حلّت به.

– عن ماذا تتحدّثين، يا باستيت؟

– عن السلاح السرّي الذي استحدثتُه.

قطّب حاجبيه.

– ماذا حدث هناك في الشمال؟

– ربّما لا تزال المعركة مستمرّة حتى الآن ولكننا وجدنا سلاحًا جديدًا: فيروسٌ يُحدِثُ تحوّلًا في الحمض النووي المنقوص الأكسجين الثنائي. من الآن فصاعدًا، لن تفهم الجرذان المصابة به بعضها بعضًا، وبالتالي لن تعود قادرة على خوض الحرب بفاعليّة، لكونها لن تعود تستطيع تنسيق تحرّكاتها وجهودها.

– وهل انطلت هذه الخطّة على تيمورلنك؟

– لم يُدرك أنني طوّرتُ نوعًا جديدًا من الجرذان. لم يعد الأفراد يجيدون العيش في حياةٍ جماعية وباتوا محكومين بالعيش وحدهم مع الشعور بأنّ الآخرين لا يستطيعون فهمهم.

– في الواقع، أنتِ ابتكرتِ الآن الحرب النفسية...

– لقد نزعتُ الآن عن الجرذان مصدر قوّتها: تلاحمها عند كلّ محنة.

قرأتُ للمرّة الأولى شعورًا بالإعجاب الخالص في نظرة ذكري المفضّل.

انتظرتُ هذه اللحظة دهرًا.

كان يعدّني مغرورة واكتشفني أخيرًا... على حقيقتي: مَلِكة ذات رؤية.

قال:

– أنا... أحبّكِ.

– نعم، أعرف، وأنا أيضًا أحبّ نفسي.

هزّ رأسه.

– لقد سبق أن حكيتِ لي هذه النكتة.

– هذا لأنني أكتشف الآن الفكاهة المتكرّرة. يبدو أنّه حينما نحكي نكتةً

لمرّة واحدة، تكون مضحكة؛ ولكن إذا حكيناها مرّتين، لا تعود مضحكة؛ ولكن إذا حكيناها عشر مرّات، تعود وتصبح مضحكة من جديد، وبالتحديد بسبب تأثير هذا التكرار.

قال بمودّة:

– أنتِ تثيرين غضبي. تُريدين دائمًا أن تكون الكلمة الأخيرة لكِ. تُريدين دائمًا إيهام الآخرين بأنّ كلّ ما هو ناجحٌ يكون بالضرورة من تدبيركِ. تُريدين دائمًا أن تُجيّري كلّ شيءٍ لمجدكِ الشخصيّ.

– أعلم ذلك، وأنا أيضًا أنزعجُ في بعض الأحيان من نفسي.

– أنتِ مصابة بجنون العظمة.

– أنانية، أرى نفسي مركز الكون، مغرورة، متكبّرة... أعرف ذلك، لقد أخبرتني أسميرالدا أيضًا بذلك. حتى ابني يراني على أنني لا أُطاق.

تلامسنا بطرفي خطمينا بتواطؤٍ عذب.

– كيف حالهما؟

– أسميرالدا ماتت في سبيل إنقاذ حياتي. وابني يكرّس نفسه لشغفه المفضّل: القتل.

هزّ رأسه، غير راغبٍ في قول المزيد بشأن هاتين الشخصيتين.

مؤنِّبًا:

– هل ترغب في أن نستريح هنا قليلًا، فقط أنا وأنت؟

– غير بعيدٍ عن صاروخٍ نوويٍّ قد ينفجر بين لحظة وأخرى؟ بحضوره بهذا الشكل، الأمر مغرٍ بالفعل.

التقطتُ كرة جهاز الإرسال والاستقبال عبر البلوتوث الخاصّة بتيمورلنك وناولتُه إياها.

على الأقل، هذه الحركة الفاشلة خلال المعركة سوف تتيح لي استعادة هذا الكائن.

أخذ فيثاغورس الكرة ودسّها في مدخل فلاشة اليو إس بي في عينه الثالثة.

ثمّ أقبل نحوي ومن جديد ضمّني بشدّة إليه.

ها قد أصبحنا متّصلين عبر ذهنينا.

شعرتُ بقلبي كأنّه ضوءٌ يومض وفق إيقاعٍ يتزايد سرعةً.
تزامنت نبضات قلبينا.
تراءى لي ذهني مثل سحابة كروية، قطنية وفضّية، تموج وسط جمجمتي.
إذًا، هذه هي أنا.
شعرتُ بأنّ فيثاغورس أيضًا تراءى لنفسه مثل سحابةٍ رمادية مفضّضة.
فإذًا، هذا هو نفسه.
التحمت السحابتان الصغيرتان لتشكّلا معًا سحابة كبيرة رماديّة مفضّضة.
هذا هو الانصهار التامّ للأنا مع الخارج.
أهو «التواصل المطلق»؟

تباطأ خفقان قلبينا في حين اتّسعت هذه السحابة وامتدّت وأصبحت قرصًا. وكلّما امتدّت أكثر، شعر وعينا المتّحد بالفضاء المحيط بنا أكثر.

شكّل ذهنانا غشاءً رقيقًا واسعًا، رقيقًا جدًّا بحيث شكّل ما يشبه غشاءً مُستقبِلًا.

تلقّينا الموجات التي جاءت من بعيد والتقت عندنا. الملايين من الكائنات الحيّة من كلّ الأحجام، من كلّ الأشكال ارتعشت، وتنفّست وفكّرت وتكلّمت بلغاتها الخاصّة وجعلتنا نهتزّ.

واصل قلبانا الخفقان في انسجامٍ مع الضوء الذي أنار السحابة بشكلٍ متقطّع.
راودتنا نفس الفكرة في نفس اللحظة.
لا حدود جسدية لنا.
جسدنا ليس سِوى الغلاف المؤقّت لعقلنا.
ولكن ليس لعقولنا حدودٌ ويمكنهما الانصهار بعضها في بعض.
يمكن لأحدنا أن يذوب في الآخر لكي نتسامى.

هذا هو الحبّ الحقيقي: أن ينسى أحدنا نفسه تمامًا ويصبح قبل كلّ شيء الذات الأخرى، ثمّ يوسّع السحابة لتغدو ذواتًا أخرى عديدة، ثمّ كلّ الذوات الأخرى.

بل الذهاب إلى أبعد من ذلك بكثير: أن نتّصل بكلّ بني جنسنا، ثمّ بكلّ الحيوانات التي تحيط بنا، وبكلّ منْ يحيا.

نتّصل بذهن المحيط الحيوي لكوكبنا.
ثمّ نتّصل بذهن الكون برمّته.
وبذلك نبلغ الخلود، لأننا لا نعود أسرى أيّ غلاف.
نتحرّر من الزمان والمكان.
نصبح الكون وكلّ مكوّناته.
وعليه، فإنّ «أنا» القديمة المقتصرة على جسد باستيت ليست سوى تعبيرٍ ضئيلٍ ومحدودٍ للغاية عن هذه الطاقة.
تعبير ضئيل عن هذا الإشراق غير المحدود.

66. الإلهة المصرية باستيت

في الأسطورة المصرية، كانت باستيت إلهة ذات مزايا خاصّة جدًّا. وهي ابنة إله الشمس رع، كانت تُصوّر على شكل قطّة أو امرأة لها رأس قطّة. في الأصل، كانت إلهة محاربة يرتعد لنوبات غضبها الرجال. ولكنّها خضعت لتحوّلٍ جعلها مسالمة، وديعة، محبّة للموسيقى والرقص. كانت إلهة خصوبة النساء وحامية الحوامل والولادات. كما كانوا يصلّون لها لكي تحميهم من أوبئة الطاعون.

في غالبية المنحوتات التي تتناول وجودها، تظهر مرتدية ثوبًا طويلًا موشّى بصدرية مقوّرة بشكل نصف دائري عليها صورة رأس لبوة. تحمل سلّة في ذراعها اليسرى وآلة موسيقية، وعلى وجه التحديد آلة سيستروم، في ذراعها اليمنى. بدأت عبادتها قبل عصرنا بثلاثة آلاف سنة ولكنّها عرفت ذروتها نحو عام 950 قبل الميلاد. يذكر هيرودوت أنّ أكثر من سبعمئة ألف شخصٍ كانوا يتوافدون كلّ عام، عند فيضان نهر النيل، للاحتفال بالإلهة في معبد بوباستيس («باست» مثل باستيت) المكرّس لها. وكان الاحتفال مناسبة للرقص والموسيقى واحتساء المشروبات والعربدة وسط القطط، الحيّة أو المحنّطة.

وكانت لدى باستيت معابد مخصّصة في ممفيس وطيبة وهليوبوليس

وليونتوبوليس. كانت كلّ النساء الراغبات في إنجاب طفلٍ يحملن تمائم تضمّ رسمًا لباستيت أو صلاةً لها.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

67. بعد العاصفة

مرّ شهرٌ كامل.

لم تعد الجرذان إلى الظهور، ولم نسمع أيّ أخبارٍ عن تيمورلنك. أُعيدت الحياة إلى مدينة نيويورك من قبل جماعة البشر والقطط الناجين من معركة بوسطن داياميكس. نُظِّفَت الشوارع. ونُزِع صاروخ مينتمان من أرض سنترال بارك، ثمّ فُكِّكَ وأُرسِلَ في قطعٍ إلى مكبٍّ بعيدٍ للنفايات.

اجتمع الجميع في المبنى القديم لمنظمة الأمم المتّحدة. وسيكون هذا اليوم عظيمًا لأننا سوف ننتخب الرئيسة الجديدة أو الرئيس الجديد للمجلس.

من بين المرشّحين، كان هناك:

1. هيلاري كلينتون، الطامحة إلى إعادة انتخابها لولايةٍ ثانية. تقدّمت بترشيحها كممثّلة لقبيلة النسويات. واقترحت في برنامجها الانتخابي إعادة منح السلطة للنساء لأنّهنّ، على حدّ زعمها، أفضل ضامناتٍ للسلام. وقد ركّزت في خطابها على حقيقة أنّه في ظلّ ولايتها هي طُرِدَت الجرذان من نيويورك.

2. ترشّح الجنرال غرانت ممثّلًا عن قبيلة العسكر. اعتبر أنّه لا بدّ قبل كلّ شيء من ضمان النظام والأمن. وزعم أنّه يريد إيلاء الأهمية الأولى للبحث عن أسلحة كي لا يكون هناك مرّة أخرى غزوٌ تشنّه الجرذان أو أيّ نوعٍ آخر من الغزاة الأجانب. وأشار إلى أنّ الجرذان قادرة على العودة وأنّه من الضروري الحصول على سلاحٍ قويٍّ لشن الحرب عليها أو مواجهتها مثلما أجاد فعل ذلك في بوسطن. هو الآخر نسب النصر لنفسه.

3. ترشّح مارك رايبيرت عن قبيلة خبراء صناعة الروبوتات. وتمنّى أن

يجري الاستثمار في جيشٍ من الروبوتات وأن يُستَفاد بنسبة مئة بالمئة من الإنترنت الذي أُعيد إصلاحه في سبيل إعادة الاتصال بين جميع المجتمعات البشرية في العالم. على حدّ زعمه، عُثر الآن على مصدرٍ للمواد الأوليّة ولن يعود بوسع أيّ شيءٍ منع إنتاج روبوتات الكاتز على نطاقٍ واسعٍ التي سوف تقوم بوظيفة الحماية والدفاع بدل الكائنات الحيّة. كما قدّم مشروعًا لصناعة روبوت كاتز 008، الأكثر تطوّرًا وكفاءةً، الذي لا يتطلّب سِوى تخصيص استثمارٍ محدودٍ في البحث وفي المواد الأوّلية.

4. ترشّح شوفال فوغو عن الأمريكيين الهنود، وقد كافح في سبيل إيقاف عجلة التطوّر وتخفيض عدد البشر وتقليل الاستهلاك. اقترح تشكيل فيدرالية للقبائل المشتّتة على الأرض والتي سوف تتواصل باستمرار عير الإنترنت (أو عبر سُحب الدخان إذا ما حدث وتعطّل الإنترنت من جديد).

5. ترشّحت إديث غولدستاين عن قبيلة أنصار حماية البيئة. وقد أيّدت تحسين النوع البشري بفضل تقنية تحسين النسل لكي يكون أكثر ملاءمةً للعالم المعاصر. وعبّرت عن اعتقادها بأنّ نموذج **الإنسان العاقل** قد أصبح باليًا وانقضى عصره وأنّ الانهيار الكبير للحضارة البشرية هو علامة على أنّه يجب تطوير كائنٍ بشريٍّ جديد.

6. ترشّح رومان ويلز عن روّاد الفضاء. وعبّر عن اعتقاده بأنّه لا بدّ من مغادرة كوكب الأرض. واعتقد أنّه يجب، في المرحلة الأولى، بناء مستوطنة على القمر. وهناك، سوف توضع المعرفة البشرية في حواسيب، بمنأى عن كلّ خطر. ومن ثمّ، انطلاقًا من المستوطنة القمرية، سوف تُطلق رحلة استكشافية إلى المريخ. ثمّ من المريخ إلى المشتري. وهكذا وصولًا إلى الخروج من النظام الشمسي لإيجاد كوكب معتدل في مجرة أخرى.

7. ودعا قسٌّ إنجيليٌّ مورموني، وهو الأب يواكيم، إلى العودة إلى القيم القديمة. وهو يعتقد أنّ الجرذان عقابٌ من الربّ لأنّ الإنسان ضلّ وأوغل في الخطيئة، وخاصّة تعاطي الكحول والمخدِّرات والجنس والمال. وطالب بالتخلّي عن التقنيات الحديثة وعن القيم المادية لتنمية حياة روحية، منصبّة على الزراعة والصلاة.

علاوة على ذلك، أدركتُ أنّ هذه البرامج السبعة قد أُدرِجَت في موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق الشاملة على أنّها الإدارات السبع المحتمَلة لمستقبل البشرية مثلما كان يراها إدمون ويلز في عصره. كان يسمّي هذه المشاريع في بعض الأحيان بطريقة مختلفة، ولكنّه حدّد الرأسماليين والمتدينين والنسويين، والتقنيين، والبيولوجيين، والهابطين والمنهزمين.

إذًا، هل هكذا ستكون صور المستقبل السبع المتخيّلة من قبل البشر. فجأةً، أخذتُ نفسًا عميقًا، وبعدما عرض كلّ المرشحين برامجهم، طلبتُ من ناتالي أن تحملني على كتفها وتأخذني إلى المنصّة.

وهذه المرّة، لم ألقَ أيّ صعوبة في لفت انتباه الحاضرين وإصغائهم إليّ.

فالجميع يعلمون ما الذي أنجزتُه.

وهنا ألقيتُ خطابي.

– أيّها البشر، ذكورًا وإناثًا، أيّها القِطَطَة والقِطَط. سأضيف ترشيحي كممثّلة ليس فقط عن القطط ولا حتى عن غير البشر فحسب، بل وكمدافعة عن الكوكب. مثلما تعلمون جميعًا، إذا كنّا نجتمع الآن هنا، فهذا بفضلِ شخصٍ وحيدٍ فقط. وهو أنا. أنا منْ تفاوضتُ بشأن الهجرة وبالتالي إنقاذ آخر أربعين ألفًا من سكان نيويورك، وأنا من طرحتُ فكرة إشراك إديث غولدستاين من أجل إنجاز مشروع بابل، وأخيرًا أنا منْ قاتلت وطردت عدوّنا الرئيسي، إمبراطور الجرذان، تيمورلنك.

صمتُّ قليلًا.

كنتُ آملُ أن يصفّقوا لذكرى إنجازاتي، ولكن بما أنّ التصفيق لم يحدث، خاب أملي بعض الشيء وأطلقتُ تنهيدةً محبطة ثمّ استأنفتُ رغم ذلك خطابي.

– ما أقترحه عليكم هو عدم التفكير بعد الآن كقبيلة ولا كبشرية ولا كنوع وإنّما التفكير على نطاقٍ أوسع «كمحيط حيوي لكوكب الأرض». وبهذا أتعهّدُ لكم، إن صوّتّم لي، بالدفاع ليس عن نوعٍ واحد بل كلّ الأنواع. وبهذا سوف نخلق انسجامًا يمنع رغبة مجموعة ما في الهيمنة على مجموعة أخرى. وسوف نكون جميعًا ضمن هذا الترابط الكوني الجديد. وسوف ندرك جميعًا

أنّه حينما نُسيءُ إلى شكلٍ من أشكال الحياة، فإنّ هذا الشكل سوف ينتقم لنفسه في النهاية بطريقةٍ أو بأخرى. لقد قرأتُ الكثير من الأمور في الموسوعة وتوصّلتُ في النهاية إلى فهم الروابط بين كلّ أشكال الحياة. حينما نربّي الدواجن في المزارع، يجد فيروس إنفلونزا الطيور الظروف الملائمة للنمو ويُصيب الإنسان؛ وحينما نسيء معاملة الثيران من خلال تسمينها السريع، تنتج داء البريون؛ وحينما نقتل الخفافيش، أو آكلي النمل الحرشفية أو الثعابين في الأسواق الصينية، فإنّ هذه التجارة تولّد فيروس الكورونا. حينما تتقلّص زراعتنا إلى مختلف الزراعات الأحادية المحصول، تؤدي المنتوجات المستخدمة إلى ظهور غزوات سحبٍ من الجراد؛ حينما يتكثّف الصيد، تتكاثر قناديل البحر. حينما ندمّر الغابات، نُزيد من نسب انبعاث غاز الكربون في الجوّ ونفسد البيئة. حينما نستخرج النفط، تحدث زلازل. كلّ الأشياء مرتبطة بعضا ببعض. لكلّ فعلٍ نتيجة. إذا لم نغيّر طريقة عيشنا معًا، من كلّ بدّ سوف تحاول حيوانات أخرى غير الجرذان غزونا. قد تكون الصراصير، وقد تكون الحمائم، بل حتّى في المجال النباتي مثل أشجار الأيلنط، هذا الجنس من الأشجار الغازية التي يوثّر عملها الافتراسي على جميع النباتات الأخرى.

هاج ممثّلو القبائل وشرعوا في التحدّث فيما بينهم. فهم لا يعلمون حتى ما هي أشجار الأيلنط.

رفع أحدهم يده.

– ماذا تقترحين بشكلٍ ملموس، يا باستيت؟

– أقترحُ قبل كلّ شيء تجديد ممثّلي هذا المجلس. أنا كنتُ أوّل سياسية من غير البشر، أي أنني رائدة في هذا المجال، وأقترحُ، إن انتخبتموني رئيسةً، إدخالًا تدريجيًا لأنواعٍ أخرى، بطريقة تشبه إلى حدّ ما إضافة الزيت لإعداد المايونيز (وهذه الصورة سوف تؤثّر في منْ يحبّون الطبخ). في البداية، سوف نضيف ممثلي الكلاب، ثمّ الطيور، والأسماك، والحشرات. وبعد ذلك، وتدريجيًا، سوف نشكّل شيئًا أوسع تمثيلًا وأكثر عدالةً لكلّ الكائنات الحيّة. وربّما ينبغي لنا القبول بممثّلٍ للنباتات، إذا ما نجح رومان في إعطائها جهازًا إلكترونيًا يمكنها التعبير عن نفسها من خلاله.

تعالت ضحكاتٌ في القاعة.

يعتقدون أنني أمزح.

تابعتُ:

– ولكنّ البشر، لكونهم النوع الأقوى، سوف يظلّون رغم كلّ شيء هم الأغلبية في البداية، لأنّهم الآن يمتلكون المقدرة الأكبر على التأثير في البيئة. إذا ما صوّتّم لي، أتعهّد لكم كقطّة بضمان أمن جميع بشر الكوكب.

من جديد، دبّت همهمات وهمساتٌ بين الحضور.

ثمّ رفع أحدهم يده.

– عندما تتحدّثين عن الإدخال التدريجي لممثلي كلّ أجناس الحيوانات، هل تفكّرين أيضًا... في الجرذان؟

هذا هو السؤال الفخّ الذي كنتُ أخشاه.

تنهّدتُ تنهيدة عميقة.

– ربّما، ولكن ليس في الحال. لن نأخذ بالطبع سِوى الأنواع التي تحترم الأنواع الأخرى والتي تنبذ العنف كوسيلة للسيطرة. إذا وافقت بعض الجرذان «الذكيّة» على دستورنا الأرضي، حينئذٍ، نعم، لمَ لا. سوف نمنحها مقعدًا، ولكن بنفس صفة الأرانب أو الخلدان أو السناجب أو القنافذ أو الخفافيش. أعتقدُ أنّ الانسجام العالمي الشامل لا ينبغي له أن يشوبه أيّ استثناء، ولهذا السبب لن نرفض أيّ نوعٍ بذريعة أنّه قد يكون «عدوانيًّا» بحسب معايير البشر. وبالتالي سوف يكون هناك ممثلو البعوض والذباب والحشرات وأسماك القرش والضباع والغربان.

ضجّت القاعة مرّة أخرى بعض الشيء. انتظرتُ إلى حين عودة الهدوء ثمّ استأنفتُ خطابي:

– ليست هناك حيوانات «شريرة»، ليست هناك سِوى حيوانات تقبل أو ترفض انسجام النظام البيئي العالمي الشامل.

طرح ممثّل الهيبيين سؤالًا:

– إذًا، على المدى المتوسّط، هل تريديننا أن نتخلّى أيضًا عن «أكل» الأنواع الأخرى؟ هل تطلبين منّا أن نصبح نباتيين؟

– لا أعرف ما الذي تعنيه بهذه العبارة، ولكن إذا كان المقصود الكفّ عن أخذ جلد الأبقار لصناعة الأحذية منه، والكفّ عن وضع الخنازير في حظائر مغلقة ولا التغذّي قسرًا بلحوم الطيور من أجل إعداد وجبات كبد الأوزّ، نعم، أنا في الحقيقة من أنصار طريقة مختلفة في التغذّي. واعلموا أنّ هذا يكلّفني الكثير مثلما يكلّف نوعي الذي يُعدّ من آكلي اللحم بصرامة. بيد أنّني أعتمد على أديت غولدستاين والبيولوجيين لاكتشاف مصادر للبروتينات التي لا تعود تُستخرَج من... ما يجب أن نسمّيها في الحقيقة... الجثث.

ومن جديد، تصاعدت جلبة معارِضة في القاعة. ربّما سأفشل من خلال اصطدامي بالشراهة الطبيعية عند البشر.

أشعرُ بأنّهم ليسوا مستعدين للتخلّي عن وجباتهم من الهمبرغر في سبيل الوئام العامّ.

يجب أن أجد صيغة تلخّص فكرتي.

– إذا ما صوَّتُّم لمصلحتي لأصبح رئيسةً لهذا المجلس، فسوف أفعل كلّ شيء لكي تعيشوا، لكي نعيش، لكي يعيش أطفالنا في عالمٍ يسوده السلام والهدوء، حيث لن تعود هناك حاجة لخوض الحرب، لأنّنا سوف نتواصل جميعًا بطريقة سلسة. سوف أتّخذ التدابير الضرورية لكي تكون جميع الكائنات الحيّة في وئامٍ وانسجامٍ مع كوكبها.

شعرتُ هذه المرّة بأنّ هناك نوعًا من التجاوب الإيجابي. هزّ بعض البشر رؤوسهم. وابتسم بعضهم لي.

أعتقدُ أنّهم أخيرًا فهموا فكرتي.

فسمحتُ لنفسي أن أوضّح:

– ثمّ إنّني، في حال صوَّتُّم لي، أودّ أن أنزع القناع الشنيع لتيمورلنك الموضوع كوجهٍ لتمثال الحرّية لكي أستبدل به وجهَ القطّة أسميرالدا التي أظهرت في النهاية شجاعتها وروح التضحية لديها. نعم، لا أُريدُ أن أضع وجهي أنا، بل وجهها هي.

أعتقدُ أنني مدينة لها فعلًا بهذا.

أعلنت هيلاري كلينتون:

– حسنًا، الآن وقد عبّر الجميع عن آرائهم، يمكننا إجراء التصويت. وقبل كلّ شيء، أعتقدُ أنّنا نستطيع أن نبدأ مع باستيت بالتحديد. منْ يُصوّت للبرنامج المعروض من قبل ممثّلة قبيلة القطط...

فرأيتُ يدين مرفوعتين، من بين الممثّلين الثلاثمئة والثلاثة.

نلتُ إذًا ثلاثة أصوات، لأنني أيضًا صوتٌ لنفسي، بالطبع.

وبعد ذلك نال المرشّحون الآخرون على التوالي: أربعة أصوات لهيلاري كلينتون؛ خمسة أصوات لإديث غولدستاين؛ سبعة أصوات لشوفال فوغو؛ ثمانية أصوات لرومان ويلز؛ أربعة عشر صوتًا لمارك رايبيرت؛ ثمانية عشر صوتًا للأب يواكيم؛ وأخيرًا خمسة وأربعون صوتًا للجنرال غرانت.

أعلنت الرئيسة السابقة، وهي تداري كبرياءها:

– إذًا، الجنرال غرانت هو من سيكون رئيسنا الجديد. يمكننا جميعًا أن نصفّق له.

أمّا أنا فقد شقّ عليّ القبول بالأمر. أرسل إليّ فيثاغورس بأذنه إشارةَ دعمٍ ومساندة.

كان يشكّ في النتيجة، ولكنّه لم يشأ أن يوقفني عن السير في ترشّحي.

ورغم النتيجة المخيّبة، كنتُ أشعر بأنّ برنامجي طرحٌ منطقيٌّ.

إذًا سوف يعاود البشر ارتكاب نفس الأخطاء إلى أن يدركوا في النهاية أنّ تكرار التجارب نفسها تؤدّي إلى النتائج نفسها.

لم يصغوا إلى مضمون برنامجي.

حكموا عليّ من خلال مظهري، أو بالأحرى من خلال انتمائي الإثني.

في الواقع، استهانوا بكلّ البرامج، وصوّتوا فقط وفق رمزية الشخص.

عسكريٌّ يتحدّث عن الأمن.

أُصبتُ فعلًا بالإحباط. في الواقع، كنتُ مقتنعة حقًّا بأنني سوف أُنتَخَب.

أنا أعرفهم، سوف يُعيدون الآن كتابة التاريخ مبرزين دور الجنرال غرانت. سوف يكون هو من نجح في طرد الجرذان من مانهاتن وتشكيل حكومة جديدة مكلّفة بخلق عالم المستقبل. سوف يُنسَب إليه هو الانتصار في معركة بوسطن. وأنا... حسنًا، سوف يُنسى تدريجيًّا كلّ ما فعلت.

أدركتُ أكثر من أيّ وقتٍ مضى الأهمية القصوى لمقترح ناتالي: طالما لم أطرح نسختي المكتوبة عمّا حدث، فلن تكون هناك أهميةٌ تُذكَر لكلّ ما أنجزتُ، وسوف تضيع أفكاري كلّها، ولن يُعَدّ فكر القطط إلّا فكر حيوانٍ أدنى يحاول تقليد فكر البشر.

حتى ذكرياتي سوف تزول تدريجيًّا وتُنسى.

قفزتُ إلى كتف ناتالي وهمستُ في أذنها:

– لقد أقنعتِني. لقد فشلتُ في التواصل الشفهي وبالتالي ينبغي لي أن أجرّب التواصل الكتابي. عليّ من كلّ بد أن أروي قصّتي، حتى تطّلعَ عليها أجيال المستقبل. كوني كاتبتي الخاصّة.

68. الإله المصري توت

بالنسبة إلى المصريين القدماء، كان الإله توت هو أوّل كاتب. هو من ابتكر اللغة ومن ثمّ خلق العالم من خلال الكلام. وكان يُصوّر برأس طائر أبو منجل ذي الريش الأسود.

وطالما لا تُنطَقُ الكلمات، لا تكون الكائنات أو الحيوانات أو النصب التَذْكارية موجودة بالفعل. وبعد ذلك، اخترع توت، المكتفي بهذا التطوّر الأوّل، الكتابة.

وقد أصبح إله كلّ الكتبة الذين جاءوا من بعده. وكان أيضًا حارس الحكمة والمعرفة. في الأسطورة المصرية، عندما فقد حورس عينه في معركته ضدّ أخيه شيث، كان توت هو من أعادها إليه. هذه العين، عين حورس، تمثّل انتصار النظام على الفوضى. وهذا النظام لا يمكن أن يكون إلا إذا نُقِل فيما بعد من خلال كتابته في نصّ.

موسُوعة العلم النسبيّ والمُطلق.

المُجلّد الرابع عشر.

69. الخاتمة

إذًا، ها هي، صغاري الأعزّاء، وربّما البشر الأعزّاء (إذا ما ظلّ هناك مَنْ يقرأ ذات يوم هذا النصّ، منْ يدري...)، حكايتي منذ اللحظة التي كنتُ فيها قطّة منزلية عادية وحتى اللحظة التي أنقذتُ فيها البشرية وكدتُ أصبح رئيسة مجلس ليس فقط قبائل نيويورك بل كلّ من يعيش على الأرض.

ماذا يمكن أن أقول أكثر من هذا؟

حسنًا، لقد فشلتُ في مشروعي لحكم العالم ولكنني سوف أنجح ذات يوم، لأنّ الزمن يلعب بالضرورة لمصلحة الذين يفكّرون مثلي.

سوف نُقادُ جميعًا، أو نُرغَم على التواصل. سوف نُرغَمُ على أن نقبل بعضنا بعضًا كما نحن، أيًّا كان نوعنا عند الولادة.

بالإضافة إلى ذلك، أعتقدُ أنّكم، أنتم أيضًا، يمكنكم الخروج من حياتكم الضيّقة لكي تصبحوا، مثلي أنا، أشخاصًا لهم طموحات نبيلة.

حَسْبُ المرء ثقتُه بنفسه.

يكفينا أن ندرك الكون الذي يتردّد صداه في أذهاننا (حتى وإن كنتم ربّما لا تحظون مثلي بفرصة امتلاك اسم إلهة مصرية التي أصبحت بالنسبة إليّ دليل الطريق الذي ينبغي سلوكه).

اليوم، أُجيد القراءة إجادة تامّة، ولكنني لا أزال لا أُجيد الكتابة. يبدو لي هذا التدريب المهني طويلًا ومضجرًا. ومن بين مثالبي، كما تعلمون، عدم التحلّي بالصبر.

– هل دوّنتِ كلّ شيء تدوينًا جيّدًا، يا ناتالي؟

– نعم، يا باستيت، لقد سجّلتُ سردكِ الموائي في هاتفي الذكيّ وسوف أحوّله إلى نصٍّ مكتوبٍ على طريقة البشر لكي يستطيع الجميع قراءته.

– شكرًا، خادمتي.

حسنًا، مثلما رأيتم، لقد قسّمتُ قصّة حياتي بين ثلاث فترات لكتابة ثلاثة أعمال منفصلة.

يتناول العمل الأوّل، *القطط غدًا*، ماضيَّ ولقائي مع فيثاغورس، الذي ثقّفني بشأن التاريخ والعلم، وتأسيس أوّل مجتمعٍ للقطط والبشر، بفضلي أنا، متضامنٍ ومتكاتفٍ في جزيرة البجع.

ويروي العمل الثاني، *مَلِكة القطط*، كيف أقمنا بعد ذلك مجتمعًا أوسع نطاقًا في جزيرة المدينة، وكيف حصلتُ أنا بنفسي على عينٍ ثالثة واستطعتُ بذلك الوصول إلى كلّ معارف البشر والتواصل معهم.

ويكشف العمل الثالث، *كوكب القطط*، كيف نجونا بعد أن عبرنا المحيط الأطلسي، وكيف استطعنا، بعد «مغامرات» عديدة، أن نقهر في النهاية تيمورلنك.

كلّما فكّرتُ أكثر، دار في خلدي أنّ بعد هذه المذكّرات التي تتحدّث عن الماضي، عليّ أن أتصوّر المستقبل.

– إنّ مَلِكة حقيقية لا بدّ أن تكون أيضًا نبيّةً، مثلما علّمتِني ذلك، يا ناتالي.

أجابت:

– لا أزال مقتنعة بذلك.

إذًا، إذا كنّا لا نريدُ عودة تيمورلنك، فأعتقدُ أنّه سيكون علينا تثقيف الجميع، بما في ذلك الجرذان.

ربّما مثلما فعلتُ مع بولس: إقناع بعض الجرذان لكي تغيّر ذهنيتها وتثقّف جرذانًا أخرى.

الحاجة إلى المعرفة فيروسٌ مُعدٍ. حينما نُدرك أهمية التثقيف ونراه عند الآخرين، نرغب في الاستفادة منه بأنفسنا.

ولذلك أتخيّل «مستقبل القطط» هذا الذي سوف أعمل تدريجيًّا على تأمينه.

بعد وصولي إلى السلطة، وبعد أن أنشر وسط جميع القطط كلّ عناصر المعرفة البشرية، سوف تكون هناك ثورة تكنولوجية. سوف يكون علينا اختراع سياراتٍ للقطط، وطائراتٍ خاصّة بالقطط، وصواريخ خاصّة بالقطط.

وفيما يتعلّق بأمور الحياة اليومية: سوف ننشئ مطاعمَ خاصّة بالقطط، ودورَ سينما خاصّة بالقطط، وحواسيبَ خاصّة بالقطط.

وربّما ننتقل من نظام السير على أربع قوائم إلى نظام السير على قدمين.
وربّما ننتعل أحذيةً.

وربّما نرتدي ألبسة.

وربّما نسعى إلى توسيع نمط استهلاكنا الغذائي. أعتقدُ أنّنا نستطيع، نحن أيضًا، أن نصبح من الحيوانات القارتة التي تأكل اللحوم والنباتات. وإذا لم ننجح في ذلك، فسوف أطلب من إديث غولدستاين أن تجري تعديلًا طفيفًا على حمضنا النووي المنقوص الأكسجين الثنائي باستخدام ذلك المقصّ الذي يُدعى كريسبر، للحصول على هذه النتيجة.

كما أتطلّع إلى نشر العملية الجراحية لزرعِ عينٍ ثالثة على أوسع نطاقٍ. وقبل الجميع، أزرعها لابني، ثمّ لأحد أصدقائي من القطط، وبعد ذلك لجميع القطط.

وبهذه الطريقة، نصبح جميعًا على اتصالٍ فيما بيننا.

بعد ذلك، سوف أحكم وأعدّ الكرة الأرضية للعيش أخيرًا في انسجامٍ ووئامٍ حقيقيين.

وحينئذٍ، سوف يحظى كلٌّ منكم، وكذلك أجيال المستقبل، بما تمنّيتُه على الدوام، وما يمكننا إيجازه في جملة واحدة: **الحضارة القططية.**

النهاية



بطاقات شكر

إلى أميلي أندريو، فانيسا بيتون، جوناثان فيربير، فيفيان بيريه، سيلفان تيمسي، جيريمي غيرينو، جيل مالينسون، فانسان باغيان، باتريك بود، فرانك فيران، سيباستيان تيسكيه، ميلاني لاجواني، لاتيسيا بارلوران، (الاختصاصية في لغة الحيوانات)، جان إيف غوشيه (مخترع العلاج بالخرخرة).

إلى محرّرة أعمالي كارولين ريبول وكلّ فرق التحرير في دار آلبان ميشيل التي تساعدني وتساندني في كلّ رواية جديدة.

وبالطبع إلى محرّري أعمالي منذ البداية: ريشار دوكوسيه وفرانسيس إسمينار وجيل هيري.

الموسيقى التي كنتُ أسمعها
خلال كتابة هذه الرواية

يوهان سيباستيان باخ، *كونشيرتو على البيانو وأوركسترا*، رقم 1 في سلم ري الصغير، *وتوكاتا وفيوغ في سلم ري الصغير*.

فرقة ليد زيبلين، «سلم إلى السماء» و«كشمير».

فولفغانغ أماديوس موتسارت، *قدّاس الموت*.

شارل جونو، «آفي ماريا».

أيه سي / دي سي، «مصعوق».

وودكيد، «حديد» و«بركان» من ألبوم *العصر الذهبي*.

الموسيقى التصويرية لفيلم *برتقالة آلية*: والتر كارلوس، روسيني، بيتهوفن.

أنطونيو فيفالدي، *الفصول الأربعة*.

كالاس «كاستا ديفا»، في معزوفة *نورما* للمؤلّفين فينسينزو بيلليني وبيتر غابرييل، «بيردايس فلايت» المأخوذة من ألبوم *بيرداي*.

الموسيقى التصويرية لفيلم بينجمي (*بين النجوم*) للمؤلّف الموسيقي هانز زيمر.

فهرست

وأنا، مثلما تعرفونني، أكره الماء، ولا أحبّ أن أرى وبري مبلّلاً ولا أحبّ السباحة. فما بالكم أن يكون ذلك وسط الجرذان.

تشبّث أحدها بي وجرّني نحو الأسفل. ابتلعتُ قليلاً من ذلك السائل الفظيع الذي سقطتُ وسطه والذي شعرتُ بأنّ ماءَه شديد الملوحة، على العكس من مياه النهر الذي غصتُ فيه للمرّة الأولى. تخبّطتُ وأحدث ذلك تناثر الكثير من الرذاذ. وقد حالفني الحظّ في أنّ الجرذان كانت أقلّ قدرة على خوض المعركة في المياه بالفاعلية نفسها التي تخوضها على الأرض اليابسة.

وإذ رفضتُ الاستسلام للهزيمة بسهولة، رفستُ بقوائمي بقوّة في حين كانت أنيابها قد انغرزت في كتفي وظهري.

تلوّنت المياه من حولي بلونٍ ورديٍّ غامق من جرّاء دماء الجرذان التي قتلتُها ولكن أيضاً بسبب الدم الذي سال من جروحي.



بكلّ صراحة، لا أتمنى أن أراكم في الموقف الذي وجدتُ نفسي فيه، وأنا أغوص في المياه الباردة والمالحة، محاطةً بالمئات من الجرذان الشرسة التي تجيد السباحة على نحوٍ أفضل منكم.

ولكي أبثّ الخوف في قلوبها، مؤتُ بقوّة من دون أن أحصل على نتيجة حاسمة لذلك. فالمواء، كما تعلمون جيّداً، هو مسألة نبرة الصوت: فإذا ما ماء أحدنا من دون اقتناع، ينكشف ذلك في الحال.

والصرخة التي تُظهِرُ بعض الهشاشة لا تُثير الرعب بل على العكس تماماً، يكون لها تأثيرٌ عكسي.

من دون أن أكون انهزاميةً، لم أرَ كيف يمكنني النجاة من هذه المواجهة، وإذ أدركتُ أنني سأموتُ لا محالةً، قرّرتُ أن أجعل الجرذان تدفع ثمناً غالياً لقاء قضائها عليّ. عضّ جرذٌ قائمتي وآلمني أشدّ إيلام. وغرز آخر أنيابه في ذيلي، في حين خدش ثالثٌ ظهري. صَعُبَ عليّ أن أحمي نفسي لأنّ عددها كان كبيراً جدّاً. أمسك بي جرذٌ آخر بقائمته ذات الأصابع المفصلية الأربع وأبقى رأسي تحت سطح الماء.


9 789933 655990